جميلة معاشي

الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري

(من القرن 10 هـ (16م) إلى 13 هـ (19)م

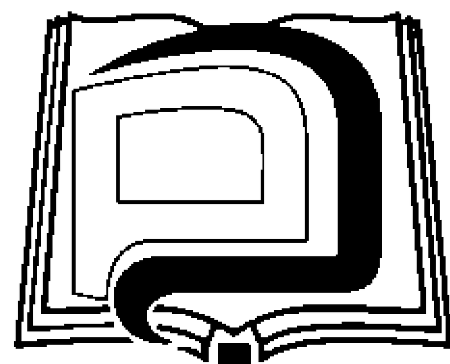


ديوان المطبوعات الجامعية

د.جميلة معاشي
جامعة قسنطينة 2

الأسر المحلية الحاكمة
في
بايلك الشرق الجزائري

من القرن 10هـ (16 م) إلى 13 هـ (19 م)



ديوان المطبوعات الجامعية

رقم النشر: 4.07.5541
رقم ر.د.م.ك(ISBN): 978-9961-0-1787-6
رقم الإيداع القانوني:2014-3369

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى

طلبة التاريخ أهدي هذا الكتاب

المقدمة:

تميزت السياسة العثمانية في الولايات العربية، ولا سيما في المغرب العربي بالمرونة تجاه القيادات المحلية، وهو الأمر الذي جعل عددا كبيرا من الأسر المحلية الإقطاعية تحافظ على نفوذها بالبلاد طيلة الحكم العثماني، ذلك أن العثمانيين لم يضعوا لحكمهم تقاليد خاصة في تسيير شؤون المجتمع في هذه الولايات، بل اتبعوا سياسة تبني ما وجدوه قائما من نُظم وقوانين محلية. ولاشك أن افتقارهم إلى حضارة عريقة جعلهم يتأثرون بمختلف الحضارات العالمية ولا سيما الحضارة السلجوقية التي اعتمدت أساسا على العنصر المحلي في حكمها للأناضول مركز انطلاق الفتوحات العثمانية[1]. ومن هنا جاءت سياسة المحافظة على الوضع القديم بالولايات العربية، فكانت "حجر الزاوية في الإدارة العثمانية والسبب الأول في استمرار نفوذ العثمانيين في البلاد العربية قرونا طويلة"[2].

والمحافظة على الوضع القديم بالولايات يعني عدم التدخل في الشؤون الداخلية للرعية واحترام القوانين السائدة بين القبائل والأسر النفوذية، وبالتالي الاكتفاء بالسيادة الرسمية للحكام العثمانيين على البلاد واحترام الزعامات المحلية التي توارثتها الأسر الإقطاعية الكبرى بالولاية، وهي التي أطلقنا عليها في هذه الدراسة مصطلح الأسر المحلية الحاكمة.[3] وقد طُبقت هذه السياسة من طرف العثمانيين بمختلف الولايات العربية[4] ومنها الجزائر. ومما يؤكد هذا الاتجاه في

---

[1] حول الدولة العثمانية وسياستها في مختلف الولايات العربية وتأثر هذه السياسة بمختلف الحضارات أنظر، كبرلي (فؤاد): قيام الدولة العثمانية، ترجمة أحمد السعيد سليمان، دار الكتاب العربي، 1967.

[2] أنظر جب هاملتون وهارولد بوون: المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى، ط2، دار المعارف، مصر، 1971، ص 19.

[3] يُطلق عليها بالمشرق العربي اسم "البيوتات" وعُرفت بالجزائر بالعائلات الكبرى، أما نحن فقد فضلنا هذا المصطلح لاعتقادنا أنه الأنسب باعتباره يدل على الحكم الوراثي الذي اتسمت به هذه الأسر.

[4] أول أسرة عربية حافظت على حكمها في فترة الحكم العثماني هي أسرة "آل معن" حكام إقليم الشوف بلبنان بزعامة الأمير فخر الدين المعني الذي لقب بـــ "سلطان" (أنظر مصلح الدين لاري، بشائر أهل الإيمان لفتوحات آل عثمان، مخطوط ترجمه عن اللغة التركية حسين خوجة، (1163 هـــ/1749م)، المخطوط بمكتبة الجامعة الإسلامية بقسنطينة، ص 337.

الجزائر وصول عدد من الفرمانات (القرارات) السلطانية إلى الجزائر تحثُ الولاة على التحالف مع شيوخ القبائل وإقرار حكمهم بمناطق نفوذهم وعدم التدخل في شؤونهم الداخلية، ومن بين هذه الفرمانات، الفرمان الذي أرسله السلطان سليم الثاني (974-982هـ/1566-1574م) إلى بايلرباي الجزائر أحمد شاوش بسطنجي (969-984هـ/1563-1576م)، وينص على ترك حرية التصرف لأحد الشيوخ، بشرق الجزائر، وعدم التدخل في شؤون حكمه ما لم يُشكل خطرا على أمن واستقرار الوضع بالبلاد، ومما جاء في هذا الفرمان:"... فقد أمرنا: بعدم التعرض والتدخل في شؤون المذكور[1] والسماح له بالتصرف بما في أيديه من أراضي حسب الأسلوب السابق طالما ظل ثابت القدم وراسخ الدم في عبوديته ورقيته تجاه سدة سعادتنا وطالما أعلن كامل طاعته وانقياده لأمرائنا ومادام مواظبا على إيفاد الضرائب المترتبة عليه لخزانة الجزائر، ومازال يقدم الخدمات كلما دعت الضرورة لذلك ...".

بفضل هذه السياسة حافظت الدولة العثمانية على استقرار حكمها بالجزائر لمدة دامت أكثر من ثلاثة قرون، وحافظت الجزائر على طابعها المحلي المميز وعلى جزء من استقلالها الداخلي[2] وبالتالي حافظت الأسر المحلية على نفوذها بالبلاد ومنها الأسر الحاكمة ببايلك الشرق الجزائري، موضوع هذه الدراسة.

فالحكام العثمانيون كانوا بعيدين عن حكم القبائل التي بقيت تحت سلطة شيوخها حتى نهاية العهد العثماني. لذا تعتبر دراسة القبائل والأسر الحاكمة في المجتمع الجزائري في هذه الفترة أسلم طريق لفهم تاريخ هذا المجتمع، سواء من

---

[1] لم يذكر الفرمان الاسم الكامل للشيخ وإنما اكتفى بالإشارة إليه بعبارة "المدعو عباس" وأعتقد أنه زعيم أسرة المقراني حكام قلعة بني عباس، في فترة حكم البايلر بايات بالجزائر.

[2] كانت ولاية الشام أكثر الولايات العربية تبعية للحكم المركزي العثماني لأنها كانت تكتسي أهمية اقتصادية وسياسية خاصة بالنسبة للدولة العثمانية خاصّة أنها بوابتها الأولى على المشرق العربي وممر لقوافل الحج القادمة من عاصمة الدولة اسطنبول .

حيث تكوينه الاجتماعي أو الاقتصادي وحتى السياسي والعسكري. وبما أن تاريخ الجزائر الاجتماعي لم ينل حتى اليوم، القدر الكافي من البحث والتنقيب فإن أملي كبير في أن يكون هذا العمل من اللبنات الأولى في دراسة المجتمع الجزائري من القاعدة إلى القمة وليس العكس.

وقد عبرت الباحثة ليلى باباس عن أهمية مثل هذه الدراسات في الجزائر أثناء الحكم العثماني بقولها: "أن الضعف الطبيعي لسلطة دايات الجزائر وعجزهم عن مراقبة الوضع الداخلي يجعل حتما السلطة السياسية في يد غيرهم وهو ما جعل الدولة توصف بأنها الهيأة البعيدة عن السلطة. فالسلطة السياسية كانت مرتبطة بجميع فئات المجتمع حتى وإن كان ذلك النفوذ يظهر في شكل قرابة أو دين أو اقتصاد ولا يمكن إبراز هذه الحقيقة إلا من خلال دراستنا لتاريخ المجتمع الجزائري، إذ أن التاريخ الحقيقي هو تاريخ القبائل والاتحادات القبلية..."[1].

لهذه الأسباب وغيرها وقع اختياري على دراسة موضوع الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري خلال العهد العثماني. وذلك بهدف التوصل إلى الإجابة على عدد من التساؤلات التي بقيت، حتى اليوم، دون إجابة شافية من أهمها:

- هل كان ببايلك قسنطينة حكم محلي مواز لحكم البايات العثمانيين بالمنطقة؟ ومن كان يمثل هذا الحكم؟
- ما هو موقع العنصر المحلي في السياسة العامة بالبايلك وما نوع العلاقة التي كانت تربط بين السكان، وعلى رأسهم شيوخ القبائل والأسر الحاكمة، وبين الحكام العثمانيين؟

---

[1] Babés (Leila): Tribus, structures sociales et pouvoir politique dans la province de Constantine sous les turcs, D.E.A ., Int. S. politiques. AIX- Marseille. 1981 .p.4.

• ما مدى مساهمة العنصر المحلي في تسيير شؤون البايلك الإدارية والاقتصادية والعسكرية؟

• ما هو موقف الأسر الحاكمة من السياسة العثمانية بالبايلك؟ وكيف كانت ردود فعلها تجاه المظالم التي كان يمارسها بعض الحكام العثمانيين تجاه الرعية وخاصة في نهاية الحكم العثماني؟

وسأحاول بقدر الإمكان الإجابة على هذه التساؤلات، على ضوء ما توفر لديّ من مادة خبرية في هذا الموضوع، الذي أهدف من ورائه إلى الوصول إلى عدد من النقاط أهمها:

أولا. أن أساهم بهذا العمل في فتح باب للباحثين لدراسات مستقبلية للمجتمع الجزائري سواء من الناحية السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية؛ إذ قد يستفيد من هذه الدراسة مختلف الطلبة والباحثين في العلوم الاجتماعية أو الاقتصادية وحتى السياسية.

ثانيا. الكشف عن مميزات الحكم المحلي وإبراز دوره السياسي بالبلاد، محاولة بذلك إزالة الاعتقاد السائد بسلبية العنصر المحلي في تسيير شؤون البلاد على مختلف العصور التاريخية.

ثالثا. لعل هذه الدراسة ستكون حافزا لبعض العائلات الجزائرية لإخراج ما عندها من وثائق والكتابة عن تاريخها للرد على ما ورد في البحث أو تأكيده والإضافة عليه.

رابعا.الكشف عن الخصائص المميزة للمجتمع الجزائري وربطها بالماضي والحاضر.

خامسا. المساهمة في سد ثغرة ظلت تعاني منها المكتبة العربية حتى الآن في مثل هذه الموضوعات، وخاصة في الجزائر؛ ذلك أن ما كُتب حتى اليوم في هذا

المجال، حسب اطلاعي، لا يعدو أن يكون مجرد عدد من المقالات التي نُشرت باللغة الفرنسية وبقيت منذ الاحتلال الفرنسي للجزائر، مبعثرة في المجالات المتخصصة والدوريات و لم تحظ حتى اليوم بأية مبادرة لجمعها أو ترجمتها.

وهنا تكمن الصعوبات التي واجهتني عند قيامي بهذه الدراسة، حيث واجهت في جمع مصادر البحث ومراجعه معانات جمة نظرا لقلتها وعمومية موضوعاتها، خاصة بالنسبة للمراجع باللغة العربية، إذ بالإضافة إلى ما عُرفت به الفترة العثمانية بالجزائر من غموض تاريخي، حتى أننا لا نجد ما يربط بين تاريخ ابن خلدون ومعاصريه والتاريخ اللاحق للفترة العثمانية، فإن ما كُتب في الفترة العثمانية كان مجرد تأريخ إقليمي، وكان حظ بايلك قسنطينة منه قليلا، إذا ما قورن بما كتب حول بايلك الغرب الجزائري الذي حظي بعدد من المؤلفات التاريخية التي أرخت للبايلك خاصة في فترة حكم الباي محمد الكبير في نهاية القرن 12 هـ/ 18م.

لهذا لم أجد ما يمكن الاعتماد عليه لكتابة تاريخ هذه الأسر ببايلك قسنطينة إلا القليل من المصادر العربية غير المتخصصة، فكان اعتمادي الأساسي على المصادر الفرنسية مثل الرحلات التي تركها لنا بعض الرحالة الأجانب أمثال الفرنسيين بيسونال (*Peyssonel*)[1] و دو بارادي (*V. de paradis*)[2] والانجليزي "شو"(*Dr Shaw*)[3] علاوة على الأعمال الهامة التي قام بها الباحث الفرنسي "شارل فيرو" (*Ch.Feraud*) حول القبائل والأسر الإقطاعية الكبرى ببايلك قسنطينة، إلا أن هذا تطلب مني جهدا مضاعفا لما للترجمة من صعوبات.

---

[1] Peyssonnel et Desfontaines: Voyages dans les régences de Tunis et d'Alger, Paris,1838.

[2] Venture de Paradis: Tunis et Alger au XVIII Siècle, send bad, paris,1983.

[3] Shaw (Thomas): Voyages dans plusieurs province de la barbarie et de levant, Paris, MDCCC,X, 1810.

وما تتطلبه أيضا المصادر الفرنسية من تمحيص نظرا لمنهجها الاستعماري الخاص في كتابة تاريخ الجزائر.

ولمزيد من الفائدة للباحثين ألحقت الكتاب بعدد من الوثائق التي تعود إلى الفترة المدروسة ومعظمها، حسب اطلاعي، لم يسبق نشره. ولا يسعني في الأخير إلا أن أوجه جزيل شكري إلى كل من مد لي يد المساعدة لإخراج هذا العمل إلى النور وعلى رأسهم طالبتي النجيبة بوعزيز جهيدة، ونسأل الله أن يجد طلبة التاريخ في هذا الكتاب ضالتهم لمعرفة تاريخ المجتمع الجزائري وعلاقته بحكامه العثمانيين.

والله ولي التوفيـــق
د/ جميلة معاشي

الإطار الجغرافي والسياسي لبايلك قسنطينة قبل مجيء العثمانيين

الإطار الجغرافي والسياسي لبايلك[1] قسنطينة قبل مجيء العثمانيين:

قبل التعرض إلى موضوع الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري يجدر بنا التعريف بالإطار الجغرافي والسياسي لهذه المنطقة، وذلك لتحديد معالمها وحدودها الجغرافية والإطلاع على وضعية القبائل والأسر المحلية الحاكمة بها قبل بداية الحكم العثماني بالجزائر، ومدى سيطرة هذه القبائل على الوضع السياسي بالبايلك.

أولا. الإطار الجغرافي:

تمثل منطقة بايلك قسنطينة، النصف الغربي للدولة الحفصية، التي كانت تشمل غرب المغرب الأدنى وشرق المغرب الأوسط حتى ميناء دلس، أو ما أُطلق عليه اسم مملكتي قسنطينة وبجاية. وقد عرفت هذه المنطقة في العهد الحفصي باسم "بلاد الغرب".[2] ورغم عدم دقة ووضوح واستقرار معالم حدود البايلك فإننا نلاحظ شبه اتفاق لدى الرحالة الأجانب حول الحدود التقريبية لبايلك قسنطينة، ولعل وصف الرحالتين: الفرنسي بيسونال (*Peyssonel*) والأنجليزي "شو" (Shaw)[3] للبايلك كان من أهم ما حضيت به هذه المنطقة من دراسة في الفترة العثمانية وأكثرها دقة في رسم حدودها.

فأراضي البايلك، حسب ما جاء في رحلة بيسونال (Peyssonel) الذي زار المنطقة في بداية القرن 12هـ/18م، تمتد على مسافة تقارب 100 ميل (420 كلم تقريبا)، من الشرق إلى الغرب، ومن ساحل البحر شمالا إلى الصحراء جنوبا.[4]

---

[1] **البايلك**: كلمة تركية تعني الإمارة أو "اللواء" ولم تعرف بها منطقة الشرق الجزائري إلا في العهد العثماني وقد استعملت هذه التسمية، في هذه الدراسة، للتعبير عن منطقة الشرق الجزائري قبل الفترة العثمانية تجاوزا وذلك محافظة على وحدة المصطلح في كامل البحث.

[2] أنظر ابن القنفذ (أبو العباس أحمد): الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق: الشاذلي النيفر وعبد المجيد التريكي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968، ص139 وغيرها.

[3] وضع "الدكتور شو" (Dr Shaw) خريطة دقيقة لبايلك قسنطينة في القرن 12 هـ/18م فكانت من أهم الخرائط التي وضحت معالم البايلك في هذه الفترة (أنظر صورة عن الخريطة وترجمتها في نهاية المدخل

[4] Peyssonnel et Desfontaines: op.cit, p267.

أما الرحالة الأنجليزي "شو" (Shaw) الذي زار الجزائر في نهاية نفس القرن، فيقول أن حدود البايلك تمتد في أوسع نقطة من الشرق إلى الغرب على مسافة تقدر بـــ 95 فرسخ (حوالي 380 كلم). ومن الشمال إلى الجنوب على مسافة 58 فرسخ (232كلم)، أما عن ساحله فيقول أنه يمتد من ميناء دلس، غرب بجاية إلى بونة (عنابة) شرقا، ودار السلطان[1] وهو يمثل حدود البايلك الغربية.[2] أما الحدود الشرقية للبايلك فقد حددت بمعاهدة بين الأيالتين، التونسية والجزائرية سنة 1022هـــ/1614م بوادي صرات[3] إلا أن هذه الحدود لم تكن تُحترم من قبل قبائل التخوم وبذلك لم تكن مستقرة وهو ما جعل الباحث الفرنسي "أندري نوشي" (A.Nouschi) يصفها بالحدود المتحركة "Marches frontières"[4] ويبدو أن البايلك قد احتفظ بحدوده التقريبية حتى الإستعمار الفرنسي.[5]

بهذا يمكن ملاحظة مدى اتساع رقعة بايلك قسنطينة وبالتالي اختلاف تضاريسه فقد ضم الجبال الغنية بالمعادن، مثل جبال جرجرة، والسهول الخصبة مثل سهول قسنطينة وعنابة، والمراعي الهامة التي اتسمت بها منطقة الهضاب العليا بالإضافة إلى الواحات المكونة لمنطقة الزاب ووادي ريغ الغنية بنخيلها وثرواتها الصحراوية،[6] وهو ما جعل بايلك قسنطينة أغنى وأهم بايلك بالجزائر في العهد العثماني، وهو ما سنتعرض له في حينه.

---

[1] **دار السلطان**: هي منطقة مدينة الجزائر وأحوازها وهي تابعة مباشرة لحكم باشا الجزائر.

[2] Dr. Shaw: op.cit, pp 108 – 109.

[3] أنظر، ابن أبي دينار (أبو عبد الله): المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، تحقيق: محمد شمام، المكتبة العتيقة، تونس 1961، ص ص 184-185.

[4] Nouschi (André): Enquête sur le niveau de vie des populations rurales constantinoises de la conquête jusqu' en 1916 ,Paris, 1961, p15.

[5] Vayssette: Histoire de Constantine sous les beys depuis l'invasion turque jusquq l'occupation francaise 1535-1837,Constantine, 1869,p 24.

[6] يقول صالح العنتري أن آخر نقطة في الحدود الجنوبية لبايلك قسنطينة هي مدينة "تقرت". أنظر، العنتري (صالح): الفريدة المؤنسة، مطبعة جاند، قسنطينة، ص 34.

ثانيا. سيطرة القبائل على شرق المغرب الأوسط قبل مجيء العثمانيين:

شهد شرق المغرب الأوسط، كأي جزء من المغرب العربي، منذ وصول الهلاليين إلى المنطقة، سنة 443 هـ/1052م، تحركات كبيرة للقبائل المحلية مكنت الوافدين الجدد من السيطرة على معظم أراضي الإقليم؛ إذ تسبب هؤلاء في إبعاد القبائل البربرية أمثال قبيلة صنهاجة وزناته، من مناطقها الأصلية فالتجأت إلى الجبال والصحارى ليحل هؤلاء محلها بالسهول[1] وخاصة القريبة من مركز السلطة، الأمر الذي جعل القبائل الهلالية تُكوّن علاقة متينة مع الحكومات المركزية وبذلك بدأ نفوذها يتسع بالمنطقة على حساب القبائل البربرية إلى أن سيطرت على الوضع بالبلاد وخاصة في نهاية حكم الدول المغربية الثلاث، الحفصية والزيانية والمرينية، بل أن هذه القبائل كانت السبب الأول في إسقاط هذه الدول والتمهيد لدخول العثمانيين؛ إذ كانت تساهم في إثارة دولة ضد أخرى بدعمها العسكري لمن تدفع لها أكبر قدر من الأموال والامتيازات لضرب جارتها.

ولكن قبل التعرض إلى كيفية سيطرة هذه القبائل على حكم البلاد، جدير بنا أن نعود إلى سؤال سبق وأن طرحه الباحث الفرنسي "جاك بيرك" (*Jacque Berque*)[2] ثم الباحثة الجزائرية ليلى باباس[3] وهو: ما هي القبيلة المغربية؟ وما مدى صحة تواصل الأصول القبلية بالمغرب العربي؟ وذلك قصد توضيح مدى صعوبة دراسة تاريخ هذه القبائل وتحديد أصولها، وبالتالي تحديد أصول الأسر المحلية الحاكمة، موضوع هذه الدراسة.

فالقبيلة المغربية، وخاصة العربية منها، حسب الباحثين المذكورين وغيرهما، لا يمكن دراسة تاريخها بدقة ولا تحديد أصولها لاختلاف مقومات كل قبيلة

---

[1] أنظر، ابن خلدون (عبد الرحمن): كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، المجلد6، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت، 1983، ص ص 42 - 43.

[2] Berque (Jacque): Le Maghreb histoire et société, S.N.E.D, Alger, 1974, p23.

[3] Babés (Leila): Mythe d'origine…, op.cit, p12.

وعدم استقرارها في منطقة واحدة وخاصة بعد الغزو الهلالي، بالإضافة إلى اختلاط القبائل بعضها ببعض نتيجة للهجرات المتكررة خاصة في فترة الحكم الحفصي بالمنطقة. فقد فقدت القبيلة المغربية الكثير من عصبيتها من جراء تحركاتها المستمرة منذ وصول الهلاليين إلى المنطقة، إذ كانت القبيلة الضعيفة في كثير من الأحيان تدخل تحت حماية القبيلة الأقوى فتحمل اسمها وتتخلى عن أصولها الأولى المبنية عادة، على القرابة الدموية وأحيانا كان يحدث العكس، إذ ينشق فرع من القبيلة ليكون قبيلة مستقلة تضم فروعا من قبائل مختلفة تحمل نفس الاسم ويدل عادة على مكان إقامة هذه القبيلة أو على الفرع الرئيسي بها، وهو ما أفقد عنصر"قرابة الدم" في القبيلة أهميته، وبالتالي جعل تحديد أصول القبيلة ونسبها أمرا شبه مستحيل في كثير من المناطق بالمغرب العربي وهو ما عبر عنه ابن خلدون بقوله: "إن النسب أمر وهمي لا حقيقة له"[1]، وقد أورد نفس الكاتب العديد من العوامل المتسببة في اختلاط الأنساب منها، بالإضافة إلى عدم استقرار القبائل، ادعاء مختلف القبائل والأسر المغربية النسب الشريف لإكتساب المجد والشهرة والولاء الروحيين لبقية القبائل حيث يقول أن هذه الظاهرة انتشرت حتى في الأوساط البربرية من ذلك قوله:"صنهاجة ولاية لعلي بن أبي طالب كما لمغراوة ولاية لعثمان بن عفان، رضي الله عنهما، إلا أنّا لا نعرف سبب هذه الولاية ولا أصلها..."[2].

أما الباحث الفرنسي "جاك بيرك" فقد عبر عن تشابك القبائل المغربية بقوله:" اننا نجد بكتاب البكري ذكر لقبيلة مصمودة في 6 أماكن وزناتة في 14 مكان وصنهاجة في 25 مكان وهوارة في 15 مكان وفي العديد من الأماكن... قيد من الأسماء تدلنا على تعايش الجماعات المختلفة في نفس المنطقة"[3]. بهذا يمكن القول أن تحديد أصول القبيلة المغربية والإلمام بتاريخها يبقى أمرا نسبيا لا

---

[1] ابن خلدون: المقدمة، دار القلم، بيروت، 1984، ص 129.

[2] ابن خلدون: كتاب العبر...، ج6، ص311.

[3] Berque (Jacque): Le Maghreb histoire et société, op.cit, p30.

يمكن البت فيه وخاصة بعد أن سيطرت القبائل العربية الهلالية على المنطقة وهو ما سيتضح لنا من خلال عرضنا لأهم القبائل التي هيمنت على أراضي بايلك الشرق، موضوع هذه الدراسة.

وسنركز اهتمامنا في هذا المدخل على القبائل العربية وخاصة الهلالية لإعتبارين:

- **الأول**: أن هذه القبائل، التي أهملت من طرف الباحثين الفرنسيين،[1] كانت قد لعبت الدور الأكبر بين القبائل، في الحياة السياسية والعسكرية بالبلاد.
- **الثاني**: أن معظم الأسر المحلية الحاكمة، موضوع هذا البحث، ذات أصول عربية، أي أنها تنتمي إلى هذه القبائل العربية.

أ. القبائل العربية بالبايلك:

تقربت القبائل الهلالية وبنو سليم من حكام المغرب، ابتداءً من "المعز بن باديس" مرورا بالموحدين والحفصيين، فكانوا خير عون لهم في حروبهم الداخلية والخارجية، وفي المقابل كانت هذه القبائل تحصل على إقطاعات واسعة إثر كل انتصار على الخصم، وبذلك تحولت معظم أراضي المغرب الأوسط والأدنى إلى يد بني هلال وبني سليم، فسيطر بنو سليم على المغرب الأدنى وسيطر بنو هلال على المغرب الأوسط ومن أهم فروع بني هلال التي تقاسمت هذه المنطقة هي:

1. **فرع رياح**: وقد كان هذا الفرع، كما ذكر ابن خلدون:"أعز قبائل بني هلال وأكثرهم عددا"[2] سيطر بنو رياح، منذ عهد المعز بن باديس (443

[1] اهتم الباحثون الفرنسيون منذ بداية الاستعمار بدراسة القبائل البربرية دون العربية وذلك خدمة لسياسة فرنسا الاستعمارية، فأرخ هؤلاء لقبائل جرجرة والأوراس وبني ميزاب وحاولوا ربط تاريخ هذه القبائل بالتاريخ الروماني بالجزائر في حين لم يبدأ اهتمامهم بالقبائل العربية إلا في سنة 1900 وبشكل ضيق.أنظر، Berque (J): Idem, p23.

[2] ابن خلدون: كتاب العبر، المصدر السابق، ص 69.

هـ/1052م) على معظم الأراضي الخصبة بغرب إفريقية (تونس)، وكان ذلك هبة من حاكم البلاد "المعز ابن باديس" الذي صاهر زعيم القبيلة "مؤنس بن يحي" وجعل من فرسانه جيشا تابعا لحكمه، إلا أن هذه النعمة لم تدم طويلا على رياح إذ بوفاة "المعز" ثم مناصرة القبيلة للثائر "ابن غانية" في عهد الحفصيين، أبعدت القبيلة عن إفريقية فزحفت نحو الغرب لتستقر لأول مرة بتلال قسنطينة وبجاية، قبل أن تتوسع بقوة السلاح، وبفضل شدة أميرها "مسعود بن سلطان بن داود"[1] إلى الزاب بجنوب المنطقة ومنه إلى مدينة ورقلة[2] وهي الأراضي التي بقيت تحت سيطرة قبيلة الذواودة المنحدرة من هذا الفرع، حتى وصول العثمانيين إلى المنطقة ومن هؤلاء انحدرت إحدى أهم الأسر الحاكمة ببايلك قسنطينة وهي أسرة بوعكاز الذواودة، شيوخ وحكام الصحراء.

2. **فرع الأثبج:** عكس فرع رياح، أولى الحفصيون الأثبج مكانة خاصة فمنحوهم حق جباية ضرائب جميع المناطق الواقعة بين عنابة وقسنطينة وشرق الأوراس، وذلك حتى يقفوا إلى جانبهم في وجه فرع رياح المعادي للحفصيين كما منحوا "كرفة" من نفس الفرع حق جباية ضرائب جزء من شرق الأوراس وكثيرا من الإقطاعات بالزاب الشرقي مكافأة لهم على وقوفهم مع الحكام ضد الثائر "ابن غانية" وحلفائه بني رياح. أما عياض والضحاك وهم من نفس الفرع فقد منحوا منطقة قلعة بني حماد، ويعتقد أن أسرة المقراني الحاكمة بغرب البايلك تنحدر من عياض وهذا ما سنناقشه في حينه، كما منح بنو مزني وهم،

[1] هو ابن عم الأمير الأول"مؤنس بن يحي"، وجد قبيلة الذواودة التي أخذت اسمها من اسمه، وإن كانت كلمة "الذوادي" تفسر بعدة تفسيرات منها الانتساب إلى "داوود" عليه السلام، ومنها صفة من صفات الفروسية وهو الذود من حمى القبيلة، ومنها الإشارة إلى من يملك "ذودا" أو قطيعا من الغنم.

[2] أنظر، ابن خلدون: نفس المصدر، ج6، ص 145.

حسب ابن خلدون، من لطيف من الأثبج، ولاية الزاب[1] ومن الباحثين من يعتقد أن أسرة أحرار الحنانشة حكام شرق البايلك يعود إلى هذا الفرع.

3. **زغبة:** أقطع الموحدون بطن بني يزيد، من زغبة، أرض حمزة (البويرة) من أوطان بجاية وكلفوهم بجمع الضرائب من القبائل المستعصية مثل صنهاجة وزواوة. ومنحوا بني عامر[2] من نفس الفرع، ضريبة من الحبوب بـــ 1000 غرارة[3] من الزرع استمر تسليمها للقبيلة سنويا حتى تاريخ انتقالهم النهائي إلى غرب المغرب الأوسط حيث استقروا قرب تلمسان.[4]

من خلال هذا العرض المختصر يمكن تصور سيطرة القبائل العربية الهلالية على معظم أراضي شرق المغرب الأوسط وبالتالي انتشار نفوذها بالمنطقة منذ ما قبل الفترة العثمانية، وقد فرضت هذه القبائل وقبائل بني سليم نفوذها على الحكام الحفصيين، فكان الكعوب من بني سليم يسيطرون على الجنوب الشرقي للمنطقة حتى وادي سوف وهنا وقع الصدام بين بني سليم وبني هلال بتدبير من الحفصيين لإبعاد هؤلاء نحو الغرب.

وقد نجحوا في ذلك، إلا أن ضعف الدولة الحفصية المستمر جعل هذه القبائل العربية تتطاول على الدولة وتهاجمها لإقتطاع المزيد من الأراضي، حتى أنهم أصبحوا، حسب تعبير إبن خلدون: "يغالبون الدولة حتى غلبوا على الضاحية وقاسموهم في جباية الأنصار بالإقطاع ريفا وصحراء وتلولا وجليدا"[5]

[1] حول تفاصيل الموضوع أنظر نفس المصدر، ج 6 ، ص42-51.

[2] حول هذه القبيلة التي سيطرت على غرب الجزائر طوال العهد العثماني أنظر:

BOYER (Pierre): Historique de Amer doranie Dorigines au Senatus Consult In Revue de Loccident Musulman et de la méditerranée N 24, Aix-En Provence , C .N.R.S,1977, p57 et suit.

[3] **غرارة**: كيس يصنع من الصوف والشعر، ويستعمل لحمل الحبوب يسع 100 كلغ وأكثر.

[4] إبن خلدون: كتاب العبر...، ج6، ص 89.

[5] إبن خلدون: نفس المصدر، ص 156.

وقد كان الذواودة والهلاليون وبنو سليم في صراع مستمر لبسط نفوذهم على جنوب المنطقة الأمر الذي جعل نفوذ بني سليم يصل أحيانا حتى الزاب الشرقي[1] ينكمش مرة أخرى ويتسع على حسابه نفوذ بني هلال حتى سوف.

ب. القبائل البربرية بالبايلك:

في الوقت الذي استولت فيه القبائل العربية على السهول والهضاب الشرقية للمغرب الأوسط، بقيت المناطق الجبلية في معظمها تحت حكم القبائل البربرية التي ظلت بعيدة عن أي تدخل خارجي، أو دخلت تحت نفوذ بعض القبائل القوية سواء كانت بربرية أو عربية ومن أهم هذه القبائل:

1. **قبيلة سدويكش**: وهي من بقايا كتامة، ظلت في مواطنها بين قسنطينة وبجاية حتى عهد ابن خلدون (ق 8هـــ/14م) وقد ذكر هذا الأخير أن القبيلة دخلت تحت زعامة "أولاد سواف" من قبيلة الكعوب (بني سليم) ونسبت نفسها إليهم، متنكرة لأصولها الأولى وهي قبيلة كتامة.[2]

2. **بنو ثابت**: وهم حسب ابن خلدون من بقايا كتامة، سكنوا جبل القل المطل على قسنطينة وكانوا تابعين للموحدين الذين منحوهم امتياز جباية ضرائب المنطقة الفاصلة بين القل وفرجيوة. وقد استمر هذا الامتياز حتى العهد الحفصي، حيث قام أحد الحكام الحفصيين "أبو العباس أحمد" (772-796هـــ/1370-1393م) بضم القبيلة إلى جنده بعد أن أعلنت عصيانها على الحكم المركزي.[3]

3. **العمامرة**: وهي من القبائل الأوراسية التي سيطر عليها الذواودة الهلاليون فأصبحت من أتباعهم. وفي نفس المنطقة استقر بنو توجين عند فرارهم من الهلاليين مكونين بأعالي جبال الأوراس قبيلتي لخضر الحلفاوية، وبني مخلوف[4].

---

[1] أنظر الخريطة التوضيحية لانتشار القبائل العربية بمنطقة المغرب العربي.

[2] إبن خلدون: كتاب العبر ...،ج6، ص 304.

[3] نفس المصدر، ص 307.

[4] Féraud (ch): Kitab el Adouani, in R.S.A.C, 1868, p115.

4. **أولاد رشايش:** وهم من النمامشة وينسبون أنفسهم إلى عرب الأثبج الهلالية، اندمجوا في أوساط القبائل البربرية بالأوراس الشرقي فأصبحوا منهم لغة وتقاليدا[1].

هذه عينات من القبائل البربرية التي تعربت بدخولها تحت نفوذ القبائل العربية من بني سليم أو بني هلال وتعايشت معهم. أما القبائل التي فرت من وجه الهلاليين فقد التجأت إلى أعالي الجبال حيث حافظت على استقلالها بعيدا عن أي تدخل خارجي ومن أهم هذه القبائل، قبيلة زواوة التي تنحدر منها إحدى أهم الأسر الحاكمة بجبال جرجرة وهي أسرة ابن القاضي أمراء إمارة كوكو.[2] وأهم معاقلها المنطقة الفاصلة بين بجاية ودلس ومن بين فروع هذه القبيلة المصامدة[3]. ويبدو أن المجاعات والكوارث الطبيعية اضطرت العديد من هذه القبائل المنعزلة بجبال الأوراس أو جرجرة إلى مغادرة مواطنها والالتجاء إلى السهول للبحث عن العمل والحياة الأفضل. وقد كانت سهول شمال قسنطينة (قالمة) من أهم المناطق التي استقطبت القبائل البربرية سواء الوافدة من الأوراس أو من جرجرة، فقد جاء في كتاب العدواني[4] أن مجاعات ضربت منطقة الأوراس في نهاية العهد الحفصي وتسببت في هجرة معظم قبائلها إلى الشمال ومنها: أولاد صولة من الذواودة، أولاد دهان، أولاد خيار، أولاد مرداس والخباتنة.[5]

وقد استمرت هذه الهجرة سواء من جرجرة أو الأوراس حتى العهد العثماني وكانت أكبر هذه الهجرات في بداية القرن 11هـ/17 م[6].

---

1 Babés (Leila): Tribus… op.cit, p94.

2 Boulifa (S.A): Le Djurdjura a travers l’histoire (depuis l’antiquité jusqu'ά 1830) organisation et independence des Zouaous, Bringau, 1925 p 81 et suit.

3 أنظر، ابن خلدون: كتاب العبر، ج 6، ص ص 262 - 264.

4 لم أعثر على المصدر فاعتمدت على ترجمته التي قام بها الباحث الفرنسي شارل فيرو Féraud (Ch) ونشرها بمجلة الجمعية الأثرية لقسنطينة (R.S.A.C) لسنة 1868 وقد سبقت الإشارة إليه.

5 Féraud (Ch): Kitab el Adouani …, op.cit, p187.

6 Babés (Leila) , Mythe … op.cit, pp 28-29.

ولم يكن سبب نزوح هذه القبائل من مناطقها الأصلية مرتبطا بالعوامل الطبيعية فقط، بل كثيرا ما كانت الصراعات القبلية سببا في فرار الأضعف إلى السهول القريبة من مقر السلطة المركزية حتى تحتمي بها، ومن الأمثلة على ذلك قيام أولاد صولة في نهاية العهد الحفصي بطرد بني أوجانة بالأوراس من وادي الأبيض وقيام هؤلاء بطرد سلاوة إلى أعالي جبل شلية. ولم تكن السلطات المركزية تسكت عن هذا بل كثيرا ما كانت تغتنم الفرصة للتدخل في الصراع بين هذه القبائل لفرض سيطرتها على الجميع.[1]

كانت إذن تحركات القبائل، مستمرة منذ مجيء الهلاليين بالمنطقة فماذا نتج عن هذه التحركات؟

لا شك أن الهجرات المستمرة لهذه القبائل واحتكاكها بغيرها قد أفقد معظمها أقوى رابطة وهي العصبية القبلية، إذ بانتقال القبيلة أو فرعها من مواطنه الأصلية كان يفقد انتماءه الأصلي ليتقمص أصولا جديدة هي أصول القبيلة التي كان يحتمي بها. وقد مرت بنا أمثلة على ذلك منها انتماء قبيلتي "سدويكش" و"أولاد رشايش" إلى القبائل العربية من بني هلال وبني سليم رغم أصولها البربرية.

ولم يكن انتساب القبائل إلى غير أصولها مقتصرا على القبائل البربرية التي دخلت تحت نفوذ بني هلال فقط، بل كان ذلك ميزة طبعت الحياة القبلية بالمغرب العربي، منذ وصول الهلاليين إلى المنطقة، حيث انضم عدد كبير من القبائل أو فروع القبائل العربية التي ضعفت نتيجة لنزاعات داخلية أو كوارث طبيعية، إلى قبائل أقوى، مثل انضمام قبيلة بني سعيد من بني سليم إلى رياح الهلالية فأصبحت، حسب تعبير ابن خلدون، "من رياح بالخلف والوطن"،[2]

---

[1] Ibid, pp 29-30

[2] ابن خلدون: كتاب العبر...، ج 6، المصدر السابق، ص 76.

وكانت القبيلة القوية ،عادة، تستغل القبائل التي تدخل تحت نفوذها وتدعى "الموالي" في الميدان العسكري فتُكّون منها قوات عسكرية تابعة لها، وهذا ما يفسر وجود ما يسمى بالقبائل المخزنية[1] التابعة لمختلف القبائل القوية[2] وبالتالي لدى الأسر المحلية الحاكمة، وهو ما سنتعرض له في حينه. ونفس المقياس يمكن تطبيقه على فروع القبائل التي تتجمع لتكون قبيلة موحدة من عناصر مختلفة الأصول تجمعها المصالح الاقتصادية والعسكرية المشتركة؛ إذ ما أن تتجمع هذه الفروع في أراضي واحدة حتى يبرز من بينها فرع قوي يفرض نفوذه على غيره فيتزعم هذه القبيلة عن طريق الوراثة وهو ما ينطبق على قبيلة "أولاد بن علي" التي تتكون من:

1- أولاد عياد من الذواودة.
2- المواليد من طبنـــــة.
3- القوارشة من الشرق.
4- أولاد كوت وأولاد حملة من مرابطي الحضنة.
5- السماتي من سلالة سيدي مبارك السماتي غرب سطيف.
6- تلاثمة من (رقيق الأرض) الحنانشة.

وكانت الزعامة في القبيلة لأولاد عياد وحدهم وهو ما أتاح لهم التمتع بامتيازات خاصة مثل حق ملكية الأراضي وشرف الدفن في مسجد سيدي سليمان في "زدشة"، بنواحي تقرت، في حين كانت بقية الفروع تخضع لنفوذ هذا الفرع.[3] وقد عبر ابن خلدون عن هذا النوع من الرباط بين القبائل بقوله: "اعلم أن كل حي أو بطن من القبائل وإن كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام ففيهم عصبيات أخرى لأنساب خاصة هي أشد التحاما من النسب العام ...

[1] "أولاد بن علي" أو"أهل بن علي" تعتبر من أهم القبائل المخزنية التابعة لأسرة بوعكاز الذواودة شيوخ العرب وحكام الصحراء.

[2] Masqueray (E): formation des xités chez les populations secondaires de l'Algeriem Aix-en-province 1983, p21.

[3] Babés (Leila) , Tribus...op.cit, p101.

والرئاسة فيهم إنما تكون في نصاب واحد منهم ... ذلك النصاب أقوى من سائر العصائب ... وهذا سر اشتراط الغلب في العصبية".[1] ويعني بذلك اشتراط القوة في الفرع الحاكم وغلبته على بقية الفروع.

نفس التكوين خضعت له قبيلة الحنانشة، بالحدود الشرقية لبايلك قسنطينة إذ تكونت من عدد من الفروع القبلية أهمها عرب بني سليم وقبيلة هوارة، وقد كان فرع "أحرار الحنانشة"، من هوارة، هو الذي سيطر على حكم القبيلة طوال العهدين الحفصي والعثماني، في حين توارث أبناء الفروع الأخرى خدمة هذا الفرع.[2] وقد كان الفرع الحاكم عادة، يعمل على إبقاء هذه التبعية بإجبار أتباعه على خزن حبوبهم في مخازن عامة توضع تحت مراقبته المباشرة.[3]

من هنا يمكن تصور مدى سيطرة القبائل عامة والعربية خاصة على حكم المنطقة منذ ما قبل الحكم العثماني ومدى تشابك أصول هذه القبائل واختلاطها، حتى أصبح من غير الممكن التمييز بين القبائل البربرية والعربية نظرا للتمازج الذي حدث بينها سواء من الناحية الثقافية أو الاجتماعية. كما يمكن ملاحظة التطور الذي حدث داخل تكوين القبيلة نفسها، حيث انقسمت القبيلة إلى عدد من الفروع التي كونت قبائل مستقلة ضمّت عناصر مختلفة الأصول استطاعت أن تفرض حكمها الوراثي عليها وهو ما سيأتي شرحه.

ثالثا. التطور السياسي للقبيلة وظهور الحكم الأسري:

بعد هذا التشابك بين القبائل وتفرع القبيلة الواحدة إلى فروع تزعمت غيرها من القبائل، بدأ نفوذ هذه الفروع، وبالتالي النفوذ الأسري، يطغى على نفوذ القبيلة، حيث تخلت هذه تدريجيا عن حكم الجماعة، التي كانت تمثل جميع

---

[1] ابن خلدون: المقدمة، ص ص 131-133.

[2] سنتعرض للموضوع بالتفصيل عند الحديث عن أسرة "أحرار الحنانشة" حكام الحدود الشرقية للبايلك.

[3] Babés (Leila): Tribus…, op.cit, p99.

فروع القبيلة، وتختار زعيمها من بين أقوى الأسر بها، فأصبح الحكم محتكرا من قِبل أسرة واحدة.

كانت زعامة القبيلة قبل القرن (10هـ/16م) تمنح لأي شيخ من القبيلة يمتاز بالقوة والشجاعة وذلك باعتباره زعيما للقبيلة وقائدا عسكريا لها لأنه سيقود أتباعه في المعارك ويخرج على رأس الحملات الموسمية لجمع الضرائب من القبائل الغارمة. وبذلك "لم يكن لزعامة الأسرة أو العشيرة أو القبيلة قاعدة محددة غير قاعدة القوة"[1] وقد كانت القوة هي القاعدة التي حكمت بها الأسر الإقطاعية ذات الصبغة العسكرية (الجواد)، والتي برزت في نهاية الحكم الحفصي، بداية القرن (10هـ/16م)، حيث دخلت المنطقة تحت حكم عدد من الأسر توارث أبناؤها الحكم أبا عن جد فأصبحت المنطقة عبارة عن فسيفساء من القبائل والإمارات المستقلة على رأس كل منها أسرة حاكمة لها جزء كبير من الاستقلال عن الحكم المركزي، هذا بالإضافة إلى ظهور الأسر المرابطية في هذه الفترة، وذلك إثر وصول عدد من المرابطين من المغرب الأقصى، حيث استقر عدد كبير من هؤلاء بين القبائل للوعظ والإرشاد والتعليم فالتف حولهم العديد من القبائل التي أصبحت تحمل اسم المرابط الذي انطوت تحت لواءه.

ومن الأمثلة على ذلك أسرة ابن ايدير، التي أسسها المرابط سيدي "محمد العابد" المدعو "مول الشقفة"[2] الذي نزل في القرن (10هـ/16م) بأراضي أولاد شبل بجيجل، قادما من المغرب الأقصى وتوارث أبناؤه زعامة المنطقة. وقد اتسع نفوذ الأسرة بفضل تحالفها مع العثمانيين ضد الاسبان ببجاية.[3] وفي نفس الزمان والمكان ظهر الشيخ "عمران" قادما من المغرب الأقصى أيضا وقد التفت حوله القبائل من مختلف الأصول وأيدته وأعلنت ولاءها له وبذلك كوّن أسرة سرعان

---

[1] Brunschvig (Robert): la Berberie crientale sous les Hafsides des origines a la fin du XV éme siécle, Paris,1982, p105.

[2] نسبة إلى السفينة (الشقفة) التي وصل المرابط على متنها إلى ميناء جيجل.

[3] Feraud (ch): Histoire de Djidjelli, in R.S.A.C,1870, pp74-75.

ما اتسع نفوذها بكامل المنطقة وكوّن أبناؤه السبعة سبع أسر أهمها أسرة ابن حبيلس التي استفادت من تعاونها مع العثمانيين في توسيع نفوذها بمنطقة جيجل.[1] أما في منطقة "عين سقان" على بعد 42 كلم جنوب غرب قسنطينة، فقد استقر بها المرابط "أحمد بن ميمون" قادما من الصحراء الغربية والتفت حوله العديد من القبائل مثل زناتة وهوارة البربريتين وبني سليم العربية وانتسبت إليه وبذلك عرفت باسم قبيلة التلاغمة[2] نسبة إلى الناقة[3] التي حملت المرابط إلى مكان استقراره بين هذه القبائل.[4]

والأمثلة كثيرة على هذه الأسر المرابطية التي ظهرت هنا وهناك بشرق المغرب الأوسط في نهاية العهد الحفصي وبداية العهد العثماني وأصبحت أسماؤها تطلق على قبائل بأكملها مثل أولاد موسى بن قاسم، أولاد الطيب، أولاد بوكحيل، أولاد عنجاج، وأولاد سي زرارة،[5] وكلها نسبت إلى أشخاص استقروا بالأوراس مكونين زوايا سرعان ما تحولت إلى مراكز إستقطاب لمختلف القبائل بالمنطقة.

بهذا تحول شرق المغرب الأوسط في غياب سلطة مركزية قوية إلى منطقة نفوذ واسعة لنوعين من الأسر، الأسر المرابطية من جهة والأسر العسكرية أو ما يعرف محليا باسم "الجواد" من جهة أخرى، وقد كانت هذه الأخيرة أكثر قوة وأكثر نفوذا بالمنطقة وهو ما سنتعرض له بالتفصيل في متن هذه الرسالة من خلال التعرف على الأسر المحلية الحاكمة والتي ينتمي معظمها إلى هذا النوع من الأسر.

---

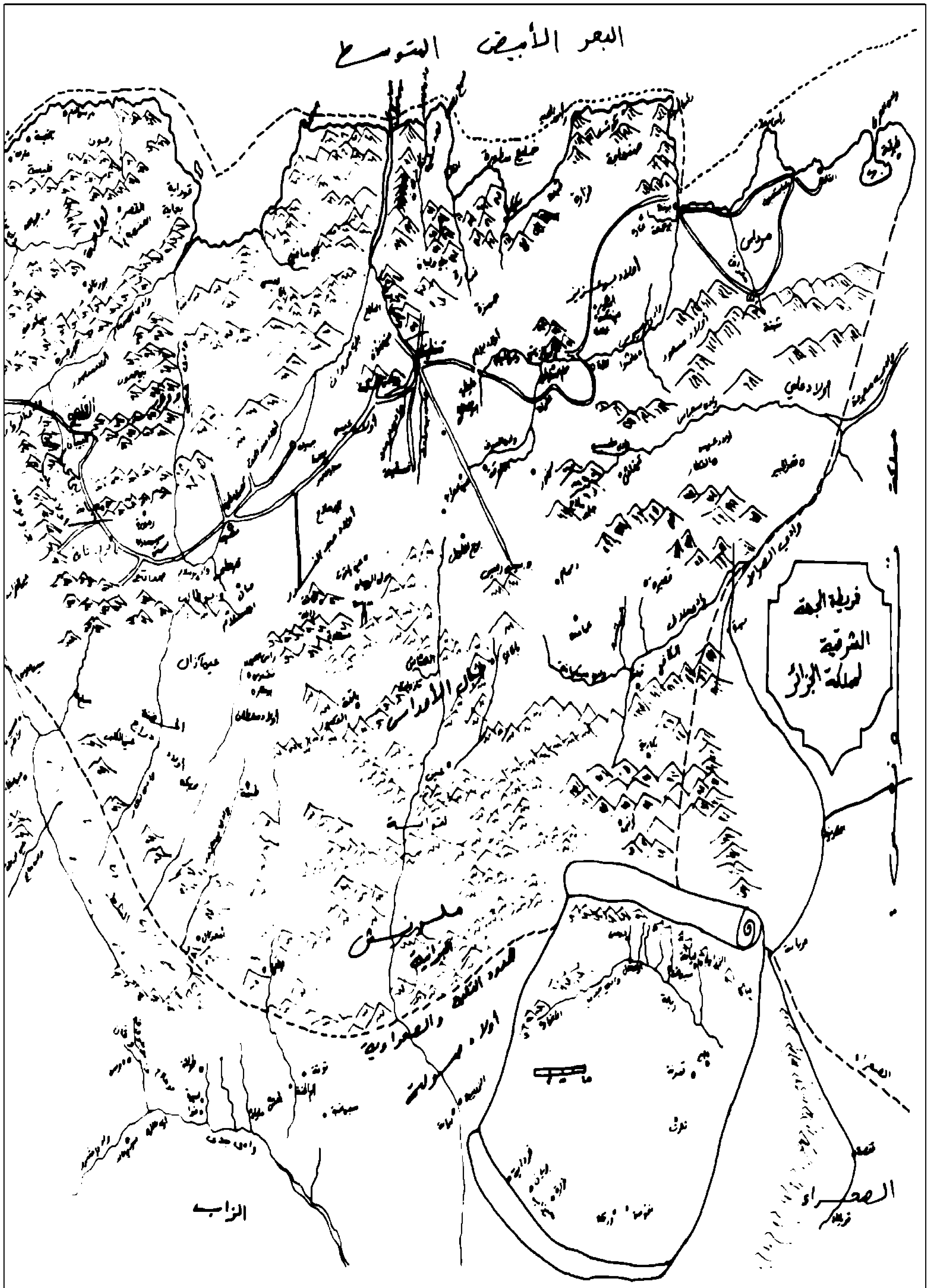
[1] Ibid, pp 75-76

[2] تتكون القبيلة من 22 قبيلة صغيرة مختلفة الأصول (أنظر نفس المرجع، ص 76).

[3] **تالغمت**: كلمة بربرية تعني الناقة

[4] Féraud: Notices historiques sur les tribus de la province de Constantine, R.A, 1869, pp2-4.

[5] Féraud: Kitab el Adouani …, op.cit, p161.



خريطة بايلك قسنطينة كما وضعها الرحالة الإنجليزي"شو"

(ترجمة الكاتبة)

الأسر المحلية الحاكمة ببايلك قسنطينة:
أصولها ومقومات سلطانها

اتفق معظم الباحثين على أن حكم شرق المغرب الأوسط أو بايلك الشرق الجزائري في بداية العهد العثماني (بداية القرن 10هـ/16م) تركز بيد خمس أسر محلية حاكمة[1] تعتبر أهم الأسر بالمنطقة وهي:

- أسرة بوعكاز من قبيلة الذواودة حكام الصحراء.
- أسرة أحرار الحنانشة حكام الحدود الشرقية للبايلك.
- أسرة المقراني حكام مجانة بالحدود الغربية للبايلك.
- أسرة بني جلاب وتمثل سلاطين مدينة تقرت وأريافها جنوب البايلك.
- أسرة ابن قانة التي لم تظهر على الساحة السياسية إلا في منتصف القرن 12هـ/18م ولعبت دورا هاما في الحياة السياسية ببايلك قسنطينة باستيلائها على مشيخة العرب.

فهل كانت هذه الأسر حاكمة فعلا أم أنها كانت مجرد وسيط إداري يربط بين الحكم المركزي وبين الرعية؟ وهل كان حكم هذه الأسر وليد العهد العثماني أم أنه كان سابقا لذلك؟ وما هي العلاقة الحقيقية لهذه الأسر بالحكم المركزي؟ كل هذه التساؤلات وغيرها يمكن الإجابة عنها من خلال تعرضنا لتاريخ هذه الأسر وإبراز مكانتها السياسية والعسكرية بالمنطقة.

أولا. أسرة بوعكاز الذواودة: شيوخ العرب وحكام الصحراء:

أ. **أصولها:** تنتمي أسرة بوعكاز إلى قبيلة الذواودة الهلالية من فرع رياح وكان استقرارها الأول بشرق الجزائر، كما سبق ذكره بمدخل الكتاب، على يد جدها الأول "مسعود بن سلطان" الملقب "بالبلط"[2] لقوته وشجاعته وذلك سنة

---

[1] يطلق عليها الباحث الفرنسي شارل فيرو (*CH, Féraud*) مصطلح:
" les familles Segnierriales". أنظر:
Féraud (ch): Les seigneurs des Hanenecha, in R.A, 1874, p13.
في حين تعرفها الباحثة ليلى باباس باسم "الأرستقراطية المحلية. أنظر:
Babes (Leila): Mythe..., op.cit, p31.

[2] ابن خلدون: كتاب العبر، ج 6، ص 70.

(572هـ/1176م). وقد عرفت هذه القبيلة مجدها السياسي والعسكري والاقتصادي في عهد هذا الزعيم الذي لعب دورا رائدا، إلى جانب الموحدين، في الجهاد بالأندلس قبل أن يعود إلى منطقة قسنطينة ليسيطر على أهم أراضيها وهو ما عبر عنه ابن خلدون بقوله: "واعتز رياح بعهدهم بإفريقية وملكوا ضواحي قسنطينة ورجع إليهم شيخهم مسعود بن زمام من المغرب فاعتز الذواودة على الأمراء والدول"[1]

بل استطاع ابنه "محمد" بفضل قوته وتحالفه مع الثائر "ابن غانية" ضد الدولة الحفصية أن يوسع إقطاعياته على حساب الدولة فاتسعت أراضيه في كامل المنطقة المنحصرة بين قسطيلة (الجريد) بالجنوب التونسي والزاب بالجنوب الشرقي للجزائر وبين القيروان بتونس ومدينة المسيلة[2] بالجزائر. إلا أن الحكام الحفصيين عملوا على طردهم من هذه المناطق بعد انهزام "ابن غانية"، ولاحقوهم حتى قسنطينة حيث كان استقرارهم النهائي، بالمنطقة الغربية، ما بين قسنطينة والزاب وورقلة وقد خضعت لهم معظم قبائل هذه الجهات.

استمر نفوذ هذه القبيلة بزعامة أبناء "محمد بن مسعود" الذين توارثوا حكم المنطقة، وقد اتسم جميعهم بالقوة فزاد نفوذهم إلى حد التدخل في شؤون الدولة ومحاولة ضرب الحكام بعضهم ببعض[3]، وخاصة في فترة حكم الحكام الضعاف، الأمر الذي أثار الحاكم القوى المستنصر (647-675هـ/1249-1277م). وكان ذلك إثر مبايعة الذواودة لأخيه الثائر "ابراهيم بن اسحاق" في قسنطينة سنة (651هـ /1253م) فانتقم منهم سنة (660هـ/1261م) شر انتقام بقضائه على أهم زعماء الذواودة "أولاد سباع" ومنهم زعيمهم "شبل بن موسى"[4] بالمسيلة.

---

1 نفس المصدر، ص 49.

2 نفس المصدر: ص ص 70 - 71 .

3 ابن القنفذ: المصدر السابق، ص 125.

4 أنظر شجرة نسب أسرة الذواودة ص 40.

وطرد البقية إلى الغرب، وقد كان ذلك الحدث مفخرة للحاكم الحفصي والدولة الحفصية التي تخلصت من منافس خطير، الأمر الذي جعل شعراء الدولة يخلدون الحدث في قصائد طويلة منها قول الشاعر "ابن الحسين حازم" موجها الخطاب إلى الحاكم المستنصر:

وبلغت في الأعداء كل مراد | وغــدا لــك التــأييــد ذا إسعاد وغدا
الأعــادي من ريـــــاح | عــندمــا هبت بنصركم الرياح كعــاد
أضحى سباع للسباع فريسة | و شطــا بشبــل غــالب الآســـاد[1].

إلا أن هذه القبيلة سرعان ما عادت إلى المنطقة بعد وفاة المستنصر، فاحتلت من جديد كل من ورقلة وقصور ريغة والحضنة ثم الزاب والأوراس مقتطعة إياها من ممتلكات السلطان[2] و لم يستطع خليفة المستنصر، "أبو إسحاق إبراهيم"، الوقوف في وجوههم فعمد إلى استرضائهم باقطاعهم كل ما استولوا عليه من الأراضي وتسجيل ذلك في شهادات رسمية تثبت حكمهم الشرعي في تلك الأراضي وبذلك كان السلطان "أبو إسحاق" حسب تعبير ابن القنفذ:"... أول من كتب البلاد الغربية للعرب بالظهائر وزاد في العوائد ليجد الراحة في لذاته..."[3]

بهذا عادت سيطرة قبيلة الذواودة من جديد ورسميا، على معظم الأراضي بشرق المغرب الأوسط ولتفادي التراع بين أبناء القبيلة قسمت هذه الأراضي بين مختلف فروعها فأخذ أولاد سباع بن شبل اقطاعات المسيلة وأولاد محمد بزعامة أحمد بن عمر (أخ شبل) اقطاعات مقرة وبقيت نقاوس لأولاد عساكر ووصل نفوذ الذواودة حتى بجاية "إلا ممتنع الجبال"[4] كما سيطروا على أرياف

---

1 ابن القنفذ: نفس المصدر، ص ص 129- 130، وابن خلدون: كتاب العبر، ص 73.

2 ابن خلدون: كتاب العبر، ج 6، ص ص 662 - 663.

3 ابن القنفذ: نفس المصدر، ص 139.

4 ابن خلدون: نفس المصدر، ص 204 .

قسنطينة بمن فيها من القبائل مثل سدويكش وعياض، إلا أن الذواودة ورغم اتساع نفوذهم نحو الشمال، كانوا يفضلون الاستقرار بالزاب أكثر من أي منطقة أخرى باعتباره حصنهم ضد هجمات الحكام الحفصيين وحلفائهم من بني سليم.[1]

عادت زعامة الذواودة، بعد مقتل شبل إلى أولاد محمد أسلاف أسرة بوعكاز، موضوع هذه الدراسة، ومن أهم زعمائهم "يعقوب بن علي" (790هـ/1388م) الذي عاصر ابن خلدون وكان بينهما لقاءات. وقد ذكره ابن خلدون بقوله:" أنه كبير الذواودة بمكانه وسنه وله شهرة وذكر ومحل من السلطان متوارث"،[2] كما ذكر أن القبيلة شهدت عزا ومجدا كبيرين في عهده سواء من الناحية الاقتصادية أو السياسية حتى أن الدولة لم تكن تستطيع جباية الضرائب من مناطق نفوذه إلا بإذنه.[3] ولم يكتف الذواودة بذلك النفوذ بل كانوا متمسكين بحقهم في إتاوة[4] سنوية تعود الحكام الحفصيون دفعها للقبيلة لاتقاء شر أعمالها وضمان مناصرة فرسانها لهم أيام الحروب، وكانت الدولة تتعرض لنهب الذواودة كلما حاولت إيقاف هذه الإتاوة. وهو ما حدث في عهد "ابن العباس أحمد" الذي أنقص من قيمة هذه الإتاوة لعجز بالخزينة وحاول إيقافها فهاجم "يعقوب بن علي" أراضي الدولة بنقاوس ونهب زرعها[5] ولم تتوقف الحرب بين الطرفين، رغم وفاة "يعقوب بن علي"، حتى اضطر السلطان "ابن العباس" إلى طلب التفاوض مع زعماء القبيلة.

---

1 نفس المصدر، ص897 .

2 نفس المصدر، ص 76.

3 نفس المصدر، ص76، وابن القنفذ: المصدر السابق، ص 188.

4 يطلق عليها ابن خلدون مصطلح "الميرة" .

5 ابن خلدون: نفس المصدر، ص 901.

انتقل وفد من القبيلة بزعامة "محمد بن يعقوب" إلى تونس حيث تم الصلح بين الطرفين أعيد على إثره للذواودة كل ما كان لهم من أعطية وامتيازات.[1] وقد أكد ابن القنفذ، الذي عاصر هذه الأحداث، أن خسائر الدولة في هذه الحرب كانت باهظة ومما قاله عن ذلك: "أنشأ (أبو إسحاق) بشجاعته مع الرياحيين حربا جهز لها جيوشا، وأنفق فيها مالا كثيرا، أخبرني _رحمه الله_ أنه أنفق في شهر شعبان من سنة اثنين وتسعين وسبعمائة (792هـ) ثمانين ألف (80000) دينار دراهم جديدة ثم استشهد بكاتبه فأخرج زماما وقفت على فصوله فوجدت جملته تزيد عن تسعين ألف (90.000) ونحو مائة فرس مختارة ...".[2]

من هذا العرض المختصر لتاريخ الذواودة تتضح لنا قوة هذه القبيلة وبالتالي قوة أسرة بوعكاز، وسيطرتها على شرق المغرب الأوسط قبل مجيء العثمانيين.

كما يبرز لنا نفوذها الذي طغى على نفوذ الحكام الحفصيين بالمنطقة. وقد استمر هذا النفوذ بنفس القوة، تحت زعامة "السخري بن يعقوب بن علي" على كامل المنطقة الواقعة بين قسنطينة وورقلة[3] حتى وصول العثمانيين إلى المنطقة.

وقد عمل العثمانيون، منذ بداية حكمهم للجزائر، على كسب ولاء هذه القبيلة القوية فتقربوا من شيوخها. ويبدو أن أول اتصال للعثمانيين بهذه القبيلة كان في عهد البيلرباي "خير الدين بربروس"، أول حاكم عثماني بالجزائر؛ إذ تقول إحدى الوثائق التي لخصها لنا أحد أحفاد الذواودة، الشيخ "محمد خير الدين"، أن خير الدين باشا أصدر سنة (936هـ/1529م) نداء عاما دعا فيه

---

[1] Mercier(E): Histoire de Constantine, Constantine, 1903, p158.

[2] ابن القنفذ: المصدر السابق، ص 187.

[3] لم تكن مناطق نفوذ القبيلة قارة، بل كانت في مد وجزر مع نفوذ غيرها من القبائل والأسر الحاكمة بالبايلك. أنظر، الخريطة التوضيحية حول انتشار نفوذ الأسر الحاكمة ببايلك قسنطينة في نهاية الفصل الأول.

أئمة المساجد إلى قراءة الخطبة باسم السلطان العثماني ووجه دعوته باسم السلطان إلى كافة القبائل العربية من رياح إلى طاعة السلطان فأجابه هؤلاء إلى ذلك بشروط أهمها:

- عدم المساس بما تحت أيديهم من الأراضي والحقوق والامتيازات التي مكنهم منها الحكام الحفصيون.
- احترام اختيارهم بأنفسهم لأمراءهم، أي عدم تدخل العثمانيين في تعيين أمراءهم، واحترام قوانينهم القبلية.[1]

وبقبول "خير الدين باشا" لهذه الشروط دخلت قبيلة الذواودة عهدا جديدا مع العثمانيين بزعامة أسرة "بوعكاز"، إذ أصدر الباشا أمرا بتزكيته لأي أمير يعين على القبيلة ومنحه لقب "شيخ العرب"، وكان أول أمير من القبيلة حمل هذا اللقب هو "علي بن السخري" الملقب بـــ "بوعكاز"[2] والذي أخذت هذه الأسرة اسمها منه.

ب. مقومات سلطان الأسرة:

من عرضنا السابق تتضح لنا السمات الرئيسية لأسرة بوعكاز وهي:

1. **الطابع الاقطاعي للأسرة:** اعتمدت في بسط نفوذها على سعة أراضيها الممتدة من سهول قسنطينة وعنابة شرقا إلى سطيف والمسيلة غربا ومن الأوراس إلى الزاب وورقلة جنوبا، بل تقول بعض المراجع أن نفوذ الذواودة كان يصل حتى "منداس"[3] (تيهرت) بغرب البلاد. وجميع هذه الأراضي كانت، كما مر بنا، هبة من الحكام الموحدين والحفصيين مقابل ما كانت تقدمه القبيلة لهم من خدمات عسكرية، إلا أن قبيلة الذواودة وعلى رأسها أسرة بوعكاز لم تكن

---

[1] خير الدين (محمد): مذكرات الشيخ محمد خير الدين، ج1، مطبعة دحلب، الجزائر، 1985، ص ص441- 442.

[2] لقب الشيخ "علي بن السخري" بهذا اللقب لأن عصاه كانت تلازمه.

[3] خير الدين (محمد): نفس المرجع، ص 436.

تستغل هذه الأراضي في الزراعة بل حولت معظمها إلى مراعي لمواشيها لأن الطابع البدوي كان يغلب على القبيلة.

2. **الطابع البدوي للأسرة:** اتسمت أسرة بوعكاز بطابعها البدوي غير المستقر[1] فكانت تقوم برحلتي الشتاء والصيف بين الزيبان والهضاب العليا طلبا للكلأ والعشب لقطعانها، فتقضي فصل الشتاء على ضفتي وادي جدي وتضرب خيامها، صيفا بأراضي "البلاغة" المجاورة لأراضي أولاد عبد النور[2] بالهضاب العليا، وأحيانا تصل حتى مشارف مدينة قسنطينة، ويدلنا اتساع أراضي هذه الأسرة على مدى ضخامة عدد مواشيها التي أكد بعض الرحالة أنها كانت لا تحصى، الأمر الذي جعل من قبيلة الذواودة الممول الرئيسي لقسنطينة وضواحيها بمادة اللحوم.[3] وللتعبير عن الثراء الواسع لهذه الأسرة أكد الباحثان الفرنسيان "ادمنت" و"مارت" غوفيان*((E) M) Gouvion)* أن زعيم الأسرة "الشيخ علي بن السخري بوعكاز" كان يقوم وحده بنحر حوالي 140 جملا أيام الأعياد والمواسم.[4] إلا أن الطابع البدوي للأسرة وحياة الترحال هذه، في اعتقادي، كانت السبب في عدم تكوينها لإمارة حقيقية على غرار بني جلاب بتقرت أو المقراني بمجانة أو شقيقتها أسرة "جامع بن دهان"، من بني علي إحدى بطون رياح. وقد استطاعت أن تكون "إمارة عربية بمدينة قابس

---

[1] قيل لي أن الأسرة كانت تعرف بـــ" بيت بوعكاز" لأن البيت يعني محليا بيت الشعر(الخيمة) لأنها من الرحل وذلك عكس الأسر المستقرة التي كان يطلق عليها اسم "دار" مثل " دار الفكون" وغيرها.

[2] يقول الشيخ محمد خير الدين أن جميع هذه الأراضي انتقلت إلى يد المعمرين أثناء الاحتلال الفرنسي للجزائر، ولإعادة الاعتبار للأسرة أعاد أحفادها شراء هذه الأراضي من المعمر(بورجو) سنة 1939م أثر اندلاع الحرب العالمية الثانية. أنظر: نفس المرجع، ص 41.

[3] الحسن الوزان: وصف إفريقيا، ترجمة: عبد الرحمن حميدة، الرياض، 1399هـــ/1981م، ص60.

[4] Gouvion (E) (M): Kitab Ayanes el maghariba, (Bouakaz) Imprimerie orientale, Alger, 1920, pp31-32.

(بتونس) ونجحت في جعلها حاضرة صغيرة مزدهرة مليئة بالقصور والبساتين وضربت السكة باسم أميرها الرشيد".[1]

وإن كان هذا لم يمنع الباحثين من إطلاق لقب الأمير على شيوخ القبيلة؛ إذ بدل لقب "السلطان" الذي كان يطلق على بني جلاب والمقراني أطلق على شيوخ أسرة بوعكاز لقب "أمير العرب" وأحيانا "شيخ رياح"[2] وهذا قبل أن تُلغى جميع هذه الألقاب ويحل محلها لقب "شيخ العرب" الذي أطلق على الأسرة من قبل العثمانيين.

3. **الطابع العسكري للأسرة:** تصنف أسرة بوعكاز الذواودة من "الجواد" أي الفرسان، حيث اشتهرت، إلى جانب طابعها البدوي بفروسيتها وجيوشها الضخمة، الأمر الذي جعل الباحثين يطلقون عليها اسم "الأرستقراطية الحربية" أو "نبالة السيف" "*Noblesse d'épée*" ويدخل ضمن هذا التصنيف عدد من الأسر بشرق الجزائر منها أسرة أحرار الحنانشة، وكانت الأسر العسكرية بشرق الجزائر أقوى نفوذا من الأسر المرابطية،[3] وشرف الانتساب إليها لم يكن يقل عن شرف الانتساب إلى النسب الشريف.[4]

وقد اعتمدت أسرة بوعكاز أو قبيلة الذواودة، في فرض نفوذها على القوة العسكرية، فكانت ترهب القبائل والسلطات الحاكمة بما تملكه من جيوش قوية حددها الرحالة المغربي الحسن الوزان، في نهاية العهد الحفصي، بحوالي 5000 فارس مجهزين أحسن تجهيز، عدا قوات القبائل التابعة لهم.[5] في حين حددها

---

1 مصطفى أبو الضيف (أحمد عمر): القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص61.

2 الحسن الوزان: المصدر السابق، ص ص 30-34 وغيرها.

3 Babes (leila): Tribus...., p85.

4 نفس المرجع، ص 70.

5 المصدر السابق، ص 61.

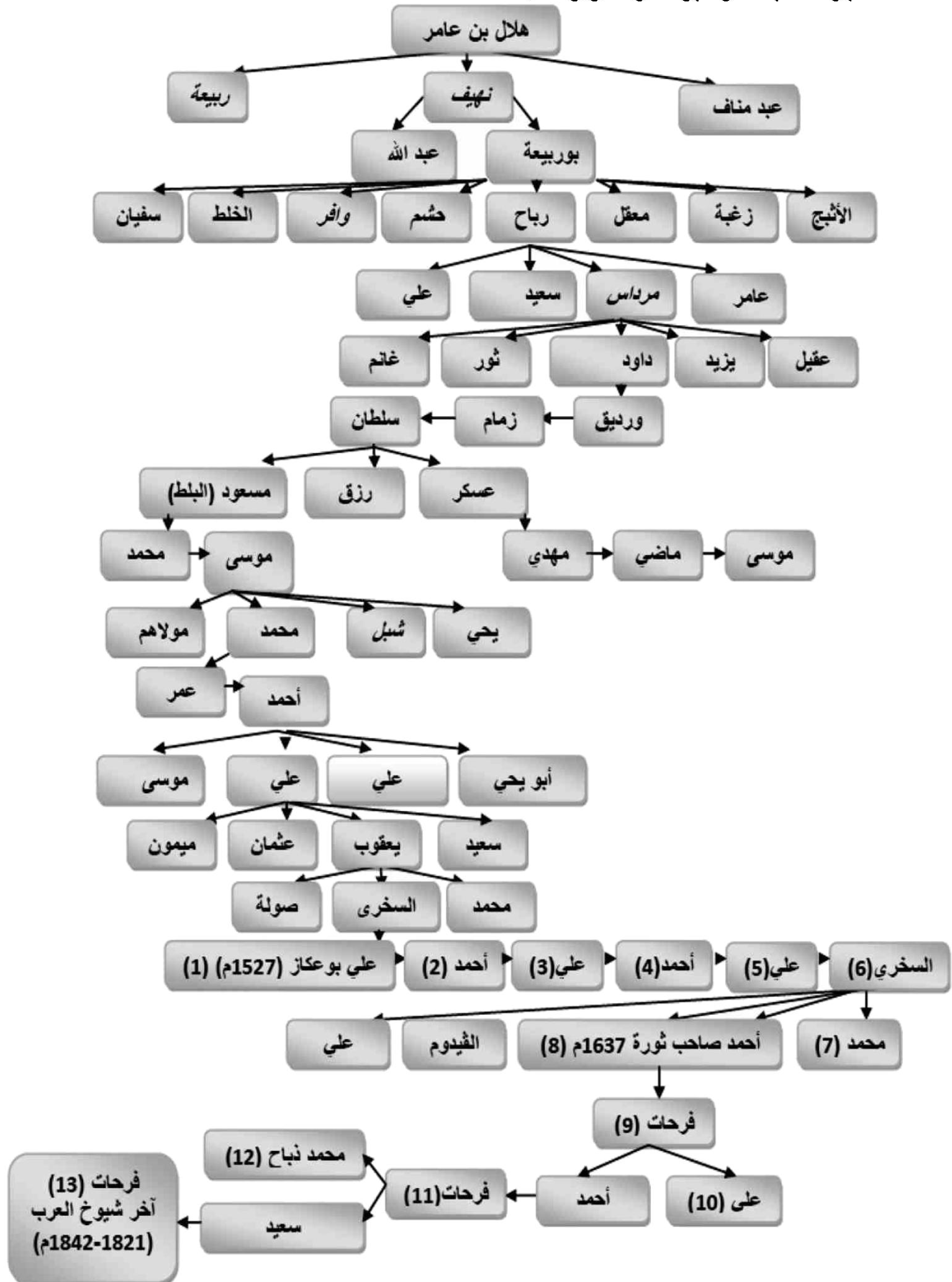
القائد الإسباني"*Bernardino de Mendaza*"، في بداية العهد العثماني بـــ 1700 فارس بالصحراء و10000 بمنطقة قسنطينة.[1] ورغم استحالة اعطاء العدد الصحيح لقوات الذواودة فإن ما يمكن تأكيده هو فعالية هذه القوات؛ إذ بفضلها استطاع هؤلاء العرب فرض نفوذهم على المنطقة وحافظوا على استقلالهم، بل كانت ضغوطاتهم على الدولة الحفصية واضحة إلى حد اشتراط الحصول "على نصف الضرائب ومنتجات الأرض التي ستزرع من المملكة"[2] لكف يدهم عن الإساءة للحكم المركزي.

من هنا يمكن القول أن أسرة بوعكاز لم تكن حديثة العهد بالحكم والسلطة ببايلك قسنطينة و لم تعتمد على العثمانيين في اكتساب ذلك النفوذ، بل كان حكمها متوارثا منذ العهود السابقة إذ كانت عند دخول العثمانيين أقوى حتى من الدولة الحفصية نفسها سواء بالنسبة لمواردها المالية أو نفوذها العسكري والسياسي.

[1] Feraud (Ch): les Hrars..., p140.

[2] الحسن الوزان: المصدر السابق، ص 57.

شجرة نسب أسرة بوعكاز الذواودة[1]:



[1] اعتمدت في رسم هذه الشجرة على عدد من المصادر أهمها: ابن خلدون: كتاب العبر، ج 6، وابن القنفد: الفارسية، Feraud (ch): Le Sahara de Constantine. et Gouvion: Aayane elmaghariba.
أما الأرقام المشار بها لأسماء شيوخ الأسرة فتدل على تعاقبهم على مشيخة العرب.

ثانيا. أسرة أحرار الحنانشة: حكام الحدود الشرقية للبايلك:

أ. **أصولها:** إذا كانت أصول أسرة بوعكاز ثابتة ومتفق عليها فإن أسرة أحرار الحنانشة لم يتفق على أصولها وقد وضعت لها احتمالات ثلاث:

الأول: أنها أسرة بربرية من قبيلة هوارة التي حكمت طرابلس ثم انتقلت إلى إفريقية مع الفاتحين المسلمين، واستقرت بالمنطقة الغربية من البلاد. وهو ما ذكره ابن خلدون في تاريخه لقبيلة هوارة. ويتضح ذلك من خلال ذكره لعدد من زعماء هوارة الذين ترأسوا القبيلة بالمنطقة الواقعة بين مدينتي تبسة وعنابة. ويحملون جميعا اسم حناش وأولهم حناش بن بعرة الذي يقول عنه المؤرخ: "أنه كان قائدا لقبيلة هوارة وأنه لعب دورا هاما في محاربة ابن غانية إلى جانب الحفصيين،[1] ويذكر في موقع آخر مقتل أحد قادة هوارة من طرف الحفصيين سنة (636هـ/1238م) وهو "أبو الطيب بعرة بن حناش".[2] ثم يشير إلى اسم قائد هوارة في عهده فيقول:" ورئاستهم (هوارة) لهذا العهد في ولد يفرن بن حناش لأولاد سليم بن عبد الواحد ابن عسكر بن محمد بن يفرن ثم لأولاد زيتون بن محمد بن يفرن ولأولاد دحمان بن فلان بعده. وكانت الرئاسة قبلهم لسارية من بطون ونيفن ومواطنهم ببسائط مرماجة وتبسة وما إليهما".[3]

إلا أن هذه القبيلة حسب نفس المصدر فقدت الكثير من صفاتها البربرية باختلاطها مع القبائل العربية من بني سليم وبني هلال الوافدة من المشرق العربي؛ إذ كان تأثرها بهم واندماجها في حياتهم واضحا إلى أن صارت، حسب تعبير ابن خلدون نفسه:"في عداد الناجعة عرب بني سليم في اللغة والزي وسكنى الخيام وركوب الخيل، وكسب الإبل وممارسة الحروب وايلاف الرحلتين في الشتاء والصيف في تلولهم. قد نسوا رطانة البربر، واستبدلوها

---

[1] ابن خلدون: كتاب العبر، ج 6، ص 405.

[2] نفس المصدر، ص 598.

[3] نفس المصدر، ص 288.

بفصاحة العرب فلا يكاد يفرق بينهم"[1] ولعل ذلك ما جعل أسرة أحرار الحنانشة تتمسك بانتسابها إلى العرب وظهور فكرة انتسابهم إلى بني سليم؛ إذ أن الاختلاط بين الطرفين أنسى الحنانشة أصولهم لقوة تأثير الطرف الأول فيهم.

إلا أن بعض السمات التي ميزت قبيلة هوارة بقيت، حسب بعض الباحثين الفرنسيين، أمثال "فيرو" *(Ch.Feraud)*، تميز أسرة أحرار الحنانشة، منها الديانة اليهودية. فقد ركز هذا الكاتب. لغرض في نفسه، على الديانة اليهودية التي كانت حسب ابن خلدون تدين بها قبيلة هوارة قبل الفتوحات الإسلامية[2] وأكد على بقاء بعض فروع هذه القبيلة على هذه الديانات حتى فترة الاستعمار الفرنسي ومنها أسرة أحرار الحنانشة نفسها، حيث جاء في تاريخ الباحث للأسرة: "من بين أفراد أسرة أحرار الحنانشة الذين استقبلوا القوات الفرنسية بمنطقة سوق أهراس، مركز حكم الأسرة، أحد الفرسان الشجعان قدم أكبر المساعدات للقوات الفرنسية وعند استيلائنا على المنطقة لم ينس قائد الحملة هذه المساعدات وعمل على مكافأة الفارس وعند حضوره إلينا وجدنا أنه يهودي".[3]

وللتأكيد على انتساب الأسرة إلى هذه الديانة يقول نفس الكاتب أن القبائل كانت تتعمد إهانة الحناشي بذكر أصوله بقولهم:" حناش بن فناش بن فلاش بن حباس بن شالوم اليهودي".[4] ومهما كان غرض الباحث "فيرو" من التأكيد على هذه الصفة للحنانشة وعلى رأسهم أسرة "الأحرار" فإن نفس الصفة يشير إليها أحد الكتاب الجزائريين المعاصرين وهو حسن دردور، بقوله:" أن من بين الحنانشة أقلية يهودية وهي "اليحوس" من سلالة حمارة اليهودية بنت

---

1 نفس المصدر ص ص 287 - 288.

2 ابن خلدون: كتاب العبر، ج 6، ص 185 وما بعدها.

3 Feraud (Ch): " les Hrars..." , Op.cit, p31.

4 Ibid, p30.

الخفاش، خرجوا من بلادهم صحبة الحواريين أجداد الحنانشة واستقروا في منطقة "عرورية"، قرب سوق أهراس، وكان لهم مجلس خاص يعقد اجتماعاته في معبد يهودي (*Synagogue*) وقد بقيت هذه الجماعة تقيم قرب سوق أهراس حتى سنة 1939م"[1] إلا أن ما يؤكده أيضا كل من "فيرو" و"حسن دردور" هو أنه لا يمكن التفريق بين هؤلاء وبين المسلمين بالمنطقة لما كان بينهما من تقارب في مختلف أوجه الحياة وأن عرفوا ببعض العيوب مثل سرعة الخديعة.

فهل يمكن تصديق هذه الرواية؟ وهل استمر أحرار الحنانشة في التدين باليهودية حتى العهد العثماني، فترة هذه الدراسة؟ كل هذا لا يمكن الجزم به سواء بالنفي أو الإثبات وذلك لسكوت المصادر عن هذه القضية. إلا أن ما يوحي بصحة هذه الفرضية هو ذكر المؤرخ التونسي، أحمد بن أبي الضياف، عند حديثه عن الباي مراد، باي تونس، أنه "بنى مقبرة النصارى أمام باب قرطاجة لدفن أمه، لأنها كانت على دين النصرانية[2] حتى توفيت"،[3] وإذا كانت نسبة مراد باي إلى أسرة أحرار الحنانشة من أمه، صحيحة، وهو ما أشار إليه نفس المصدر بقوله "مراد باي ابن علي باي من زوجه بنت سلطان بن منصر الحناشي"[4] فإنه لا يسعنا إلا أن نقول أن "السلطان بن منصر"، زعيم أسرة "أحرار الحنانشة" في سنة (1110هـ/1699م)، كان على غير دين الإسلام[5] أي

---

[1] Dardour (H'sen) : Annaba 25 Siecles de vie Quotidienne et de lutte,T2, SNED, Alger, 1982, pp59-60.

[2] أعتقد أن المصدر يقصد بالنصرانية أنه على غير دين الإسلام سواء كان نصرانيا أو يهوديا.

[3] ابن أبي الضياف (أحمد): إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ج 2، المكتبة التاريخية، تونس، 1963، ص 72.

[4] نفس المصدر، ص70.

[5] أشار الرحالة الورثيلاني إلى استهتار زعماء أسرة أحرار الحنانشة بتعاليم الإسلام ومما ذكره أن شيخها إبراهيم بن بوعزيز كان مطاردا من طرف الباي " للانتقام منه لأمر ديني وهو استطالته على المسلمين وتمرده على الأحكام الشرعية ...".أنظر، الورثيلاني (حسن بن محمد): نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، ط 2، دار الكتاب العربي، بيروت، 1394 هـ/1974م، ص126.

أنه ممن بقي من هوارة على الديانة اليهودية. وإن كان الجزم في الموضوع يبقى غير ممكن وخاصة بالنسبة لبقاء الأسرة على الديانة اليهودية.

أما بالنسبة لانتسابها إلى قبيلة هوارة البربرية فإن معظم المصادر تؤكد ذلك وآخرها قول الرحالة الحسن الوزان، عند وصفه لمدينة "تفش"،[1] في بداية القرن (10هـ/16م):"وظلت (تفش) أخيرا في حوزة قبيلة إفريقية لم تستخدمها إلا لتخزين حبوبها، وتدعى هذه القبيلة هوارة ولها في أيامنا أمير يدعى نسر"،[2] و لم يكن "نسر" هذا إلا "نصر" والد "خالد الكبير" الذي أكد الحنانشة أنفسهم للباحث "فيرو" أنه كان قائدا لهم في الأيام الأولى للحكم العثماني.[3]

بعد هذا الاسترسال في تحليل الاحتمال الأول لنسب أسرة أحرار الحنانشة باعتباره احتمال قوي نتحول إلى الاحتمال **الثاني** وهو نسبة الأسرة إلى عرب بني سليم وأعتقد أنه الاحتمال الأضعف فرضته قوة تأثير بني سليم على جميع قبائل شرق البلاد، وخاصة قبيلة هوارة التي يقول الاحتمال الأول أنها أسلاف أسرة أحرار الحنانشة.

أما الاحتمال **الثالث** وهو الاحتمال الذي تمسكت به أسرة أحرار الحنانشة وعملت على تأكيد صحته فهو الانتساب إلى الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فقد عمد شيوخ الأسرة إلى تأكيد هذه الحقيقة بوضعهم لشجرة نسب تعيدهم إلى القائد "حنش بن عبد الله بن عمر بن الخطاب" وهي الشجرة التي قدموها سنة 1874م إلى الباحث الفرنسي "فيرو" عند مباشرته لكتابة تاريخ الأسرة.[4]

---

[1] تقع هذه المدينة غرب مدينة سوق أهراس. (أنظر خريطة شو للبايلك في نهاية المدخل).

[2] الحسن الوزان: المصدر السابق، ص334 .

[3] أنظر شجرة نسب الأسرة، ص51.

[4] Feraud (ch): “ les Hrars…” , op.cit , p129.

ولإثبات ذلك النسب أكد هؤلاء للباحث أن "قلعة سنان"،[1] مقرهم الرئيسي لم تكن في الحقيقة إلا "قلعة صنعان" نسبة إلى جدهم حنش الصنعاني اليمني[2] وهو ما ذكره أيضا العدواني بقوله أن قائـــد الحنانشة في بداية القرن (10هـــ/16م) هو "عثمان بن علي بن أبي بكر بن محمد بن سعد بن جابر بن إبراهيم بن عمر بن معزة بن محمد بن جابر بن نصر الصغير بن عمر بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه".[3] كما يقول في مكان آخر عن غانم بن المنذر الحناشي أنه ينتمي إلى أصول بني حفص[4] الذين ينحدرون من سلالة عمر بن الخطاب.[5] وقد يكون هذا الاحتمال صحيحا إلا أن تساؤلات كثيرة تبقى مطروحة منها أن القائد العربي "حنش بن عبد الله الصنعاني"، حسب ما جاء في تاريخ ابن خلدون لم يمكث بمنطقة الحنانشة إلا فترة قصيرة عاد بعدها إلى مصر عقب مقتل قائده عقبة بن نافع[6] فهل يمكن أن يترك خلفا له بالمنطقة في هذه الفترة القصيرة؟ إن ذلك ممكن إلا أنه غير مثبت بالمصادر، كما أننا لم نجد بالمصادر التي أرخت للحفصيين ما يؤكد أن لهؤلاء علاقة قرابة بقبيلة الحنانشة.[7]

---

1 قلعة طبيعية حصينة توجد اليوم بالأراضي التونسية، جنوب غرب الكاف، وقد اختلفت تسمياتها مثل "قلعة الأصنام"، "قلعة صنعان" و "قلعة سنان" وإن كانت هذه التسمية الأخيرة أكثر شيوعا بالمصادر العربية منها كتاب الزركشي. أنظر، الزركشي (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللولوى، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ط1، مطبعة الدار التونسية المحروسة، تونس، 1289هـــ/1872م، ص ص 31- 39.

2 Feraud (ch): " les Hrars …" op.cit, p129.

3 Feraud (ch): " Kitab el Adouani ", op.cit, pp110-111.

4 Ibid, p 96.

5 تقول الباحثة "ليلى باباس" التي ناقشت الموضوع أن ابن خلدون ينسب الأسرة إلى حنش بن عبد الله الصنعاني، من اتباع الرسول (ص) إلا أنني لم أعثر على ذلك بالمصدر. أنظر:

Babes (leila): Mythe…, p187.

6 ابن خلدون: كتاب العبر، ط 4، ص 400.

7 حول الموضوع أنظر:

Babes (leila) , Mythe…, P. 244 – 262 .

بعد هذه الفرضيات التي تقبل كلها التصديق في غياب الوثائق الرسمية، لم يبق لنا إلا أن نميل إلى رأي الباحث (*Féraud*) الذي يذهب إلى أن قبيلة الحنانشة تتكون من عدة قبائل مختلفة في أصولها منها ثلاث قبائل رئيسية هي:

1°. الشاوية (الحراكتة والنمامشة) بالأوراس.

2°. هوارة واخوالهم غداسة.

3°. العرب الهلالية وبني سليم.[1]

وهو ما أشار إليه ابن خلدون نفسه بقوله أن قبيلة هوارة كانت تضم العديد من القبائل منها نفزاوة وبني يفرن ونقوسة وعددا لا يحصى من قبائل البربر التي خضعت للعرب من بني سليم.[2] وكذلك الرحالة الحسن الوزان بقوله أن عددا كبيرا من القبائل انضمت إلى الحنانشة بعد انتصار زعيمهم "نصر" على الحاكم الحفصي سنة (915هـــ/1510م) وأعلنت ولاءها لهم وحملت اسمهم.[3] إلا أننا، إذا سلمنا بأن قبيلة الحنانشة هي عبارة عن مجموعة من القبائل المختلفة، فإنه حسب اعتقادي يصعب علينا التسليم بأنها كونت وحدة متماسكة؛ إذ أن الفروق بقيت واضحة بين القبائل التابعة (الموالي) والقبيلة الأصلية، وهي "أحرار الحنانشة"، التي بقيت تحتكر زعامة القبيلة طوال العهدين الحفصي والعثماني، ولعل ذلك هو السبب في إضافة صفة "أحرار" إلى اسمها (أحرار الحنانشة)، أي الحنانشة الأقحاح أو الأصليون، أما البقية فهم الحنانشة "بالحلف والموطن".[4] وأعتقد أن هذا الفرع هو الذي التفت حوله بقية القبائل والفروع القبلية الأخرى وهو الذي تبقى أصوله تحتاج لمزيد من البحث.

---

[1] Feraud (ch) “ les Hrars …” op.cit, p29.

[2] ابن خلدون: كتاب العبر، ج 6، ص 204.

[3] الحسن الوزان: المصدر السابق، ص 428.

[4] حول تشابك أصول القبائل بالمغرب العربي أنظر مدخل الكتاب.

- **مقومات سلطان الأسرة:**

مهما كانت صحة أو خطأ أحد الاحتمالات الثلاثة، السالفة الذكر، حول أصول أسرة أحرار الحنانشة فإن هذه الأسرة استطاعت أن تتزعم ولفترة طويلة دامت أكثر من خمسة قرون، المناطق الحدودية لشرق الجزائر الحالية وأن تخضع لسلطانها عددا كبيرا من القبائل الحدودية التي كونت منها قوة عسكرية كبيرة عززت بها نفوذها بالمنطقة. وقد كان نفوذ أسرة أحرار الحنانشة، على غرار قبيلة الذواودة، يتسع بتقلص نفوذ السلطة المركزية إلى أن وصل في بداية القرن (10هـ/16م) إلى مدينة تبسة وشرق الأوراس وحتى الزاب جنوبا وإلى القالة وعنابة شمالا ويصل نفوذها غربا حتى شرق قسنطينة، وبذلك ضمت منطقة القالة والناظور ومهونة والنبايل من أحواز قالمة وسوق أهراس وتبسة والأوراس الشرقي وحتى ما وراء الحدود التونسية؛ إذ ضمت بعض القبائل التابعة لتونس كما كانت تضم حمير وشارن وأولاد بورنام والفراشيش وكامل الجنوب من الزيبان حتى نفطة بالتراب التونسي حاليا.[1] وكانت هذه الأراضي تتسع أحيانا وتتقلص أخرى حسب فترات قوة أو ضعف شيوخ الأسرة من جهة وفترات قوة أو ضعف الحكم المركزي من جهة ثانية. كما كان يحدد ذلك طابع العلاقة التي كانت تربط شيوخ الأسرة بالحاكم في كل من تونس وقسنطينة.[2]

وهنا يمكن أن نتساءل عن مصدر قوة هذه الأسرة، هل استمدت أسرة أحرار الحنانشة نفوذها وسلطانها من اتساع أراضيها مما أعطى لها الصفة الإقطاعية؟ أم من قوة الحلف الذي كونته مع غيرها من قبائل المنطقة؟ وهل كان الحنانشة أنفسهم يمثلون حلفا قبليا أم قبيلة موحدة اتسعت تدريجيا ليشمل نفوذها جميع هذه المناطق؟ أم أنها سلطنة توارثها أبناء أسرة واحدة استطاعت

---

[1] Feraud (ch): " les Hrars..." op.cit, p22.

[2] أنظر الخريطة التوضيحية لمناطق نفوذ الأسرة في نهاية الفصل الأول.

أن تكون حكما محليا قويا متماسكا بالمنطقة، تارة يوالي الحكم المركزي وأخرى يخرج عنه؟

إن الحنانشة يجمعون بين جميع هذه الصفات، فهم مجموعة من القبائل المتحدة عسكريا واقتصاديا ضد العدو الخارجي، وهي قبيلة تحمل اسما واحدا ونظاما واحدا، وهي سلطنة لها حكم متوارث في أسرة واحدة كأي سلطنة وراثية ويطلق على حاكمها لقب "السلطان".[1] كما أن للأسرة حكما مستقلا يثبته ولاء بقية القبائل للسلطان ودفعها له الضرائب المستحقة[2] واتباعها له في موالاته للحكم المركزي أو ثورته عليه ومن بين سمات السلطان لهذه الأسرة:

1. **الطابع العسكري**: تتوفر أسرة أحرار الحنانشة على قوة عسكرية ضاربة، حيث كان فرساها من أهم الوحدات العسكرية التي اعتمد عليها الحفصيون في الحروب وجباية الضرائب. وبفضل قواها العسكرية تمكنت الأسرة من فرض سيطرها على معظم القبائل الحدودية بين المغرب الأدنى والأوسط وخاصة في غياب السلطات المركزية القوية وهو ما حدث في نهاية العهد الحفصي، وإن كان استقلالها عن الحكم الحفصي لم يكن مستمرا كما كان الحال بالنسبة لقبيلة الذواودة؛ إذ بحكم قربها من حاضرة الدولة الحفصية كانت أكثر خضوعا للحكم المركزي، وهو ما أشار إليه ابن خلدون بقوله:"غلبوا على أمرهم منذ ضحا عملهم في ظل الدولة فتملكوهم تملك العبيد للجباية والاستكثار منهم في الانتجاع والحروب".[3]

إلا أن هذا لا يعني خضوع الحنانشة للسلطة الحفصية خضوعا تاما، بل كثيرا ما نجدهم يثورون على هؤلاء ويكبدونهم الخسائر الهامة. كما أن مضاربهم

---

[1] أطلق الرحالة "بيسونال" (Peyssonnel) على الشيخ بوعزيز الحنانشة لقب "سلطان الحنانشة". أنظر: Peyssonnel et Desfontaines: op.cit, p293 .

[2] Babes (leila): Mythe...,op.cit, p244.

[3] ابن خلدون: كتاب العبر، ج 6، ص 289.

كانت في أغلب الأحيان، على غرار قبيلة الذواودة، ملجأ للمتمردين من الأمراء الحفصيين وذلك قصد إضعاف الحكم المركزي بضرب الحكام بعضهم ببعض، وهو ما حدث في سنة 838هـ/1434م أثر فرار الفضل، أخ المستنصر، إلى الحنانشة الذين ساندوه في ثورته ضد أخيه، إلا أن الثورة انتهت بالفضل وكانت سببا في هزيمة القبيلة وتشريدها،[1] غير أن القبيلة سرعان ما كانت تجمع شتاها وتعود إلى مواطنها بقوات جديدة.

وقد زاد من قوة ونفوذ الحنانشة تحالفهم مع الشابية،[2] الذين فروا من القيروان بعد حروبهم مع الحفصيين وكونوا حلفا قويا ضم معظم قبائل الحدود الشرقية للمغرب الأوسط حتى الأوراس غربا فكونوا بذلك دولة مستقلة قوية وقفت ضد كل من الحفصيين والعثمانيين بعد ذلك، وقد أطلق الباحث "فيرو" على هذه الدولة التي كان معظم قبائلها من الرحل اسم "الجمهورية الرعوية" (Republique pastorale).[3]

1. **الطابع البدوي للأسرة**: أما عن المكانة الاقتصادية لأحرار الحنانشة فإنه رغم سعة أراضيها، مما يؤهلها إلى أن تكون أسرة إقطاعية كبرى، فإن طابع البداوة كان يغلب على نشاطها؛ إذ كانت غير مستقرة ولا تستغل إلا جزءا منها مراعي لقطعانها وقطعان أتباعها من القبائل، وهو ما جعل الثروة الحيوانية أساس ثروة الأسرة إلى جانب الضرائب التي كانت تجمعها من أتباعها. ولعل المصدر الأخير لثرواتها كان السبب في إهمال الأسرة لاستغلال أراضيها لأن الضرائب كانت مصدرا كافيا لتكوين ثروة واسعة لها.

وكأي أسرة بدوية كانت أسرة أحرار الحنانشة تقوم برحلتي الشتاء والصيف بين السهوب والتلال سعيا وراء المراعي الخصبة لقطعانها وكان

---

[1] ابن أبي الضياف (أحمد): المصدر السابق، ص 234.

[2] **الشابية**: نسبة إلى "الشابة" مدينة قرب المهدية بتونس.

[3] Feraud (ch):“ Kitabs el Adouani”, op.cit , pp95- 97.

شيوخها يصلون على رأس قواهم حتى سهول قسنطينة وعنابة وقالمة التي كانت في الواقع مركزا هاما للأسرة ومنها يعودون إلى "قلعة سنان"[1] ملجأ الأسرة أيام الحروب والمحن. كما كانت قرية "تيفش" مخزنا لحبوبهم وحبوب أتباعهم. وكان شيخ الأسرة يعسكر بزمالته[2] صيفا، إما في كاف ثلاثة بجبل مسيد أو بجبل حناش (قلعة سنان) وفي الشتاء ينتقل مع أتباعه إلى الجنوب أو يضرب خيامه على ضفاف وادي مجردة حيث يقضي كامل الشتاء.[3]

بعد هذا العرض الموجز لأصول الأسرة وتطورها منذ العهد الحفصي يمكن تصور مكانتها السياسية والعسكرية والاقتصادية قُبيل وبعد مجيء العثمانيين إلى المنطقة وهو ما سنتعرض له بالدراسة والتحليل في الفصول اللآحقة من الكتاب.

[1] وصف الرحالة الإنجليزي (شو) (*Shaw*) القلعة بقوله: "وعلى 5 فراسخ جنوب وادي الصراط توجد قلعة سنان وهي قرية هامة بنيت على قمة جبل حادة ولها طريق وحيد يوصل إليها، وبالتالي كانت قلعة حصينة لا يمكن اقتحامها أو هزيمة سكانها إلا عن طريق التحويع أو المفاجأة. وقد استعملت كمنفى للثائرين والمجرمين وغيرهم من الإيالتين التونسية والجزائرية. وتعتبر القلعة الحد الفاصل بين منطقة الحنانشة ومنطقة النمامشة. أنظر:

Dr Shaw: op.cit pp163-164.

[2] فرقته العسكرية.

[3] Feraud (ch): “ les Hrars…” op.cit, p22.

شجرة نسب أسرة أحرار الحنانشة[1]:

عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)_عبد إله_ حنش_ عامر_نصر _جابر_محمد_بعرة_عامر_ابراهيم_جابر_سعد_محمد_أبوبكر_علي_عثمان_ نصر(1510م) "بداية العهد العثماني" خالد الكبير "بوزرودة 1530م"



[1] أنظر *Féraud (ch)*، الأحرار حكام الحنانشة، المجلة الافريقية، سنة 1874م، ص 394-396. أما الترقيم المشار به إلى أسماء الشيوخ فيدل على تناوب فرعي الأسرة على مشيخة القبيلة.

ثالثا. أسرة المقراني: حكام مجانة بغرب البايلك.

أ. **أصولها:** سيطرت أسرة المقراني، في بداية العهد العثماني على غرب بايلك قسنطينة من جبال البابور شمالا حتى الزاب جنوبا وبذلك اقتسمت زعامة أرياف البايلك مع كل من أسرة بوعكاز بالجنوب وأسرة أحرار الحنانشة بالشرق. وتعود أصول أسرة المقراني، حسب معظم الباحثين إلى الأدارسة أشراف المغرب الأقصى الذين نزح منهم العديد من الأفراد للاستقرار بأراضي المغرب الأوسط (الجزائر) وتكوين أسر مرابطية عرفت شهرة كبيرة خلال القرنين 10/9هـ/16/15م.

ب. وقد جاء في كتاب "الاستقصا لأخبار دول وملوك المغرب الأقصى" للشيخ "أحمد بن خالد بن حماد الناصري السلاوي": أن الشيخ عمرو بن القاضي والد الشيخ أحمد بن القاضي الزواوي، حاكم إمارة كوكو[1] كان قد نزح من ناحية معسكر،[2] بغرب البلاد، إلى جرجرة حيث أنشأ زاوية في قرية "كوكو" للتربية والتعليم وذلك في أوائل القرن 10هـ/16م. "وهو الوقت الذي نزح فيه السيد عبد الرحمن الإدريسي رأس العائلة المقرانية من ناحية معسكر أيضا إلى بلاد زواوة لأخذ العلم عن الشيخ عمرو بن القاضي...ثم انتقل السيد عبد الرحمن الادريسي من بلاد زواوة إلى بني عباس وأنشأ القلعة المسماة باسمهم وهناك ظهر أمره، وعلا صيته وأقام دولة دامت ما يقرب من مائة عام ونافس دولة آل القاضي وخاصة أيام عبد العزيز بن أحمد بن عبد الرحمن...".[3]

---

[1] **كوكو**: هي قرية تقع على الضفة اليسرى من نهر سباو الأعلى بجبال جرجرة.

[2] الشيخ شغيب (محمد المهدي بن علي): أم الحواضر في الماضي والحاضر (تاريخ قسنطينة)، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1980، ص121..

[3] يعيد الباحث بوليفة أصول أسرة ابن القاضي إلى قبيلة زواوة البربرية. أنظر:

Boulifa (S.A): le Djurdjura a travers l'histoire (depuis l'antiquité jusqu'a 1830), Alger, 1925, pp116-123 .

أما الرحالة الحسن الورثيلاني فيقول عن نسب هذه الأسرة أن: "جدهم من القرن التاسع (15م) وولده هو الذي بنى قلعة بني عباس وأقام المملكة فيها بأن أسس العساكر وجَيّش الجيوش وأخذ المغرم في القرن العاشر (16م) بأن وصلت عساكره عمالة تونس ووادي ريغ في الصحراء ومن جهة المغرب ميزاب وبلد الأغواط وهم كذلك في المملكة ثمانون سنة كما سمعته من بعض الفضلاء..."[1]

ويؤكد نفس الرحالة على نسب الأسرة الشريف بقوله:" وقد رأيت طبقات ابن فرحون أنه نص على شرفهم والله أعلم..."[2]

ويبدو أن الأسرة تنحدر من أسرة بوزيد أشراف منطقة بلزمة، غرب باتنة، إذ جاء في كتاب "العقد النضيد في نسب سيدي بوزيد"[3] لمؤلفه بوزيد بن الحاج بلقاسم البوزيدي: أن جد الأسرة يعود إلى القرنين (6-7هـ/12-13م) وهو "بوزيد بن علي بن موسى بن علي بن مهدي بن صفوان بن سار بن موسى بن عيسى بن عبد الله بن موسى بن عيسى بن إدريس الأكبر بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه".[4]

ويضيف المخطوط أن بوزيد ترك أربعة أبناء هم: علي، عبد الله، محمد وأحمد.[5] وذكر أن أبناء أحمد تفرقوا بشرق الجزائر، فمنهم فرقه بأرض القبائل

---

1 الورثيلاني (الحسن بن محمد): المصدر السابق، ص 36.

2 الورثيلاني: نفس المصدر، ص11.

3 لم أعثر على المخطوط وإنما اطلعت على تلخيص في كراسة للشيخ عبد المجيد بوزيد، أمام سابق لمسجد الأمير عبد القادر بباتنة. ويذكر الشيخ أنه تحصل على المخطوط من الشيخ عبد المجيد بن حبة.

4 تحصلت من الأسرة (بوزيد) على صورة لشجرة نسب أسرة بوزيد (البوازيد) بخط أحد شيوخها إلا أنها غير واضحة.

5 أشار الأستاذ مصطفى بن عمر في مقال له تحت عنوان "شرفاء جبل العمور سيدي بوزيد الادريسي" نشره في جريدة "المساء" الصادرة بالجزائر بتاريخ 2 فبراير 1989، إلا أن بعض المصادر لا تذكر

يدعون أولاد عيسى، وأخرى بجبل ونوغة ومنهم أولاد أحمد بن مقران ومنهم أولاد عنان. وفرقة أخرى استقرت بجبل باتنة.[1] أما الباحث الفرنسي ***Feraud*** الذي درس تاريخ الأسرة وقال أنها تمتد على حوالي 20 جيل فيضع لأصولها عددا من الافتراضات منها:

أولا: أنهم من قبيلة بني عباس ومعنى ذلك أنها من أصول بربرية وكان ذلك اعتمادا على ما ألصق بزعماء الأسرة من ألقاب مثل عبد العزيز (العباسي) وكلمة المقراني[2] التي ألصقت بخليفة عبد العزيز أحمد أمقران والتي أخذت الأسرة منها فيما بعد اسمها.

ثانيا: أنهم من قبيلة عياض التي فرت إلى قلعة بني عباس، إثر هجوم الهلاليين، وذلك أخذا بقول ابن خلدون: أن قبيلة عياض كان يتزعمها بنو عبد السلام وبنو قندوز وكلا التسميتين عرف بهما فرعان من أسرة المقراني في نهاية العهد العثماني، ويعلل الباحث هذا بامتلاك أولاد عبد السلام وأولاد قندوز لأراضي واسعة عند سفح جبل أولاد حناش مكان انتشار نفوذ القبيلتين المذكورتين منذ القرن 13م.

ثالثا: ومن الفرنسيين من أرجع أصول هذه الأسرة، لأغراض استعمارية، إلى أسرة فرنسية هي أسرة "*Moumoreney*" وهو أضعف افتراض ورد حول أصول المقراني، وقد نشره "*M.*Henri Cauvain" بجريدة الأخبار الفرنسية بتاريخ 23 ماي 1852م، وتقول الرواية أن أحد أفراد هذه الأسرة الفرنسية اعتنق الإسلام فأعطى له النسب الشريف والدليل على ذلك الوشم الذي يحمله

"أحمد" وإنما "عبد الرحمن" ومنها من تقول أن أحمد هو ابن عبد الرحمن بن بوزيد "وعلى هذا فإن أحمد وذريته هم الذين نجدهم فيما بعد أولاد مقران بمجانه"، ص10. ومازال حتى اليوم فرع بباتنة يدعى "المقارنية" يقرون بقرابتهم الوطيدة من البوازيد بنفس المنطقة.

[1] أنظر ملخص العقد النضيد، المصدر المذكور أعلاه، ص ص 1-3.

[2] **المقراني**: صفة مشتقة من كلمة "أمقران" البربرية وتعني الكبير ويراد بها كبير العائلة أو كبير القوم أي القائد أو الرئيس.

أبناء الأسرة على أجسامهم وأسلحتهم ويمثل الصليب وقد روج لهذه الاشاعة الجنرال "بارال"[1] "*G.leBarral*" في جمعية عقدها بمدينة سطيف حضرها الخليفة "أمقران" و لم يكن ذلك إلا سياسة استعمارية كان الغرض منها كسب ولاء الأسر الحاكمة بالمنطقة.

رابعا: النسب الشريف: اتفق معظم الباحثين حول نسب أسرة المقراني الشريف ومنهم الباحث "فيرو" "*Feraud*"، إذ يقول أن سيدي عبد الرحمن الادريسي دخل المغرب الأوسط في عهد الزيانيين ليستقر بقرية "كوكو"، حيث أخذ العلم على شيخها، "سيدي عمرو القاضي"، ونتيجة لذكائه الحاد وورعه وعلمه، التف حوله الأتباع والمريدون الأمر الذي أثار غيرة شيخه، وخوفا من انقلاب شيخه عليه والانتقام منه، فر سيدي عبد الرحمن إلى ضفاف وادي الساحل، الذي يفصل بين قبيلة بني عباس وقبيلة زواوة التابعة لإمارة كوكو.

استقر الشيخ بأراضي قبيلة بني عباس وبنى بها مدرسة لتعليم القرآن فالتف حوله المريدون والأتباع وأثناء إقامته بين أبناء هذه القبيلة حدث حدث غير مجرى حياة هذا الشيخ وأسرته من بعده، وهو أن سيدي عبد الرحمن دخل يوما سوق الأربعاء لبني عباس، قرب "ايغيل علي" فشاهد سوء معاملة قبائل زواوة لأبناء قبيلة بني عباس، إذ كان حراس السوق يُسخرون 400 رجل من بني عباس أسبوعيا لحمل قطعان الغنم إلى السوق وذبحها وسلخها وبيعها لحساب تجار زواوة. فأثار ذلك المشهد "سيدي عبد الرحمن" الذي تقدم إلى قائد السوق ويسأله عن تلك المعاملة السيئة لبني عباس فرد عليه أنها عادة السوق. وهنا استدعى الشيخ عددا من بني عباس وحرضهم للثورة على ذلك الوضع فكان ردهم: أنهم يفتقرون إلى من يحميهم من ظلم هؤلاء، واقترحوا عليه أن يخلصهم من ذلك الذل مقابل الولاء والطاعة له ولأبنائه وأحفاده من بعده، ودفع الضريبة لهم مدى الحياة.[2]

---

[1] Feraud (ch): "Histoire des villes de constantine",1871-72,(Bordj Bouariridj) R.S.A.C, pp198– 202.

[2] حول تفاصيل الموضوع أنظر: Feraud (ch): " Bordj Bouariridj" Idem, p204 et suit.

قبل الشيخ اقتراح بني عباس وقام بوضع خطة عسكرية أفضت إلى طرد قبائل زواوة من السوق ومن المنطقة بكاملها وبذلك تخلص بنو عباس نهائيا من ظلم زواوة وبدءوا عهدا جديدا في ظل حكم أسرة توارثت حكمهم وحكم غيرهم من قبائل المنطقة حتى نهاية العهد العثماني، وهي أسرة المقراني، ومنذئذ أصبح "وادي الساحل" يشكل الحد الفاصل بين إقليم بني عباس وإقليم زواوة.[1] وبقي الشيخ "عبد الرحمن الإدريسي" يحكم بني عباس حتى وفاته، حوالي سنة 906هـ/1500م،[2] حيث دفن "بالقرابة"[3] وبقي قبره مزارا من طرف مختلف قبائل المنطقة وخاصة بني عباس.

بعد وفاة الشيخ عبد الرحمن انتقلت زعامة قبيلة بني عباس إلى ابنه أحمد الذي سار على نهج والده فبنى مدرسة جديدة وزاوية قرب "شويريخ" لنشر العلم إلا أن مضايقات قبائل زواوة بزعامة الشيخ عمر القاضي، أمير كوكو جعلته يبحث عن مكان آخر أكثر أمنا وحصانة لبناء زاوية أخرى فدله بعضهم على قلعة بني عباس[4] المحصنة طبيعيا، وفعلا نقل الشيخ زاويته إلى القلعة وبذلك أمن شر أمير إمارة كوكو الذي لم يتوقف عن ملاحقته، فهاجمه مرات عديدة بهدف إعادة المنطقة وقبائل بني عباس إلى نفوذه من جديد، إلا أن جميع محاولاته باءت بالفشل الذريع لحصانة المنطقة من جهة وشجاعة وحسن تسليح قبيلة بني عباس من جهة ثانية.

بانكسار أمير كوكو إزدادت شهرة الشيخ "أحمد بن عبد الرحمن" فالتفت حوله المزيد من القبائل واتسع نفوذه من وادي الساحل حتى الحضنة.[5] ولإعطاء

---

[1] أنظر خريطة بايلك قسنطينة في العهد العثماني للرحالة الأنجليزي " Shaw" في نهاية المدخل

[2] أنظر شجرة نسب الأسرة، ص 64.

[3] هي عبارة عن غرفة تابعة لزاوية الأسرة يدفن فيها المرابط وأفراد أسرته وتبقى مقرا للتبرك بالمرابط والتقرب منه.

[4] هي قلعة طبيعية تقع شمال برج بوعريريج وشرق مدينة البويرة بغرب بايلك قسنطينة.

[5] Rinn (louis): Histoire de l'insurrection de 1871 en Algérie, Imp .jourdan Alger, p10.

حكمه شكلا رسميا اتخذ الشيخ لنفسه لقب "سلطان" وأطلق على منطقة نفوذه اسم "سلطنة"[1] وهو ما سجل في الوثائق التي تعود إلى تلك الفترة.[2] وقد جعل من قلعة بني عباس عاصمة له.

بعد حكم دام حوالي 10 سنوات قضاها في بناء "سلطنة" توفي "سيدي أحمد" بالقلعة ودفن "بالقرابة" إلى جانب والده، تاركا الحكم لإبنه عبد العزيز الذي أحاطه أتباع والده بهالة من التقدير والتمجيد، احتراما لوالده وتقديرا لشخصيته؛ إذ لم يكن عبد العزيز أقل حزما وقوة من والده الذي ترك له حكما مزدهرا ومجدا دينيا هاما فتابع أعماله لارصاء أسس أقوى حكم بالمنطقة وذلك إبتداء من سنة 916هـ /1510م، أي في نهاية العهد الحفصي، وبذلك كان عبد العزيز أول من شهد دخول العثمانيين إلى الجزائر من أسرة المقراني. كما كان من الزعماء المحليين الأوائل الذين تحالفوا مع العثمانيين قبل أن يثور عليهم ثم يقتل في إحدى المعارك ضدهم سنة 966هـ/1559م[3] ليخلفه أخوه أحمد أمقران الذي حملت الأسرة اسمه بعد ذلك.

- **مقومات سلطان الأسرة:**

رأينا من خلال العرض التاريخي لأصول أسرة المقراني أنها أسرة حديثة العهد في المنطقة بالمقارنة مع الأسرتين السابقتين "بوعكاز" و"أحرار الحنانشة" إلا أنها سرعان ما احتلت المكانة الأولى بغرب بايلك قسنطينة، فكيف وصلت إلى هذه المكانة؟ وعلى أي أساس تكونت قوتها؟

1°. المكانة الدينية للأسرة: لا شك أن المتتبع لمراحل نشأة وتطور أسرة المقراني يلاحظ بجلاء أن حكم هذه الأسرة تأسس على عامل الدين ذلك أن نفوذ

---

[1] ينعتها الباحث" فيرو" أحيانا بـ: "*Son petit Royaume*" وأخرى بـ: " *Sa Principaute* ".
أنظر: *Féraud (ch): " Bordj Bouariridj" op.cit, p210.*

[2] *Ibid, pp 201 – 202.*

[3] سنتعرض إلى هذه الأحداث بالتفصيل في الفصل الموالي.

زعمائها كان نفوذا دينيا في أساسه، نشأ عن التفاف القبائل حول زاوية الأسرة التي كانت مقصدا للطلاب والعلماء من مختلف جهات الوطن وهذا ما أكده الرحالة الورثيلاني في قوله أن شيوخ أسرة المقراني كانوا من أبرز مرابطي المنطقة. ومما جاء في رحلته قوله:" ذهبنا لزيارة الشيخ الولي الصالح والبدر الواشح ثرياق وطنه وأمير بلده سيدي أحمد بن عبد الرحمن جد أولاد مقران"[1] وفي مكان آخر من الرحلة يقول: "وأما سيد محمد[2] أمقران فكان من أكابر الأولياء وهو من القرن العاشر (16م) يعني آخره وأخذ من الحادي عشر وكراماته ظاهرة وأحواله باهرة فلا يحتاج لذكرها".[3]

إلا أن الأسرة، حسب ما جاء في نفس المصدر، تخلت عن الطريق الذي رسمه لها الأجداد لتسلك طريق القوة والسيطرة السياسية والعسكرية على المنطقة وهو ما يعيبه الرحالة الورثيلاني على أبناء الأسرة إذ يرى أنهم لم يقتادوا بأخلاق أجدادهم وورعهم وتقواهم وأنهم اتبعوا طريق الفساد فوصفهم بالجور والتعدي على الغير وذلك لتعدد ثوراتهم على السلطة المركزية[4] ورفضهم دفع ما عليهم من ضرائب، بل وفرضهم ضريبة المرور على السلطات العثمانية لضمان سلامة قوافلها المارة بمنطقة البيبان ذهابا وإيابا بين قسنطينة والجزائر.

وللتأكيد على فساد أبناء أسرة المقراني وبعدهم عن المبادئ الإسلامية التي تمسك بها أجدادهم يشير نفس الرحالة إلى أن جدهم تنبأ بفساد ذريته من بعده، وذلك في قوله: "وقد سمعت أنه (الجد) قال للشيخ سيدي يحي أني رأيت في النوم النار تخرج من بولي ففسرها له الشيخ بأن قد يصير منهم أي من أولاده ما

---

[1] الورثيلاني (الحسين): المصدر السابق، ص 11.

[2] لعله يعني به أحمد أمقران أخ عبد العزيز. (أنظر شجرة نسب الأسرة، ص 64).

[3] الورثيلاني (الحسين): نفس المصدر، ص27.

[4] تجدر الإشارة هنا إلى أن الشيخ الحسين الورثيلاني، كغيره من كتاب الفترة العثمانية عامة، كان مواليا للحكم المركزي ولذا يمكن أن يكون تحامله على الأسرة مبالغا فيه.

يصير من أهل الظلم والجور وكان الأمر كما ذكر"[1] فهل تحققت النبؤة فعلا كما ورد في النص؟

الحقيقة أن تاريخ أسرة المقراني، حسب اطلاعنا، لم يشر إلى أن هذه الأسرة قد اشتهرت باللصوصية وقطع الطريق أو الاعتداء على الغير، وإنما المعروف أنها اشتهرت بفروسيتها وشجاعة أبنائها وأتباعها والدفاع عن سيادتها واستقلالها ضد كل من حاول المساس بهذا الاستقلال، ولعل هذا ما جعل الأسرة تقف بقوة، خاصة في عهد الرحالة الورثيلاني، القرن (12هـ/18م)، أمام السلطة المركزية التي حاولت إخضاعها لنفوذها ومن جهة أخرى ضد بعض الفروع التي وقفت ضد الفرع الحاكم بالأسرة نتيجة لسياسة فرق تسد التي انتهجها الحكام العثمانيون ضد الأسرة.

2°. المكانة السياسية والعسكرية للأسرة:

عرفت أسرة المقراني، إلى جانب مكانتها الدينية، مجدا سياسيا وعسكريا بارزا وخاصة في عهد حاكمها "عبد العزيز العباسي"[2]، الذي كان حسب بعض المؤرخين[3] يحكم منطقة مجانة باسم الحفصيين ثم توسع نفوذه بتقلص نفوذ الحكم المركزي للدولة الحفصية، فتحولت أسرته من مجرد أسرة إقطاعية تنتهي حدودها بحدود قلعة بني عباس إلى "دولة" شملت مساحات واسعة امتدت من جبال البابور شمالا إلى الزاب على أبواب الصحراء جنوبا. وقد سلك عبد العزيز مسلك والده فأطلق على نفسه لقب سلطان وعلى إمارته اسم سلطنة وقد ضمت هذه السلطنة في عهده معظم قبائل المنطقة منها أولاد خلوف، قبائل

---

[1] الورثيلاني: نفس المصدر، ص11.

[2] حول الموضوع أنظر الفصل الثالث والرابع من الكتاب.

[3] نور الدين (عبد القادر): صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، كلية الآداب، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1965، ص ص 91.90.

ونوغة، وعددها 15 قبيلة وقبائل مجانة والبابور وفرجيوة وزواوة ووصل نفوذه حتى الأوراس فضم قبائل بلزمة والزيبان ووادي ريغ.[1]

وللحفاظ على هذا النفوذ كون عبد العزيز جيشا قويا من القبائل التابعة له. وكانت قبيلة "هاشم" تمثل حرس الأسرة الخاص وقبيلتها المخزنية تقوم بحفظ الأمن بالمنطقة وبتربية خيول الأسرة وتسهر على حماية شيوخها أثناء تحركاتهم. وقد كانت قوات هذه القبيلة في بداية القرن (10هـ/16م) لا تتجاوز 200 فارس ثم تزايد عددها في عهد هذا الحاكم إلى أن أصبحت تجهز 1000 فارس[2]. ولكسب ولاء القبيلة وإخلاصها عمل عبد العزيز على استقرارها بمجانة، فأقطعها الآراضي وبنى لأبنائها المنازل لاستقرارهم وبذلك تمكن من إبقائها وفية للأسرة حتى نهاية العهد العثماني.[3]

وقد ساهمت قبيلة بني عباس[4] كذلك بقوة في تكوين جيش عبد العزيز، إذ كانت من أقوى القبائل البربرية التي شكلت جزءا هاما من الإقطاعية الوراثية لمجانة تحت سلطة آل المقراني[5] فقد اتسمت هذه القبيلة بالقوة العسكرية واشتهرت بحبها المفرط للحرية حتى أن الرحالة الورثيلاني وصفها بالقوة والفجور والخيانة؛[6] إذ كانت تحارب إلى جانب أسرة المقراني ضد كل من السلطة المركزية والقبائل المجاورة لمناطق نفوذها قصد توسيع رقعة نفوذ الأسرة على حساب غيرها من القبائل. وقد ساعد على تقوية هذه القبيلة غنى المنطقة

[1] A.M.G, H228 "Renseignements sur l'organisatiobn et l'administration de la province de constantine avant la prise de la ville par l'armee francaise",sans nom d'auteur, pp24-25.

[2] A.M.G.H .228, OP.CIT.

[3] Mouloud Gaid: l'Algérie sous les turcs, M.T et SNED, Tunis, Alger, 1974,p67.

[4] تتكون قبيلة بني عباس من 5 دواوير أو فروع.

[5] أنظر الخريطة التوضيحية لأماكن انتشار نفوذ الأسر الحاكمة بايلك قسنطينة نهاية الفصل الأول.

[6] أنظر الورثيلاني: المصدر السابق، ص36.

بالمعادن، خاصة الحديد[1] ومهارة أبنائها في صنع الأسلحة؛ إذ كانوا يصنعون أسلحتهم بأنفسهم.[2]

من هذه القوات وغيرها استطاع عبد العزيز تكوين جيش نظامي قدر عدد قواته بـــ 10000 جندي من المشاة وعدد كبير من الفرسان قسمهم إلى فرعين أحدهما في "تالة مزيدة" والآخر في "تازلة"، حيث بنى عبد العزيز برجين لإيواء الجند ووضع على كل فريق منهم خليفة يحافظ على النظام والأمن بالبرج[3] كما بنى بالبرجين إسطبلات لتربية الخيل ورعايتها وتجهيزها لخوض المعارك.

ومما زاد في قوة عبد العزيز العسكرية تحالفه، في بداية العهد العثماني بالجزائر، مع الأسبان ببجاية، إذ زوده هؤلاء بكميات كبيرة من الأسلحة والذخيرة الحربية وأرسلوا له عمالا لتحصين القلعة من الأماكن المكشوفة، ومقابل ذلك كان عبد العزيز يدفع لهم ضريبة مالية ويزودهم بما يحتاجون إليه من المواد الغذائية[4] وقد أشار صاحب كتاب "غزوات عروج وخيرالدين" إلى أن عروج أرسل من مدينة الجزائر إلى أخيه خيرالدين بجيجل رسالة يقول فيها:" أن في ناحية جيجل شيخا مقدما على طائفة من البربر هو عين النصارى على المسلمين وجاسوسا لهم يمد النصارى الذين ببجاية كل سنة بسبعة آلاف دينار (7000دينار) وألف (1000) مكيال من البر(القمح) وألف (1000) شاة وسبعمائة (700) رأس بقر وأربعة عشر (14) فرس بسلاحها".[5] ولم يكن الشيخ المذكور غير عبد العزيز شيخ بني عباس وزعيم أسرة المقراني ومما جاء في

---

1 مازالت المنطقة حتى اليوم تشتهر بمناجمها وخاصة مناجم الحديد مثل منجم "تمزريت".

2 A.M.G, H 228, OP.CIT.

3 Feraud (ch): " Bordj Bouariridj " , op.cit , p217.

4 Ibid, p 211.

5 نور الدين (عبد القادر)، (معلقا ومصححا): غزوات عروج وخير الدين، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1934، ص 30.

نفس المصدر أن خير الدين بربروس استطاع إخضاع الشيخ وإرغامه على دفع ضريبة للقوات العثمانية مقابل احترامها لاستقلاله[1]. وبذلك دخلت أسرة المقراني عهدا جديدا مع الحكام العثمانيين وهو ما سنراه في الفصل الموالي.

3°. المكانة الاقتصادية للأسرة: استطاعت أسرة المقراني نتيجة لمكانتها الدينية وسيطرتها السياسية وقوتها العسكرية أن توسع إقطاعاتها في كامل المنطقة الغربية للبايلك حيث بلغت أراضيها، بناء على إحصاءات لجنة *SENATUS-CONSULT* (1863م) أكثر من 20000 هكتار.[2] وبذلك تحولت الأسرة إلى أسرة إقطاعية هامة بغرب البايلك، إن لم نقل أهم الأسر وأبرزها بالمنطقة. كما كانت الأسرة تملك أعدادا لا تحصى من الحاشية والخيول وهو ما أكده الرحالة الفرنسي "بايسونال" *Peyssonnel* الذي زار منطقة نفوذ أسرة المقراني في بداية القرن 12هـ/18م (1725م)، وقال: "إن هذه القبائل العربية غنية تسكن سهولا واسعة وكان شيخها شريفا ينتمي إلى أسرة عريقة ولهم عدد كبير من الماشية والخيول الجميلة ويمتازون بالأناقة وهم يحكمون عرب الجبال المجاورة الذين كانوا يدفعون للأسرة الضرائب في حين لم يكن لشيوخ الأسرة الحاكمة أية التزامات مالية نحو السلطة المركزية."[3] كما أشار الرحالة إلى سعة أراضي الأسرة بقوله أن شيخها لم يكن يستطيع معرفة أراضيه ولا تحديد مساحتها وحدودها وذلك نظرا لاتساعها الكبير وانتشارها بين شمال وجنوب غرب البايلك.

من هنا يمكن القول أن أسرة المقراني قد جمعت بين صفات ثلاث وهي: الصبغة الدينية (المرابطية) والصفة العسكرية (الجواد) والثراء الواسع المرتبط بالانتاج الزراعي (الاقطاعية). وهذه الخصائص مجتمعة هي التي مكنتها من

---

1 نور الدين (عبد القادر): نفس المصدر، ص ص31- 32.

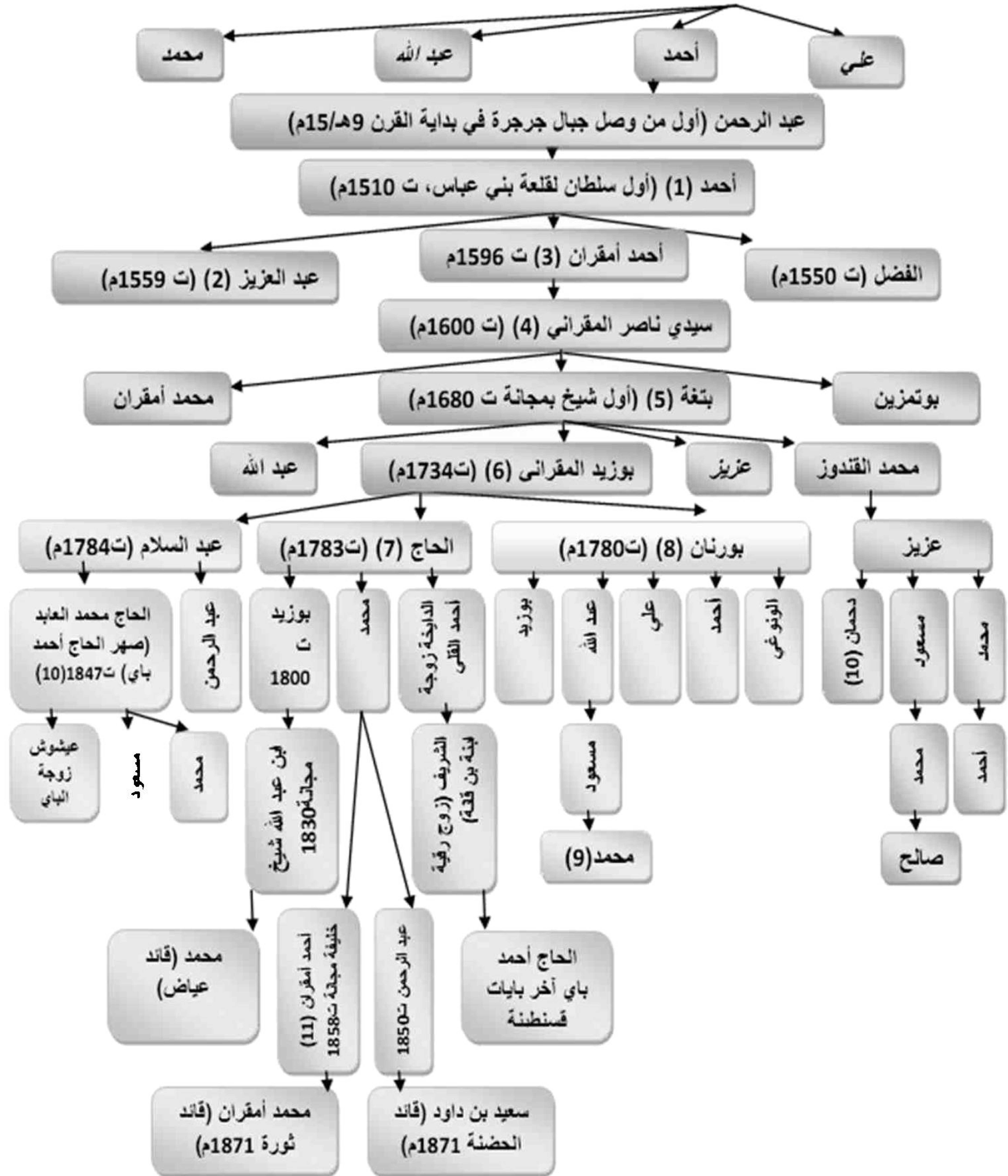
2 القيشاعي (فلة): الريف القسنطيني اقتصاديا واجتماعيا أواخر العهد العثماني 1792-1837م، دبلوم الدراسات المعمقة في التاريخ الحديث، معهد التاريخ، الجزائر، 1403 هـ/1983 م، ص 238.

3 Peyssonnel: Op.cit, T2, pp 209-240.

فرض نفوذها على الرعية والحفاظ على استقلالها طوال العهد العثماني بالجزائر، بل وحتى في الحقبة الأولى من الاحتلال الفرنسي.

شجرة نسب أسرة المقراني:[1]

علي بن أبي طالب _ الحسن _ عبد الله _ إدريس الأكبر _ إدريس الأصغر _عيسى _ موسى _ بيار صفوان _ مهدي_ علي _ موسى _علي _بوزيد



[1] وضعت هذه الشجرة اعتمادا على عدد من المراجع أهمها: الشجرة التي وضعها الباحث *Louis Rinn* في كتابة "*Histoire de L'insurrection de 1871*"، والعقد النضيد في نسب سيدي بوزيد لمؤلفه بوزيد بن الحاج بلقاسم البوزيدي، بالإضافة إلى ما كتبه الباحث فيرو *Féraud* عن تاريخ الأسرة بالمجلة الأثرية لقسنطينة 1872-1871 *R.S.A. C.* أما الأرقام المشار بها إلى أسماء الشيوخ فتعني تعاقب هؤلاء على المشيخة.

رابعا. أسرة بني جلاب: حكام تقرت بجنوب البايلك.

أ. أصولها:

ظهرت، في نهاية العهد الحفصي، أسرة تقاسمت زعامة الصحراء الشرقية للجزائر مع زعمائها القدامى، أسرة بوعكاز الذواودة، وهي أسرة بني جلاب التي توسع نفوذها بفضل تحالفها مع الذواودة، إلى أن شمل معظم المناطق الصحراوية من تقرت وتامسين حتى وادي سوف. إلا أن نفوذ هذه الأسرة تقلص تدريجيا، نتيجة للصراعات الداخلية، إلى أن انحصر في مدينة تقرت وأحوازها وذلك في نهاية العهد العثماني[1]. فهل كان هؤلاء الحكام من أبناء المنطقة؟

تعود أصول أسرة بني جلاب، حسب معظم المراجع، التي اعتمدنا عليها في البحث، إلى بني مرين بالمغرب الأقصى، إذ يذكر العدواني، وهو أهم المصادر في الموضوع، أن حاجا مغربيا من بني مرين يدعى "سليمان" استقر بمنطقة تقرت في القرن الثامن الهجري (14م) للاتجار، وكان ذلك في عهد حاكمها المرابط محمد بن يحي ولإعجاب هذا الحاكم بالحاج المريني قربه وجعله خليفة له في الحكم وبذلك استولى الحاج سليمان على حكم تقرت بمجرد وفاة حاكمها.[2] ولم يجد الحاكم الجديد منافسة تذكر من أفراد أسرة الحاكم السابق، إذ تفيد المراجع أن آخر أحفاد المرابط "محمد بن يحي" كان قد هاجر من تقرت إلى الشمال ليستقر نهائيا في معمرة، بين سطيف وقسنطينة[3] مكونا هناك زاوية (معمرة) وسط قبيلة أولاد عبد النور[4] وبذلك لم يبق بتقرت من يهدد أو ينافس الحاكم الجديد.

---

[1] نور الدين عبد القادر: صفحات من تاريخ مدينة الجزائر، ص91.

[2] Feraud (ch): “ Kitab el Adouani “ , op.cit, p136.

[3] تعود أصول المرابط محمد بن يحي إلى هذه المنطقة إذ جاء من ريغة قرب سطيف.

[4] Féraud (ch): le Sahara de Constantine, Notes et Souvenirs, Adolphe Jourdan, Alger, 1897, p19.

وقد اختلفت الروايات حول كيفية وصول واستقرار مؤسس أسرة بني جلاب بتقرت منها قول العدواني أن الحاج المرين حضر فترة الجفاف والمجاعة اللذين اجتاحا منطقة تقرت فقام بشراء كل ما كان يملكه السكان حتى أطفالهم ونساءهم ثم أنفسهم إلا أنه أعاد إليهم حريتهم بعد أن قاموا ببناء مسجد له بمدينة تقرت، كان مفخرة للمدينة، ونتيجة لكرم هذا الحاج وعدله أخلص له الجميع وتمسكوا به حاكما عليهم واستمر اخلاصهم لنسله حتى نهاية حكم أسرته (1854م).

في نفس هذا السياق جاءت رواية أحد شيوخ المنطقة،[1] الذي قال: أن بني جلاب من المرينيين أتوا من المغرب الأقصى لتستقر طائفة منهم بتاجمونت غربي الأغواط وكان بعضهم يصل حتى تقرت لبيع الأغنام ومن هؤلاء سليمان الجلابي[2] الذي قيد الناس بديون كثيرة عجزوا عن دفعها فاشتكاهم إلى سلطان المنطقة "محمد بن يحي" وانتهى الأمر إلى أخذ الناس عبيدا له مقابل ديونه، وباتفاق مع الجميع اختير سليمان الجلابي، بعد رجوعه من الحج، حاكما على المنطقة.

ولعل نشاط هذا المريني هو السبب في تسميته بالجلاب، أي بائع الغنم، إلا أن سكان المنطقة نفوا هذه الصفة عن حاكمهم وقالوا أنه جلب الناس بطيبته

---

[1] الطالب الطاهر بن دومة، شيخ قرية تبسبست تقرت، مخطوط بدون عنوان عن تاريخ وادي ريغ، ص 12، (صورة المخطوط بحوزتي).

[2] يقول العدواني أن مؤسس الأسرة يدعى سليمان إلا أن العياشي والشيخ الطاهر بن دومة يذكران اسم أحمد بن جلاب ولعل هذان الأخيران ينسبان الأسر إلى أحمد بن سليمان الجلابي (أنظر شجرة نسب الأسرة، ص 79).

وحكمته ولذلك سمي بالجلاب[1] وقد ورد هذا المعنى ضمن كتابة عثر عليها بالمسجد الجديد بتقرت جاء فيها:

"بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد.
جدد هذا المنـــبر الشيـــخ الذي اسمـــه إبراهيـــــــم
بالجود قد أتى عليه كثيـــر من الناس من كــــل وطن
وهو ابـــــــن جــــــلاب فبالفضــــــل أجلبـــنا".[2]

أما عن الأصول المرينية فإن الجميع متفق على هذا منهم الرحالة المغربي الإمام أبو سالم العياشي (1076هـ/1666م) في قوله: "وأمراء هذه البلدة (تقرت) أولاد الشيخ أحمد بن جلاب وأسلافهم من بني مرين ووالدهم هذا كان من أمراء العدل على ما يحكي..."[3] كما يتفق الجميع على أن الفوضى والحروب كانت تسود مختلف واحات وادي ريغ عند وصول الجلاب إلى المنطقة، وخاصة بين مدينتي "تقرت"، بزعامة أسرة بني عبيد، و"تامسين"، جنوب تقرت، بزعامة بني إبراهيم، وأن الوافد الجديد تمكن من توحيد المنطقة تحت نفوذه.

إلا أن تاريخ استقرار أسرة بني جلاب بالمنطقة وبداية حكمها لها يبقى غامضا حتى الآن، إذ رغم تحديد العدواني لمجيء الحاج سليمان إلى المنطقة سنة 735هـ/1334م[4] وهو ما توحي بصحته قسيمة زواج السخري بن يعقوب

---

1 أكد سكان منطقة تقرت للباحث *Feraud* أن أصل التسمية ليست بائع الغنم كما جاء في كتاب الباحث "*Daumas*" الذي أشار إلى أن سكان وادي ريغ اتفقوا، بعد حروب طويلة، على تولية أول وافد عليهم حاكما عليهم فكان الخط من نصب أحد رعاة الغنم وهو سليمان المريني. أنظر:
Feraud: le Sahara ...pp21-22.

2 Ibid, p25.

3 العياشي (أبو سالم عبد الله): ماء الموائد المشهورة بالرحلة العياشية، ج1، ط1، فاس، 1316هـ، 1898م، ص51.

4 Ferand (ch): " Kitab el Adouani ", op.cit, p69.

الذوادي بابنة الحاج سليمان الجلابي والتي جاء فيها:" السخري نجل يعقوب بن علي تزوج ببنت سليمان الجلابي مولى تقرت".[1] مع العلم أن يعقوب بن علي، زعيم الذواودة، قد توفي سنة 790هـ/1388م[2] وهذا يعني أن الجلاب يكون قد استقر بالمنطقة قبل تاريخ وفاة الشيخ يعقوب الذي عاش قرابة الثمانين عاما[3] إلا أن كل هذا يبقى قابلا للخطأ؛ إذ أن كل من ابن خلدون والزركشي الذين عاصرا هذه الفترة قد أوردا أسماء لحكام تقرت لا تمت بصلة لبني جلاب.

فبينما يذكر ابن خلدون أن تقرت كانت تحكم من طرف أسرة أبي عبيد الله، التي كانت في صراع مع أسرة بني إبراهيم بتامسين، قبل أن يهاجمها الحاكم الحفصي "أبو الحكم" وينهب أموالها سنة 748هـ/1338م،[4] فإن الزركشي يقول أن حاكم تقرت في العهد الحفصي كان يدعى "يوسف بن حسن" وقد حاول الاستقلال عن الدولة حوالي سنة 853هـ/1449م، إلا أن السلطان الحفصي هزمه ثم أبقاه على حكم المنطقة باسمه.[5] وهو ما جعلنا نعتقد أن حكم بني جلاب للمنطقة يكون قد بدأ في النصف الثاني من القرن 8هـ/14م، أو بداية القرن 9هـ/15م.

وهو ما جاء به الباحث الفرنسي فيرو، الذي يعيد تاريخ قدوم الحاج المريني إلى المنطقة إلى سنة 1414م، وذلك بقوله: "إن الرحالة العياشي، الذي مر بتقرت في 14 جمادى الثاني 1073هـ/13 جانفي 1663م، قرأ على منارة تقرت أنها بنيت من طرف المهندس الفاسي أحمد بن محمد سنة 817هـ/1414م، وهو يصادف تاريخ قدوم الحاج المريني إلى المنطقة إذ تقول

---

[1] Ferand (ch): le Sahara de Constantine, p27.

[2] يقول ابن خلدون أنه توفي سنة 790هـ (أنظر كتاب العبر، ص 901) في حين يقول ابن القنفذ أنه توفي سنة 792هـ (أنظر المصدر السابق، ص188) .

[3] ابن خلدون: نفس المصدر، ج6، ص75.

[4] نفس المصدر، ص79.

[5] الزركشي: المصدر السابق، ص 127.

المراجع أنه هو الذي بناها"[1] ويضيف نفس الباحث أن الحاج المريني يكون قد عاش مع قادة الذواودة في وئام فعمت الرفاهية البلاد حتى سنة 835هـ/1431م حين ضرب الجفاف المنطقة واضطر الناس إلى بيع أملاكهم وأراضيهم وحتى أبنائهم ثم أنفسهم إلى الحاج المريني، وهو ما يرجعه العدواني إلى بداية القرن 8هـ/14م. ويدعم الباحث "فيرو" رأيه بقائمة لسلاطين بني جلاب سجلت، حسب قوله، من طرف بعض الطلبة بجامع تقرت على الصفحة الأولى من عدد من المصاحف جاء في بدايتها "وأما أول سلطان بتقرت في القرن التاسع فهو الحاج سليمان المريني الجلابي."[2] وهذا ما يجعلنا نستبعد التاريخ الذي ذكره الشيخ الطاهر بن دومة والمحدد بسنة 937هـ/1531م.[3]

أما الكاتب "فايسات" (*Vayssette*) فيقول عند تعريفه بأسرة ابن جلاب أنها حكمت تقرت منذ بداية القرن الرابع عشر(14م) حتى سنة 1854م تاريخ استيلاء الفرنسيين على المدينة[4] والواضح أن "فايسات" اعتمد على ما جاء في كتاب العدواني الذي قام بترجمته الباحث "فيرو". ومهما كان الاختلاف حول تاريخ بداية حكم أسرة بني جلاب لتقرت[5] فإن المتفق عليه هو أن مؤسس هذه الأسرة هو الذي تمكن من توحيد منطقة وادي ريغ بعد حروب طويلة وأن حكم المنطقة بقي وراثيا في أبناء هذا الحاكم لفترة تقارب أو تزيد عن الأربعة قرون.

---

1 Ferand (ch): le sahara de constantine, p31.

2 Ibid, p31.

3 الشيخ الطالب الطاهر بن دومة: المرجع السابق، ص13.

4 Vayssette: op.cit, p208.

5 أنظر الروايات المختلفة حول هذا الموضوع:

Féraud (ch): le Sahara de Constantine , pp16-19.

- **مقومات سلطان الأسرة:**

1°. مكانتها السياسية:

عرف شيوخ أسرة ابن جلاب، منذ مؤسسها الأول بسياستهم الحكيمة، التي كانت السبب الرئيس في توحيد المنطقة وازدهارها، فقد كان أول عمل قام به الحاج المريني، بعد استقرار حكمه بمدينة تقرت، هو توحيد مدينتي تقرت وتامسين المتحاربتين، ولتحقيق ذلك عمد إلى بناء قصرين لزوجتيه الأول بتقرت والثاني بتامسين، وبذلك سوى بين المدينتين اللتين كان يقيم تارة بواحدة وتارة بالأخرى،[1] وكان ذلك كافيا للقضاء على الصراع الذي كان قائما بين المدينتين على زعامة المنطقة. بعد إقرار الأمن بالمدينتين المتحاربتين بدأ الحاكم الجلابي في تأسيس إمارته ولتحقيق ذلك كان عليه الاستعانة بقوة الذواوة، زعماء الصحراء القدامى، إذ كان يعلم أنه دون مساعدة هؤلاء العرب الأقوياء لا يمكنه بناء حكم قوي بالمنطقة[2].

ولذلك عمل على ربط أسرته بشيوخ أسرة بوعكاز زعماء الذواودة وكانت البداية، كما أسلفنا، زواج "السخري بن يعقوب"، شيخ الذواودة بابنة سليمان الجلابي. وقد استمر هذا التقارب بين الأسرتين طوال العهد العثماني واستفادت منه أسرة ابن جلاب استفادة كبيرة سواء من حيث تقوية نفوذها السياسي بالمنطقة أو من حيث تعزيز قواها العسكرية بقوات الذواودة لحفظ أمن إمارتها الحديثة، إلا أن هذا لا يعني أن أسرة ابن جلاب وحدها هي الساعية إلى هذا التقارب، أو المستفيد الوحيد منه، بل أن الذواودة أنفسهم كانوا يسعون إلى ذلك لربط أسرتهم بأسرة من الأمراء ترفع من قيمتهم الاجتماعية. وبذلك كانت الأولى تسعى إلى تقوية نفوذها السياسي والعسكري بالاتحاد مع أسرة قوية امتازت بفروستها عبر التاريخ (الجواد) والثانية تسعى إلى كسب

---

[1] Feraud (ch): " Kitab el Adouani " , Op.cit, pp68-69.
[2] Féraud (ch): le Sahara de Constantine, Op.cit, pp26-27.

مكانة اجتماعية هامة ترقى بها من مصاف البدو والرحل إلى مرتبة الأسر الشريفة. وفعلا حقق كل طرف ما يريد من هذه العلاقة وكان الذواودة الركيزة الأساسية لأسرة ابن جلاب في تأسيس وتوسيع رقعة ما سمي بـــ "سلطنة بني جلاب".[1] فهل كونت هذه الأسرة سلطنة[2] حقيقية؟

اتسع نفوذ أسرة بني جلاب ، بفضل حكمتها السياسية ودعم قبيلة الذواودة العسكري لها، من تقرت ليشمل جميع واحات وادي ريغ ومنها مدينة "تامسين" المنافسة الأولى لتقرت. وبذلك كونت لنفسها حكما مستقلا في منطقة محددة من الصحراء لا تعترف فيها بالحكم المركزي إلا صوريا، سواء في العهد الحفصي أو العثماني.[3] وقد اتسعت منطقة نفوذ الأسرة من منطقة سوف شرقا حتى مشارف مدينة ورقلة غربا[4] وهو ما أكده الرحالة العياشي في العهد العثماني بقوله أن "مقوسة"[5] شرق ورقلة كانت "من طاعة وادي ريغ لا من طاعة واركلا..(وأن أهلها كانوا) ينتظرون قدوم العساكر من أميرهم المريني (بن جلاب) فيزحفون إليها معتقدين أن أموالهم (أهل ورقلة) ودماءهم حلال وأنهم كفار...".[6]

---

[1] Ibid, p28.

[2] سنستعمل في هذا البحث تسمية الامارة للتعريف بحكم أسرة بني جلاب وذلك اقتداء بما جاء في رحلة العياشي الذي عاصر فترة حكم هذه الأسرة إلا أننا لن نتقيد بهذه التسمية ونستعمل تسمية "سلطنة" من حين لآخر كما وردت في كتابات الباحث الفرنسي فيرو وهو ما عرف به الحكم من طرف سكان المنطقة.

[3] يقول الرحالة المغربي الحسن الوزان أن تقرت كانت تخضع أحيانا لسلاطين المغرب وأخرى لتلمسان وثالثة لتونس. (أنظر المصدر السابق، ص507). أما عن العهد العثماني فيقول الرحالة الأنجليزي "شو""*Shaw*" أنها كانت تخضع اسميا إلى حكام الجزائر وتونس وطرابلس (أنظر المصدر السابق، ص168).

[4] Féraud (ch): le Sahara de Constantine, p31.

[5] تبعد عن تقرت بحوالي 140 كلم وعن ورقلة 24 كلم شرقا.

[6] العياشي: المصدر السابق، ج1، ص ص 48-49.

كما كان حكام تقرت، إثباتا لنفوذهم بالمنطقة، يجمعون الضرائب من جميع قبائل المنطقة وكانوا يستعملون القوة ضد كل من يحاول التمرد ورفض دفع ما عليه من حقوق لإمارقم ولعل ذلك أشعل نار الحرب بين تقرت وورقلة، كما ورد في المقال السابق للرحالة العياشي. ولاتساع رقعة المنطقة الخاضعة لحكم تقرت كانت الضرائب التي تدخل خزينة الإمارة هامة قدرت في نهاية العهد الحفصي، بالنسبة لتقرت وضواحيها فقط بـــ 130 ألف دينار لا يدفع منها حكام المدينة إلى السلطة المركزية إلا 50 ألف دينار على أن يأتي الحاكم الحفصي بنفسه لاستلامها.[1] وكثيرا ما كان حكام تقرت يحاولون التخلص من ذلك الالتزام تجاه السلطة المركزية، واستمر الوضع كذلك حتى العهد العثماني حيث استطاعت أسرة بني جلاب الحفاظ على استقلالها فكانت لا تدفع شيئا لبايات قسنطينة إلا في حالة استعمال هؤلاء للقوة في أخذ الضريبة منها.

ولتنظيم حكمها عمدت أسرة بني جلاب إلى وضع عاصمتين لإمارقا الأولى "تقرت" والثانية "تامسين"[2] وقسمت زعامة المدينتين بين أبناء الأسرة[3] فكان الفرع الرئيسي من بني جلاب يحكم بمدينة تقرت وكان أبناء عمومتهم يتزعمون مدينة تامسين وهو ما أكده الرحالة العياشي في قوله عن "تقرت" "ثم نزلنا تقرت وهي قاعدة وادي ريغ ومسكن أمرائها أولاد جلاب" إلى أن يقول عن "تامسين" أنها:" بلدة كثيرة العمارة والنخيل وأميرها ابن عم أمراء تقرت وهو كالمستقل في بلده ..."[4]

---

[1] الحسن الوزان: المصدر السابق، ص ص 507-508.

[2] تحولت هذه المدينة إلى مقر للطريقة التيجانية التي انتشرت من هذا المركز حتى التوارق ومالي وغيرها من المناطق الإفريقية جنوب الصحراء.

[3] يقول الشيخ الطاهر بن دومة في مخطوطه السابق الذكر أن الشيخ أحمد بن جلاب قسم الحكم بين ابنيه الأول في تقرت والثاني في تامسين وبقي الوضع كذلك حتى نهاية حكم الأسرة. أنظر: المرجع السابق، ص ص10-11.

[4] العياشي: المصدر السابق، ج1، ص 49.

بهذه السياسة الحكيمة تمكنت أسرة بني جلاب من توحيد المنطقة تحت حكمها، وقد لعبت شخصية سلاطين[1] بني جلاب دورا كبيرا في نجاح سياستهم والتفاف الرعية حولهم، حيث عرف هؤلاء بتواضعهم وعدلهم والعمل على تعمير البلاد وحفظ الأمن بها وهو ما وصفهم به معاصرهم الرحالة العياشي بقوله:" وأمراء هذه البلدة (تقرت) أولاد الشيخ أحمد بن جلاب وأسلافهم من بني مرين ووالدهم هذا كان من أمراء العدل على ما يحكى عنه وأولاده على سيرته لا يقدمون على أمر إلا بعد سؤال متفقهتهم وهم الذين أفتوهم بجواز قتال أهل واركلا (ورقلة)، إلا أنهم لو عندهم من يعتمد على قوله من الفقهاء ولو كان عندهم من يحملهم على الشريعة ويدلهم عليها لأقاموا الدين على وجهه وعلى كل حال فإنهم أعدل من رأينا من الأمراء وليس عليهم أبهة الملك بل يخرج الأمير منهم وحده أو مع رجلين وهو عند أهله كواحد منهم، في جلوسه وكلامه، يتوصل إليه كل واحد..."[2]

رغم هذا التواضع الكبير من الحاكم الجلابي يقول نفس المصدر: "ولأمير البلد حكم نافذ في أهل مملكته والأعراب الذين يردون عليه..."،[3] بالإضافة إلى هذه الصفات التي شهد بها الرحالة العياشي لأمراء بني جلاب يذكر نفس الرحالة أن هؤلاء الأمراء كانوا يتمتعون بثقافة معتبرة، وقد أعجب العياشي بأحد أمراء بني جلاب "سيدي أحمد" وكان له اتصال به لاستعارة كتابين منه فكتب له، لذلك الغرض، قصيدة جاء فيها[4]:

---

[1] يطلق الكتاب الفرنسيون، ومنهم شارل فيرو (*ch, Feraud*) على هؤلاء لقب" *Les petits sultants* " في حين أطلق عليهم الرحالة العياشي لقب "الأمراء" أما إذا اعتمدنا على ما كتب بمسجد تقرت فإننا نجد أن اسم حكام الأسرة كان يسبق بلقب "المولى" (مولى تقرت) وهي كلمة تطلق عادة على الحكام بالمغرب الأقصى وتفيد السلطة الروحية والسياسية.

[2] العياشي: نفس المصدر، ج1، ص51

[3] نفس المصدر، ج1، ص 51.

[4] أنظر بقية القصيدة في نفس المصدر، ص50.

"يا سيدا يخجل برد الرجـــــــــا * حسنا وليث الغاب يوم الردى
يدعى أبا العباس يوم الوغــــــــا * وبأبي بشر بيـــوم النــــــدى

إلى أن يقول:

زلـــت تحيى دارس العـــــــلم في * أزمنـــة قد قل فيـــها الهدى
أبقـــاك ربـــي للعــــلا صـــاعدا * ومرشد من فعـــله مرشـــدا"

كما كان الأمراء يجالسون الفقهاء ويقربون العلماء وبذلك تحولت مدينتهم إلى ملجأ للعديد من العلماء وخاصة المضطهدين منهم، وهو ما جاء في نفس المصدر: "سيدي محمد بن عبد الكريم التواتي ولد عالم توات" الذي التجأ إلى تقرت وأقام بها بعد الاضطهاد الذي لقيه في بلده تمنطيط بغرب البلاد.[1] كما كان سلاطين بني جلاب يرسلون أبناءهم إلى قسنطينة لتلقي العلم على يد علمائها أمثال الشيخ عبد الكريم الفكون.[2]

وقد عمد سلاطين بني جلاب إلى تدعيم استقلالهم وبناء إمارة كاملة السيادة بالعمل على سك عملة خاصة بهم وصفها الرحالة العياشي بقوله:"هي قراريط صغيرة إثنان وثلاثون منها في ربع ريالة"،[3] وقد ذكر الباحث "فيرو" أنه شاهد بعضا من هذه القطع النقدية بعد الاحتلال الفرنسي لمدينة تقرت وقال عنها أنها عبارة عن قطع نحاسية بدون أية علامة أو كتابة، يطلقون عليها اسم "عملة السلطان".[4]

---

[1] نفس المصدر، ج1، ص 49 .
[2] الطاهر بن دومة: المرجع السابق، ص13.
[3] العياشي: نفس المصدر، ص 51.
[4] Feraud (ch): le sahara de constantine, p 135.

2°. مكانة الأسرة العسكرية:

للمحافظة على دولتهم الفتية عمد أمراء بني جلاب إلى تكوين جيش قوي من القبائل الصحراوية المجاورة لعاصمتهم؛ إذ إلى جانب استعانتهم بفرسان الذواودة حلفاءهم المخلصين، كان على هؤلاء السلاطين تكوين جيش نظامي للحفاظ على نفوذهم بالمنطقة، فكونوا قوات خاصة من الفرسان والرماة وحملة البنادق من الأتراك المرتزقة[1] الذين كان الأمير يجتهد لإرضائهم بمختلف الوسائل لضمان بقائهم في خدمته.[2] أما أهم قبيلة عسكرية تابعة لأسرة بني جلاب فهي قبيلة "أولاد مولات"[3] غرب تقرت[4] التي كانت تمثل الحرس الخاص لأمراء بني جلاب وقبيلتهم المخزنية. وبالتالي كانت هذه القبيلة أقرب القبائل إلى السلطة بتقرت، لذا أمنحها أمراء المدينة امتيازات خاصة فكان يخصص لها نصيبا معلوما من الضرائب التي تكلف بجبايتها ونصيب من الغنائم التي تحصل عليها إثر كل غزوة تشارك فيها.

كما كان لهذه القبيلة تقاليد خاصة محترمة من قبل أمراء تقرت، فمثلا كانت القبيلة تقوم بتسجيل أسماء قتلاها، أثناء الغزوات، في قائمة خاصة تعلق بمسجد تقرت حيث كان يقام لهم احتفال سنوي خاص يحضره السلطان بنفسه لتوزيع الأعطيات[5] على أهالي القتلى وأسرهم ويدوم الاحتفال بهذه المناسبة مدة 3 أيام كاملة. وفي مقابل هذه الامتيازات كانت القبيلة تزود الأسرة الحاكمة

---

[1] لم يكن هؤلاء من الأتراك العثمانيين بل مرتزقة كانوا يقدمون خدمات عسكرية لملوك وشيوخ قبائل المغرب العربي وكانوا شديدي الطاعة لرؤسائهم لكونهم بعيدين عن أوطانهم وذلك منذ ما قبل الفترة العثمانية. أنظر، ابن اشنهو: دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، ص37 .

[2] الحسن الوزان: المصدر السابق، ص508.

[3] تنتمي هذه القبيلة إلى الفاتحين المسلمين الأوائل لذا كانت تعتز بأصولها وتحافظ على نقاوة دمها برفض الاختلاط ببقية القبائل عن طريق المصاهرة. أنظر:
Féraud (ch): le Sahara de Constantine, pp39-40.

[4] أنظر الخريطة التوضيحية لمناطق نفوذ الأسرة المحلية الحاكمة.

[5] تتمثل هذه الأعطيات في 5 أكياس من التمر لكل أسرة .

بـــ 600 فارس يجهزون من طرف السلطان ويخلصون في خدمته ورعاية مصالح أسرته بالمنطقة.[1]

ونفس الدور الذي كانت تقوم به قبيلة مولات بالنسبة لحكام تقرت كانت تقوم به قبائل أولاد سباع وأولاد سعيد وأولاد عمر بالنسبة لعاصمتهم الثانية تامسين وكذلك الحجيرة وغيرها من واحات وادي ريغ، وكانت جميع هذه القبائل تجتمع شتاء في عاصمتي الإمارة لتعود مرة أخرى لحياة الترحال في بداية الربيع وكانت مراعيها تنتشر بين "سوف" و"ورقلة" ويصل هؤلاء أحيانا حتى الزاب.[2]

من هنا يمكن القول أن أسرة بني جلاب كانت، فعلا، أسرة حاكمة توارثت حكم منطقة معينة (وادي ريغ) بحدودها ونظامها وجيشها وعملتها الخاصة، حتى أن بعض الباحثين الفرنسيين أمثال "فيرو" كان يعرفها بالسلالة الحاكمة "*Dynastie*"[3]. وقد دام حكم الأسرة ما يقرب أو يزيد عن الأربعة قرون لم تخضع فيها إلى السلطات المركزية، سواء الحفصية أو العثمانية، إلا في فترات منقطعة وأثناء فترة الحكام الأقوياء الذين كانوا يفرضون عليها سلطانهم بقوة السلاح أمثال الحاكمين العثمانيين صالح ريس[4] الذي اخضعها سنة 959هـــ /1552م وصالح باي[5] سنة 1202هـــ/1788م.

وفي مثل هذه الحالات كانت الأسرة الحاكمة تضطر إلى قبول دفع اتاوة سنوية حددت في عهد صالح باي، مثلا، بـــ 16 عبد من تقرت و4 عبيد من

---

[1] حول الموضوع أنظر: Feraud(ch) , le sahara de constantine pp40-41.

[2] Feraud (ch): Idem pp41-42.

[3] يطلق نفس التسمية أحيانا على أسرة المقراني وكذلك الحنانشة. أنظر، نفس المرجع وغيره من كتابات "فيرو" حول تاريخ الأسر الحاكمة).

[4] صالح ريس: هو رابع البيربايات بالجزائر تولى الحكم من 959هـــ/1552م إلى 963 هـــ/1556م .

[5] صالح باي: هو أعظم بايات قسنطينة تولى البايلكية في الفترة ما بين 1184هـــ/1771م و1206هـــ/1792م

تامسين و25 من ورقلة،[1] بالإضافة إلى ضريبة نقدية تقدر بـــ 100 ألف ريال بسيطة[2] هذا عدا الضريبة الحربية التي كانت تدفعها الأسرة إثر انهزامها أمام القوات العثمانية.

ومما ساعد هذه الأسرة على تكوين امارتها، هو استقرارها وبعدها عن حياة الترحال من جهة وبعد أراضيها عن مقر السلطة المركزية من جهة أخرى، وذلك عبر مختلف فتراتها التاريخية، وقد بقيت قبور أمراء الأسرة شاهدة، حتى اليوم، على عظمة إمارتهم مزارا لمريديهم وزوارهم من الأجانب، الذين لا يترلون بتقرت إلا وقاموا بزيارة المقبرة كمعلم من معالم تاريخ المدينة[3]. وقد دفن أمراء بني جلاب في ركن خاص بمقبرة المدينة داخل قباب مختلفة الأحجام وتوجد المقبرة إلى اليوم على بعد 2 كلم غرب تقرت القديمة ولا تحمل قبور السلاطين شواهد تحمل أسماءهم. ويقول السكان أن مقبرة السلاطين كانت تحرس وتصان من طرف أبناء الأسرة إلا أنهم أهملوها بعد الاحتلال الفرنسي للمدينة الأمر الذي جعل علي باي بن فرحات بن سعيد، زعيم أسرة بوعكاز، وحليف الأسرة يتولى صيانتها وفاء لحلفاء أسرته القدامى.[4] أما اليوم فهي، حسب رواية أبناء المنطقة، تشهد اندثارا سريعا.

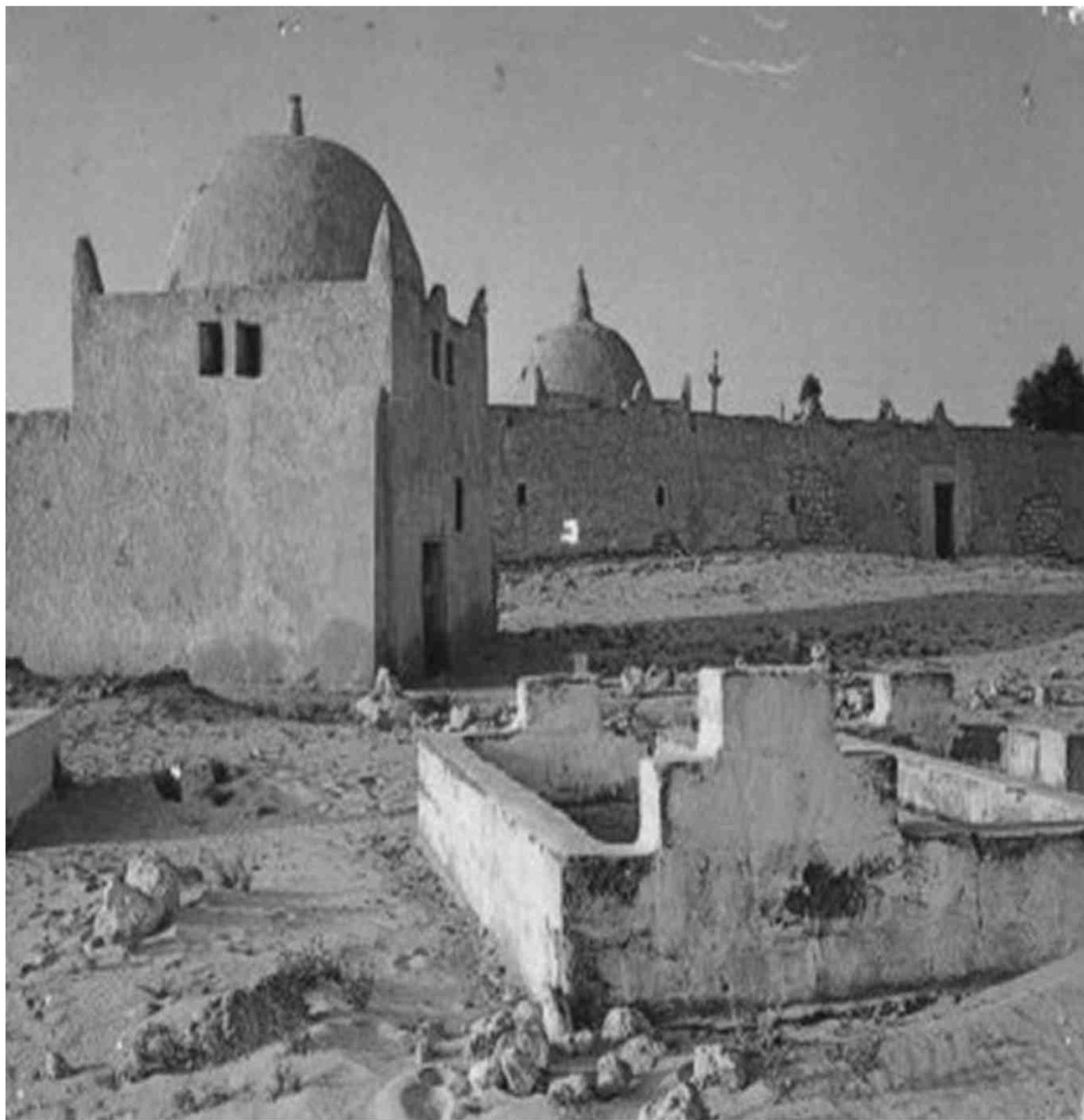
---

1 ALBERT DEVOULX: Tachrifat, Recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne Régence d'Alger, Imp. Du gouvernement général, Alger, 1852, p 32.

2 Vayssette: op.cit, p210.

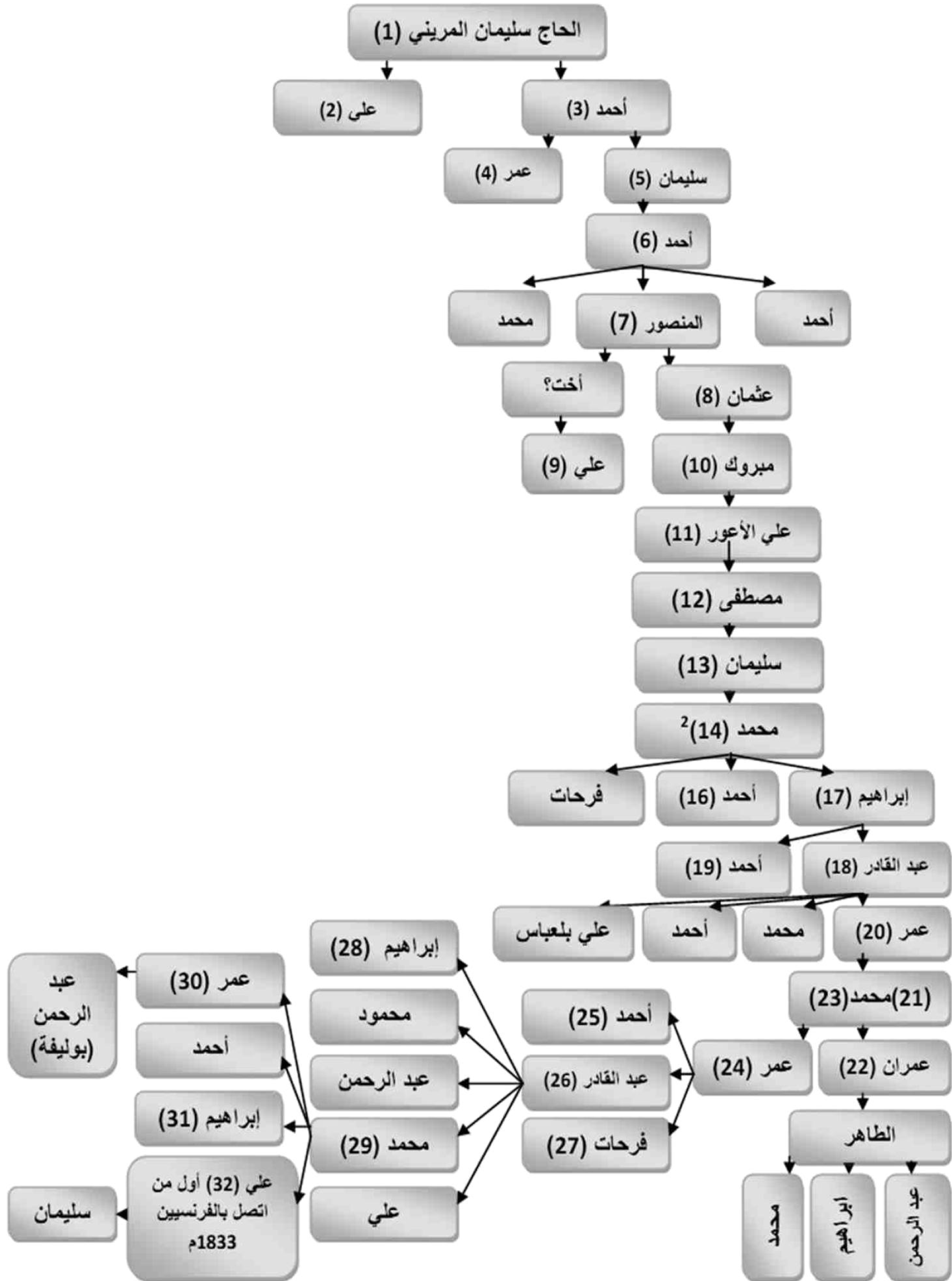
3 هذا ما أكده لي أحد سكان المنطقة وهو السيد "فتيتة" مقتصد ثانوية ابن باديس قسنطينة. أنظر: صورة هذه المقبرة في الصفحة الموالية.

4 FERAUD: Note historiques sur la province de Constantine (les Bendjelleb), R.A, 189, p267.



صورة لمقبرة سلاطين بني جلاب بتوقرت

شجرة نسب أسرة ابن جلاب[1]:



---

[1] اعتمدت في وضع هذه الشجرة على ما جاء في تاريخ هذه الأسرة للباحث الفرنسي: "Féraud (ch): Le Sahara de Ctne

[2] الحاكم الخامس عشر هو محمد الأكحل من أبناء عمومة الأسرة وحكام تمسين. عينته الأميرة أم هاني على رأس الحكم بعد أن هزمت سلطان تقرت محمد بن جلاب حوالي سنة (1137هـ-1724م).

خامسا. أسرة ابن ڤانة: شيوخ العرب وحكام بسكرة.

أ. أصولهـــا:

كانت أسرة ابن قانة آخر من ظهر من الأسر المحلية الحاكمة ببايلك قسنطينة؛ إذ لم تدخل الساحة السياسية إلا في النصف الثاني من القرن 12هـــ/18م، أي بعد استقرار العثمانيين بالجزائر بحوالي قرنين ونصف من الزمن، ورغم تأخر هذه الأسرة في الظهور على مسرح الحياة السياسية بالبايلك إلا أنها لعبت دورا كبيرا في دعم سياسة بايات قسنطينة، حيث كانت سندهم القوي في فرض نفوذهم على الرعية خاصة في نهاية عهدهم بالبايلك. فما هي أصول هذه الأسرة وما مدى استقلالها أو تبعيتها للسلطة المركزية؟

اختلف الباحثون في تحديد أصل أسرة ابن قانة لافتقارهم إلى الوثائق الرسمية الدالة على النسب الدقيق للأسرة، وإلى الإهمال التاريخي الذي كانت تعيشه الأسرة قبل ظهورها في عهد الباي أحمد القلي (1169-1184هـــ/1756-1771م). لذا وضع لنسب هذه الأسرة عدة احتمالات منها:

1°. النسب الشريف: وهو ما تمسك به أفراد أسرة ابن قانة وأكده شيخهم بوعزيز بن ڤانة[1] في كتابه حول تاريخ الأسرة[2] بقوله: أن أسرته تنسب إلى الرسول صلى الله عليه و سلم، ولإثبات ذلك نشر شجرة نسب[3] بدأها بأول شيخ للعرب من الأسرة وهو الشيخ محمد بن علي بن سليمان مرورا بـــ 45 جدا إلى أن يصل إلى الإمام علي بن أبي طالب، رضي الله عنه.[4] وقد استند في تأكيد هذا النسب إلى كتاب الأنساب للشيخ أحمد بن محمد العشماوي، الذي

---

1 هو أحد شيوخ الأسرة في العهد الفرنسي وهو الذي حضر الاحتفالات بالذكرى المئوية للاحتلال 1930م وكان مخلصا لولائه للفرنسيين.

2 Ben Gana (Bouaziz): Une Famille de grands chefs sahariens, Les Bengana, E. soubiron, Alger,1930.

3 Voir: Bengana : Idem, p32.

4 أنظر شجرة نسب الأسرة، ص 91.

دون فيه تاريخ الأسر الشريفة ومنها "القنواة" الذين تنحدر منهم الأسرة، حسب الشيخ بن ڤانة، وقد نقل لنا الشيخ جزءا من الكتاب جاء فيه" أن "بن عطاء"، "القنوات"، "ونوغة" و"أولاد مهد"، كانوا يسكنون جبل عرون غير بعيد عن بني سنوس. كان جدهم يدعى محند (محمد) ويلقب بابن مسعود بن موسى بن عزوز بن عبد العزيز بن جبار بن عمران بن سالم بن عبد الله بن أحمد بن ادريس الأصغر بن ادريس الأكبر..." وبعد ذلك يقول المصدر:" القنوات يسكنون العداوة (الساحل الشمالي غير بعيد عن افريقية (تونس) وجدهم هو محمد بن مسعود."[1]

ونفس النسب أكده شيوخ الأسرة الأوائل للباحثين الفرنسيين الذين سلمت لهم وثائق أسرية تثبت هذا النسب منها الرواية المكتوبة التي سلمت إلى القائد "سروكة" (*Commamdant Seroka*) الذي حضر، احتلال الزاب وتقرت وكتب عن تاريخ المنطقة في هذه الفترة،[2] إلا أن الباحث "فيرو" (*Feraud*) الذي نشر هذه الوثيقة، انتقدها بشدة وقال أنها خلطت بين سليمان الجد الأول للأسرة والحاج سليمان بن قانة صهر الباي أحمد القلي، وبذلك جعلت الرواية شخصية محمد بن قانة تعيش لعدة قرون من دخول الأتراك العثمانيين قسنطينة (حوالي 1534م)، إلى عهد الباي أحمد القلي (1169هـ/1756م)،[3] والرواية تقول أن جد أسرة ابن قانة الأول وهو محمود بن قانة كان من كبار علماء الأندلس، وقد فر سنة 856هـ/1452م مع الفارين من مسلمي الأندلس إلى المغرب الأوسط، إثر

[1] Bengana : Idem, p23.
[2] Commandant Seroka, Le sud constantinois de 1830 a 1855, R.A,1912, p375 et suite.
[3] يقول الباحث "فيرو" أنه تسلم نسخة من الوثيقة التي سلمت إلى القائد "Seroka" من قبل الشيخ سي بولخراص بن قانة، أحد شيوخ الأسرة. وقد نشر الوثيقة كاملة وبين أخطاءها في كتابة:
Le Sahara de Constantine, pp212-213
أنظر كذلك دراسته حول مقاطعة قسنطينة بالمجلة الافريقية لسنة 1882 ص ص377-380.

عمليات المطاردة التي تعرضوا لها من طرف الأسبان، وأن هذا العالم كان من أشراف الأندلس إلا أنه أضاع ما يثبت نسبه هذا، أثناء عملية الفرار.

وبينما ينفي الباحث فيرو(Feraut) النسب الشريف للأسرة نفيا قاطعا، يؤيده وبشدة الباحثان مارت وإيدماند قوفيان *(M),(E),GOUVION* معتمدان في ذلك على الرواية المذكورة من جهة وعلى شجرة النسب التي أعاد صياغتها أبناء الأسرة اعتمادا على روايات أسلافهم من جهة ثانية، ويؤكد الباحثان على صحة هذه الشجرة بقولهما أنها مثبتة بالحجة القاطعة وممضاة من طرف عدد من العلماء والقضاء منهم الشيخ أحمد بن محمد الحسين، سي محمود موفق الحفصي، الشيخ المجاوي عبد القادر والشيخ ابن أودفل.[1] وقد نشر الكاتبان هذه الشجرة ابتداء من الشيخ بوعزيز بن قانة، آخر شيوخ العرب من الأسرة في العهد العثماني.

إلا أن ما يلاحظ عن هذه الشجرة هو اختلافها عن الشجرة التي نشرها شيخ الأسرة "بوعزيز بن قانة" في مرجعه السابق في العديد من الأسماء.[2] ولعل هذا الاختلاف يزيد في شكوك الباحثين حول صحة هذا النسب وهو ما سعى إلى التحقيق فيه الباحث فيرو في بداية الحكم الفرنسي باستجواب العديد من المسنين وشيوخ القبائل القريبة من منطقة نفوذ الأسرة، وقد توصل إلى أن نسب الأسرة لا يعود إلى الفترة الشريفة وإنما إلى امرأة تدعى "قانة".

2°. نسب الأسرة إلى امرأة تدعى"قانة": بعد أن يطرح الباحث "فيرو"، في محاولة لإثبات نسب أسرة ابن قانة، عدة احتمالات مثل القول بأنهم من الذواودة، أو أنهم ينتمون إلى مرابط أولاد سيدي سليمان صاحب زاوية

[1] Gouvion (E),(M): Les Bengana, op.cit, p4.

[2] أنظر الشجرتين في:. Gouvion (E),(M): op.cit, p3-4, Ben gana (B): op.cit, p22

رجاص[1] قرب ميلة، يعود إلى احتمال واحد أكده له عدد من شيوخ القبائل،[2] وهو أن الأسرة تنتسب إلى احدى نساء قرية "كوكو" بجبال جرجرة تدعى "ڤانة" وتقول الرواية: أن امرأة تدعى "ڤانة" كانت تعيش في بداية القرن 12هـ/18م بقرية "كوكو" بجبال جرجرة، طردتها جماعة القرية لتصارع شباب القرية عليها، فالتجأت إلى قرية "فليسة" وكان معها ابنها يحي (ابن ڤانة) وهناك تزوجها أحد كبار الإقطاعيين من بني عمران وهو عبد العزيز، الذي منح ابن زوجته قطعة أرض كانت بداية لغنى الأسرة وبروزها داخل تلك القبيلة.

وتضيف الرواية أن يحي بن قانة بقي بالقبيلة إلى توفي بها وظل قبره يشاهد قرب قرية "تيكناليت" بالقبيلة إلى وقت متأخر من العهد العثماني. وبعد وفاة يحي تفرق أبناءه بين قرى المنطقة للاسترزاق، على غرار بقية أبناء القبائل البربرية، وكان استقرار أهم فرع منهم بوادي سباو، ضمن قبيلة "فناية"، حيث بنى أبناء الفرع ضيعة بقيت تعرف باسم آيت[3] قانة، وقد اشتهر أولاد بن قانة بالعمل في الحدادة في قريتهم "فناية"، وبعد انصرافهم للعمل خارج قريتهم،[4] استقر أحدهم وهو محمود،[5] بقرية رجاص قرب"ميلة" شمال غرب قسنطينة حيث تزوج وكون أسرة كبيرة توارث أبناءها الحدادة ومنهم سليمان بن محمود الذي عرف "بسليمان الحداد" ثم ابنه "قانة بن سليمان" الذي كان له الحظ في الالتقاء

---

1 تقع هذه القرية شمال غرب قسنطينة وتبعد عن ميلة بـ 8 كلم وعن فرجيوة بـ 30 كلم.

2 يقول "فيرو" أن هذه الرواية أقرب إلى الحقيقة من غيرها، بل هي الحقيقة بعينها ولاغبار عليها، إذ أكدها لي شيوخ منطقة "ميلة" بطلب من شيخ فرجيوة أحمد بوعكاز وشيخ زواوة بوزيان. والواقع أن الحقيقة يعلمها الجميع ويؤكدونها حتى بمدينة قسنطينة فضلا عن سكان جرجرة. أنظر:
Feraud: Le Sahara de Constantine, pp216-217.

3 **آيت**: كلمة بربرية تعني "أولاد" أو "أهل".

4 كان من عادة أبناء القبائل البربرية الخروج من قراهم للعمل في أماكن مختلفة وخاصة السهول ثم يعودون إلى قراهم في نهاية السنة.

5 هو الذي ذكرت الأسطورة السابقة أنه جاء من الأندلس فارا من الاضطهاد الاسباني.

بالانكشاري "أحمد بن علي" الملقب بالقلي[1]، والذي كان سببا في تغيير مجرى حياة أسرة ابن قانة. فقد كان أحمد القلي يقوم بوظيفة باش سيار (رئيس سعاة البريد) بين القل وقسنطينة، وأثناء رحلاته المتكررة كان يحتاج إلى خدمات الحداد قانة فكان يترل عنده كلما أراد إصلاح حذوة جواده وجياد أتباعه أو الاختباء من قطاع الطرق والتقلبات الجوية، وكان الحداد قانة يكرم ضيفه كلما نزل عليه ويسامره وبذلك تكونت بين الرجلين صداقة متينة سرعان ما تحولت إلى مصاهرة بزواج أحمد القلّي بابنة صديق قانة.[2]

كانت هذه المصاهرة فاتحة خير بالنسبة للصديقين إذ ارتقى أحمد القلي إلى آغا القل ثم خليفة باي قسنطينة ثم إلى باي قسنطينة وكانت استفادة صديقه وأسرته كبيرة من هذا الارتقاء؛ إذ ما أن وصل أحمد القلي إلى حكم بايلك قسنطينة حتى عمل كل ما في وسعه لرفع أصهاره إلى مرتبة الأسر الحاكمة بالبايلك وفعلا استطاع أن يدخل هذه الأسرة التاريخ ويجعلها تزاحم أعرق الأسر بالمنطقة، أسرة بوعكاز، شيوخ العرب وحكام الصحراء.

بهذه الطريقة وصف لنا الباحث فيرو، استنادا إلى الروايات المحلية، قصة أصول أسرة ابن قانة وعلى الرغم من تأكيد الباحث على صحة هذه الرواية فإننا نلاحظ العديد من نقاط الضعف في هذه الرواية منها قصر الفترة التي تكونت فيها هذه الأسرة، إذ لا يعقل أن تتكون أسرة بفروعها العديدة في مدة لا تتجاوز خمسين سنة، وهي الفترة التي، حسب نفس الباحث، تفصل بين تاريخ هجرة المرأة "قانة"، من قريتها وتكوين حفيدها محمود أسرته الواسعة في رجاص، ثم التقاء حفيد هذا الأخير بأحمد القلي عندما كان مجرد انكشاري بسيط، وقبل أن يتولى منصب باي قسنطينة في سنة 1169هـ/1756م. وبذلك تبقى جميع الاحتمالات المذكورة قائمة إلى أن يثبت أحدها بمصادر رسمية تعود إلى العهد العثماني أو قبله.

[1] لقب بأحمد القلي لإقامته الطويلة بمدينة القل، شمال بايلك قسنطينة.

[2] Feraud: Le Sahara de Constantine, p216.

أما ما اتفق عليه، أغلب الباحثين، فهو تاريخ ظهور هذه الأسرة على مسرح الأحداث السياسية بالبايلك، وقد حدد بمنتصف القرن 12هـ/18م؛ إذ لم يرد ذكر للأسرة، حسب اطلاعي، في أي مصدر تاريخي قبل هذه الفترة، وبذلك يمكن القول أن أسرة ابن قانة كانت من صنع السياسة العثمانية و لم تكن عريقة في حكم المنطقة على غرار بقية الأسر المذكورة.

ب. مقومات سلطان الأسرة:

1°. مكانتها السياسية والإدارية: تعتبر أسرة ابن ڤانة أسرة إدارية بالدرجة الأولى، حيث تقلدت العديد من المناصب الإدارية في ظل الحكم العثماني فحكمت المدن الصحراوية، إذ سيطر شيوخها بدعم من بايات قسنطينة، على إدارة جنوب البايلك فعين من بينهم حكام على بسكرة وتقرت والحضنة واقطعوا الإقطاعات الواسعة في كل من رجاص، مقرهم الأصلي وبسكرة وضواحيها، الأمر الذي حول أسرتهم إلى أسرة إقطاعية هامة ظلت تحافظ على مهامها الإدارية والعسكرية وعلى امتيازاتها حتى الاحتلال الفرنسي.[1] والسؤال المطروح هو ما سر اهتمام العثمانيين بهذه الأسرة والعمل على إيصالها إلى مصاف الأسر الحاكمة بالبايلك؟

لعل من بين أهم الأسباب التي جعلت الحكام العثمانيين يرعون أسرة ابن قانة ويرفعون من شأنها هو غرض ضرب أسرة بوعكاز القوية، التي طالما شكلت خطرا على الحكم المركزي، وإحلال أسرة جديدة محلها لزعامة الصحراء، وبهذه الطريقة ولهذا الغرض انتقل أبناء أسرة ابن قانة ولأول مرة من موطنهم الأصلي رجاص، إلى الصحراء وكان ذلك حوالي سنة 1175هـ/1762م، وهكذا تحولت الأسرة إلى أسرة صحراوية[2] بالموطن وليس بالأصل كما كان يعتقد معظمنا. فكيف وصلت أسرة ابن قانة إلى الصحراء وسيطرت على حكم المنطقة؟

---

[1] أنظر تفاصيل ذلك في الفصول الموالية.

[2] في حديث مع الشيخ عبد المجيد بن حبة، أحد أبناء الزاب وعالم من علمائه، ذكر لي أن بوعزيز بن قانة عين شيخا للعرب وهو لم يكن عربيا، فهو بربري و لم يكن يحسن التحدث بالعربية (لقاء بتاريخ ماي 1988).

تتفق معظم المراجع على أن الباي أحمد القلي (1756-1771م) هو الذي كان وراء انتقال أسرة ابن قانة إلى الصحراء، ذلك أنه كان حريصا على إيصال أصهاره إلى المجد السياسي الذي كانت تتمتع به بعض الأسر المحلية بالبايلك وكان أول عمل له في هذا السياق هو سعيه إلى تزويج أخت زوجته "مباركة" ابنة بن قانة، لابن أخ شيخ العرب "علي بوعكاز" وبهذه الطريقة استطاع أن يربط أصهاره بأقوى أسرة بالصحراء وكانت الخطوة الثانية في خطة الباي، هي الزيارات المتكررة والإقامة الطويلة لمحمد بن قانة، أخ مباركة، إلى الصحراء بدعوى زيارة أخته الأمر الذي سمح للضيف بتكوين صداقات مع سكان المنطقة، وقد غذى الشيخ هذه العلاقة بما كان يدره على الفقراء منهم من صدقات جعلته يحتل مكانة هامة في نفوس العرب سرعان ما استغلها الباي لتعيينه شيخا عليهم، فكان ذلك بداية لإشعال نار الحرب بين شيوخ العرب القدامى، من أسرة بوعكاز، وشيوخ العرب من أسرة ابن قانة.[1]

ولكن السؤال الذي يجب طرحه في هذا السياق هو: هل حقا أن نفوذ أسرة ابن قانة لم يظهر بالصحراء إلا في فترة حكم الباي أحمد القلي؟ أم أن هناك ما يشكك في هذه القضية؟

إن العديد من الشواهد التاريخية تجعلنا نقول أن وجود أسرة ابن قانة بالصحراء كان سابقا لتاريخ تولي الباي أحمد القلي الحكم في قسنطينة، منها ما جاء في رحلة الشيخ الحسين الورثيلاني، الذي مر بمنطقة الزاب سنة 1175هـ/1762م حيث التقى بشيخ العرب الحاج بن قانة وقال عنه ما يلي: "وفي هذا اليوم لقينا ولد الشيخ الجيد الذي أزمة العرب في يده وأيضا كلمته مقبولة ومنفذة عند الترك، الحاج بن قانة، وكان رجلا عاقلا مطمئنا في نفسه ثقيلا يأخذ كثيرا بيد الضعيف ولذا لم يخب سعيه ولا انكشف رأيه فدام ما معه من الستر والعافية عليه مع تداول أولي الأمر على وطن قسنطينة وعاداهم إذا

[1] كل هذا سنراه بالتفصيل في الفصل الأخير من الكتاب.

جاء والي جديد غيّر أهل الدولة الأولى ورد ما يصلح به من أصحابه وهو الحمد لله مقبول محبوب عند كل متولي..."[1]

فالرحالة بقوله هذا يؤكد أن وجود الشيخ ابن قانة بمنصبه كان سابقا لعهد معاصره الباي أحمد القلي، وهو ما أشار إليه أيضا المؤرخان الفرنسيان *(E)(M)* "*Gouvion*" بقولهما أن نفوذ أسرة ابن قانة وصل حتى تقرت وورقلة وأن بايات قسنطينة كانوا يحترمون شيوخ الأسرة ويتفاوضون معهم على قدم المساواة واستدلا على ذلك بنص من رسالة الباي حسن زرق عينو (1167-1170هـ/1754-1756) كان قد وجهها إلى سي مصطفى قائد بسكرة[2] وهذا ما يدلنا على وجود شيوخ هذه الأسرة بالصحراء قبل مجيء الباي أحمد القلي إلى الحكم (1170هـ/1756م). إلا أن هذا لا يمنعنا من الاعتقاد بأن نفوذ أحمد القلي هو الذي أوصل أصهاره إلى حكم الصحراء، سواء كان ذلك قبل توليه البايلكية أو بعد ذلك، إذ تقلد أحمد القلي العديد من المناصب التي كانت تخوّل له تحقيق أغراضه وأغراض أصهاره دون الانتظار للوصول إلى الحكم، منها منصب الباش سيار ثم آغا القل ثم خليفة الباي زرق عينه ولعل انتقال الأسرة إلى الصحراء كان في فترة خلافته للباي المذكور وليس في فترة حكمه لقسنطينة.

ومهما يكن أمر تاريخ دخول هذه الأسرة الصحراء فإنها استطاعت في فترة قصيرة أن تصبح أسرة حاكمة قوية إداريا وسياسيا وعسكريا، وأن تسيطر على معظم أراضي الزاب،[3] و إن كان نفوذها بالمنطقة قد بقي صوريا ومدعما من طرف بايات قسنطينة حتى نهاية العهد العثماني.[4]

---

[1] الورثيلاني (الحسين): المصدر السابق، ص 105. (الخط من وضع الكاتبة).

[2] Gouvion (E),(M): " les Bengana", op.cit, p5.

[3] أنظر الخريطة التوضيحية لمناطق نفوذ الأسر الحاكمة بالبايلك في نهاية الفصل الأول.

[4] Féraud (ch): le Sahara de Constantine, pp219-220.

2°. مكانة الأسرة العسكرية: لم يكتف بايات قسنطينة بإيصال أسرة ابن قانة إلى مشيخة العرب وحكم الصحراء، بل سعوا إلى دعمها بقوات عسكرية هامة خولت لشيوخها السيطرة على المنطقة، رغم رفض السكان لحكمهم، ومحاربة أسرة بوعكاز، شيوخ العرب الشرعيين، لهم. فزيادة على مساندة الحامية العسكرية المقيمة ببسكرة للأسرة، وضع تحت تصرف شيخها قوات هامة من قبائل الصحراء تتكون أساسا من:

- **البوازيد وأولاد رحمن:** وكانوا يقدمون لشيخ العرب 900 رجل من المشاة و800 من الفرسان.
- **السحاري:** ويزودون الشيخ بـــ: 200 فارس.
- **الزمالة:** وهي القوة المخزنية التابعة للشيخ، وتتكون من 60 فارس.

وبذلك يكون مجموع قوات الأسرة 900 من المشاة و210 من الفرسان[1] هذا عدا المجندين، في حالات الطوارئ، من مختلف القبائل الخاضعة للسلطة المركزية. وقد كانت قبيلة السحاري أهم قبيلة عسكرية لدى الأسرة، وكانت تمثل الحرس الخاص لشيوخ العرب وأكثرها إخلاصا لهم. كما ضم البايات لقوات ابن قانة العديد من القبائل التي اشتهرت باللصوصية وقطع الطرق منها قبيلة الشعابنة[2].

3°. المكانة الاقتصادية للأسرة:

كانت مصاهرة ابن قانة للباي أحمد القلي ثم مصاهرة أبناءه وأحفاده للحكام والموظفين العثمانيين سببا كافيا لتحول أسرته إلى أسرة إقطاعية واسعة الثراء نتيجة لما كانت تكسب من وراء مناصبها الإدارية والسياسية من امتيازات مادية هامة، وخاصة منصب شيخ العرب الذي كان يخول لها الانتفاع بنصيب

---

1 Feraud (ch): Idem, p 308.

2 A.O.M, (1H9): “M.Martin, notes sur l’Historique de quelques familles de Constantine (cercle de Biskra)

هام من الضرائب التي يكلف الشيخ بجمعها من القبائل. بالإضافة إلى الإقطاعيات الواسعة التي كان يمنحها البايات لكل من يتولى هذا المنصب من الأسرة مقابل خدمات عسكرية وإدارية. وكان ذلك إما على شكل ملك أو عزل.[1]

نتيجة لهذه الامتيازات المادية، اجتمع لدى أسرة ابن قانة عدد لا يحصى من المواشي ومبالغ من الأموال كما ملكت معظم أراضي "رجاص" الزراعية وعددا كبيرا من البساتين في العديد من الواحات بالصحراء.[2] ولعل وصف "حمدان بن عثمان خوجة" لحياة الشيخ "بوعزيز بن قانة"، آخر شيوخ العرب في العهد العثماني، كافي لتصور مكانة أسرته الاقتصادية والاجتماعية، فقد زار حمدان خوجة نفسه خيام الشيخ وهو في طريقه من الجزائر إلى قسنطينة أثناء مقاومة الحاج أحمد للفرنسيين ووصفها بقوله: "إن خيام الذوادي[3] بن قانة خال الحاج أحمد رحبة ومقامة بأناقة وأبهة وعلى كل مدخل تجد الخيل الجميلة مربوطة. ولقد سألت عن عدد الفرسان الذين يمكن تجنيدهم عند أول إشارة، وكان الجواب أن الشيخ ابن قانة يستطيع الاعتماد على عشرة آلاف فارس. ولا أعتقد أن في هذا العدد مبالغة، لأن مجموع الخيل يزيد عن العشرة آلاف... أما أنا، فاني أعتقد أنه بالإمكان، عند الحاجة، مضاعفة العدد، وذلك نظرا لكثرة ما يملكه هؤلاء السكان من الخيل ولكثرة شغفهم بركوبها وبخوض الحروب. وهناك أيضا مشايخ كثيرون يعرفهم ابن قانة ويسكنون هذه المناطق.[4] وفي وصفه للشيخ نفسه يقول أنه كان يمتاز بالأناقة وسعة الخيام والغنى الفاحش بحيث كان يأكل في أواني من الخزف الصيني ويشرب في إبريق من الفضة.[5] من

---

1 سيأتي الحديث عن هذا الموضوع في الفصل الموالي.

2 A.O.M, (1H9): Idem.

3 كان يطلق على كل من يملك قطعان من الغنم اسم "الذوادي" أي صاحب ذود من الغنم.

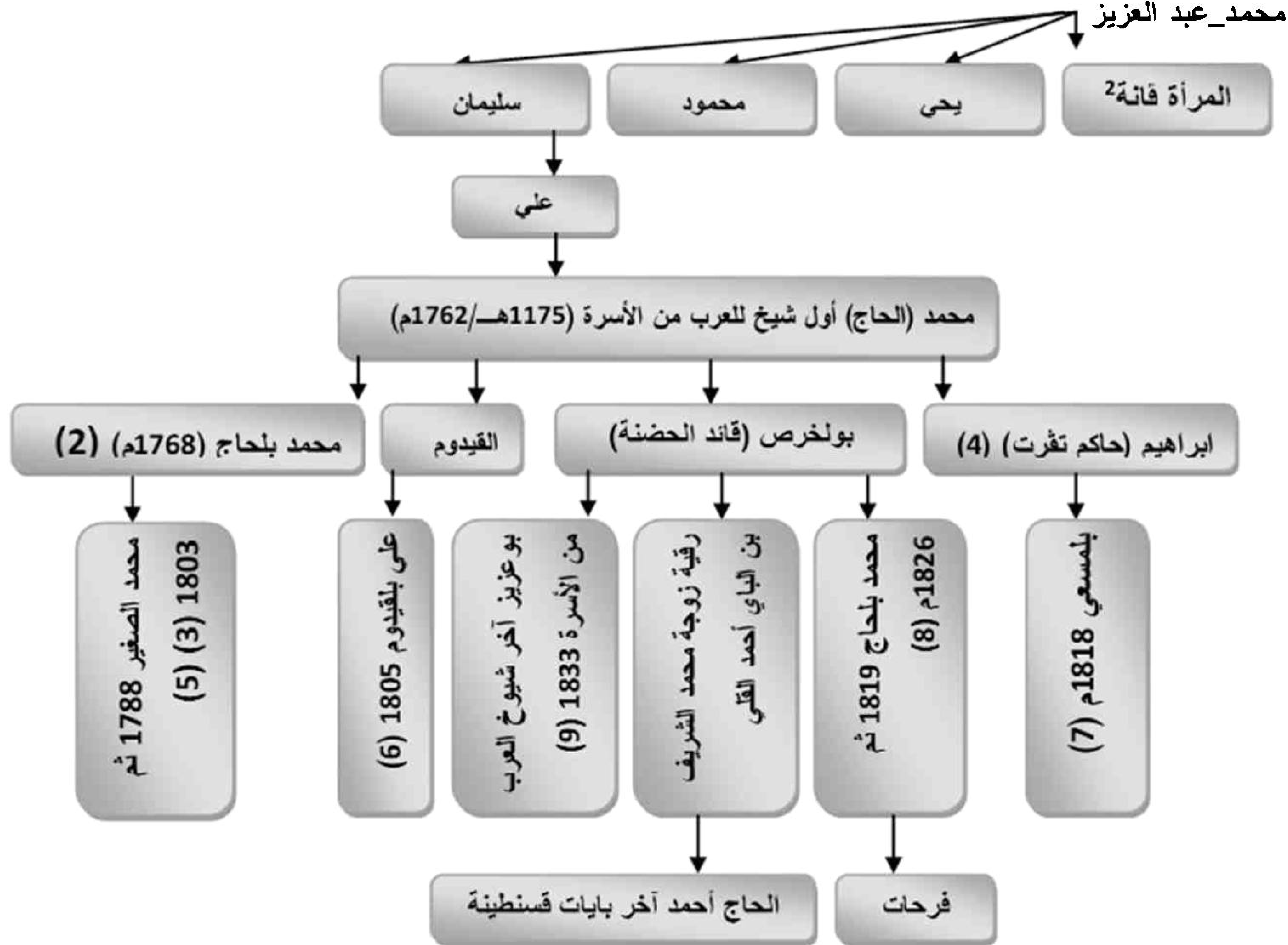
4 حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، ص 82.

5 نفس المصدر، ص 74.

هذه الشهادة لحمدان خوجة يمكن تقدير أهمية أسرة ابن قانة في العهد العثماني كما لا يسعنا إلا أن نعجب للسياسة العثمانية التي استطاعت أن تحول هذه الأسرة من أسرة مجهولة التاريخ إلى أسرة حاكمة دخلت التاريخ من بابه الواسع.

شجرة نسب أسرة ابن قانة[1]:

علي بن أبي طالب-الحسن-عبد الله_ادريس الأكبر_ادريس الأصغر_أحمد_عبد الله_سالم_عمران_جبار_عبد العزيز_عزوز_موسى_مسعود_مهدي_داود_يحي_عيسى_علي_عبد الله_ابراهيم_عبد الله_عيسى_عبد الغفار_داود_محمد_يوسف_خالد_عدنان_يوسف_عيسى_أحمد_الحبيب_العابد_عبد المالك_ابراهيم_يونس_خالد_عمر_محمد_عبد العزيز



1- اعتمدت في وضع هذه الشجرة على ما جاء في تاريخ الأسرة للشيخ بوعزيز بن قانة الذي ينسب الأسرة إلى الفترة الشريفة وهو ما أشار إليه أيضا *E.M. Gouvion*. أنظر:

Ben Gana (Bouaziz): op.cit, p22 et suit.

E.M. Gouvion: op.cit, pp4-5.

2- هنا يبدأ تاريخ الأسرة حسب الباحث فيرو "Féraud" والذي ينسب الأسرة إلى إمرأة من قرية كوكو. أنظر:

Féraud: Le Sahara de Constantine, pp 216-227.

بعد هذا العرض لأصول أهم الأسر الحاكمة ببايلك قسنطينة ومقومات سلطاها تجب الإشارة إلى أن التركيز على الأسر الخمسة المذكورة لا يعني أبدا أنها انفردت بحكم أرياف البايلك، بل أن أسرا أخرى عديدة ساهمت بقسط كبير في سير الأحداث السياسية بالبايلك وإن كانت أقل من الأولى أهمية وقوة ونفوذا بالمنطقة وحتى لا نغبط هذه الأسر حقها في التعريف بها، خاصة وأنه سيرد ذكرها أثناء تأريخنا للأولى، فإننا سنعرف بأهمها وهي:

سادسا. أسرة بوعكاز بن عاشور، حكام فرجيوة:[1]

- **أصولها:**

كثيرا ما يخلط الباحثون بين أسرة بوعكاز الذواودة بالصحراء وأسرة بوعكاز بن عاشور الجبلية، بفرجيوة. وقد حاول الباحث فيرو، إلقاء بعض الضوء على تاريخ هذه الأسرة في مقال نشره بالمجلة الإفريقية[2] جاء فيه: "إن أسرة بوعكاز بن عاشور، استنادا إلى روايات المسنين من أبناء المنطقة، تعود إلى أصول بعيدة كل البعد عن أسرة بوعكاز سكان الصحراء، فهم من أولاد زناتي، قرب قالمة وتقول الروايات المحلية أن خلافا حادا وقع بين أولاد قبيلة أولاد زناتي قُتل على إثره كبير الأسرة[3] وفرت الزوجة بولديها، عاشور وحمزة، لتستقر بمنطقة "زردازة" ثم "القل" ثم "جيجل" وفي الأخير وصلت إلى قبيلة "أورزيفة" التي كانت تتزعم منطقة فرجيوة، وهنا أعجب شيخ القبيلة بالمرأة فتزوجها وزوج ابنته إلى ابنها عاشور، الذي أظهر الكثير من القوة والفروسية فقربه صهره وجعله قائد الجيوش ثم خليفة له.

---

[1] تقع فرجيوة جنوب جيجل، بالشمال الغربي للبايلك، وتضم 30 دوار. وتمثل فرجيوة الطريق الرابط بين سطيف قسنطينة. (أنظر تقرير لجنة رقم 131، القسم التقني لمسح الأراضي (*CADASTRE*) لولاية قسنطينة.

[2] FERAUD (CH): Ferdjioua et Zouara, note historique sur la province de Constantine, R.A, 1878, p6.

[3] لم يذكر اسمه.

وبما أن الشيخ لم يترك وريثا لحكمه من الذكور فإن عاشور، صهره، استولى على حكم القبيلة بعد وفاة حاكمها مباشرة وبذلك بدأ حكم أسرة أولاد بن عاشور لفرجيوة، وكان ذلك حسب نفس المصدر، في منتصف القرن 11هـــ/17م. واستطاع الحاكم الجديد (عاشور) أن يفرض نفوذه على المنطقة بتكوين جيش قوي جمع عناصره من المناطق المجاورة مثل ريغة وسطيف وغيرها. وبذلك تمكن من هزيمة منافسيه على الحكم من أبناء قبيلة أوزيفة،[1] الذين رفضوا أن يحكمهم شخص غريب عن القبيلة.[2]

بعد انفراده بالحكم، عمل "عاشور" على استقلال قبيلته عن جارتها القوية، قبيلة عنان، التي طالما هيمنت على قبيلة أوزيفة وجمعت منها الضرائب. كما عمل على إخضاع بقية القبائل، المجاورة لمنطقة نفوذه، بقوة السلاح إلى أن أصبحت جميع القبائل المحاطة بفرجيوة تحت حكمه وأصبحت هذه الأخيرة مركزا لحكم وراثي لأبنائه من بعده. بعد وفاة عاشور، خلفه في الحكم ابنه حمزة، الذي ترك بدوره الحكم لابنه شلغوم ومن أبناء هذا الأخير تكونت ثلاثة فروع لهذه الأسرة هي: فرع الحاج وفرع محمد والمبارك.

وقد ظلت أسرة عاشور تتمتع باستقلالها السياسي والعسكري عن الحكم المركزي بقسنطينة حتى عهد "الحاج بن عاشور"، حوالي سنة 1111هـــ/1700م حيث بدأ أول احتكاك له ببايات قسنطينة، وكان أول من عمل على إخضاع هذه الأسرة هو الباي حسن بوقمية (1124هـــ/1713م)، الذي هاجم الشيخ ابن عاشور لإخضاعه بالقوة للحكم المركزي والتخلص من الخطر الذي كان يشكله على القوات العثمانية المارة على الطريق الرابط بين قسنطينة وسطيف،

---

[1] ثار رجال القبيلة ضد عاشور لكونه غريب عن القبيلة، إلا أنه استطاع التخلص منهم بالقتل الجماعي أثر وليمة دعاهم إليها. أنظر: Féraud: Idem, p7.

[2] جاء في تقرير لجنة (*S.C*) أن أصل أسرة ابن عاشور يعود إلى عرب الطائف، قرب مكة بالجزيرة العربية، ويقول أن المدعو عاشور جاء من المدينة المنورة سنة 480هـــ/1572م ليستقر قرب قالمة حيث أسس أسرة قوية ينحدر منها بنو مسعد. (أنظر التقرير رقم 131 بالقسم التقني لمسح الأراضي لولاية قسنطينة).

إلا أن محاولات الباي باءت بالفشل. واستمر بايات قسنطينة في محاولاهم لكسر شوكة هذه الأسرة القوية دون جدوى.

وبقي أولاد بن عاشور يتمتعون باستقلالهم وقوهم إلى أن جاء صالح باي إلى الحكم (1771-1792م) واستطاع عن طريق سياسة فرق تسد، أن يبث الشقاق بين أبناء الأسرة[1] الأمر الذي أضعف من قدرات شيوخها وجعلها ترتبط بالسلطة المركزية ارتباطا غير مباشر، وبذلك تحول حكام فرجيوة إلى أسرة مخزنية شاركت بجيوشها في مختلف الحملات التي قامت بها القوات العثمانية سواء ضد تونس، أو لجمع الضرائب من القبائل المستعصية أو لتأديب القبائل الثائرة. وقد كان دور الأسرة بزعامة أحمد بوعكاز في مقاومة الفرنسيين إلى جانب الحاج أحمد باي قسنطينة، بارزا شهد له الفرنسيون أنفسهم.[2]

سابعا. أسرة ابن ناصر حكام خنقة سيدي ناجي:[3]

- **أصلها:**

يتفق معظم الباحثين على أن أسرة ابن ناصر تعود في أصولها إلى عثمان بن عفان،[4] ثالث الخلفاء الراشدين، رضي الله عنهم، وقد أخذت اسمها من الأمير الأموي، عبد الرحمن الداخل حاكم قرطبة الملقب بالناصر. وتقول المصادر أن أسلاف هذه الأسرة فروا من الأندلس بعد سقوط غرناطة سنة 797هـ/1492م ودخلوا المغرب ليستقروا في"تسالة" وجبال تلمسان قبل أن يتوغلوا في المغرب الأوسط ليصلوا إلى تونس حيث عاش جد الأسرة "سيدي قاسم" ووالده "سيدي ناجي".

---

[1] حول الصراع الذي دار بين فروع أسرة بوعكاز بن عاشور، أنظر الفصل الأخير من الكتاب.

[2] Temimi (A): "LE Beylik de Constantine et Hadj Ahmed bey 1830-1837", R.H.M, Tunis, 1948, pp137-138.

[3] تقع خنقة سيدي ناجي بالجنوب الشرقي للأوراس، (أنظر خريطة توزيع نفوذ الأسر الحاكمة في نهاية الفصل الأول).

[4] حول أصول هذه الأسرة أنظر: Mercier (g):"Kanguet sidi nadji (quelque inscriptions arabes inedites)," R.S.A.C, 1915 ,p164.

التف حول الرجلين العديد من الأتباع والمريدين في تونس لشهرتهما العلمية، وبعد وفاتهما رحل خليفتهما "سيدي مبارك" إلى ورقلة رفقة عدد من الأتباع ومنها انتقل إلى الزاب الشرقي وذلك حوالي سنة 1011هـ/1602م، استقر للتدريس بالقرب من جبل برقة، بمكان يدعى الخنقة، حيث بنى زاوية سرعان ما استقطبت الطلاب من مختلف القرى المجاورة للخنقة، وبذلك تحول المكان إلى قرية أطلق عليها الشيخ اسم "خنقة سيدي ناجي" نسبة إلى جده. عمل هذا الشيخ على تعمير القرية وإنعاشها اقتصاديا وثقافيا، فقام بشق قناة لري الأراضي الزراعية (ساقية موسى)، وغرس النخيل والأشجار المثمرة، كما حول زاويته إلى مدرسة يؤمها الطلاب من كل صوب، وبذلك بدأ مجد أسرة ابن ناصر.

ففي عهد "سيدي مبارك" نالت أسرة ابن ناصر تقدير السكان وثقتهم لما قام به شيخها من أعمال كانت سببا في ازدهار منطقتهم اقتصاديا وثقافيا، واستمر وفاء السكان لحكامهم حتى بعد وفاة سيدي مبارك سنة 1030هـ/1621م؛[1] إذ كان خلفه، ابنه أحمد،[2] يتميز بنفس الصفات التي عرف بها والده، فقام بتوسيع مدرسة الأسرة التي أصبحت نقطة جذب لمختلف طلاب العلم بالايالتين التونسية والجزائرية، وبذلك وصل صيت شيوخ هذه الأسرة إلى كل من تونس ومدينة الجزائر وأعجب الحكام العثمانيون بنشاط هؤلاء العلماء، وعملوا على التقرب منهم والتعاون معهم لتحقيق بعض المشاريع الاقتصادية بالمنطقة، منها شق قناة "سيدي محرز" سنة 1049هـ/1640م، بالتعاون مع باي قسنطينة الذي سعى إلى ربط الأسرة بالحكم المركزي بمنح شيخها "أحمد بن المبارك" لقب شيخ الخنقة وبذلك أصبحت الأسرة تابعة، ولو

[1] دفن "سيدي مبارك" بمسجد الخنقة، الذي بقي يعرف باسمه حتى اليوم.

[2] ترك "سيدي مبارك" ثلاثة أبناء : محمد،تواتي وأحمد، هاجر الأول والثاني إلى تونس وبقي أحمد ليخلف والده في حكم المنطقة.

اسميا، إلى السلطة المركزية بقسنطينة وكان هذا مكافأة للشيخ على وقوفه مع العثمانيين ضد ثورة ابن السخري (1047هـ/1637م).[1]

منح الحكام العثمانيون هذه الأسرة امتيازات مادية هامة منها حق جباية زكاة عشر الزاب الشرقي وجبل ششار.[2] ولم يكن خلفاء "أحمد بن المبارك" يختلفون عن سلفهم في العلم والتسيير الحكيم لشؤون المنطقة كما لعب شيوخ هذه الأسرة دورا كبيرا في تهدئة الأوضاع بالمنطقة، وكثيرا ما قاموا بدور الوسيط بين بايات تونس وبايات قسنطينة لإيقاف النزاعات والحروب بينهم وهو ما جعل بايات قسنطينة يختارون بعض شيوخ الخنقة ليكونوا ممثلين لهم في التفاوض مع بايات تونس، كما كان لهؤلاء الشيوخ نفوذ روحي على أسرتي بوعكاز الذواودة وأحرار الحنانشة،[3] لوجود الخنقة بين منطقتي نفوذهم.

بعد وفاة الشيخ "أحمد بن المبارك" سنة 1077هـ/1667م عمل خليفته محمد الطيب على التقرب أكثر من بايات تونس وبايات قسنطينة الأمر الذي وسع نفوذ الأسرة وضاعف من امتيازاتها؛ إذ كان كل باي يعين على قسنطينة يرسل لشيخ الأسرة ظهائر[4] اعترافا بحكمها على المنطقة وتوسيعا لامتيازاتها السابقة.[5] وبذلك احتفظ شيوخ هذه الأسرة باستقلالهم شبه التام عن السلطة المركزية وتوسعت أراضيها.

بعد وفاة محمد الطيب (1106هـ/1695م) خلفه ابنه "سيدي عبد الحفيظ" في حين انتقل ابنه الثاني "سيدي محمد" ليستصلح أراضي أخرى وكان

---

[1] حول هذه الثورة أنظر الفصل الأخير من الكتاب.

[2] Mercier (g): Idem, p155.

[3] كان محمد بن الطيب بن أحمد بن المبارك وراء المصاهرة التي ربطت بين أحرار الحنانشة وبايات تونس، وهو الذي أقنع الشيخ سلطان بن منصر بمناصرة علي باشا عسكريا ضد منافسه. (أنظر الفصل الثالث من البحث).

[4] وثائق رسمية تسجل فيها حقوق الأسرة في المنطقة.

[5] كانت هذه الظهائر تجدد عند انتهاء حكم كل شيخ وعند وصول كل باي جديد إلى حكم قسنطينة. أنظر:
Mercier(g): Idem, pp156-158.

استقراره بالمكان الذي يدعى "تبوي أحمد" غرب الخنقة، حيث أحي أراضيه بغرس الأشجار والنخيل وبنى به مدرسة ليجمع حوله الطلبة والأتباع، ونفس الوضع كان يشهده حكم أخيه بالخنقة.

توفي سيدي محمد سنة 1144هـ/1732م فخلفه ابنه أحمد بن ناصر، الذي لعب دورا كبيرا، على غرار أسلافه، في تسوية النزاعات التي كانت تنشب بين بايات كل من قسنطينة وتونس، وقد تميزت فترة حكم هذا الشيخ بكثرة أسفاره بين تونس والجزائر لتحقيق الوفاق بين الايالتين،[1] كما ميز هذا الحكم سياسة الشيخ الهادفة إلى توطيد علاقة أسرته أكثر ببايات تونس، الأمر الذي أثار شكوك باي قسنطينة في اخلاص الشيخ لحكمه، وساد الاعتقاد بأن حاكم الخنقة ينوي الانفصال عن بايلك قسنطينة والاتحاد مع بايات تونس، وقد زاد من قوة هذا الاعتقاد قيام الشيخ ببناء قلعة عسكرية على مشارف الخنقة لحمايتها من أي غزو،[2] إلا أن الباي "أحمد القلي" هاجمه وألحق بالمنطقة خسائر مادية هامة، منها تحطيم الحصن الذي تم بناءه.

أمام هذه الخسائر قام علي باشا، باي تونس، بمنح الشيخ أحمد بن ناصر أراضي زراعية واسعة بتونس تعويضا له عن الخسائر التي لحقت به واعترافا بالجميل الذي قدمه له أيام فراره من تونس، في الربع الأول من القرن 12هـ/18م وتتمثل هذه الأراضي في اقطاعين: الأول بمقاطعة ماطر ويقدر بـ 26 جابدة[3] حوالي 260 هكتار. والثانية بمنطقة بنزرت.[4]

---

[1] **الايالة**: كلمة تطلق على اللولايات العثمانية بالمغرب العربي.

[2] تقول المراجع أن القلعة بنيت على أبواب الخنقة لحمايتها من غارات العربان المتكررة وخاصة أن حروبا طويلة كانت قائمة بين الخنقة وسكان ليانة بزعامة أسرة ابن شنوف وكذلك بينها وبين الشابية.

[3] Mercier (g): Idem, p159.

[4] أكدت لي الأستاذة كريمة بن حسين، سليلة هذه الأسرة، أن أسرتها ما زالت تحتفظ بهذين الاقطاعين وتستفيد منهما حتى اليوم.

بعد وفاة "أحمد بن ناصر" خلفه في الحكم، ابنه حسين، وهو الذي عرفت باسمه الأسرة بعد ذلك (أسرة ابن حسين)، فتابع أعمال سلفه الاقتصادية والعمرانية والعلمية ومتن علاقته ببايات تونس[1] حتى أن هؤلاء أصبحوا يرسلون الطلبة إلى الخنقة لإجازتهم على أيدي علمائها ويكرمون كل من يأتي إلى تونس من طرف حكام الخنقة ويسهرون على راحته حتى يعود إلى وطنه.[2] وإذا كانت علاقة شيوخ الخنقة بالحكام التونسيين علاقة طيبة ومتينة فإن علاقتهم ببايات قسنطينة لم تكن أقل متانة: حيث تمسك هؤلاء بولاء شيوخ الخنقة لهم فكانوا يرسلون لهم الظهائر التي تثبت حقهم في حكم المنطقة وتزكي ما لهم من امتيازات وقد استمر ذلك حتى نهاية العهد العثماني.

ثامنا. أسرة ابن شنوف:

تعتبر هذه الأسرة من الأسر الهامة التي ساهمت في حكم جنوب بايلك قسنطينة، وقد كانت في بداية العهد العثماني تحكم مدينة الكاف التونسية، قبل أن تطرد منها، إثر حروب طويلة خاضتها ضد بايات تونس، لتلتجئ إلى قسنطينة ومنها إلى الجنوب، حيث استقرت نهائيا بالزاب الشرقي.

- **أصل الأسرة:**

يعيد الباحث "*Feraud*" أصول هذه الأسرة إلى الفرس، وذلك استنادا إلى ما جاء في وثيقة كتبت من طرف "مولاي ابراهيم"، سلطان فاس، بالمغرب الأقصى، لفائدة زعيم الأسرة الحاج "الأشهل بن بوعلاق" وقد نسب السلطان فيها هذا الزعيم إلى جعفر البرمكي وزير الخليفة العباسي "هارون الرشيد" وبها يقول"بما أن قدم إلينا ولدنا الحاج ابن الأشهل بن بعلاق البرمكي...لأنه رجل عزيز قوم ونسله طيب من نسل جعفر البرمكي وزير هارون الرشيد..."

---

[1] Gouvion(E),(M): (Les Ben Nacer), op.cit, pp47-48.

[2] أنظر العلامة حمودة ابن محمد بن عبد العزيز: الكتاب الباشي، الجزء الأول، الدار التونسية للنشر، 1970، ص206.

لم يشكك الباحث "فيرو" في هذا النسب، بل اعتبره حقيقة لا غبار عليها،[1] إلا أن أبناء المنطقة لا يرون ذلك، بل يعيدون أصل الأسرة إلى أولاد صولة، من عرب بني سليم،[2] وهو ما يدل عليه، حسب رأيهم، اسم علاق أي علاق بن عوف من بني سليم. والحقيقة أننا لا نملك ما يؤكد أو ينفي أي رأي من الرأيين السابقيين، وان كنا نرجح الرأي الأول على أساس أنه مدعم بوثيقة رسمية تعود إلى الفترة المدروسة (الفترة العثمانية)،[3] في حين لا يستند الرأي الثاني إلى وثائق رسمية.

ولعل تعامل الأسرة مع أولاد صولة وتعاونها معهم، منذ بداية حكمها لمنطقة الكاف، هو الذي جعل اسمها يرتبط بهؤلاء فأصبحت تعتبر جزءا منهم. ومهما يكن نسب هذه الأسرة فإنها استطاعت أن تفرض نفوذها على منطقة الكاف ثم الزاب الشرقي، بكل قوة، كما استطاعت أن تحافظ على استقلالها عن الحكم المركزي حتى مجيء الفرنسيين. والسؤال المطروح هنا هو: كيف وصلت هذه الأسرة إلى بايلك قسنطينة؟ وكيف استقرت بالزاب الشرقي؟

تقول المصادر أن أسرة ابن شنوف كانت تحكم الكاف منذ زمن بعيد، حيث كانت تتمتع بنفوذ قوي بين قبائل المنطقة وتجبي الضرائب منها.[4] وبعد وصول العثمانيين إلى المنطقة بدأت التراعات بينهم وبين الأسرة، وكان أحرار الحنانشة يؤيدون بايات تونس في حين كان أولاد سعيد وأولاد صولة، من بني

[1] Féraud, ch: "Les descendants d'un personnage des mille et une nuit en Algérie", in R.A. 1875, p 6 et suit.

[2] هذا ما أفادني به، شفهيا، كل من الشيخ زهير الزاهري والشيخ عبد المجيد بن حبة، وهما من أبناء الزاب وعلمائه الأجلاء، إلا أن انتشار اسم جعفر بين أبناء الأسرة إلى اليوم يوحي بانتمائها، ربما، إلى البرامكة.

[3] الوثيقة مؤرخة في سنة 1034 هـ/1625م.

[4] ابن أبي دينار(أبو عبد الله): المؤنس في أخبار افريقيا وتونس، تحقيق: محمد شمام، المكتبة العتيقة، تونس، 1961، ص233.

سليم، يدعمون أسرة ابن شنوف، وقد استمرت النزاعات والمعارك بين هذه الأسرة وبين الحكام العثمانيين في تونس حتى بداية القرن السابع عشر، كما كانت الأسرة تعمل، دائما، على دعم القوات الجزائرية عند هجومها على تونس وبذلك تتسبب في هزيمة القوات التونسية.[1]

أمام هذه التحرشات من أسرة ابن شنوف عمل بايات تونس على التخلص منها فشنوا هجومات عديدة ضد الكاف إلا أنهم فشلوا في جميع محاولاتهم إلى أن تحقق لهم ذلك على يد محمد باي ابن مراد باي، سنة 1041هـ/1632م،[2] الذي قضى نهائيا على وجود الأسرة بالكاف، وقد عبر المؤرخ التونسي عن هذا الحدث الهام في تاريخ بايات تونس بقوله: "... ثم هيأ (محمد باي) لأولاد شنوف وقاومهم بالكفاح... وقتل جل رجالهم وجلا باقيهم وجز نواصيهم".[3]

بعد فرارهم من مدينة الكاف التجأ شيوخ أسرة ابن شنوف إلى أبناء عمومتهم بقسنطينة[4] ويبدو أنهم كانوا قد اتصلوا بالسلطان المغربي، مولاي إبراهيم، حاكم مدينة فاس، للاستغاثة به والشكوى له مما حدث لأسرتهم بالكاف. وقد استجاب لهم السلطان فأرسل لهم ظهيرا يملكهم فيه كامل أراضي الزاب الشرقي[5] تعويضا لهم عما أخذ منهم من قبل العثمانيين، ومما جاء في الظهير" لما قدم إلينا ولدنا الحج ابن الأشهل بن بعلاق (كذا) البرمكي من أجيد

---

[1] نفس المصدر، ص ص 188- 190.

[2] نفس المصدر، ص 229.

[3] نفس المصدر، ص 233.

[4] يقول الباحثان الفرنسيان (E),(M),gouvion أن أحد أبناء أسرة ابن شنوف المستقرين بقسنطينة كان قد احتل منصب الباي بالمدينة إلا أنه خلع من منصبه بعد سقوط حكم فرع الكاف، ولذا عرف فرع قسنطينة بابن شنوف بن الباي (بلباي)، إلا أننا لا نجد أي باي بهذا الاسم ضمن قائمة بايات قسنطينة.
أنظر: (E),(M),gouvion " les Ben Chennouf" op.cit, pp4-5.

[5] يبدو من هذا أن منطقة الزاب كانت تابعة لسلطان المغرب في بداية العهد العثماني إلا أننا لا نملك ما يثبت ذلك

العرب (؟) من ناحية قصر طينة قد أتى إلينا حين زعجوه (كذا) الأتراك وفكوله[1] (كذا) جميع ما كان تحت يده من الرعية والأملاك وشاكيا لما أصابه من الظلم فقبلنا شكوته ونصرناه على أعدائه وجعلنا له في بلاد المشرق حرمة واحترام وتصدقنا عليه الزاب من دشرة فلاشن حتى إلى زاوية الوالي سيدي ناجي، كل ذلك صدقا (كذا) له وهيبة (كذا) لوجه الله الكريم له ولأولاده من بعده..."

بعد هذا انتقلت أسرة ابن شنوف وأولاد صولة إلى جنوب البايلك ليستقروا نهائيا في أراضيهم الجديدة بالزاب الشرقي، الذي كان بيد قبيلتي دريد وقرفة التابعتين، اسميا، لسيدي ناجي حارس ضريح سيدي عقبة، والذي انسحب بعد ذلك إلى "زريبة أحمد" ثم "الخنقة".[2] ولتقوية نفوذها بالمنطقة عملت أسرة ابن شنوف على التحالف مع الأسرة الصحراوية القوية، أسرة بوعكاز الذواودة ودعمت علاقتها بها بروابط دموية عن طريق المصاهرة.[3] الأمر الذي جعل هذه العلاقة لا تنفطر حتى نهاية العهد العثماني.

وقد حافظت أسرة ابن شنوف على استقلالها بالزاب الشرقي مكونة حكما خاصا جعلت عاصمته "ليانة"، وعملت منذ وصولها إلى المنطقة على ازدهارها حتى أصبح مقر حكمها (ليانة)، بشهادة من الرحالة الإنجليزي (*Shaw*)، "أغنى قرية بالزاب والمخبأ الأمين الذي يخفي فيه العرب المستقلين أموالهم وما غلا من ممتلكاتهم".[4] وقد يعود هذا لكونها بعيدة عن قبضة العثمانيين. ويضيف نفس الرحالة عن حكام هذه المنطقة قوله "كانت تحت

---

[1] فكوله: بمعنى افتكوا منه.

[2] Feraud (CH):"Les descendants des Mille et une nuits", op.cit, p14.

[3] Ibid, p14.

[4] Dr. Shaw: op.cit, p166.

زعامة أولاد صولة[1] الذين احتفظوا باستقلالهم التام و لم يتمكن الأتراك رغم محاولاهم المتكررة المساس بذلك الاستقلال".[2]

وقد بقيت أسرة ابن شنوف بهذه المنطقة بعيدا عن أي تعامل مع الحكام العثمانيين، إلى أن دخلت أسرة ابن قانة الزاب، وبدأ الشقاق يفرق بين أفراد الأسرة إذ أقحم أولاد بن شنوف في الصراع، الذي نشب بين "ابن قانة" و"بوعكاز" فانقسموا إلى فرعين متناحرين. فرع أولاد بوضياف يناصر ابن قانة، وفرع أولاد عبد الله يناصر أسرة "بوعكاز" وبذلك دب الضعف في أوساط الأسرة وانتهى بفقداها لنفوذها تدريجيا.

مما سبق يمكننا تصور مدى سيطرت الأسر المحلية على أرياف بايلك قسنطينة، إذ نلاحظ أن هذه الأسر، وغيرها من الأسر المحلية التي لا يمكن الالمام بها كلها في هذا البحث، تتواجد بقوة في مختلف جهات البايلك من شرقه إلى غربه ومن شماله إلى جنوبه، وأنها كانت تتمتع بقوة، أدبية ودينية وسياسية وعسكرية واقتصادية خولت لها السيطرة على المنطقة الأمر الذي جعل الحكام العثمانيين لا يملكون غير الاعتراف لها بهذا النفوذ والاعتماد عليها في تسيير شؤون أرياف البايلك، وخاصة في بداية حكمهم.

وأهم ما يمكن استنتاجه من التعريف بهذه الأسر هو اشتراك معظمها في العديد من الصفات التي أهلتها للحكم وزعامة غيرها من القبائل، منها: الصفة الإقطاعية، باعتبار أنها أسر عريقة واسعة الثرى، تستحوذ على أراضي زراعية ورعوية واسعة بأرياف البايلك، كما اشتهرت معظم هذه الأسر بالفروسية فهي من (الجواد)، وذلك أنها امتازت بفرسانها الشجعان وتعداد خيلها، ومن بين النقاط المشتركة بين هذه الأسر كذلك، الولاء للسلطة المركزية بالشكل الذي

---

[1] من هذا القول يتبادر إلى الذهن أن أسرة ابن شنوف جزء من أولاد صولة وهو ما يتفق عليه أبناء المنطقة.

[2] Dr.Shaw: Idem, p167.

يضمن لها المحافظة على استقلالها وعلى امتيازاتها المادية التي توارثتها منذ العهد الحفصي، وإن اختلفت درجة هذا الولاء من أسرة إلى أخرى تبعا لموقعها من مركز السلطة ونوع العلاقة التي كانت تربطها بالحكام العثمانيين.

وقد برهنت هذه الأسر على قوتها واستقلالها شبه التام وقدرتها على التسيير الإداري والاقتصادي والاجتماعي لأرياف البايلك، وبالتالي برهنت على فعالية دورها في حكم البايلك بالموازاة مع السلطة العثمانية. وهو ما سيتضح لنا أكثر في الفصل الموالي من خلال دراستنا للوضع الاداري والاقتصادي لهذه الأسر بالبايلك ودور العناصر المحلية بصفة عامة في ادارة البايلك بالمدينة والريف في ظل الحكم العثماني.

خريطة توضيحية لمناطق نفوذ الأسر المحلية الحاكمة ببايلك قسنطينة
(من وضع الكاتبة)

الوضع الإداري والاقتصادي للأسر المحلية الحاكمة ببايلك قسنطينة في ظل الحكم العثماني

رأينا في الفصل السابق أن عددا من الأسر المحلية استطاعت أن تفرض نفوذها على الدولة الحفصية في أواخر أيامها بالمنطقة، وقد إزداد نفوذها قوة واتساعا، بازدياد ضعف السلطة المركزية وانكماشها، إلى أن اقتسم رؤساء القبائل والأسر القوية بالبلاد مقاليد الحكم و لم يبق للدولة غير السلطة الاسمية.

فمنذ نهاية القرن (9هـ/15م) أخذت قسنطينة، العاصمة الثانية للدولة الحفصية، تخرج تدريجيا عن السلطة المركزية بتونس وتخضع مباشرة لسلطة رؤساء القبائل والأسر الحاكمة وإلى جماعة المدينة المكونة من أعيانها، مثل أسرة عبد المؤمن[1] التي سيطرت على منصب شيخ الاسلام بالمدينة طوال فترة الحكم الحفصي، وبالتالي سيطرت على النفوذ الديني بها. وكذلك أسرة الفكون[2] وأسرة الكماد وابن باديس وغيرها من الأسر العريقة التي اشتهرت بها مدينة

---

[1] **أسرة عبد المؤمن**: هي احدى الأسر الشريفة التي قدمت من المغرب الأقصى لتستقر، منذ القرن 8هـ/14م، بقسنطينة، حيث وجدت من سكانها ومن الحكام الحفصيين كل الاحترام، وقد منحها هؤلاء منصب "شيخ الإسلام" وهو أعلى منصب ديني بالمدينة ومنصب أمير ركب الحج، وقد بقي هذان المنصبان متوارثان في الأسرة حتى نهاية العهد الحفصي. أنظر:
Mercier (E): Constantine au 16eme siècle, R.S.A.C,1878, pp217-218.

[2] **أسرة الفكون**: وتنطق "الفقون" (*EL feggoune*)، تعود أصولها، حسب ما جاء في كتابات شيوخها، إلى قبيلة تميم العربية، أما الشيخ عبد القادر الراشدي، مفتي قسنطينة في نهاية القرن 12 هـ/18م، فيرجع أصل الأسرة إلى قرية فكونة بالأوراس، وبذلك ينسبها إلى الأصول البربرية وهذا ما رفضه أبناء الأسرة بشدة، والحقيقة، حسب عميد الأسرة اليوم، فإن انتسابهم إلى فكونة كان بسبب استقرار أحد أجدادهم بهذه القرية، إذ جاء إخوة أربعة من الجزيرة العربية واستقروا بالمغرب الأوسط: الأول، وهو عبد الرحمن بقرية فكونة بالأوراس، والثاني وهو محي الدين بعين الصفراء ويقال أن البيض سيدي الشيخ سميت على اسمه، أما الثالث وهو محمد فقد استقر بقسنطينة في حين توفي الرابع وهو الرشيد بعد وصوله إلى المنطقة مباشرة، ويقول نفس المصدر أن الشيخ عبد الرحمن انتقل من فكونة إلى قسنطينة وبها عرف بالفكون. (مقابله شخصية في بيت الشيخ حسونة الفكون بحي المنصورة في جانفي 1989)، وقد كانت أسرة الفكون أسرة أدبية علمية في العهد الحفصي قبل أن تقحم في السياسة في ظل الحكم العثماني بعد استيلائها على منصب شيخ الإسلام.

قسنطينة،[1] ولم تستطع الدولة، رغم محاولاتها المتكررة، إعادة سيطرتها على الوضع بالمدينة وأريافها وفرض نفوذها من جديد على السكان، فكانت كلما أرسلت واليا جديدا قُتل،[2] فقد أرسل السلطان "الحسن بن محمد" أخاه "الناصر" لتهدئة الوضع وإعادة نفوذ الدولة إلى المدينة، إلا أنه قُتل فأرسل بعده أخاه "عبد الرحمن" فقُتل بدوره، ثم قُتل أخوه الثالث "عبد المؤمن" في نفس الظروف، وبذلك بقيت مدينة قسنطينة ولفترة طويلة لا تخضع لأي حكم مركزي.[3]

أما بأرياف البايلك فكان الطابع المميز للوضع هو التمرد العام للقبائل وظهور عدد كبير من المشيخات المستقلة التي كانت ترفض دفع ما عليها من ضرائب للدولة، بل راحت تجمع الضرائب من القبائل الغارمة لحسابها الخاص. وكثيرا ما وقع الصدام المسلح بين القوات الحفصية والقوات القبلية، وعلى رأسها الأسر المحلية الحاكمة، عند محاولة الدولة فرض قوتها عليهم وجمع الضرائب من اتباعهم بقوة السلاح، وهو ما حدث سنة (916هـ/1510م) بين أسرة أحرار الحنانشة، ووالي قسنطينة، "الناصر بن عبد الله" الحفصي، إذ قام الشيخ "نصر" زعيم "الأحرار" بقتل الوالي الحفصي عند قدومه إلى منطقة الحنانشة لجمع الضرائب،[4] ونفس المصير لقيه قبل ذلك قائد قسنطينة "بهاء الخير" سنة (833هـ/1429م)، على يد فرسان قبيلة الذوادة.[5] وفي نفس الفترة (853هـ/1449م) شنت السلطة المركزية الحرب على حكام تقرت الذين

---

1 كانت مدينة قسنطينة في العهد الحفصي تشتهر بأسرها العلمية العريقة وقد عبر مؤرخ الحكم الحفصي "أحمد بن القنفد القسنطيني" عن تعدد هذه الأسر واعتزازها بمكانتها بالمدينة بقوله على لسان قاضي المدينة أبو محمد عبد الله بن الديم (682هـ/1285م): "أن هؤلاء(أهل قسنطينة) كل بيت ترى أنها أرفع من الأخرى بأصالتهم في بلدهم وقدم نعمتهم". أنظر، ابن القنفذ: المصدر السابق، ص 149.

2 أنظر، الحسن الوزان: المصدر السابق، ص 429.

3 المهدي شغيب: المرجع السابق، ص131.

4 الحسن الوزان: المصدر السابق، ص 149.

5 الزركشي: المصدر السابق، ص 112.

أعلنوا انفصالهم عنها، ورغم اعادتهم إلى حضيرة الدولة فإن ذلك لم يكن إلا شكليا،[1] إذ احتفظ هؤلاء باستقلالهم الذاتي حتى دخول العثمانيين المنطقة.

من هنا يمكن القول أن اقليم قسنطينة كان، منذ نهاية العهد الحفصي، يشهد فراغا سياسيا واضحا لم تستطع الدولة ملأه، رغم محاولاتها المتكررة، في حين استطاعت بعض الأسر المحلية البروز على حساب السلطة المركزية، وإنشاء كيانات مستقلة أخذت تتوسع تدريجيا على حساب القبائل الضعيفة، وعلى حساب مناطق نفوذ الدولة، وبذلك حلت محل السلطة الحفصية في حكمها لأرياف الشرق الجزائري. والحقيقة أن هذا الوضع لم يكن خاصا بشرق الجزائر بل عام بالجزائر، فقد كانت الجزائر في نهاية العهد الحفصي، حسب تعبير الشيخ المهدي البوعبدلي في تقديمه لكتاب "الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني" للراشدي، "مقسمة إلى نحو خمسة عشر جزءا، كل جزء تهيمن عليه قبيلة عربية أو بربرية، فقبيلتا سويد وبني عامر الشهيرتان كانتا تسيطران على معظم سهول ولاية وهران، وكان آل المقراني يتصرفون في القبائل الصغرى (وادي بجاية) وكانت قاعدة امارتهم قلعة بني عباس، ثم تحولت إلى مجانة، والقبائل الكبرى تحت تصرف آل ابن القاضي ومقر إمارتهم جبل كوكو، ومدينة الجزائر وسهول متيجة تحت تصرف قبيلة الثعالبية ورئاستهم آنذاك في آل ابن التومي كما كانت كل من قبائل الذواودة والأحرار (الحنانشة) وسدويكش وبني تيعرين تهيمن على ناحية لا تنالها في تصرفاتها أحكام الملوك".[2]

كان الوضع، إذن، بالجزائر عامة، ومقاطعة قسنطينة بصفة خاصة، في نهاية القرن (9هـ/15م)، ينبئ بزوال الحكم الحفصي واستعداد السكان لاستبداله بأي حكم يستجيب لمطامحهم في الأمن والاستقرار، وهو ما مهد الطريق أمام العثمانيين لدخول مدينة قسنطينة ثم التوسع في أريافها.

---

[1] نفس المصدر، ص127.

[2] الراشدي (أحمد بن محمد بن سحنون): الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم: الشيخ المهدي البوعبدلي، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1973، ص12.

أولا. دخول العثمانيين مدينة قسنطينة وموقف السكان تجاههم.

1°. اختلاف المصادر حول تحديد تاريخ دخول العثمانيين مدينة قسنطينة.

اختلف الباحثون حول تاريخ دخول العثمانيين مدينة قسنطينة، وذلك لسبب واحد وهو الافتقار، حتى الآن، إلى وثائق معاصرة للفترة المدروسة، تثبت التاريخ الدقيق لهذا الحدث وسكوت المصادر المعاصرة للفترة عن هذا الحدث. حيث أننا إذا نظرنا إلى الرحالة المغربي حسن الوزان، الذي زار قسنطينة حوالي سنة (919هـ/1514م)،[1] فإننا نجد أنه لا يذكر الوجود العثماني بالمدينة في حين يشير إلى وصول الوالي ابن فرح إلى المدينة من قبل الحاكم الحفصي،[2] وهو ما يؤكد عدم وصول العثمانيين إلى قسنطينة في هذه الفترة.

أما الأسير الاسباني "هايدو" الذي كان بالجزائر في النصف الثاني من القرن (10هـ/16م) فيقول أن استيلاء خيرالدين بربروس على ميناء القل، حوالي سنة (926هـ/1520م)، أدى إلى دخول قسنطينة تلقائيا تحت النفوذ العثماني، لأن الميناء كان شريان الحياة بالنسبة لتجارة المدينة.[3]

أما المؤرخ التونسي ابن أبي دينار فيقول عن نفس الموضوع:" في أيام الحسن (تولي الحكم سنة (932هـ/1526م) كانت قسنطينة في يد الترك".[4] وهذا يعني أن دخول العثمانيين المدينة كان إما بعد هذا التاريخ أو قبله، وبذلك فإن هذا الرأي لا يحدد أيضا تاريخ الحدث بدقة، وهو ما أشار إليه أيضا المؤرخ

---

[1] يقول الرحالة الحسن الوزان أنه عاصر فترة محاولة تخليص بجاية من يد الاسبان (1513م) ثم انسحاب عروج إلى جيجل، وأنه كان بقسنطينة عندما سمع بمقتل عروج بناحية تلمسان (1518م) إلا أن هذا خطأ من الرحالة لأنه كان في تلك الفترة بمصر. أنظر، الحسن الوزان: المصدر السابق، ص410.

[2] نفس المصدر، ص 428.

[3] Haédo (F D), op.cit, p 12.

[4] ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص163.

ابن أبي الضياف،[1] دون أن يشير إلى التاريخ المحدد لذلك. أما الأمبيري في كتابه "علاج السفينة في بحر قسنطينة" فيقول أن العثمانيين دخلوا قسنطينة في سنة (932هـ/1526م)، تاريخ وفاة أمير تونس أبي عبد الله محمد، ولعله أخذ هذا عن ابن أبي دينار، كما يقول نفس المصدر أن أول حاكم عثماني لقسنطينة هو رمضان باي الذي تولى الحكم سنة (935 هـ/1528م).[2]

وللخروج بتاريخ محدد للحدث، قام عدد من الباحثين الفرنسيين بدراسة للموضوع محاولين الفصل فيه ومن هؤلاء الباحث *Féraud* والباحث *Vayssette*وأهم ما توصل إليه هذا الأخير هو أن العثمانيين دخلوا قسنطينة حوالي سنة (925هـ/1520م)، وذلك اعتمادا على وثيقة تعود إلى سنة (935هـ/1528م) تقول أن قسنطينة تمردت على حكم خيرالدين بربروس فأرسل لها قائده "قارة حسن"، الذي أعادها إلى حضيرة الحكم العثماني، ولعل ذلك ما أراد صاحب الغزوات، الاشارة إليه من خلال قوله:"وجّه خيرالدين جيشا آخر لاستنقاذ البلاد الشرقية من يد ابن القاضي (قتل سنة 1527م) وأمر عليهم رجلا من خواصه يقال له "قارة حسن"، فاسترجع بلادا كثيرة وقوي أمره."[3]

ولعل الوثيقة التي تحدث عنها *Vayssette* هي التي قام الفرنسي "برسنيي" *Bresnir* بترجمتها ونشرها بالمجلة الافريقية سنة 1856م، والتي يعود تاريخها إلى شهر محرم (935هـ/1528م)، وهي عبارة عن تقرير حول مدينة قسنطينة، كتبه عشرة من أعيان المدينة وأغنيائها[4] يشيرون فيه إلى إتلاف بساتين الحامة

---

[1] ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ج1، ص191.

[2] Haédo (F D), op.cit, p 12

[3] نور الدين عبد القادر (محقق): غزوات عروج وخير الدين، ص31.

[4] **الأشخاص العشرة هم**: عبد الكريم بن عبد الهادي بن عمر، يحي بن محمد الفكون، أبو الفضل الغربي، أبو الطيب المرجاوي، بركات العوادي، محمد المزماجي، عبد الكريم بن زايد، محمد العطاف، محمد (بياض)، وابراهيم عبود. أنظر:
Bresnier(L.J): Epoque de l'établissement des turcs a Constantine, R.A, 1856 - 57, p400.

(الفحص الأبيض)، على مشارف المدينة، إثر الحروب التي دارت بين العثمانيين والسكان من المناصرين للحكم الحفصي. ويشير التقرير إلى أن مجيء الوالي الحفصي "حسن بن علي بن فرح" أعاد الحياة من جديد إلى الفحص المذكور،[1] وهذا يعني أن وصول العثمانيين إلى المدينة كان سابقا لتاريخ الوثيقة، إلا أنه لا يحدد التاريخ بالضبط.

أما الكاتب الاسباني "مارمول" فيكمل تاريخ هذا الحدث بقوله أن مدينة قسنطينة عادت إلى الأتراك العثمانيين، بعد وفاة آخر القادة الحفصيين "حسين بن علي بن فرح" وذلك في سنة (940هـــ/1534م)، وقد وضع هؤلاء على مشارف المدينة حامية قوية تعزز وجودهم بالمنطقة،[2] وهذا ما عمل الباحث فيرو على تأكيده بقوله: "يمكن تحديد تاريخ دخول الأتراك مدينة قسنطينة بالاستناد إلى ما جاء في رسالة القائد الاسباني "دون ألتار غورزيغل"*Don Altar gourezzegal*" إلى الملك شارل الخامس والمؤرخة في 13 سبتمبر 1535م، وقد جاء فيها: "أن سكان مدينة عنابة فروا جماعيا من المدينة والتجأ بعضهم إلى الجبال المجاورة والتحق البعض الآخر بخيرالدين، لكن هؤلاء عادوا إلى عنابة وأخبرني بعضهم أن خيرالدين رحل عن البلاد وأن 1000 جندي تركي من الذين جاءوا من تونس برا اتجهوا إلى قسنطينة وفتحوها وكان على رأسهم حسن آغا".[3]

ورغم اعتبار "فيرو" هذه السنة بأنها سنة دخول العثمانيين المدينة فإن ذلك لا يمنع من القول بأنهم يكونون قد دخلوها قبل ذلك ثم اخرجوا منها من طرف الحفصيين الذين لم يتخلوا على حكمهم للمدينة بسهولة، ولعل ما ذكره الشيخ ابن العطار في تاريخه لقسنطينة يؤكد ذلك، إذ جاء في معرض حديثه عن دخول

---

1 Idem, pp401-402.
2 Ibid, p402.
3 Feraud (ch): les Hrars…, op.cit, p139.

العثمانيين المدينة: "خرج عسكر الترك من تونس (1534م) أو من بلد العناب ورجعوا إلى قسنطينة".[1]

من مختلف النصوص والآراء السابقة يمكن الوصول إلى نتيجة واحدة هي أن دخول العثمانيين مدينة قسنطينة لم يكن مرتبطا بتاريخ معين، بل كان على مراحل وبعد محاولات عديدة، إذ رغم وصول القوات العثمانية عدة مرات إلى مشارف المدينة واستقرار حاميات عسكرية بالقرب منها، فإن العثمانيين لم يتمكنوا من دخول المدينة ولا الاستقرار بها إلا في سنة (940هـ/1534م)،[2] بل لعل الاستقرار الفعلي للحكم العثماني بالمدينة يعود إلى سنة (1050هـ/1640م)، وهو ما جاء به صالح العنتري في تأريخه للمدينة،[3] ذلك أن الوجود العثماني بقسنطينة لم يكن قبل هذه الفترة إلا رمزيا وغير مستقر لما تخلله من اضطرابات وثورات داخل المدينة وخارجها. كما أن الحامية العثمانية كانت تستقر خارج المدينة (سطح المنصورة) و لم يكن يسمح لها بالدخول.

بعد مناقشتنا لقضية تاريخ دخول العثمانيين مدينة قسنطينة لم يبق لنا إلا التساؤل عن موقف السكان من الوافدين الجدد فكيف كان موقفهم تجاه العثمانيين؟

---

1 ابن المبارك بن العطار (أحمد): تاريخ حاضرة قسنطينة، تحقيق: رابح بونار، ص 56. (الخط من وضع الكاتبة).

2 Mercier (E): Histoire de Constantine, Constantine,1903, p19.

3 العنتري (محمد الصالح): الفريدة المؤنسة، المصدر السابق، ص 7.

2°. موقف سكان قسنطينة من دخول العثمانيين المدينة:

عقب وصول العثمانيين إلى مشارف قسنطينة مباشرة ظهر بالمدينة تياران متناقضان: تيار معارض للوافدين الجدد، ومتمسك بالحكم الحفصي، وتيار مناصر للعثمانيين ويعمل على تسهيل دخولهم إلى المدينة. وكان التيار الأول بزعامة شيخ الإسلام "سيدي عبد المؤمن"، والتيار الثاني بزعامة الشيخ يحي بن محمد الفكون أحد أعيان المدينة وكبار أثريائها.

نتيجة لهذا الوضع انقسمت مدينة قسنطينة إلى فريقين متحاربين تمركز الأول بالمنطقة العليا للمدينة، وتشمل منطقة سكن أسرة الفكون والمعروفة بحارة أولاد سيدي الشيخ أو "بطحاء أولاد سيدي الشيخ"، وتمركز الثاني بمنطقة سكن أسرة عبد المؤمن بحي "باب الجابية"،[1] حيث بقي مسجد الأسرة قائما، حتى اليوم، وقد نشبت حروب طويلة بين الطرفين لتمسك كل منهما بموقفه وإصرار العثمانيين على دخول المدينة.

أ. التيار الرافض للوجود العثماني: تزعم هذا التيار كما أسلفنا أهم أسرة دينية بالمدينة آنذاك وهي أسرة عبد المؤمن، شيوخ الإسلام في العهد الحفصي يساندها في ذلك عرب أولاد صولة. وقد كانت هذه المعارضة شديدة إلى درجة أنها كانت السبب المباشر في تأخير دخول العثمانيين المدينة حتى الربع الثاني من القرن (10هـ/16م)؛ إذ أغلقت أبواب المدينة في وجه القائد العثماني، حسن آغا، بأمر من شيخها سيدي عبد المؤمن، الأمر الذي جعل القائد يتمركز

---

[1] كانت مدينة قسنطينة مقسمة إلى 4 أحياء رئيسية هي : حي القصبة في الشمال الغربي للمدينة وكانت خاصة بالحكام والإداريين، وحي الطابية بالجنوب الغربي، حي باب القنطرة بالشرق وباب الجابية بالجنوب الشرقي ويفصل بين هذه الأحياء أسواق عامة ومناطق حرفية، وقد قسمت البطحاء، في العهد الفرنسي، بطريق عرف عند السكان" بالطريق الجديدة" وهي شارع العربي بن مهيدي حاليا. حول هذا التقسيم، أنظر:

Mercier (E): Constantine avant la conquête française 1837, R.S.A.C, 1878, p 47-48.

بسطح المنصورة في انتظار الظرف المناسب لدخول المدينة دون الاضطرار إلى سفك الدماء.

ومن هناك تم الاتصال بالشيخ عبد الكريم الفكون[1] لتسهيل دخول القوات العثمانية إلى المدينة، فكانت نصيحته للقائد العثماني بالتقرب من شيخ الإسلام "سيدي عبد المؤمن"، والتعهد له بالإبقاء على سلطته الروحية بالمدينة، وأكد له أن ذلك كفيل بفتح أبواب المدينة أمامه.[2]

إلا أن محاولات العثمانيين لاستمالة الشيخ عبد المؤمن باءت بالفشل،[3] الأمر الذي أدى إلى استعمال الحيلة لاستدراج الشيخ إلى سطح المنصورة، بدعوى التفاوض حول الصلح، وهناك تم اغتياله،[4] ومما جاء على لسان الشيخ أحمد بن العطار في الموضوع "ونزل الأتراك بسطح المنصورة وشرعوا في بناء قصبة هناك لعسكرهم وأظهروا العدل والسياسة وخالف سيدي عبد المؤمن وأهل حومة باب الجابية على الترك وقابلوهم ثلاث سنين إلى أن تحيلوا على

---

[1] هو ابن الشيخ يحي بن محمد الفكون.

[2] Cherboneau (A): Inscriptions arabes de la province de Constantine, R.S.A.C, 1856-57, p98.

[3] لعل ذلك يعود إلى اعتزاز هذا الشيخ بنسبه الشريف وعدم اعترافه بخلافة العنصر التركي على المسلمين.

[4] تقول بعض المصادر منها الكتابات الفرنسية بصفة عامة و"تاريخ حاضرة قسنطينة" لابن العطار، أن الشيخ عبد المؤمن قُتل عن طريق السُم بسطح المنصورة، وأن العثمانيين قاموا بسلخ جلده وملأوه قشا قبل أن يرسلوه إلى مدينة الجزائر. إلا أننا نشكك في صحة هذه الرواية لمبالغة الأهالي في وصف مظالم الترك للكتاب الفرنسيين أثناء كتابتهم لتاريخ الفترة العثمانية، كما أننا لا نعتقد أن العثمانيين يمثلون بجثة شخصية بمكانة الشيخ عبد المؤمن "شيخ الإسلام"، وخاصة في بداية عهدهم لأن ذلك لا يخدم أغراضهم بالمنطقة. وقد جاء في تعليق الباحث فايسات "*Vayssette*" على هذه الواقعة: "أنها خرافة (*legende*) لا يمكن تصديقها دون تمحيص. حول الموضوع أنظر كلا من:

ابن العطار: المصدر السابق، ص58،

Vayssette: op.cit, pp82-83, Cherboneau (A): op.cit, p98, Mercier (E): Constantine au 16ème siècle, op.cit, p244.

الشيخ سيدي عبد المؤمن وكانت له مشيخة فصالحوه ولم يزالوا ينصبون له حبائل المكر والخداع حتى تمكنوا به..."[1]

بعد مقتل الشيخ عبد المؤمن سنة (980هـ/1572م)، هاجم العثمانيون المدينة وحاصروا أسرته وأتباعه، الذين أصروا على المقاومة، بحومة باب الجابية، ودام القتال، حسب بعض المراجع، مدة يومين كاملين، انتهى بالقضاء على هذه المقاومة وسلمت الأسرة أسلحتها لجماعة المدينة، ورفعت المتاريس التي وضعت حول الحي المذكور، وبذلك فرض الأمن بالمدينة بفضل تدخل علماء المدينة وعلى رأسهم شيخ أسرة الفكون المناصرة للعثمانيين.

أما عن مصير أسرة عبد المؤمن الثائرة، فرغم هزيمتها، فإن العثمانيين احترموا شيوخها لمكانتهم الدينية وأبقوا للأسرة جميع ممتلكاتها بل يبدو أن هؤلاء تركوا بعض المهام الدينية، منها إمارة ركب الحج في يد شيوخ هذه الأسرة حتى زمن متأخر من حكمهم.[2] وخير أفرادها بين البقاء بالمدينة أو الرحيل عنها، فاختار بعضهم البقاء في حيهم، بعيدا عن أي نشاط سياسي أو اتصال بالحكام الجدد، ورحل البعض الآخر إلى جنوب البايلك ليستقروا بمدينة بسكرة وضواحيها،[3] أما أتباع الأسرة وعلى رأسهم عرب أولاد صولة[4] فواصلوا مناوشاتهم للعثمانيين إلى أن هزموا وشردوا بدورهم فلجأو إلى الجنوب ليستقروا بمنطقة ليانة شرق مدينة بسكرة.[5]

---

1 ابن العطار (أحمد): المصدر السابق، ص ص57-58.

2 عبد الكريم الفكون: منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تحقيق: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987، ص102.

3 Mercier (E): Histoire de Constantine, p229.

4 كانوا يتزعمون مشيخة العرب في العهد الحفصي.

5 Mercier(E): Idem, p229.

ب. التيار المناصر للعثمانيين:

مثلما جاهرت أسرة عبد المؤمن بعدائها للعثمانيين جاهرت أسرة الفكون بولائها لهم، ويبدو أن اتصال العثمانيين بزعيم أسرة الفكون، يحي بن محمد الفكون، كان مبكرا، إذ يعود، حسب بعض المراجع، إلى سنة (928هـ/1522م)[1] حين اتصل قائد الحامية العثمانية المرابطة على مشارف قسنطينة بالشيخ للتوسط له لدى قبيلة أولاد يعقوب الذواودة لتمويلهم بالمواد الغذائية مقابل تزويد القبيلة بالعتاد الحربي، وقد تمت هذه الصفقة بين الطرفين في نفس السنة.

وقد يتساءل المرء هنا، عن الدافع الذي جعل العثمانيين يتصلون بأسرة الفكون للتعاون معها، دون غيرها من العائلات القسنطينية المشهورة، أمثال أسرة عبد المؤمن، التي كانت تتزعم الحياة الدينية بالمدينة. والواقع أننا لا نجد سببا واضحا لذلك سوى الاعتقاد بأن وجود الأملاك الواسعة لأسرة الفكون بالفحص الأبيض (الحامة)، على مشارف المدينة، جعل زعيمها "يحي بن محمد" يتصل بسهولة بالعثمانيين الذين كانوا يرابطون بالقرب من المنطقة، ولعل الشيخ أعجب بقواهم ورأى أنها خير منقذ للبلاد بعد الضعف الذي كانت تشهده الدولة الحفصية. كما أننا لا نستبعد استخدام العثمانيين لسياسة "فرق تسد"، التي ميزت حكمهم في مختلف الولايات العربية، بين الأسر القسنطينية فقربوا الأسرة الأقل شهرة لضرب أسرة عبد المؤمن الشهيرة[2] والمناصرة للدولة الحفصية.

وإذا كانت علاقة أسرة الفكون بالعثمانيين، في (928هـ/1522م) لا تتعدى الوساطة فإنها أصبحت ولاء حقيقيا في سنة (941هـ /1534م) تاريخ

[1] Mouloud Gaid: chronique des beys de Constantine, OPU, Alger, p7.

[2] نفس التفسير (سياسة فرق تسد) وجدته عند عميد الأسرة اليوم "الشيخ حسونة بن الفكون" الذي يرى أن السياسة العثمانية كانت تعمل على بث الشقاق والتحاسد بين الأسر القسنطينية لإضعافها وإخضاعها جميعا للسلطة المركزية.

خروج آخر الولاة الحفصيين من قسنطينة؛ إذ تشير المراجع إلى أن شيخ الأسرة "يحي بن محمد" خرج من قسنطينة، في هذه السنة للالتحاق بالقائد العثماني، خيرالدين بربروس، بتونس وتقديم الولاء له[1] إلا أنه قُتل هناك، في نفس السنة، من طرف جند شارل الخامس، إثر الحملة الاسبانية على تونس، فاعتبره العثمانيون شهيدا من شهدائهم واعترفا بجميله، باعتباره المؤيد الأول لهم بقسنطينة، عين باشا الجزائر ابنه أبا الفضل قاسم (ت 965هـــ/1557م) قاضيا على قسنطينة، بعد أن رفض الشيخ "عمر الوزان" هذا المنصب. واستمر ولاء الأسرة للعثمانيين وتكريم هؤلاء لها إلى أن بوءوها المكانة الأولى بالمدينة بمنح منصب شيخ الإسلام للابن الثاني للشيخ "يحي"، وهو عبد الكريم بعد أن أزيح الشيخ السابق، سيدي عبد المؤمن، من منصبه.[2]

وقد لعب عبد الكريم الفكون (ت 988هـــ/1580م)، حتى قبل توليه المشيخة، الدور الأكبر في السعي لدخول العثمانيين المدينة ثم استقرار حكمهم بها، ومن بين الأعمال التي قام بها لخدمة هؤلاء، مساهمته في إخماد العديد من الثورات، التي نشبت في عهده، ضد العثمانيين، سواء كان ذلك داخل المدينة، مثل ثورة أسرة عبد المؤمن، أو خارجها مثل ثورة عرب أولاد صولة. وكثيرا ما كان الشيخ يخاطر بنفسه عند خروجه لتهدئة هذه الثورات، وهو ما حدث سنة

---

[1] هذا ما أورده المؤرخون الفرنسيون أمثال: *(E) Mercier* في تأريخه لقسنطينة (ص 193)، في حين لم يذكر حفيده "الشيخ عبد الكريم" في مخطوط "منشور الهداية" غرض جده من السفر إلى تونس بل اكتفى بالقول:" وانتقل الجد لتونس لواقعة بل وقائع فاستعظم سكناه ببلد يخرج إليها الأمر دون ما يخرج منها...". أنظر، عبد الكريم الفكون: المصدر السابق، ص 42.

[2] اختلف الباحثون حول تحديد تاريخ انتقال مشيخة الإسلام إلى أسرة الفكون. فمنهم من يرجعه إلى سنة 1563م (*Vayssette*, p77)، ومنهم من يعيده إلى سنة 1566-67م أو سنة 1572م (*Mercier et Féraud*)، أما المصادر العربية منها تاريخ قسنطينة لصالح العنتري وكذلك أحمد بن العطار فإنها لم تذكر شيئا عن تاريخ هذا الحدث، إلا أننا نستشف من قول ابن العطار أن ذلك كان بعد 3 سنوات من الحروب، أن الحدث كان في سنة 979هـــ/1572م إذا اعتبرنا أن الحروب بين العثمانيين وسكان قسنطينة بدأت سنة 976هـــ/67- 1568م. أنظر، ابن العطار: المصدر السابق، ص ص 57-58.

(975هـ/1567م) عندما غادر قسنطينة صحبة المفتي عبد اللطيف المسبح لتهدئة ثورة العربان خارج المدينة وكانت النتيجة أن وقع في قبضة الثوار[1] و لم يطلق سراحه إلا بعد تدخل القوات العثمانية وإخماد الثورة بالقوة.

و لم تتوقف خدمات الشيخ للعثمانيين بعد هذه التجربة الصعبة بل عمل في السنة الموالية (976هـ/1568م) على السفر إلى الجزائر للقاء الباشا وتقديم الولاء له باسم سكان قسنطينة، إلا أنه وقع في تجربة أخطر من الأولى؛ إذ بمجرد وصول الشيخ والوفد المرافق له إلى مدينة الجزائر وصل خبر نشوب معارك دامية بين سكان قسنطينة والحامية العثمانية المرابطة بالقرب من المدينة، الأمر الذي جعل الباشا يشك في نوايا الوفد ويأمر بإلقاء القبض على أعضائه، إلا أنهم تمكنوا من الفرار إلى جبال القبائل، و لم ينقذهم من انتقام الباشا إلا تأكد هذا الأخير من براءتهم وحسن نواياهم، فقام بإكرامهم بدل معاقبتهم.[2]

وتذكر المراجع أن الباشا قام بحملة تأديبية ضد قسنطينة، عقب عودة الشيخ الفكون ورفاقه مباشرة، وقد تم له إخماد الثورة وتنصيب رمضان تشولاق حاكما على المدينة[3]. أما الشيخ الفكون فبعد عودته إلى قسنطينة مباشرة أخذ يدعو، جهارا وبحماس كبير إلى مساندة العثمانيين والدخول في طاعتهم وحاول إقناع جماعة المدينة بذلك، واستمر في خدمة هؤلاء حتى وفاته سنة (988هـ/1580م).

وقد توارث أبناءه وأحفاده الولاء والإخلاص للعثمانيين وكان حفيده "عبد الكريم"، حسب العنتري، وراء الاستقرار النهائي للعثمانيين بقسنطينة (1050هـ/1640م) إذ يقول: "وقع الخلاف بين أهل البلاد فبعضهم يقول

1 عبد الكريم الفكون: المصدر السابق، ص 49.
2 نفس المصدر، ص 48.
3 Vayssette: op.cit, pp67-68.

نسلموها ونستريحوا من العناد وبعظهم (كذا) يقول لا... فلما كثر الكلام بينهم وتفاقم الأمر لديهم قابلهم سيدي الشيخ بن الفكون[1] واحتج عليهم بالدليل القاطع وأشار عليهم بالرأي المصيب النافع قائلا هؤلاء الترك قدموا من حضرة السلطان العثماني وهم من أبناء جنسه ونحن في بيعته وتحت حكمه إذ لا يليق مقاتلتهم ولا يسعنا منعهم ... ربما تلحقنا الضرورة (كذا) من السلطان المذكور..."[2]

ومن تحليلنا لهذا النص يمكن أن نستخلص عدة أمور أهمها:

1. قوة الحجة لدى الشيخ الفكون في إقناع السكان بفتح أبواب المدينة للحكام الجدد.[3]

2. مدى الارتباط الروحي والاعتراف بشرعية الوجود العثماني بالجزائر والإيمان بشرعية الخلافة العثمانية على المسلمين.

3. الشعور بقوة العثمانيين العسكرية وعدم قدرة السكان على الوقوف في وجههم لأنهم يمثلون دولة عظيمة.

أمام حجة الشيخ الفكون خضع سكان المدينة وعلى رأسهم أعيانها لهذا الرأي واتفق الجميع على قبول الانضواء تحت الراية العثمانية، وبمجرد سماعه الخبر أرسل باشا الجزائر رسالتي شكر: الأولى إلى الشيخ الفكون يوصيه خيرا بالعناصر التركية بالمدينة، والثانية إلى سكان قسنطينة يذكرهم بأن طاعة العثمانيين تعني طاعة خليفة المسلمين باسطنبول ويوصيهم بالانصياع إلى رأي سيدي الشيخ الفكون لأنه يريد خيرهم وخير البلاد.[4]

---

1 عبد الكريم الفكون (الحفيد) (1580هـ -1663م) وصاحب مخطوط "منشور الهداية".

2 العنتري (محمد الصالح): الفريدة المؤنسة، المصدر السابق، ص ص 3- 4 .

3 للمزيد من المعلومات حول التقارب بين هذه الأسرة وبين العثمانيين أنظر الفصل الثالث من الكتاب.

4 أنظر نص الرسالتين، العنتري: نفس المصدر، ص ص 5-6.

استمر إخلاص أسرة الفكون للعثمانيين وتفانيها في خدمتهم، واستمر تقدير هؤلاء لخدماتها وفضلها في حمل السكان على طاعتهم. وبذلك تبوأت الأسرة المكانة السامية بالمدينة، فكانت كلمة شيوخها نافذة لدى العام والخاص ولا يستثنى في ذلك حتى الباي نفسه، وخاصة بعد أن انتقلت مشيخة الإسلام إليها. وهو ما أكده المؤرخ أحمد بن المبارك بن العطار في قوله: "فلما قتلوه (الشيخ عبد المؤمن) ردوا المشيخة إلى ابن الفكون، فمن ثم صار يمشي بالركب كما كان الشيخ سيدي عبد المؤمن، وجعلوا ذلك من المبرات (؟) التي جعلت له ولذريته بعده زماننا هذا".[1] والحقيقة أن شهرة الأسرة لم تقتصر على مدينة قسنطينة بل تعدت حدود ولاية الجزائر إلى تونس حيث كانوا محل تقدير حكام تونس ومحكوميها.[2]

مما سبق يتضح لنا أن العثمانيين لم يدخلوا مدينة قسنطينة بسهولة، كما كنا نتصور وأنهم لم يستعملوا القوة لتحقيق ذلك، بل استغلوا أهل البلاد لتسهيل هذه المهمة وتعمدوا الصبر إلى أن تحقق لهم النصر على المعارضين منهم بفضل المساندين لهم من سكان المدينة أنفسهم. وليس هذا إلا نتاجا للسياسة الحكيمة التي تميز بها القادة العثمانيون الأوائل.

3°. موقف شيوخ القبائل والأسر الحاكمة بأرياف المنطقة من العثمانيين:

قلنا فيما سبق أن الجزائر، قبل مجيء العثمانيين، كانت تقتسم فيها النفوذ مجموعة من القبائل، وأن الأرضية كانت مهيأة لاستقبال القوات العثمانية، والحقيقة أن استعداد الأهالي لاستقبال العثمانيين كانت لاعتبارات عديدة منها:

1. الافتقار إلى حكم مركزي قوي يجمع شتات القبائل المتناحرة ويحمي ضعيفها من قويها وبالتالي يكون حكما عدلا بينها في غياب الحكم الحفصي.

---

[1] ابن المبارك بن العطار: المصدر السابق، ص58.

[2] A.M.G, H235, p10.

2. وجود عدو صليبي مشترك، يتطلب وحدة إسلامية قوية لتخليص البلاد من الوجود الاسباني بموانئها، ولم يجد السكان أية قوة يمكن أن تجمع شملهم وتبعد العدو عنهم غير القوة الإسلامية العثمانية التي نالت ثقة وإعجاب المسلمين بفضل ما كان يصلهم من أخبار فتوحاتها بالأراضي الأوربية وخاصة فتح القسطنطينية سنة 1453م.

هذا على المستوى العام أما بالنسبة لإقليم قسنطينة فإن سياسة القادة العثمانيين الأوائل كانت قد لعبت دورا كبيرا في استمالة شيوخ القبائل والأسر الحاكمة بأرياف الإقليم، وذلك عن طريق المراسلات واللقاءات التي تمت بين الطرفين، فقد كان أول عمل قام به القائد العثماني، "خيرالدين بربروس"، فور وصوله إلى المنطقة هو الاتصال بشيوخ قبائل الشرق الجزائري، محذرا إياهم من "سوء عاقبة الفتنة في الإسلام"،[1] داعيا إلى الالتفاف حول القوات العثمانية لطرد الاسبان من السواحل المغربية.

ونفس السياسة اتبعها هذا القائد مع شيوخ الزوايا والمرابطين لكسب تأييدهم وحثهم على تجنيد أتباعهم ومريديهم على الجهاد إلى جانب العثمانيين. وقد نجح خيرالدين بربروس، في سياسته هذه إلى حد كبير، حيث استجاب لندائه معظم شيوخ القبائل بما في ذلك شيوخ العرب الذين كانوا يشرفون على عدد من القبائل. وقد اشترط هؤلاء على القائد العثماني، مقابل الدخول في طاعته، الإبقاء لهم على امتيازاتهم المكتسبة منذ عهد الحفصيين، والتزم خيرالدين إزاءهم بهذه الشروط على أن يكفوا أيديهم على القوات العثمانية وأن "يكون مشتاهم[2] بالصحراء".[3]

---

[1] ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ج2، ص12.

[2] **المشتى**: المكان الذين يقضون فيه فصل الشتاء ويقصد هنا مقر سكناهم وإقامتهم بالصحراء.

[3] ابن أبي الضياف: نفس المصدر، ص12.

بهذه الطريقة استطاع القائد خيرالدين استمالة شيوخ القبائل وكسب ولائهم ولم يكتف بهؤلاء بل عمل أيضا على استمالة غيرهم عن طريق الإغراءات المادية وهو ما فعله مع قبائل الحدود التونسية، مثل دريد، الحنانشة، النمامشة وغيرهم؛ إذ كان خيرالدين قد اقترح على رؤساء هذه القبائل مبالغ مالية هامة، قدرت بـــ1000 دوكة مقابل مساعدته للقبض على السلطان حسن الحفصي وقد استجاب الجميع لهذا الطلب شريطة أن يواظب على دفع مبالغ مالية سنوية لهم على غرار ما كان يفعله الحفصيون قبل ذلك، وفعلا وافق خيرالدين على ذلك، إلا أن دخول الاسبان مدينة تونس (941هـــ/1534م) حال دون تحقيق غرضه.[1]

والحقيقة أن العاطفة الدينية كانت أقوى العوامل التي قربت بين الطرفين الجزائري والعثماني، فكان وقوف السكان إلى جانب العثمانيين، في أغلب الأحيان، تلقائيا ودون إغراء من أحد، وهو ما عبر عنه المؤرخ التونسي ابن أبي الضياف بقوله :" ودانت لهم (الإخوة بربروس) القلوب بالمحبة والطاعة، إذ قصدهم جمع الكلمة وتعاضد الأمة المسلمة، فإذا لزمهم حرب تسارعت إليهم الممالك (القبائل) بالإعانة والنجدة، تباهي كل مملكة غيرها بالعدد والعدة ويستعذبون في ذلك مذاق الشدائد".[2]

وهذا ما برهن عليه شيوخ القبائل بتخليهم على زعمائهم المحليين والالتفاف حول القوى العثمانية بمجرد ميل أولائك إلى الاسبان والتعاون معهم، وذلك أنهم كانوا يعتبرون تصرف حكامهم خيانة للإسلام والمسلمين. ومن الأمثلة على ذلك انحياز كل من قبيلة عمراوة كرفة وسويد إلى العثمانيين ضد حكامهم الحفصيين بمجرد إتحاد الحاكم الحفصي أبو الحسن مع الاسبان سنة (941 هـــ/1534م). وقد جاء في تأريخ "هايدو" للمنطقة أن سكان تونس

[1] Feraud (ch): les Hrars, op.cit, p136.

[2] ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ص27.

كاتبوا بربروس سرا سنة 1532م يطلبون تدخله ضد حاكمهم مولاي الحسن ووعدوه بالمساعدة.[1]

هذا بالإضافة إلى العدد الهائل من المتطوعين للجهاد إلى جانب العثمانيين وقد حددت المصادر عدد هؤلاء بـــ:20000 مجند من منطقة جيجل وحدها،[2] ولكن هل هذا كله يعني أن المصالح الخاصة للحكام المحليين ومنهم رؤساء القبائل والأسر الحاكمة، لم تحدد موقف هؤلاء العثمانيين؟

لاشك أن المصالح الخاصة وعلى رأسها التمسك بالزعامة الإقليمية لكل أسرة كانت قد لعبت دورا هاما في تحديد موقف كل أسرة حاكمة من القادة الجدد ولهذا السبب يجدر بنا عرض موقف كل أسرة حاكمة على حدة.

1. موقف أسرة المقراني:

لعل أول وأشد معارضة واجهها العثمانيون بأرياف شرق الجزائر، حسب ما توفر لدينا من مراجع، هي معارضة أسرة المقراني بزعامة عبد العزيز العباسي حاكم قلعة بني عباس، ويرجع بعض الباحثين ذلك الموقف العدائي تجاه العثمانيين إلى التحالف المبكر للاخوة بربروس مع أسرة ابن القاضي، أمراء كوكو،[3] المنافسين التقليديين لأسرة المقراني؛ إذ عمل هؤلاء القادة، منذ وصولهم إلى الساحل الجزائري سنة 1512م، بدعوة من أحمد بن القاضي، على تمتين

---

1 Haédo (F.D), op.cit, p129.

2 Sander rang et Ferdinand denis, Histoire des barbrousses, T1, E.Bouslama,Tunis, p52.

3 كان أحمد بن القاضي، أمير إمارة كوكو، (وهي قرية تقع على الضفة اليسرى من نهر بوبهير (سباو الأعلى) بجرجرة) أول حاكم محلي اتصل بالإخوة بربروس لدعوتهم لتحرير السواحل الجزائرية من الاسبان، وقد كانت استفادة العثمانيين من أسرة ابن القاضي كبيرة سواء في بداية وجودهم بالمنطقة أو بعد ذلك وهو ما تدل عليه الرسالة التي وجهها السلطان العثماني بتاريخ (981/10/23هـــ/1574م) إلى أمير كوكو لحثه على مواصلة دعم القوات العثمانية "سواء كان لدفع الاعداء والمعاندين، أو لحفظ القلاع والبلاد".

علاقتهم بهذه الأسرة، بل وصل بهم الأمر إلى جعل أحمد بن القاضي حاكما، باسم العثمانيين، على كامل الشرق الجزائري،[1] الشيء الذي أثار سخط أسرة المقراني بزعامة شيخها عبد العزيز الذي اتجه إلى الاسبان في بجاية ليتحالف معهم ضد العثمانيين وحليفهم ابن القاضي.

وفعلا تم للشيخ التحالف مع الاسبان فكان يدفع لهم اتاوة سنوية،[2] مقابل حصوله على السلاح لمقاومة العثمانيين. إلا أن هؤلاء بزعامة خيرالدين بربروس، وبأمر من أخيه عروج، استطاعوا إخضاع الشيخ عبد العزيز وإرغامه على تحويل الاتاوة التي كان يدفعها للاسبان إلى العثمانيين، وكان ذلك حوالي سنة 1516م.[3] ومنذ ذلك التاريخ مال ميزان القوة إلى العثمانيين بخضوع الأسرتين الحاكمتين معا لنفوذهم. إلا أن هذا التقارب بين الأطراف الثلاثة لم يدم طويلا، حيث أعلن أحمد بن القاضي سنة 1523م العصيان على خيرالدين وتمكن من إخراجه من مدينة الجزائر وهزيمة حلفائه حكام قلعة بني عباس.[4] وقد زاد هذا العمل من تمتين علاقة العثمانيين بأسرة المقراني، واستمر التحالف بين الطرفين حتى تم القضاء على ابن القاضي سنة (933هـ/1527م)، وفي سنة (935هـ/1529م) عاد التعاون من جديد بين الأسرتين المحليتين وبين العثمانيين.[5]

والحقيقة أن العثمانيين كانوا قد استغلوا تنافس الأسرتين على زعامة المنطقة لتنفيذ خطتهم لتحرير الموانئ الجزائرية من الاسبان والجنويين ثم توسيع نفوذهم بالمنطقة. وذلك بالاعتماد تارة على أتباع أسرة المقراني وتارة على

---

1 المدني(اتوفيق): حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا، ش.و.ن.ت، الجزائر، بلات، ص ص 211-212.

2 قدر صاحب الغزوات هذه الاتاوة بـ7000 دينار و1000 مكيال (صاع) قمح و1000 شاة و700 رأس بقر و14 فرس مجهزة. أنظر، نور الدين عبد القادر (محقق): غزوات عروج وخير الدين، ص30.

3 أنظر، نور الدين عبد القادر(محقق): نفس المرجع، ص 30.

4 Boulifa (S.A): op.cit, p124.

5 Haédo (F.D): op.cit, p120.

أتباع ابن القاضي، وهذا بالتقرب من هذه الأسرة أو تلك حسب ما تقتضيه حاجتهم العسكرية.

فبفضل تحالف عروج وخيرالدين مع ابن القاضي تم تحرير جيجل من يد الجنويين سنة 1513م، وبفضل تحالف خيرالدين مع عبد العزيز العباسي تمكن من فتح كل من منائي القل وعنابة سنة 1520م،[1] كما تمكن من تأمين طريقه بين الجزائر وجيجل وخاصة التفرغ لتحرير صخرة البنيون،[2] بميناء الجزائر الأمر الذي زاد من ثقة الزعيم المحلي في القائد العثماني ومتن الحلف بينهما. فتعاون عبد العزيز معه ثم مع خلفائه من القادة العثمانيين بكل إخلاص لتحرير الموانئ الجزائرية من جهة وتوسيع النفوذ العثماني نحو الداخل من جهة أخرى.

ويبدو أن شيخ أسرة المقراني كان قد ثبت على حكم قلعة بني عباس رسميا، من طرف القائد حسن آغا، سنة (948هـ/1541م)، حيث عمل هذا القائد، أثناء عودته من الصحراء إثر حملة تأديبية ضد أولاد صولة الثائرين بشرق بسكرة، على تثبيت حكم أهم شيوخ الأسر الحاكمة بالمنطقة مقابل اعترافهم بالسلطة المركزية العثمانية وكان من بين هذه الأسر أسرة المقراني حراس الحدود الغربية لمقاطعة قسنطينة.

بهذه الصفة، صفة الحاكم المستقل، أبدى الشيخ عبد العزيز استعداده التام للتعاون مع العثمانيين لتحرير الثغور الجزائرية سواء في شرق البلاد أو غربها، فشارك في الحملة التي نظمها القائد حسن باشا، سنة (952هـ/1545م)، ضد مستغانم، حيث مول الحملة بجيوش قدرتها بعض المراجع بـ 2000 فارس،[3] وقد تم للباشا، بفضل هذا الدعم، النصر على أبناء سلطان المغرب الذين هددوا الحدود الغربية للإيالة، كما شارك "عبد العزيز" بجيوشه في الحملة التي شنها

---

[1] Mouloud Gaid: chronique des beys..., p7.
[2] Mouloud Gaid: L'Algérie sous les turcs, pp50- 61.
[3] Mouloud Gaid: chronique des beys, p9.

القائد "صالح ريس" على مدينتي تقرت و ورقلة الصحراويتين، في إطار التوسع نحو الداخل.

وقد أكد بعض المؤرخين، منهم المؤرخ الاسباني "مارمول"، أن القوات العثمانية لم تكن تستطيع فتح المدينتين لولا مساعدة جيوش السلطان عبد العزيز. كما قدر هذا المؤرخ قوات "عبد العزيز"المشاركة في هذه العملية بـــ1600 فارس و180 من المشاة عدا الأعداد الضخمة من المجندين لجر المدافع.[1]

تم فتح المدينتين الصحراويتين سنة (959هـــ/1552م)، وقد برزت قوة وشجاعة الجيش المحلي بقيادة "عبد العزيز"، وكان الوفاق التام يسود علاقة القائدين المحلي والعثماني، على أساس المساواة في الرتبة واتخاذ القرار، إلا أن ذلك لم يدم طويلا، إذ نشب نزاع حاد بين الطرفين بمجرد انتهاء الحملة الصحراوية، حيث اتضحت نية كل طرف، فبينما كان (السلطان) "عبد العزيز" ينوي اقتسام غنائم الحملة، بما فيها مناطق النفوذ الجديدة، بالتساوي مع القائد العثماني، وبالتالي ضم معظم الأراضي الفاصلة بين قلعة بني عباس ومجانة حتى الصحراء، إلى نفوذ أسرة المقراني، كان القائد العثماني يصر على اعتبار جميع المناطق المفتوحة أراضي سلطانية تتبع مباشرة سلطة الباشا بمدينة الجزائر.

وهو ما أشعل فتيل الحرب بين الطرفين، وجعل صالح رايس يتجه مرة أخرى للتعاون مع أسرة ابن القاضي للتحالف معها ضد "عبد العزيز" من جهة وضد القاعدة الإسبانية ببجاية من جهة ثانية،[2] وقد استمر تحالف العثمانيين مع أسرة ابن القاضي طوال فترة تمرد عبد العزيز، الذي تحول إلى تحالف مع الأسبان، ويعيد المؤرخ "مارمول" هذا التحول في موقف الطرفين إلى خوف السلطان العباسي من نفوذ العثمانيين المتصاعد بالجزائر من جهة، وتخوف هؤلاء

---

[1] Feraud (ch): Bordj Bouariridj, op.cit, p220.

[2] يقول "هايدو" أن صالح ريس جمع لتحرير بجاية 30 ألف محارب من القبائل الشمالية لقسنطينة وكان الجزء الأكبر منها قد أرسل إليه من طرف سلطان كوكو (ابن القاضي). أنظر، Haédo: op.cit, p279.

من قوة هذا الحاكم المحلي القوي[1] من جهة أخرى، وخاصة بعد أن تحالف معه بعض قبائل زواوة.[2]

استمرت الحروب بين عبد العزيز وصالح ريس حتى نهاية حكم هذا الأخير، وقد انهزم العثمانيون في العديد من المعارك أمام قوات عبد العزيز، وكانت معركة جبل بوني سنة 1553م، التي قُتل فيها أخ عبد العزيز (سيدي الفضل)، من أعنف المعارك التي دارت بين الطرفين،[3] وبعد انهزام العثمانيين فيها عادوا في ربيع نفس السنة، وبقوات أكبر لمهاجمة القلعة، إلا أنهم هزموا في نفس المكان وهنا قرروا التخلي عن مقاتلة الشيخ لعدة سنوات للتفرغ لتحرير بجاية.[4]

بعد تحرير بجاية سنة 1555م. زاد تخوف عبد العزيز من العثمانيين فاتخذ كل التدابير الوقائية لتحصين قلعته، واستعد لحصار طويل ووضع على كل نقطة مكشوفة من حدوده، فرقا للحراسة، وبما أنه كان يسيطر على "بيبان الحديد"،[5] فإنه تمكن من قطع الطريق الرابط بين قسنطينة والجزائر وبالتالي تعذر على العثمانيين الاتصال بمركز البايلك، إلا عن طريق سور الغزلان وبوسعادة.[6]

---

[1] تقول بعض المصادر أن العثمانيين عملوا على إغتيال عبد العزيز، بمجرد انتهاء الحملة على تقرت وورقلة وذلك عند زيارته للبايلرباي في الجزائر، إلا أنهم فشلوا. أنظر،
Rinn (L): Histoire de L'insurrection de 187 p10.

[2] Feraud (ch): Bordj-Bouariridj, op.cit, pp220-221.

[3] Ibid, p221.

[4] Rinn (L): Histoire de L'insurrection de 1871, p10.

[5] هو أخطر ممر بين مدينة الجزائر عاصمة الايالة ومدينة قسنطينة عاصمة بايلك الشرق، وقد عرف لدى العثمانيين باسم Damer Cappy ومعناها "أبواب الحديد" وذلك لصعوبة اجتيازها. وقد وصف الرحالة الفرنسي Peyssonnel هذا الممر بقوله:" وهو مضيق يفصل بين جبال البابور والمناطق المطلة على مدينة الجزائر ويبلغ طوله حوالي 300 إلى 400 قدم ولا يزيد عرضه في بعض المناطق عن 6 إلى 8 أقدام. حول الموضوع أنظر، Dr .Shaw: op.cit, p128. et Peyssonnel: op.cit, T1, p208.

[6] Boulifa (S.A): op.cit, pp161-162.

وفي سنة (964هـ/1557م) وصل "حسن باشا بن خيرالدين" بأمر من السلطان العثماني بإسطنبول لإعادة الأمن بالمنطقة،[1] وبعد محاولة فاشلة لتحرير وهران عاد الباشا سنة 1558م، إلى الجزائر ليوجه أنظاره مجددا إلى بني عباس فشن عليهم هجوما واسعا بالتحالف مع أسرة ابن القاضي إلا أنه فشل.

وهنا التجأ إلى الأساليب السياسية فعمل على التقرب من الشيخ عبد العزيز عن طريق المصاهرة إلا أن هذا الأخير رفض طلب الباشا[2] مما زاد في تأزم الوضع، إذ التجأ الباشا مرة أخرى إلى أسرة ابن القاضي فصاهرها وتحالف معها للقضاء النهائي على حاكم بني عباس وهو أمل الطرفين.

أمام هذا التحالف بدأ عبد العزيز استعداده لصد أي هجوم عليه ووجه نداء إلى أتباعه للتجند واستجابت له الأغلبية، حيث اجتمع لديه في بضعة أيام أكثر من 9000 محارب منهم 4000 من الفرسان.[3] تم الهجوم على القلعة سنة (967هـ/1559م) ورغم مقتل الشيخ عبد العزيز[4] في هذه المعركة فإن أتباعه استمروا في القتال، بزعامة أخيه "أحمد أمقران"، للدفاع عن قلعتهم واستطاعوا

---

[1] يضم الأرشيف العثماني (سلسلة دفتر مهم)، بالمركز الوطني للدراسات التاريخية عدة رسائل سلطانية تحث الولاة على القضاء على ثورة حاكم بني عباس (المدعو عباس) وأخرى تمنح المكافآت لمن شارك في قمع هذه الثورة التي استمرت حتى بعد مقتل عبد العزيز العباسي سنة 1559 م.

[2] لعل سبب الرفض هو اعتزاز الشيخ بنسبه الشريف واحتقاره للعنصر التركي.

[3] Boulifa (SA): Idem, p162.

[4] يقول المؤرخون القريبون من فترة حكم الشيخ عبد العزيز أنه بقي، حتى وفاته، نزيها، قويا وشجاعا لا يقهر، كما كان معتزا بنفسه حازما في عمله حتى أنه وبخ الباشا حسن قورصو عند تردده في الهجوم على تلمسان، كما يؤكد الجميع على أنه كان يتعامل مع الحكام العثمانيين ومنهم الباشا على أنه حاكم مستقل فخور باستقلاله، وهذا عكس ابن القاضي الذي كان يمضي المعاهدات الذليلة مع العثمانيين تارة ومع الإسبان أخرى، وقد علق الكاتب "بوليفة" الذي كان انحيازه إلى أسرة ابن القاضي البربرية، حسب قوله واضحا، بقوله أن رأي هؤلاء الكتاب فيه الكثير من المبالغة وأن الكتاب الإسبان هم الذين وصفوه بهذا الوصف وذلك لأنه كان يسير في ركابهم. أنظر، Boulifa (S.A): Idem, p159-160

قهر العثمانيين الذين يئسوا من النصر فانسحبوا إلى الجزائر خوفا من قدوم الشتاء،[1] و يقول المؤرخ الأسباني "مارمول" أن العثمانيين قاموا بحمل رأس الزعيم الثائر إلى مدينة الجزائر لتعلق مدة يومين بباب عزون قبل أن تدفن داخل صندوق من الفضة.[2]

بعد مقتل "عبد العزيز" عقد خليفته وأخوه "أحمد أمقران"، صلحا مع العثمانيين يقضي باعتراف كل طرف بمنطقة نفوذ الآخر، وينص هذا الاتفاق على تخلي الحاكم الجديد لبني عباس عن بعض ما تمسك به سلفه من أراضي وحقه في الإشراف على الزيبان وإقطاعات الضفة اليسرى من وادي الساحل، وفي المقابل اعترف له باشا الجزائر باستقلاله بمناطقه الواقعة بين قلعة بني عباس ومجانة والقبائل التابعة لها، وتعهد له بعدم الاعتداء على أتباعه، وبذلك دخلت أسرة المقراني مرحلة جديدة من تاريخها في ظل الحكم العثماني وهو ما سنراه عند حديثنا عن دور الأسرة في تسيير إدارة البايلك.

2. موقف أسرة بوعكاز الذواودة:

رغم الغموض الذي اكتنف موقف أسرة بوعكاز، زعماء الذواودة وشيوخ عرب الصحراء الشرقية للجزائر، من العثمانيين عند دخولهم المنطقة، فإن بعض المراجع الفرنسية أوردت، اعتمادا على الروايات الشفهية، أن شيوخ الذواودة كانوا من بين الزعماء المحليين الأوائل الذين بادروا بمباركة دخول العثمانيين إلى مقاطعة قسنطينة، وذلك ابتداءً من سنة (928هـ/1522م)، حيث تم، كما أسلفنا، اتفاق بين قائد الحامية العثمانية المرابطة قرب قسنطينة وقبيلة

1 Rinn (L): Histoire de L'insurrection de 1871, p12.
2 Feraud (ch): Bordj-Bouariridj, op.cit, p226.

أولاد يعقوب[1] على التعاون فيما بينهم بتمويل القبيلة لأفراد الحامية بالمواد الغذائية مقابل تزويدها بالأسلحة.[2]

وللتعبير عن ولاء الأسرة للقادة العثمانيين أرسل شيخها "أحمد الكربوش"،[3] أول زعيم للأسرة في العهد العثماني، هدايا قيمة إلى القائد "خيرالدين بربروس" من بينها 7 جمال مكسوة بالفيلالي المطرز بالذهب يقودها 7 عبيد من السود، وكان ذلك سنة (933هـ/1527م).[4] ومنذ هذا التاريخ تحول الذواودة إلى قبيلة مساندة للحكم العثماني فاعتمد عليها العثمانيون في حفظ الأمن بالمناطق الجنوبية، وكانوا يلتجئون إليها كلما اقتضت الحاجة إلى ذلك، وهو ما فعلته الحامية المرابطة قرب قسنطينة، عندما أقدمت قبيلة الحنانشة على قطع طريق المؤونة التي كانت تصل الحامية العثمانية من أولاد يعقوب، حيث استنجد قائد الحامية بزعيم الذواودة الذي لبى الدعوة بتجنيد قوات ضخمة والهجوم على قوات الحنانشة.

وقد دارت معارك دامية بين الطرفين في سهول سطيف انتهت، بعد تدخل حكماء الطرفين، بتقسيم سهول قسنطينة بين الطرفين فأخذ الحنانشة الناحية الشرقية لقسنطينة والذواودة الناحية الغربية منها.[5] وتم إثر ذلك الوفاق بين أسرة الحنانشة والقوات العثمانية على غرار ما كان بينها وبين الذواودة. وبهذا ضمن العثمانيون ولاء أسرتين من أقوى الأسر المحلية بشرق الجزائر وبالتالي ضمنوا هدوء كامل المنطقة الشرقية والجنوبية للمقاطعة.[6]

---

1 أولاد يعقوب هم أسلاف أسرة بوعكاز الذواودة.

2 Mouloud Gaid, chronique des beys de constantine,P.7.

3 أنظر شجرة نسب الأسرة في الفصل الأول من الكتاب، ص 40.

4 Gouvion (E) (M): op.cit, (les Bouakkaz), p7.

5 Mercier (E): Histoire de Constantine, p194.

6 Ibid, pp194-195.

وبعد عملية المطاردة التي قام بها القائد العثماني "حسن آغا" لأولاد صولة بالجنوب، قام بربط شيوخ هذه الأسرة رسميا بالحكم العثماني وذلك سنة 1541م، بتنصيب شيخها "علي بوعكاز بن أحمد الكربوش" قائدا على جميع القبائل الرحل ومنحه لقب شيخ العرب.[1] وبذلك احتلت أسرة بوعكاز مكان أولاد صولة في مشيخة العرب، ودخلت بذلك عهدا جديدا مع العثمانيين اتسم بالتعاون لحفظ الأمن بالبلاد في ظل الاحترام المتبادل بين الطرفين.

وقد أوردت بعض المراجع أن الشيخ "علي بن أحمد الكربوش"، الذي تزعم الأسرة بين (947هـ/1541-1581م)، كان قد شارك في فتح مدينتي تقرت وورقلة إلى جانب "صالح ريس" و"عبد العزيز المقراني" سنة (959هـ/1552م)، بل تقول أن المدينتين فتحتا بدون أية مقاومة تُذكر وذلك بفضل تدخلات الشيخ "علي بن بوعكاز" السلمية.[2]

وقد استمر إخلاص الأسرة للعثمانيين طوال عهدهم بالجزائر و لم يعكر صفو تلك العلاقة سوى التجاوزات التي كان يقوم بها بعض الحكام العثمانيين تجاه الأسرة ومردها التخوف من استقلالها التام عن الدولة، منها قيام مراد باي قسنطينة سنة (1046هـ/1637م) بقتل شيخ الأسرة "محمد بن السخري" لمجرد الشك في إخلاصه، مما أدى إلى ثورة عازمة كادت أن تطيح بالحكم العثماني في بداية عهده. أما في ماعدا ذلك فإن احترام الحكام العثمانيين لاستقلال الأسرة الداخلي بالصحراء كان كافيا لتعايش القوتين المحلية والعثمانية في سلام معظم الحكم العثماني بالجزائر، بل كانت الأسرة خير سند للحكام العثمانيين في إدارة البايلك وهو ما سنراه لاحقا.

1 Mercier (E): Idem, p197.

2 Gouvion (E) (M): les Bouakkaz, op.cit, p32.

3. موقف أسرة أحرار الحنانشة:

كان أحرار الحنانشة، عند دخول العثمانيين الجزائر، تحت زعامة الشابية، الذين كونوا، كما أسلفنا، حلفا قويا ضم معظم قبائل شرق مقاطعة قسنطينة، وكان هدف الحلف هو تكوين دولة محلية قوية تخلف دولة بني حفص المنهارة وتقف في وجه الإسبان من جهة والعثمانيين من جهة ثانية، وقد استطاع هذا الحلف أن يُكوّن، فعلا شبه دولة أطلق عليها الباحث فيرو"*Féraud*"، كما سبقت الاشارة إليه، اسم "الجمهورية الرعوية" (*République pastorale*).[1]

وقد ضمت هذه (الجمهورية) جميع الأراضي الواقعة بين وادي سوف وجبال الأوراس جنوبا والقالة وعنابة شمالا،[2] وقد استطاع حلف الشابية أن يصمد أمام القوات الحفصية ثم العثمانية وأن ينتصر عليهم مرارا إلى حد خضوع داي تونس لشروط زعيم الشابية "عبد الصمد" وإقطاعه إقطاعات واسعة بالإيالة.[3] ورغم هذه المهادنة استمرت الحرب بين هؤلاء وبين الحكام العثمانيين في تونس والجزائر حوالي 123 سنة،[4] أي منذ سقوط دولتهم بالقيروان سنة (965هـ/1557م) ودخولهم شرق الجزائر حتى تفكك حلفهم حوالي سنة (1088هـ/1680م).

ببداية ظهور الضعف على حلف الشابية بدأت بعض الأسر القوية تنفصل عن الحلف وتحاول السيطرة على المنطقة على حساب غيرها ومن أهم هذه الأسر: أسرة أحرار الحنانشة وأسرة ابن شنوف، وقد استقرت الأولى بقلعة "سنان" الحصينة، في حين استقرت الثانية بمقر حكمها، مدينة الكاف. وقد دارت معارك طاحنة بين الأسرتين من أجل الزعامة على المنطقة، وكان

---

[1] Feraud (ch): les Hrars, pp135-145.

[2] تقول بعض المراجع أن الذواودة و أسرة ابن ناصر حكام خنقة سيدي ناجي لم يدخلوا هذا الحلف أنظر، Babes (Leila): Mythe…, p199.

[3] أنظر، علي الشابي: العلاقات بين الشابية والأتراك العثمانيين بتونس بين أواخر القرن السادس عشر ونهاية القرن السابع عشر، المجلة التاريخية المغربية، العدد:18/17، جانفي 1980، تونس، ص81.

[4] علي الشابي: نفس المرجع، ص69.

الحنانشة قد تحالفوا مع العثمانيين للوصول إلى هدفهم في حين تحالفت أسرة ابن شنوف مع عرب المنطقة وعلى رأسهم أولاد صولة وأولاد سعيد.[1] و لم ينته الصراع بين الطرفين إلا بخروج أسرة ابن شنوف من الكاف[2] وترك المجال واسعا أمام أسرة أحرار الحنانشة.

من هنا يمكن تلخيص موقف أسرة أحرار الحنانشة تجاه العثمانيين بالقول أنه كان في البداية يتسم بالرفض التام لهم، باعتبار أن الأسرة كانت عضوا حيويا في حلف الشابية الرافض لأية سلطة مركزية، إذ كان خالد بن ناصر (خالد الكبير) (936هـ/1530م)، أول زعيم لأسرة أحرار الحنانشة في الفترة العثمانية، يعتز باستقلال أسرته والرغبة في إخضاع القبائل الحدودية لسلطته وذلك على غرار أسلافه، إلا أن العصبية القبلية والتنافس على الأراضي الرعوية دفع الحنانشة إلى منافسة الذواودة المتحالفين مع العثمانيين، في السيطرة على السهول القسنطينية.

وقد حقق الأحرار هدفهم بعد معارك عديدة خاضوها ضد العثمانيين والذواودة انتهت، كما أسلفنا، بعقد اتفاق ثلاثي بين الذواودة والحنانشة والعثمانيين، يقضي باقتسام المنطقة بينهم، فسيطر الذواودة على السهول الغربية لقسنطينة والحنانشة على الشرقية منها في حين تبقى قسنطينة وضواحيها تحت القيادة العسكرية للمعثمانيين، وبذلك تم الاعتراف الرسمي لأسرة أحرار الحنانشة بالحكم العثماني.

أصبحت المنطقة تحت سيطرة ثلاث زعامات سياسية تخضع جميعها لسلطة باشا الجزائر، وقد عبر الشيخ أحمد بن المبارك بن العطار عن هذا الوفاق بقوله: "ووقعت بينهم (العثمانيين) وبين العرب وقائع عظيمة، أعظمها وقعة وادي القطن

[1] حول الموضوع أنظر، ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص ص 171-233.
[2] أنظر نهاية الفصل الأول من الكتاب (أسرة ابن شنوف).

بين ميلة وقسنطينة، اتخذ كل فريق صاحبه ثم وقع بينهم صلح بأن يكون الترك بقسنطينة ويكون تصريف الوطن[1] بينهم أثلاثا ثلثه لابن علي (بوعكاز) شيخ العرب، وثلثه لشيخ نجع الحنانشة وثلثه لحاكم الترك وتعاهدوا على هذا وتصالحوا عليه ومن ذلك الوقت بقيت العادة إلى وقتنا أن الباي إذا أتته خلعة الولاية من الجزائر يلبسها هو الأول ثم يبعث بها إلى شيخ العرب، وبعده إلى شيخ الحنانشة ويعرف وظيفه الحنانشة بوظيف القفطان لأن ولايتهما كولاية الباي.."[2]

رغم هذا الاعتراف الرسمي بشرعية الحكم العثماني فإن شيوخ أسرة أحرار الحنانشة حافظوا في تعاملهم مع الحكم المركزي، على علاقة يشوبها الحذر فكانوا لا يأمنون جانبهم، لما كان بين الطرفين من عداوة سابقة، حتى أن شيخهم لم يكن ينتقل إلى الباي لارتداء القفطان بنفسه بل كان يرسل كاتبه لهذه المهمة نيابة عنه وذلك خوفا من الغدر به.[3]

ومن هنا يمكن القول أن موقف أحرار الحنانشة تجاه العثمانيين، كانت تمليه المصلحة الخاصة للأسرة وأهمها الاستقلال الداخلي، مقابل الاعتراف الاسمي بالحكم المركزي على أساس التعاون والتحالف وليس على أساس التبعية والخضوع.

4. موقف أسرة بني جلاب:

إذا كان احتكاك كل من أسرة بوعكاز والمقراني وأحرار الحنانشة مبكرا ومباشرا بالعثمانيين فإن حكام تقرت ظلوا بعيدين عن أي احتكاك بهم في بداية عهدهم، وذلك لبعد منطقة حكمهم عن منطقة التواجد العثماني. فرغم وصول "حسن آغا" إلى الصحراء حوالي (941هـ/1534م) وإخضاع سكانها ومن بينهم أسرة بني جلاب للحكم العثماني بفرض إتاوة سنوية عليهم،[4] فإن هؤلاء

---

1 الوطن يعني الريف في لغة الفترة العثمانية .

2 ابن العطار: المصدر السابق، ص ص 56-57.

3 Feraud (ch): les Hrars… , op.cit, P 360.

4 Devoulx: op.cit,P45.

سرعان ما خرجوا عن طاعة العثمانيين ورفضوا دفع ما عليهم من ضرائب، وذلك نظرا لانشغال الحكام بتحرير الثغور الشمالية للبلاد من الإسبان.

وقد استمر استقلال سلاطين تقرت عن الحكم المركزي إلى أن غزا "صالح ريس" المدينة من جديد سنة (959هـ/1552م) لإعادها إلى حضيرة السلطة العثمانية وإجبارها على دفع الإتاوة التي فرضت عليهم من طرف القائد "حسن آغا". واستطاع هذا القائد، بمساعدة أسرتي بوعكاز والمقراني أن يخضع حكام المدينة، إلا أن ذلك لم يكن إلا شكليا وبقي هؤلاء شبه مستقلين عن قسنطينة، بل ظل سكان المدينة، حسب ما أورده "هايدو"، يكنون كل العداء للعثمانيين، حتى أنهم كانوا يعتبرون قتل الجندي العثماني يقربهم إلى الله أكثر من قتل النصراني،[1] ولا يخضعون للسلطة العثمانية إلا عن طريق القوة،[2] وهو ما حدث في عهد صالح باي أقوى الحكام العثمانيين بقسنطينة، والذي عمل على ضم مدينة تقرت فعليا إلى حكمه وقد تم له ذلك سنة 1788م.

من هنا يمكن القول أن موقف الأسر الحاكمة في بايلك قسنطينة إزاء العثمانيين كان يخضع من جهة إلى مدى قربها أو بعدها عن مناطق تواجد القوات العثمانية، ومن جهة أخرى إلى مصلحتها من ذلك التعاون، وخاصة بالنسبة إلى الحفاظ على امتيازاتها التقليدية بالمنطقة واستقلالية حكمها بمناطق نفوذها الموروثة منذ العهد الحفصي. من هذا المنظور تعاونت هذه الأسر مع الإدارة العثمانية في بايلك قسنطينة طيلة ثلاثة قرون من الزمن، فما مدى مشاركة هذه الأسر وغيرها من الأسر الحضرية الأخرى في إدارة شؤون بايلك قسنطينة؟

---

[1] Haedo (F.D), op.cit , P.272.

[2] كانت تقرت تعتبر أبعد نقطة في جنوب بايلك قسنطينة و لم يكن باشا الجزائر يسمح لأي باي بغزوها أو غزو الصحراء بصفة عامة إلا بإذنه لأن ذلك كان يتطلب تجهيز قوات إضافية لحصانة المدينة. أنظر، العنتري (محمد الصالح): الفريدة المؤنسة، ص 34 وص 74.

ثانيا. دور الأسر المحلية في إدارة البايلك:

- **التقسيم الإداري للجزائر في العهد العثماني:**

يبدو من خلال عدد من القرارات السلطانية، التي وصلت من إسطنبول إلى الجزائر في عهد البيلربايات، أن البلاد كانت مقسمة، على غرار بلاد الشام بالمشرق العربي، إلى عدة ألوية منها لواء قسنطينة ولواء بسكرة الذين أصبحا فيما بعد يمثلان بايلكا واحدا هو بايلك الشرق، فقد قسم البيلرباي "حسن باشا بن خيرالدين"[1] ولاية الجزائر سنة (975هـ/1557م) إلى أربع مناطق إدارية وهي:

1. **دار السلطان**: وتضم مدينة الجزائر وأحوازها وتتبع مباشرة باشا الجزائر.
2. **بايلك الشرق**: ويضم جميع المنطقة الشرقية للإيالة وعاصمته قسنطينة.
3. **بايلك الوسط أو التيطري**: وعاصمته المدية.
4. **بايلك الغرب**: ويضم غرب البلاد حتى الحدود المغربية وكانت عاصمته مازونة ثم معسكر ثم وهران.

ولإدارة هذه المناطق عين على كل منها موظفا ساميا يحمل لقب "باي"[2] ويمثل سلطة الباشا في بايلكه، وتتلخص مهام الباي في أمرين أساسيين هما حفظ الأمن وجباية الضرائب، وتساعده في هذه المهمة حامية عسكرية قدرت قواها بحوالي 200 جندي،[3] ومجلس إداري يدعى "ديوان الباي" يتكون من موظفين إداريين سامين من العناصر التركية والمحلية، ولتسهيل إدارة البايلك الذي كان شبه مستقل عن الإدارة المركزية قسم بدوره إلى عدد من الوحدات الإدارية تمثلت، بالنسبة للحضر، في المدن الموانئ وكان يرأس كلا منها قائد يكون تارة

---

[1] **حسن باشا**: هو أول حاكم كرغلي بالجزائر (ابن خيرالدين بربروس من امرأة جزائرية)، تولى الحكم مرتين الأولى سنة (952هـ/1545م) والثانية سنة (964هـ/1557م).

[2] **الباي**: كلمة تعني الرجل الغني أو الأمير وقد أطلقت على أمراء الألوية في الجزائر في حين أطلق في تونس على حكام الايالة وذلك ابتداء من القرن (12هـ/18م). أنظر، دائرة المعارف الإسلامية، مادة باي.

[3] A.M..G, H 228, op.cit, p24.

تركيا وأخرى عربيا يدعى "قائد البلاد" أو"قائد الدار" يساعده شيخ من العرب يدعى "شيخ البلد".

أما بالنسبة للأرياف فكانت القرية تمثل غالبا الوحدة الادارية ويدير الريف "قائد الوطن"[1] الذي يكون إما تركيا وإما عربيا وهو مزود بسلطات مدنية وعسكرية وقضائية ويقع تحت سلطته شيخ القبيلة، وكان الأول يعين من طرف الباي وتنحصر مهمته في جمع الضرائب في حين يعين الثاني من طرف قائد الوطن،[2] وتتمثل مهمته في إحصاء الأراضي لتحديد قيمة الضريبة ومراقبة القبائل وفض النزاعات التي كانت تحدث بين بعضها، بالإضافة إلى الإشراف على الأسواق.[3]

وبما أن موضوع هذا البحث هو دراسة دور العناصر المحلية في تسيير دواليب الإدارة ببايلك قسنطينة فإننا سنركز على الإدارة في مدينة قسنطينة، عاصمة البايلك وأهم الوظائف بها، ومدى سيطرة العنصر المحلي عليها، ثم على دور شيوخ القبائل والأسر الحاكمة في إدارة أرياف البايلك.

- **الإدارة بمدينة قسنطينة**: يذكر حمدان بن عثمان خوجة أن الحكم في الجزائر أيام العثمانيين كان مقسما بين 3 هيئات:

1. **السلطة المدنية**: وهي في يد الأهالي، وعلى رأسهم شيخ المدينة يساعده مجلس بلدي، ومناختصاصاته حفظ الأمن والنظافة وجمع الضرائب الخاصة بالدكاكين.
2. **السلطة القضائية**: وهي حنفية من الأتراك والكراغلة ومالكية من الأهالي، وهي مستقلة عن السلطة المركزية وأحكامها نافذة.

---

[1] **الوطن**: وتنطق "لوطن" وهي كلمة تعني موطن القبيلة ثم اتسع مدلولها ليشمل الريف كله.

[2] لم يكن شيوخ الأسر الحاكمة يخضعون لسلطة قائد الوطن بل كانوا يتبعون مباشرة سلطة الباي الذي لم يكن له نفوذ عليهم غير تزكية حكمهم.

[3] حول الموضوع أنظر، العيد (مسعود): المجتمع الجزائري في العهد العثماني، المرجع السابق، ص104.

3. **السلطة التنفيذية**: وتنحصر في الحكام الأتراك.[1]

من هذا التقسيم يتضح لنا أن العناصر المحلية كانت تشارك في تسيير الشؤون الداخلية للولاية، إلى جانب العثمانيين الذين يسيطرون على الحكم المركزي بها. والحقيقة أن العثمانيين، تحت شعار المحافظة على الوضع القديم بالولاية، لم يمسوا بالهياكل الإدارية القديمة، سواء ببايلك قسنطينة أو بالجزائر عامة، وهي سياسة عرف بها الحكم العثماني في مختلف الولايات العربية.[2] فلم يغيروا الوظائف ولا الموظفين القدامى، بل عمدوا إلى إبقاء معظم المناصب القديمة مثل شيخ البلد والمزوار والمحتسب وغيرها من الوظائف التي بقيت أسماؤها تدل على عروبتها، وقد استمر تداولها إلى جانب الوظائف العثمانية الجديدة، حتى نهاية العهد العثماني بالبلاد.[3] كما أبقى العثمانيون على الموظفين المحليين في مناصبهم، وخاصة الذين وثقوا في إخلاصهم وولائهم لهم. وغالبا ما كانت هذه الوظائف تورث لأبناء الأسرة الواحدة، وهو ما جعل بعض الأسر المحلية تحتكر عددا من الوظائف بقسنطينة، وتورثها لأبنائها طوال الفترة العثمانية.

وفيما يلي سنحاول التعريف بأهم الوظائف والمناصب الإدارية بمدينة قسنطينة عاصمة البايلك منذ بداية الحكم العثماني بها.[4]

---

1 حمدان عثمان خوجة: المصدر السابق، ص110.

2 أنظر، جب هاملتون وبوون: المرجع السابق، ج2، ص 19.

3 العيد(مسعود): المجتمع الجزائري...، ص 100.

4 للمزيد من الاطلاع على التقسيمات الإدارية لبايلك قسنطينة، وأهم الوظائف الإدارية به أنظر، سيساوي (أحمد): النظام الإداري لبايلك الشرق 1830/1791، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث غير منشورة، قسم التاريخ، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، 1988، ص 43 وما بعدها.

1°. وظيفة الباي: وهي وظيفة عثمانية مستحدثة في الجزائر، حلت محل وظيفة "الوالي" أو "الأمير" في العهد الحفصي.[1] وتأتي هذه الوظيفة على رأس الهرم الإداري للبايلك، ويعين الباي، عادة من قبل باشا الجزائر، ويختار من بين المخلصين له من أبناء جنسه، أي الأتراك العثمانيين إلا أن هذه العادة لم تكن قاعدة ثابتة ولاسيما بالنسبة لبايلك قسنطينة؛ إذ يبدو حسب ما جاء به العنتري،[2] وابن العطار،[3] أن بايات قسنطينة الأوائل كانوا يعينون من بين العناصر العربية، وذلك منذ بداية العهد العثماني، حتى بداية القرن (12هـ/18م)، فرغم سيطرة القادة العسكريين العثمانيين على المناطق الاستراتيجية بالبلاد، من خلال الأبراج التي بنوها على مشارف المدن الكبرى ومنها قسنطينة، فإن المدينة بقيت تحت حكم محلي تمثله "جماعة المدينة" المكونة من أعيانها.

ورغم سيطرة بعض الحكام العثمانيين على الحكم بالمدينة لفترات متقطعة، فإن زعامة المدينة انتقلت إلى أسرة محلية حكمت باسم العثمانيين طوال القرن (11هـ/17م)، وهي أسرة "فرحات" التي قال صالح العنتري عن عميدها أنه "حاكم من البلدية الذين لهم في ذلك الوظيف (كذا) أهلية"،[4] ورغم ارجاع صالح العنتري تاريخ تعيين فرحات هذا إلى سنة (1057هـ/1647م)، فإن حكم أسرة فرحات، في اعتقادي، يعود إلى القرن (10هـ/16م)، وذلك بناء على ما جاء في كتاب "منشور الهداية" لشيخ الإسلام عبد الكريم الفكون؛ إذ

---

[1] يبدو أن لقب"الباي" لم يعرف به حكام قسنطينة إلا في فترة متأخرة من الحكم العثماني، إذ لم يرد ذكره في مخطوط "منشور الهداية" للشيخ عبد الكريم الفكون (ت 1663 م) بل وردت كلمة "والي البلدة" وكلمة "الأمير". أنظر، المصدر السابق، ص67.

[2] العنتري (صالح): الفريدة المؤنسة، المصدر السابق، ص ص 4-10.

[3] ابن العطار (أحمد): تاريخ حاضرة قسنطينة، المصدر السابق، ص 58.

[4] العنتري (صالح): الفريدة المؤنسة، ص5.

جاء في هذا المخطوط أن محمد بن فرحات كان "واليا للبلدة (قسنطينة)"[1] في بداية عهد الكاتب[2]، وفي حياة والده[3] محمد الفكون.

وحتى وإن لم يذكر الكاتب انتماء "محمد بن فرحات" إلى العنصر العربي[4] فإنه ذكر في مجمل حديثه عن حكم قسنطينة ما يوحي بأن الحكم كان على أيامه، في يد العرب، وذلك في قوله، عند الحديث عن الشيخ محمد الكماد، الذي عاصر جده المتوفي سنة 1580م أنه: "تنوب على قضاة العجم (الأتراك) حين كانت لهم دولة"،[5] وهو ما يجعلنا نعتقد أن البايات في بداية العهد العثماني كانوا يعينون من بين القادة العسكريين العثمانيين، أمثال رمضان باي تشالق (1567م-1574م) وجعفر باي (1574-1588م)، ثم تحول الحكم إلى العناصر العربية، ابتداءً من "محمد بن فرحات باي" الذي تولى الحكم سنة (994هـ/ 1588م)، وربما كان ذلك نتيجة للثورات المتكررة على العثمانيين والتي انتهت بقتل شيخ الإسلام الأسبق "سيدي عبد المؤمن" سنة (979هـ /1572م).

بعد محمد بن فرحات (1588م) تسكت المصادر عن أصول البايات الذين تولوا حكم قسنطينة إلى أن يذكر صالح العنتري فرحات باي على أنه أول باي

---

1 نفس المصدر، ص7.

2 ولد عبد الكريم الفكون سنة (987هـ/1580م) وتوفي سنة (1073هـ/1663م).

3 توفي والد الكاتب عبد الكريم الفكون سنة (1045هـ/1636م).

4 يقول فايسات *Vayssette* عند حديثه عن الباي محمد بن فرحات، أنه لا يعرف شيئا عنه باستثناء أنه كان بايا لقسنطينة ثم قتل أثناء حصار عنابة من طرف الاسبان سنة 1607م. *Vayssette: op.cit,* p90. في حين تؤكد بعض المراجع منها *Mouloud Gaid: Chronique des beys de Constantine*, p14. أنه عربي.

5 أنظر، عبد الكريم الفكون: المصدر السابق، ص 44. وقد أبدى محقق المخطوط، الدكتور أبو القاسم سعد الله، عدم فهمه للعبارة بقوله أنها "عبارة محيرة"، في حين أشار فايسات *Vayssette* إلى هذه القضية بقوله "**يبدو مما جاء في المخطوط المحلي (منشور الهداية) أن الحكم التركي زال من قسنطينة في فترة قضاء محمد الكماد الذي عاصر قاسم الفكون**". أنظر، *Vayssette: op.cit,*p76.

رسمي لقسنطينة ويعيد تاريخ تعيينه إلى سنة (1057هـ /1647م) ويقول عنه أنه عربي من أهل المدينة (من البلدية)، تم اختيار من طرف السكان، وهو ما عبر عنه بقوله: "فلم يجدوا أهل البلاد (كذا) رجلا أحسن من سي فرحات كان ذا عقل ودار كبيرة فاتفقوا عليه".[1]

لم يذكر العنتري ولا ابن العطار بعده، أن فرحات كان ابنا لمراد باي[2] الحاكم الأسبق للمدينة، وهو ما أشارت إليه معظم المراجع الفرنسية[3] وأخذ عنها المؤرخون الجزائريون دون أن تشير هذه المراجع إلى المصدر الذي استقت منه هذه الفكرة، التي لا أعتقد أن صالح العنتري سيسكت عنها لو كانت صحيحة. إلا أننا في نفس الوقت لا نملك ما ينفي انتساب هذه الأسرة للباي المذكور (مراد)، باستثناء قول العنتري وابن العطار أن فرحات باي كان عربيا في حين تقول المراجع الفرنسية أن مراد باي كان تركيا وهو ما يتعارض مع الفكرة الأولى.

وحتى نصل إلى مصادر أقرب إلى الفترة المدروسة فإن الموضوع يبقى بحاجة إلى دراسة وتمحيص من طرف الباحثين، ويبقى اعتمادنا شبه كلي على العنتري وابن العطار المتفقين على أن أسرة فرحات، التي توارثت الحكم بقسنطينة لفترة طويلة (1057-1124هـ/1647-1713م) كانت أسرة عربية.

بعد اختيار فرحات باي، حسب العنتري، حاكما على قسنطينة من قبل سكان المدينة وتزكية باشا الجزائر لذلك، بدأ الحكم الرسمي للعثمانيين بقسنطينة وذلك عن طريق أسرة عربية توارثت حكم البايلك أكثر من نصف قرن. وقد استطاع هذا الباي العربي بمساعدة أسرة الفكون أن يوسع نفوذ الحكم العثماني

---

[1] العنتري: الفريدة المؤنسة، ص 8.

[2] الباي الذي خلع بعد ثورة أحمد بن السخري سنة 1638م.

[3] أنظر، Vayssette: op.cit, p114, et Féraud: le Sahara…,op.cit, p372.

بأرياف البايلك، إذ يقول العنتري أن مجلس المدينة انعقد بزعامة الشيخ الفكون وتم، في اجتماع طارئ عقد بالمدينة، إقناع شيوخ القبائل بقبول الحكم العثماني وفعلا خضع الجميع لقرار المجلس و "لم يبق واحد من الرعية إلا ودخل الطاعة".[1]

بعد فرحات تولى الحكم ابنه محمد (1063هـ/1653م)، إلا أنه عزل سنة (1077هـ /1666م) ليتولى الحكم عمه رجب باي الذي عمد إلى تمتين علاقته بأسرة بوعكاز الذواودة، شيوخ عرب الصحراء، فزوج ابنته "أم هاني" الشهيرة[2] إلى "القيدوم بن السخري"[3] بوعكاز شيخ العرب، إلا أن باشا الجزائر سرعان ما شك في اخلاصه فعزله ثم قتله بتهمة محاولة الاتحاد مع أصهاره، حكام الصحراء، والاستقلال عن السلطة المركزية بالجزائر وعين مكانه خيرالدين باي سنة (1083هـ /1672م)، وكان حسب صالح العنتري دائما، من العرب أيضا.[4]

وبعد خيرالدين ولي أول تركي على البايلك وهو "دالي باي" وذلك سنة (1087هـ/1676م)، إلا أن الأهالي ثاروا ضده لسوء سياسته واشتكوه إلى الباشا الذي أمر بقتله وإعادة الحكم من جديد إلى العناصر العربية، فتولى الحكم علي خوجة ابن فرحات باي ثم أخوه أحمد خوجة وذلك سنة (1112هـ/1700م)، لكنه قتل سنة (1114هـ/1702م) ليولى مكانه إبراهيم باي العلج، الذي يقول عنه فايسات *Vayssette*[5] أنه من أسرة قسنطينية عريقة

---

[1] العنتري (صالح): الفريدة المؤنسة، ص 8.

[2] حول هذه البطلة أنظر الفصل الثالث من الكتاب.

[3] Mouloud Gaid: chronique des beys, p28.

[4] العنتري (صالح): الفريدة المؤنسة، ص 10.

[5] Vayssette: op.cit, p130.

وهي أسرة ابن الأبيض تولى البايلكية بعد اعتناقه للإسلام،[1] أما العنتري فلم يذكر شيئا عن نسبه وإنما أكد على أن العثمانيين في هذه الفترة كانوا قد اعتمدوا بالإضافة إلى أسرة فرحات على عناصر عربية أخرى منها حمودة باي الذي قال عنه: "وهو عربي من أهل البلد" تولى الحكم سنة (1119هـ/1707م)، وعلي باي بن حمودة "وهو عربي أيضا"،[2] ثم عبد الرحمن باي بن فرحات سنة (1122هـ/1710م)، وبه ينتهي عهد البايات العرب بقسنطينة؛ إذ ولي بعد هذا الباي التركي حسن **دنجليز** على قسنطينة، وقد علل أحمد بن المبارك بن العطار تخلي العثمانيين عن العناصر العربية بقوله: "وكانت ولاية قسنطينة لأولاد فرحات باي منهم علي خوجة المتقدم الذكر وغيره يتوارثونها بينهم ولما ظهر عجزهم وضعفهم عن مقاومة العربان وأهل الوطن (أهل الريف) جاء حاكم تركي من عسكر الجزائر يقال له كلياني"،[3] أما فايسات *Vayssette* فيرجع ذلك إلى تخوف العثمانيين من استقلال العرب عن الباشا بالجزائر وتكوين دولة محلية بشرق البلاد.[4] وفي اعتقادي أن لكلا الرأيين جانبا كبيرا من الحقيقة، ذلك أن العثمانيين قد استغلوا ضعف آخر البايات العرب لتحكيم قبضتهم على المنطقة.

[1] لم تتطرق المراجع إلى أصول هذا الباي ولا أسرة ابن الأبيض وإنما اكتفت بالقول أنها أسرة قسنطينية ولعلها أسرة عربية كانت تعتنق اليهودية قبل العهد العثماني ثم اعتنقت الإسلام، ومما أورده الباحث"فيرو" عن هذه الأسرة قوله أن أول قائد لقبيلة الزمول كان يدعى محمد بن الأبيض الذي كان يشغل هذه القبيلة لحسابه الخاص بمنطقة الخروب قبل أن يدخل تحت نفوذ باي قسنطينة قليان حسين سنة 1125هـ/1717م، وهذا يعني أنها أسرة عربية. أنظر، Féraud: Les Zmoul, R.S.A.C. 1869, p41

[2] العنتري (صالح): الفريدة المؤنسة، ص ص 13-14.

[3] ابن العطار(أحمد)، المصدر السابق ص.58.

[4] Vayssette: op.cit, p.139.

وقد استمر احتكار العنصر التركي لمنصب الباي حتى نهاية العهد العثماني، باستثناء حكم 4 بايات كانوا من الكراغلة.[1] إلا أن احتكار هؤلاء لمنصب الباي لم يكن يعني القضاء على القوانين المحلية، إذ كان الباي رغم حريته شبه المطلقة في حكم بايلكه، مقيدا بأمرين:

1. وجوب احترام عادات وتقاليد الرعية، والتي كانت تحمل نفس قوة القوانين الرسمية للدولة، فلم يكن يسمح لأي باي مهما كانت قوته المساس بها، وأي خرق من طرف الباي لها كان يؤدي إلى عزله أو قتله من طرف باشا الجزائر.
2. عدم السماح بإعلان الحرب ضد جيرانه أو التدخل في الصحراء دون استشارة الباشا.[2]

وبذلك يمكن الخروج بنتيجة واحدة وهي أن أكبر منصب ببايلك قسنطينة كان في بداية العهد العثماني محتكرا من طرف العناصر المحلية وأن الحكام العثمانيين لم يتدخلوا بالقوة لإحداث تغيير جذري بإدارة البايلك بل توخوا سياسة لينة للاستيلاء التدريجي على الحكم. كما أنهم، كسبا لولاء الرعية، جعلوا من القوانين العرفية المحلية قوانين موازية لقوانين الدولة يحتم على الباي احترامها.

2°. الخليفة:

يأتي الخليفة في المرتبة الثانية بعد الباي في الهرم الإداري للبايلك، ومن مهامه نيابة الباي في حكم البايلك وحمل الدنوش[3] إلى الباشا بالجزائر، وذلك

---

[1] يذكر الدكتور عبد الجليل التميمي في أطروحته حول بايلك قسنطينة في عهد الحاج أحمد أن هذا الأخير كان الكرغلي الوحيد الذي تولى منصب الباي في قسنطينة. أنظر، Temimi (A): le beylik de Constantine et Hadj Ahmed 1830-1837, R.H.M, Tunis, 1978, p55.
إلا أن صالح العنتري يشير إلى أن كلا من حسين باي بن صالح باي وحسين بن بوحنك وعصمان باي والحاج أحمد باي كانوا من الكراغلة. أنظر، الفريدة المؤنسة، ص ص ص 36-41-52.

[2] A.M.G, H 228, op.cit, pp1-2.

[3] **الدنوش**: كلمة أعجمية تعني ضريبة الباشا وهي نوعان الدنوش الكبير ويحمله الباي بنفسه كل ثلاث سنوات إلى عاصمة الإيالة والدنوش الصغير ويحمله خليفة الباي كل ستة أشهر.

كل ستة اشهر، وقيادة المحلة عند جباية الضرائب من القبائل التابعة لإدارته، ويختار الخليفة عادة من بين الأتراك والكراغلة المقربين من الباي، وفي أغلب الأحيان يكون صهرا له. ومعنى ذلك أن الوظيفة كانت محتكرة من طرف العنصر التركي أو الكرغلي، إلا أن هذا اللقب أطلق على شيخ الإسلام محمد الفكون، في إحدى الوثائق التي نشرها الباحث *(E) Mercier* بالمجلة الأثرية لقسنطينة *(R.S.A.C)*، ولا ندري أكان ذلك مجرد لقب شرفي للشيخ أم أن الشيخ مارس فعلا مهمة الخليفة في عهد عبد الرحمن باي المذكور بالوثيقة.[1]

ومهما كان احتكار الأتراك لهذه الوظيفة فإن للأهالي والقوانين المحلية نفوذا كبيرا عليها؛ إذ كان، حسب ما جاء به حمدان بن عثمان خوجة، يشترط على الخليفة أن يكون "صهرا لشيوخ العرب ومطلعا كل الاطلاع على العادات والتقاليد المحلية"،[2] وذلك حتى يكون مسؤولا أمام السلطة المركزية على احترامها، وهذا يعني وجوب ارتباط الخليفة، مهما كان أصله، بالأهالي وقوانينهم العرفية.

3°. قائد الدار: وهو المراقب الرئيسي لجميع الطوائف الحرفية بالمدينة، وهي تتجاوز 30 طائفة بقسنطينة،[3] وهو بمثابة رئيس البلدية حاليا، كما كان المسؤول عن شرطة المدينة ويترأس عددا كبيرا من الموظفين الصغار، مثل قائد السوق، قائد الباب، قائد القصبة وغيرهم.[4]

وقد تعاقب على هذه الوظيفة عدد من العناصر العربية والتركية، إلا أن أهم من تداول على المنصب هم أبناء أسرة ابن الأبيض، التي احتلت المنصب،

---

1 الوثيقة مؤرخة في (1 رمضان 1105هـ/20 أفريل 1694م). أنظر،
Mercier (E): Abd erahmen bey de Constantine en 1694, R.S.A.C, 1876, p 429.

2 حمدان بن عثمان خوجة: المصدر السابق، ص 138.

3 نفس المصدر، ص 32، أما فايسات (*Vayssette*) فيقول أنها 20 طائفة. أنظر، Vayssette: op.cit, p14.

4 A.M.G, H 228, op.cit.

حسب الباحث "فيرو"، منذ سنة (1168هـ/1755م)، تاريخ انسحاب قائد الزمول، ابن محمد بن عمر بن الأبيض من الخروب إلى قسنطينة، حيث قلده الباي "حسين زرق عينو" المنصب،[1] لتبقى هذه الوظيفة منذ ذلك الحين وراثية في أبنائه وأحفاده (أولاد ابن الأبيض) حتى بداية القرن التاسع عشر الميلادي،[2] تاريخ استيلاء أسرة ابن البجاوي على المنصب، وهي أسرة محلية أيضا، من أصول بجاوية،[3] وقد استمر بقاؤها في هذا المنصب[4] حتى نهاية الحكم العثماني بالبايلك.

4°. منصب شيخ البلد: وهو منصب يوازي وظيفة قائد الدار، احتكرته منذ بداية الحكم العثماني أسرة محلية هي أسرة الفكون، وقد كان شيخ البلد يشارك قائد الدار في الاشراف على شؤون المدينة، وهما المسؤولان على أمنها وسلامة سكانها في غياب الباي، وهو ما أكده الشخصان عند هجوم الثائر ابن الأحرش على المدينة سنة (1218هـ/1804م)؛ إذ تزعم الرجلان المقاومة واستطاعا الصمود أمام الثائر وهزيمته، في غياب الباي عصمان، الذي كان في حملة لجمع الضرائب بنواحي سطيف.[5]

أما الفرق بين الوظيفتين فيمكن تلخيصه في أن قائد الدار كان موظفا إداريا رسميا ملزما بتطبيق القوانين الإدارية في حين كان شيخ البلد يشرف إشرافا أدبيا على أمور المدينة عامة، كالإشراف على حسن تطبيق جباية

---

1 Feraud (ch): les Zmoul, op.cit, p41 et suit

2 Ibid, p50.

3 A.O.M , 1H9, (M. Martin, op.cit), p24.

4 الحقيقة أن منصب قائد الدار، كغيره من المناصب التي كان يتكون منها ديوان الباي، كثيرا ما انتقلت من شخص إلى آخر، وذلك كلما تغير الباي وجاء مكانه آخر أنظر.Vayssette: op.cit, p249 et suit

5 أنظر، العنتري (صالح): مجاعات قسنطينة، تحقيق: رابح بونار، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1974، ص30، والفريدة المؤنسة، ص ص 42-43.

الضرائب من التجار والحرفيين والمشاركة في الاجتماعات التي كان يدعو إليها نقيب الأشراف عادة كلما طرأ طارئ بالمدينة.[1]

5°. نقيب الإشراف: وهي وظيفة خاصة بأبناء البلد؛ إذ كان صاحبها يمثل أشراف المدينة، ويتمتع بمركز هام لدى الحكام العثمانيين، لنسبه الشريف، يفوق مركز قائد الدار، ومهمته مناقشة مشاكل سكان المدينة وإيجاد حلول لها في اجتماعات كان يدعو إليها مجلس المدينة الذي يجتمع عادة في بيته.[2]

6°. الباش كاتب: ومن بين أهم المناصب المخزنية التي احتكرها الأسر المحلية بمدينة قسنطينة أيضا، منصب الباش كاتب، وهو رئيس الكتاب بديوان الباي وأمين سره. وقد ظل في بداية الحكم العثماني في يد أسرة ابن جلول، وهي أسرة قسنطينية عربية تعود أصولها إلى فاس بالمغرب الأقصى، اعتنق مؤسسها "عباس بن علي جلول"[3] المذهب الحنفي وتقرب من الباي حسين بن محمد بوقمية (1125هـ/1713م) إلى أن نال هذه الوظيفة[4] التي توارثها أبناؤه وأحفاده من بعده[5] قبل أن يتحولوا، في نهاية الحكم العثماني، إلى القضاء الحنفي

---

1 حمدان بن عثمان خوجة: المصدر السابق، ص 125.

2 نفس المصدر، ص 94.

3 يقول عنه فايسات *Vayssette* أنه كان صديقا للرحالة الفرنسي بايسونال (*Peyssonnel*) وهو، حسب رواية حفيده مصطفى بن جلول، قاضي الحنفية بقسنطينة أيام دخول الفرنسيين المدينة،الذي بنى مسجد سوق الغزل سنة (1143هـ/1730م) من ماله الخاص إلا أن الباي حسين شطب اسمه ونسب المسجد لنفسه. أنظر، Vayssette,opcit,p.155

4 A.O.M, 1 H 9, M. Martin op.cit.

5 Féraud (ch): un vœux de Hussein bey, R.A, 1863, p85.

في مدينة قسنطينة وتتحول الوظيفة إلى يد أسرة عربية أخرى هي أسرة العنتري.[1]

هذا بالنسبة للوظائف الأساسية بالمدينة، أما بقية الوظائف فكانت تقلد تارة للأتراك العثمانيين وأخرى للعرب دون تمييز عنصري، بل حسب ميول الباي نفسه، ومن هذه الوظائف نذكر:

1°. وظيفة الباش سيار (رئيس سعاة البريد): تداول عليها عدد من الأسر المحلية منها أسرة ابن نعمون[2] وأسرة ابن زكري ذات الأصول الأندلسية، وقد

---

[1] تولى المنصب كل من أحمد العنتري في عهد صالح باي، ومحمد العنتري في عهد الحاج أحمد باي. أنظر، سعد الله (أبو القاسم): رسالة العنتري القسنطيني إلى المترجم فيرو، مجلة الدراسات التاريخية، جامعة الجزائر، عدد:01، 1986 ص 101.

[2] اختلفت المصادر حول تحديد أصول هذه الأسرة، فمنها ما يرجعها إلى العنصر التركي ومنها ما يشير إلى أصولها المحلية، فقد جاء في سجل قائد البلاد بأرشيف ولاية قسنطينة، أن هذه الأسرة تنتمي إلى سلالة أحد بايات قسنطينة، ولعله محمد بن نعمان، الذي يقول عنه العنتري أنه تركي. أنظر، الفريدة المؤنسة ص 42، والذي ورد اسمه في عقد زواج الحاج أحمد باي بهذا الشكل "السيد محمد نعمون باي". أنظر، سجلات العدول بأرشيف ولاية قسنطينة سنة 1226هـ/1811م). ومما جاء في سجل قائد البلاد ما يلي: "12 سبتمبر 1848م: السماح بدفن لالة موني بزاوية ابن نعمون وهذا الامتياز يمنح لها لأنها من أسرة بايات المدينة ... فهي ابنة أخ الباي السابق، وقد سمح لأسرتها بدفنها بجانب أجدادها بزاوية ابن نعمون. أنظر:
Le Registre du Gaid el bled de Constantine, Analyse des arrétés pris par le Gaid el bled M. Megnaoua cherif, Cne1929, p15.
أما شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، صهر الأسرة، فإنه لم يذكر في مخطوطه "منشور الهداية" أن أصهار أسرته من أصل تركي بل اكتفى بالقول: "وهم دار عافية ومن بيتات قسنطينة وشهرتهم في أسلافهم بنسل الصالح سيدي نعمون..." أنظر، نفس المصدر، ص 80. أما ما يوحي بأن الأسرة ذات أصول عربية هو ما ذكره أحد أفراد الأسرة مقرونا بلقب "الشابي" عرفة بن نعمون الشابي"، نفس المصدر، ص 168. كما يقول أن جد عبد الله بن نعمون كان قد التقى بأبي زكريا يحي الفكون (ت 1534/940م) وأن هذا الأخير ولاه امامة المسجد الكبير مكانة قبل أن يسافر إلى تونس، أي أن وجود الأسرة بقسنطينة كان سابقا لوجود البايات بها (أنظر نفس المصدر، ص81).

لعب الباش سيار "أحمد بن زكري" بفضل مركزه هذا، دورا سياسيا هاما في عهد "صالح باي" وكان سببا في إنهاء النزاع الحاد الذي نشب بين اصهاره شيوخ العرب (بوعكاز) والحكم المركزي بقسنطينة.[1] ومن مهام الباش سيار، زيادة على نقل البريد بين الإدارة المركزية وباقي المناطق الإدارية بالبايلك، تمثيل الباي في المفاوضات بين قسنطينة وتونس ولدى باشا الجزائر، وتشير المراجع إلى أن أحد أفراد أسرة ابن زكري كان قد أنزل بواسطة الحبال من أعلى أسوار مدينة قسنطينة مع فرسه (حليليفة)، أثناء حصار مراد باي تونس للمدينة، وذلك لإيصال رسالة الباي إلى باشا الجزائر لطلب النجدة، وقد قام بمهمته على أكمل وجه.[2]

2°. أمين السكة: وهو مسؤول خزينة البايلك، وقد تقلد هذه الوظيفة عدد من الموظفين من بينهم "أحمد بن نعمون" في عهد الحاج أحمد آخر بايات قسنطينة، ويبدو أن أبناء أسرة ابن نعمون كانوا قد تقلدوا هذه الوظيفة منذ بداية العهد العثماني إذ جاء في مخطوط "منشور الهداية" أن عبد الله بن نعمون "كان شاهد بيت ماله (الباي محمد بن فرحات 994هـ/1588م) ومجابيها على يده مع استعماله في شهادات يستعين بها على أمور رعيته"[3]

3°. باشا مكاحلي: وهو رئيس قصر السلطان، وقد تولت هذا المنصب أسرة ابن البجاوي في فترات متقطعة من الحكم العثماني، منذ بدايته حتى عهد الحاج أحمد تاريخ ارتقاء الأسرة إلى منصب قائد الدار.

[1] Feraud (ch): "Notes historiques de constantine (les Beni Djelleb)" ,in R.A.1880, p.113-114.

[2] A.O.M 1H 9 (M. Martin , Op.cit).

[3] عبد الكريم الفكون: المصدر السابق، ص211.

وهناك عدد كبير من الوظائف المخزنية لا مجال لذكرها في هذا السياق[1] والتي تقلد معظمها عرب من أهل المدينة، علاوة على الوظائف الدينية والقضائية، التي سيطر عليها العرب مثل أسرة الفكون التي كان شيخها، شيخ الإسلام، يعتبر الزعيم الروحي لمدينة قسنطينة،[2] والشيخ "يحي بن سليمان الأوراسي"، الذي قال عنه عبد الكريم الفكون أنه: "كان مخالطا لدار الإمارة يعتقدون فيه الصلاح ولا يقطعون دونه أمرا في كل مهامهم..."[3] وكذلك أسرة إبن باديس وأسرة الكماد وأسرة المسبح وغيرها من الأسر التي سيطرت على الحياة الدينية والقضائية والثقافية بالمدينة.[4]

مما سبق عرضه يمكن تصور مكانة الأسر المحلية الحضرية في إدارة شؤون مدينة قسنطينة، في ظل الحكم العثماني، وذلك منذ بدايته حتى فترة حكم الحاج أحمد آخر بايات قسنطينة، الذي حول إدارة المدينة إلى يد العناصر العربية، وقضى نهائيا على سيطرة العنصر التركي على الحكم بالمدينة،[5] بإنشائه مجلس يتكون من القاضيين الحنفي والمالكي والمفتيين والعدول والموظفين السامين، الذين أصبح جلهم من العناصر المحلية، وشيوخ القبائل وكبار رجال البلد، وكان الباي لا يتخذ أي قرار دون استشارة أعضاء المجلس،[6] وقد التجأ الباي إلى هذه السياسة لعدة أسباب أهمها:

- خيانة العناصر التركية له والثورة عليه.
- حالة الحصار الذي فرضته فرنسا على البايلك إثر احتلالها للجزائر.

---

[1] للمزيد من الإطلاع على هذه الوظائف أنظر، A.K.G. H 228, Op.cit, pp1 – 9 وسيساوي (أحمد): المرجع السابق، ص 43 وما بعدها.

[2] عن أهمية هذه الشخصية أنظر العنتري (صالح): الفريدة المؤنسة.

[3] عبد الكريم الفكون: المصدر السابق، ص 54.

[4] أنظر نفس المصدر، ص 68 وما بعدها، وسعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 393 وما بعدها.

[5] Temimi (A): op.cit , p 63et suit.

[6] Ibid, pp64-65.

• أنه كرغلي وكان أخواله، من أسرة إبن قانة، أقوى سند له في حكمه بعد خيانة العناصر التركية له.

وتحسبا لأية خيانة من أتباعه، جمع الباي أهم الوظائف في الشخص الذي كان يثق في إخلاصه وهو القائد المحلي "علي بن عيسى"[1] فولاه منصب الخليفة والخزناجي المكلف بضرب السكة والباشحمية، الذي كان يشرف على جباية الضرائب من الساحل وفي نفس الوقت كان من أبرز قادته العسكريين.[2]

الإدارة في الريف:

مثلما سيطرت العناصر المحلية على الوظائف الإدارية بمدينة قسنطينة، وهي نمودج لبقية مدن البايلك، سيطر شيوخ القبائل والأسر المحلية الحاكمة على الإدارة بالريف فكيف كان ذلك؟

قبل التعرف على أهم شيوخ الأسر المسيطرة على أرياف بايلك قسنطينة وكيفية تسيرهم لها، نشير في البداية إلى كيفية تقسيم الريف القسنطيني. قسمت أرياف بايلك قسنطينة إداريا، حسب التقارير الفرنسية[3] على أربع مناطق كبرى حسب موقعها من عاصمة البايلك وهي:

1. **المنطقة الشرقية:** وتضم المناطق الواقعة بين قسنطينة والحدود التونسية وتسيطر عليها قبائل قوية أهمها عامر الشراقة، وادي الزناتي، أولاد يحي بوطالب، الحنانشة، ويتكون الحنانشة من الشعامبة، أولاد علي وتيفش في حين يتكون النمامشة من العمامرة والمعاضلة وتربطهم أحلاف مع الحنانشة بزعامة أسرة أحرار الحنانشة.[4]

---

[1] **علي بن عيسى:** أحد أبرز القادة العسكريين في عهد الحاج أحمد وهو من قبيلة بني فوقال البربرية. أنظر: A.O M 1H9, op.cit

[2] A.M.G , H 228, Op.cit, pp8-9.

[3] A.M.G, H 228, Idem, p10 et suit .

[4] Féraud (ch): Les Amamra , "In R.S.A.C.1868, p231,"

2. **المنطقة الغربية**: من قسنطينة إلى سلسلة جبال البابور والبيبان وأهم قبائلها من الجنوب إلى الشمال: التلاغمة، أولاد عبد النور، العلمة، عامر الغرابة ومجانة ويسكنها أولاد عياد وأولاد خلوف وهاشم ويخضع جميعها لأسرة المقراني الحاكمة.

3. **المنطقة الشمالية**: وتضم الجبال الممتدة على طول الساحل من عنابة شرقا إلى بجاية غربا بعمق 60 إلى 72 كلم وتسكنها قبائل مستقلة أهمها: زواغة ، فرجيوة، وساحل البابور، ومعظم هذه القبائل كانت مستقلة من الحكم العثماني فلا تدفع الضرائب للسلطة المركزية إلا عن طريق القوة، كما أن الباي لم يكن يرسل إليها ممثلا إداريا عنه[1] عكس بقية المناطق

4. **المنطقة الجنوبية**: ومعظمها صحراء تسكنها 11 قبيلة من الرحل تقضي شتاءها بالصحراء وصيفها بالتل، بالإضافة إلى قبائل جبلية، من أهمها: الزمول، السقنية، الحراكتة بالأوراس، وأولاد سلام بمنطقة بلزمة وأولاد سحنون وكانت الأسرة الحاكمة بالمنطقة هي أسرة بوعكاز الذواودة التي سيطرت على مشيخة العرب في العهد العثماني إلى جانب أسرة بني جلاب بتقرت وما جاورها، وقد أُعتبرت هذه المدينة أقصى حدود البايلك الجنوبية لأن وادي سوف مثلا بالشرق وكذلك ورقلة بالغرب، لم يكن النفوذ العثماني يصل إليها إلا في حالة شن الحملات العسكرية عليها لجمع الضرائب أو ملاحقة بعض القبائل المتمردة.

والحقيقة أن المناطق التي تقع ضمن الحدود المذكورة للبايلك كانت نفسها لا تخضع جميعا وبنفس الدرجة للإدارة المركزية للبايلك، بل هناك مناطق تخضع مباشرة لهذه الإدارة وهي المناطق التي تقع في دائرة 12 إلى 14 كلم من قسنطينة أو الواقعة قرب أبراج الحاميات التركية المنتشرة ببعض المناطق الإستراتيجية بالأرياف، أما المناطق النائية كالجبال والصحاري فكانت في معظمها لا تخضع

[1] A.M.G, H 228, Op.cit, p12.

إلا لإدارة شيوخ القبائل الحاكمة والمسيطرة عليها، وقد كان هؤلاء الشيوخ يتمتعون بحرية شبه مطلقة في إدارة مناطق نفوذهم.[1]

والمجتمع الريفي ببايلك قسنطينة، حسبما أورده الرحالة الفرنسي "*Peyssonnel*" ينقسم: "إلى عدد كبير من القبائل المكونة من عدد من الأسر التي تنتمي إلى أصل واحد وهذه الأسر تشكل قرى صغيرة تسمى الدواوير وكل دوار يتكون من 8 إلى 10 خيام تقريبا وكل خيمة تأوي أسرة واحدة ولكل قبيلة من القبائل شيخ يحكمها ولكل دوار شيخ أقل درجة من الأول، وكان الشيخ عادة أكبر أفراد القبيلة سنا وحكمة وهو الأمير والقائد ويساعده في تسيير شؤون القبيلة طالب أو كاتب وباش مكاحلي (رئيس الحرس) وزمالة (فرقة عسكرية) يفرض عن طريقها قوانين القبيلة."[2] ويقع تحت أمرة شيخ القبيلة القوية عادة، عدد من شيوخ القبائل الأصغر وتكون المشيخة وراثية في أسرة واحدة وهو ما ينطبق على الأسر التي عرفناها بــــ "الأسر المحلية الحاكمة".

وإذا كانت إدارة المدينة معقدة وموظفوها كثيرين ومهامهم محددة، فإن إدارة الريف كانت تتسم بالبساطة، إذ رغم ربط الريف رسميا بالسلطة المركزية بقسنطينة وإخضاعه لرقابة قادة تابعين للحكم المركزي فإن هذه الأرياف بقيت تخضع بصفة عملية لسلطة شيوخ القبائل الذين توارثوا حكمها منذ عهد الحفصيين، وإن حاول البايات العثمانيون بقسنطينة إثبات سلطتهم عليهم بإرسال قفطان التعيين إلى شيوخ المرشحين من طرف جماعة القبيلة أو الذين يقترحهم أو يعينهم قائد الوطن سواء كان تركيا أو عربيا، أما أهم الشيوخ الذين أبقت السلطة العثمانية على حكمهم فهم:

---

[1] يقول الرحالة الفرنسي "*Peyssonnel*" أن شيوخ المناطق النائية كانوا مستقلين في إدارتهم عن أي تدخل من الباي والقادة العثمانيين في حين كانت مهمة شيوخ المناطق الواقعة في إدارة سلطة الباي قضائية أكثر منها إدارية. أنظر: Peyssonnel: Op.cit, T1, p211.

[2] Ibid, p212.

1°. **شيخ الحنانشــــة**: وهو كما أسلفنا من أسرة أحرار الحنانشة ويعتبر حارسا للحدود الشرقية للبايلك والمشرف على أمن الطريق الرابط بين قسنطينة وتونس نظرا لمرور هذا الطريق بمنطقة نفوذه، وبحكم أهمية هذه المنطقة اكتسب شيخ الحنانشة لدى الحكام العثمانيين، مكانة هامة ونال العديد من الامتيازات جعلته قريبا من مرتبة الباي أو مساويا لها، فقد منح الشيخ، كما سبق ذكره، حق ارتداء قفطان الباي تعبيرا عن اعتراف السلطة المركزية بحكمه ومساواته مع الباي[1] أمام سلطة الباشا بالجزائر، كما خول له حق استعمال الطابع الذهبي، على غرار الباي، وقرع الطبول ورفع أعلام الخاصة أثناء سير حاميته، كما كان جوق الباي يرفقه من قصر الباي حتى مقر إقامته بعاصمة البايلك كلما حضر لتقديم ما على قبيلته من ضرائب وكل هذه الأمور كانت، عادة، حكرا على الباي وحده.[2] وفي مقابل هذه الامتيازات كان الشيخ يلتزم بدفع ضريبة سنوية تقدر بـــ 10000 بوجو[3] كرمز لولائه للحكم المركزي بقسنطينة.[4]

وكان شيخ الحنانشة يشرف على إدارة شؤون 16 قبيلة، يسكن القسم الأكبر منها الجبال لأن منطقته كانت جبلية باستثناء سهل تيفش،[5] وتتكون أراضي القبيلة من جبل قلالة دقمة، شرو، سلسلة كاف مسخوط، فزوان، جبل تليس وسلسلة الزعرورية،[6] إلا أن نفوذ شيخ الحنانشة كان يتعدى أراضي

---

[1] كان كل باي جديد يدعو شيوخ الأسر الإقطاعية الكبرى إلى الاجتماع على ضفة وادي الرمال لاستقباله عند وصوله لأول مرة في البايلك وهناك يسلمهم قفطان التعيين كمركز لمشاركتهم له في الحكم. أنظر: gouvion (E): op.cit, p34.

[2] A.M.G, H 228, op.cit, p13.

[3] A.M.G, H 228, Idem, p13.

[4] كان شيخ الحنانشة يدفع الضريبة أحيانا إلى باي تونس وأخرى إلى باي قسنطينة وأحيانا أخرى لا يدفع شيئا لأي منهما. أنظر: Féraud (ch): Les Hrars, op.cit, p346.

[5] تقع أراضي الحنانشة على خط طول 15 و 36 وعرض 30-5 وعاصمتها سوق أهراس. أنظر: تقرير لجنة S.C بالقسم التقني لمسح الأراضي بقسنطينة رقم 138)

[6] نفس المصدر: ص 24.

القبيلة ليشمل كل الجنوب الشرقي من الزيبان حتى نفطة، بالأراضي التونسية، ومعظم سهول قالمة وسوق أهراس حتى تبسة في الوسط الشرقي للبايلك وعدد كبير من القبائل التونسية ويصل نفوذه حتى سهول عنابة بالشمال.[1]

وبما أن شيخ الحنانشة كان يتمتع باستقلال داخلي فإنه كان يترأس مجلس جماعة القبيلة الذي كان يقوم بتعيين أعضاء ديوان القبيلة ولا يمكن للشيخ التصرف في الأمور الهامة، كالحرب، إلا بموافقة هذا الديوان الذي كان يقوم على تنفيذ رغبة الرعية،[2] وكان من أهم واجبات الشيخ تجاه قبيلته هو السهر على تطبيق كل أسرة، داخل القبيلة، لمهامها الاقتصادية والعسكرية والإدارية على أكمل وجه والإشراف على تحركات القبائل الرحل واختيار مضاربها ورعاية مصالحها أثناء الترحال، وفي الأسواق التجارية، أما مهمته تجاه السلطة المركزية فتتمثل أساسا في أمرين يشترك فيهما معظم موظفي الإدارة العثمانية وهما:

1°. جباية الضرائب من القبائل التابعة له.
2°. حفظ الأمن بمنطقة نفوذه.

ولتنفيذ هذه المهام جمع الشيخ فرقا عسكرية تتكون من حرسه الخاص وهو ما يسمى بـــ "فرقة المزارقية"[3] وتتألف من فرسان أسرة أحرار الحنانشة نفسها ومجموعة من الفرسان من مختلف القبائل الخاضعة للأسرة وهي تشبه نوبة البايات،[4] بالإضافة إلى ما يجند من القبائل التابعة له في حالة الحروب، وبما أن

---

[1] لم تكن مناطق نفوذ الشيخ قارة بل كانت بين مد وجزر، من فترة إلى فترة أخرى، وحسب قوة الأسرة وعلاقتها بغيرها من الأسر الحاكمة والسلطة المركزية في تونس وقسنطينة.

[2] Derdour (h'sen): op.cit, p58.

[3] كانت هذه الفرقة تمثل مخزن الشيخ والدائرة المكلفة برعاية خيل القبيلة وتتمثل خاصة في فرسان أسرة الأحرار، وقد أعتبر النبايل وبنو ياحي من أحرار الحنانشة وذلك لمشاركتهم في مخزن الشيخ، وهم أصلا من ايالة تونس. أنظر: Babés Leila , Mythe… ,p251.

[4] Dardour (H'sen): op.cit, p 58.

الشيخ كان يجمع الضرائب باسم العثمانيين مقابل الاستفادة من عشرها 10/1[1] فإن السلطة العثمانية منحته وفرسانه العديد من الامتيازات المادية أهمها الإعفاء من الضرائب أو تخفيفها، كما كانت تدعم فرسان الشيخ بقواتها الخاصة للمشاركة في جمع الضرائب من المناطق النائية، بل هناك من المصادر ما يؤكد على أنه لم يكن يسمح للشيخ بالخروج إلى المناطق المستعصية لجمع الضرائب إلا رفقة الفرق التركية.[2]

أما في ماعدا عملية جمع الضرائب فإن السلطة المركزية لم تكن تتدخل في شؤون القبيلة الداخلية و لم تكن تملي أي شرط على شيخها فيما يخص كيفية إدارة أتباعه، باستثناء مسؤوليته أمامها في قضية أمن المنطقة واستقرار وضع القبائل بها، وهو ما تدلنا عليه رسالة "مصطفى باي الوزناجي" إلى الشيخ "خالد بن نصر" بشأن الاعتداء الذي تعرضت له زاوية قلعة سنان من طرف أولاد بوغانم، وقد شرح الباي للشيخ، بأسلوب مهذب، نوع الاعتداء وذكره بمسؤوليته أمامه على أمن أهل الزاوية لأنهم يقطنون في منطقة نفوذه، ومن الوثيقة المشار إليها يمكن تصور نوعية العلاقة التي كانت تربط شيوخ القبائل والأسر الحاكمة بالسلطة المركزية وهي علاقة تعاون وليست علاقة حاكم آمر ومحكوم منفذ لأوامر الحاكم، والدليل على ذلك توارث أسرة أحرار الحنانشة مشيخة القبيلة؛ إذ تداول على إدارة المنطقة العديد[3] من شيوخ الأسرة بفرعيها، فرع الابن البكر (ناصر) وفرع الابن الأصغر (منصر)، وكثيرا ما كان يتقاسم المشيخة شيخان من الفرعين في فترة واحدة وفي مناطق مختلفة، أما أبرز هؤلاء الشيوخ، في الفترة المدروسة فهما الشيخان خالد الصغير الذي تزعم ثورة

---

1 Féraud (ch): Les hrars…, op.cit, p 205.

2 A.M.G, H 228, Op.cit, p13.

3 عدد شيوخ الأسرة المتعاقبين على المشيخة كان، حسب شجرة نسب الأسرة، 25 شيخا خلال الفترة العثمانية.

(1046هـ/1637م)، والشيخ "بوعزيز بن نصر" الذي سيطر على السياسة العامة بشرق البايلك وكان له الدور الأكبر في قلب نظام الحكم بإيالة تونس.[1]

وقد لعب هذان الرجلان دورا هاما في ازدهار منطقة الحنانشة وتقوية نفوذ ومجد أسرة أحرار الحنانشة، كما حافظا على استقلال الأسرة عن السلطتين بتونس وقسنطينة وكثيرا ما كان يعلنان العصيان ويرفضان دفع ما عليهما من ضرائب، الأمر الذي كان يدفع بالبايات إلى شن الحملات العسكرية ضدهما، وهو ما حدث سنة 1136هـ /1724م أثناء فترة حكم الشيخ "بوعزيز بن نصر"، إذ هاجم كل من باي تونس وباي قسنطينة مضارب الشيخ واستطاعا هزيمته والاستيلاء على مواشيه وأمواله، وهي الواقعة التي نقل لنا الرحالة "*Peyssonnel*" صورا عنها وأشاد فيها ببطولة الفتاة "علجية ابنة بوعزيز بن نصر" التي حولت هزيمة والدها وقبيلته إلى نصر.[2]

ومن هنا يمكن القول أن شيوخ أحرار الحنانشة كانوا يتمتعون باستقلال إداري تام عن سلطة الباي بقسنطينة، فهل هذا يعني أن هؤلاء كانوا على قدم المساواة مع البايات من الناحية السياسية والإدارية بالبايلك؟

لاشك أن المساواة بين الطرفين أمام السلطة بالجزائر كانت حقيقة واقعة نسبيا؛ إذ كان الشيوخ يتصرفون في أمور رعيتهم بكل حرية وكأي حاكم مستقل ولهم جيوش خاصة تأتمر بأوامرهم وحكم وراثي وأتباع من قبائل المنطقة يخضعون لهم تلقائيا ويعتبرونهم حكامهم الأصليين والشرعيين المدافعين عن مصالحهم أمام الحكم العثماني، ولا يأتمرون إلا بأمرهم ولا يعترفون بسلطة البايات إلا إتباعا لسياسة شيوخهم وطاعة لأوامرهم، وهو ما أثبته هذه القبائل أثناء التفافها الجماعي حول شيخها "خالد بن نصر" في ثورة(1046هـ/1637م)،

---

[1] أنظر الفصل الثالث من الكتاب.

[2] للتعرف على هذه الواقعة ودور الفتاة علجية فيها أنظر: Peyssonnel: Op.cit, T1, pp292-295.

وغيرها من الثورات التي كان الشيوخ يعلنوها كلما تدخل البايات في شؤونهم الداخلية، كما أن لقب "السلطان" الذي أطلقه الرحالة الأجانب، أمثال *shaw* و *Peyssonnel* على شيخ الحنانشة يدل دلالة واضحة على استقلال حكمه[1]، كما يدل على أن الوفاق الذي كان يطبع علاقة البايات بهؤلاء الشيوخ لم يكن إلا نوعا من التحالف والتعاون بين الطرفين لتسيير شؤون الرعية، وبما أن البايات كانوا في حاجة ماسة لمساعدة شيوخ الحنانشة فإنهم كانوا يعملون على المحافظة على هذا التحالف الذي كان مهددا بالنقض كلما تعرض استقلال هؤلاء إلى التهديد، فتقربوا من أسرة الأحرار عن طريق المصاهرة[2] أو الامتيازات المادية المختلفة.

2°. شيـــخ العرب: وهو زعيم عرب الصحراء الرحل، كان يحكم جميع قبائل الأوراس من بلزمة حتى منطقة سيدي ناجي، ويمتد نفوذه إلى بلاد سوف، حدود الصحراء الكبرى وإلى الغرب حتى ورقلة، وقد توارث هذا المنصب أبناء أسرة بوعكاز الذواودة، وذلك طوال فترة الحكم العثماني قبل أن تنافسها فيه أسرة إبن قانة أخوال الحاج أحمد آخر بايات قسنطينة، في الفترة الأخيرة من الحكم العثماني، إلا أن نفوذ أسرة بوعكاز ظل أوسع وأكثر قوة[3] من نفوذ أسرة إبن قانة.

فقد كان نفوذ الشيخ "السخري بن يعقوب بن علي بوعكاز" (1481م) آخر زعماء الأسرة في العهد الحفصي يشمل معظم المناطق الصحراوية ويصل حتى سهول قسنطينة واستمر الوضع كذلك في بداية العهد العثماني حيث أصبح ثلث 3/1 بايلك قسنطينة، خاضعا لنفوذ الذواودة[4] الذين كانوا يمثلون الحكام

---

[1] Babés (Leila): Mythe …, pp266-267.

[2] أنظر الفصل الثالث من البحث.

[3] يقول الشيخ بوعزيز بن قانة أن شيخ العرب "علي بوعكاز" تحصل على قفطان التعيين من السلطان العثماني نفسه. أنظر: Bengana (B), op.cit, p 18

[4] القيشاعي فلة: المرجع السابق، ص 235.

الحقيقيين لمعظم أراضي الهضاب والصحراء، حتى الأغواط ووادي ميزاب، وبذلك كونوا حكما مستقلا عاصمته قرية "سيدي خالد" على ضفاف وادي جدي أما مقر شيوخ العرب من أسرة إبن قانة فكان مدينة بسكرة.[1]

تولى أول شيخ للعرب، من أسرة بوعكاز وهو علي بوعكاز بن السخري،[2] المشيخة رسميا سنة (947هـ/1541م)[3] وبذلك ألغي لقب "أمير العرب" الذي كان متداولا في العهد الحفصي ليحل محله لقب "شيخ العرب" وكان قفطان التعيين يصل إلى الشيخ باسم باشا الجزائر عن طريق باي قسنطينة[4] وقد أكدت بعض المراجع[5] على أن شيخ العرب وأسرة بوعكاز عامة كانت من أوفى الأسر المحلية للحكام العثمانيين وأكثرها تعاونا معهم في بداية عهدهم بالمنطقة، الأمر الذي زاد من قوة نفوذ الأسرة واتساعه؛ إذ منح للأسرة، بعد مقتل عبد العزيز العباسي سنة (966هـ/1559م)، جميع المناطق الجنوبية لقسنطينة والتي كانت خاضعة لأسرة المقراني.[6]

ويبدو أن نفوذ شيوخ العرب من أسرة بوعكاز وصل حتى مجانة، عاصمة أولاد مقران، حيث أورد الشيخ خير الدين[7] في مذكراته أن سكان مجانة تحدثوا

---

[1] A.M.G, H228, Op.cit.

[2] حكم في الفترة ما بين 947 و989هـ/1540 و1581م، وقبره، حسب ما جاء في مذكرات الشيخ خير الدين، مازال قائما بمقبرة سيدي مسعود بمدينة العلمة. أنظر: مذكرات الشيخ محمد خير الدين، ص 43.

[3] Babés (Leila): Mythe …, p199.

[4] كان الباي يقوم بارتداء القفطان أولا كدليل على توليه الحكم رسميا ثم يرسله إلى شيخ العرب الذي يقوم بارتدائه ثم إرساله إلى شيخ الحنانشة الذي يرسله بدوره بعد ارتدائه إلى شيخ أولاد مقران ومنه يعود القفطان إلى الباي. أنظر: Gouvion (M) , Opcit , P34

[5] Mouloud Gaid: chronique des beys, p 13.

[6] Mercier (E): histoire de Constantine, p 219.

[7] كان عضوا مؤسسا لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931م، وهو، حسب قوله أحد أحفاد أسرة بوعكاز.

له سنة 1934م عن الذواودة الذين كانوا يحكمون المنطقة أيام العثمانيين، وعن آثار منازلهم الصيفية، ومنها المكان الذي يسمى، حتى ذلك الحين "ذراع السخري" كما تحدثوا له عن إدارة حكم هؤلاء وخزائن كتبهم بمجانة[1] وهو ما يفسر ما جاء في خاتمة إحدى المخطوطات[2] التي قال فيها ناسخها: "تم بحمد الله...على يد... أبي القاسم بن مبارك...الساكن بمجانة...نسخه بيده الفانية للخزانة العلمية العلية، خزانة أميرنا ومولانا أبي عبد الله محمد السخري بن أحمد الشريف بن بوعكاز أيده الله بنصره وأدام حياته حصنا منيعا لأهل طاعته... ووافق تمامه ضحوة يوم الإثنين من شهر صفر عام 19 بعد الألف هجرية (1610م).[3]

هذا ما يدلنا على سعة نفوذ شيخ العرب في الفترة المدروسة أما عن مهمته فهي تنقسم، على غرار مهمة شيخ الحنانشة، إلى قسمين: مهمته تجاه أتباعه وتتمثل في تسيير شؤون معظم القبائل الرحل (11 قبيلة) وقبائل الأوراس،[4] فكان يشرف على عملية ترحالها في الشتاء والصيف، واختيار الأراضي لرعي أغنامها، وحمايتها أثناء الرحلة وعند دخولها الأسواق التي كانت تنعقد على مشارف المدن والقرى لمقايضة السلع بين الرحل وسكان التل والمدن الشمالية للبايلك، وهي عملية كثيرا ما كانت تؤدي إلى تعكير صفو الأمن العام بالمنطقة نتيجة لعمليات السطو التي كان يتعرض لها التجار من طرف القبائل المخزنية.[5]

---

1 خير الدين (أحمد): المرجع السابق، ص 46.

2 عبد الله بن أبي حمزة: جمع النهاية في بدء الغاية.

3 نفس المصدر، عن مقدمة الشيخ المهدي البوعبدلي، محمد بن يوسف الزياني، الثغر الجماني، ص 12.

4 A.M.G, H227, Mémoire du commandant niel, pp1-2.

5 Féraud (ch): le Sahara de Constantine , p202.

وبسبب سعة مناطق نفوذ شيخ العرب[1] وصعوبة مراقبة الوضع بها تحتم تعيين شيخ ثان للعرب، يكون خليفة للشيخ الأول بالأراضي التلية، وينوب عنه في الأشراف على أمور القبائل بالمنطقة عند نزوح شيخ العرب إلى الجنوب، وقد تولى هذا المنصب شيوخ أسرة إبن الحداد من قبيلة عياض التابعة لإدارة شيخ العرب،[2] وبما أن هذا الشيخ كان ينوب شيخ العرب بالتل، ويسمى شيخ عرب التل، فهو مسؤول عن حفظ الأمن بكامل الهضاب ولإنجاز مهمته أخضعت له ثلاث قبائل[3] لها نفس مهام وامتيازات قبائل الدواير المخزنية بالنسبة للحكم المركزي بقسنطينة، إذ كانت تأتمر بأوامر الشيخ لحفظ الأمن وتزود البايلك بفرسان يستعملون لإيصال البريد بين شيخ العرب بالصحراء وشيخ عرب التل وبين هذا الأخير وباي قسنطينة؛ أي أن شيخ التل أصبح واسطة بين شيخ العرب بالصحراء الذي يصعب وصوله إلى عاصمة البايلك والبايات بقسنطينة.[4]

أما مهمة شيخ العرب تجاه الحكم المركزي فكانت تتمثل، كما هو الحال بالنسبة لجميع شيوخ الأسر الحاكمة في حفظ الأمن بمناطق نفوذه من جهة وجباية الضرائب من جهة ثانية، إلى جانب دفعه لضريبة سنوية قدرت في البداية بـــ 20000 بوجو ثم أعفي منها الشيخ في عهد الحاج أحمد آخر بايات قسنطينة لكون شيخ العرب أصبح يعين من بين أخواله (أولاد بن قانة).[5]

وقد أُسندت مهمة شن الحملات العسكرية على القبائل الممتنعة عن دفع الضرائب لشيخ العرب، وكان هذا من مهام خليفة الباي في بداية الحكم

---

[1] يقول بعض الباحثين الفرنسيين أن منطقة نفوذ شيخ العرب كانت تفوق منطقة نفوذ الأتراك العثمانيين.

[2] Féraud (ch): le Sahara de Constantine, p202.

[3] هي أولاد قاسم، دنبار، وبنو إبراهيم.

[4] A.M.G, H228, Op.cit, ppp13-14-15.

[5] A.M.G, H 228, Idem, pp13-14.

العثماني،[1] وبذلك أصبح الشيخ يتمتع بسلطة شبه مطلقة بجنوب البايلك. ولتثبيت حكمه والمحافظة على نفوذه بالصحراء كوّن شيخ العرب قوات هامة من القبائل التابعة له، منها زمالة خاصة، تمثل حرسه الخاص وتتكون من عدد من القبائل منها فنتاسة وعرجان[2] والكعاعمة ونهد وحمير، وقد قدرت هذه القوات بـــ 1000 فارس،[3] بالإضافة إلى الفرسان المكلفين بجمع الضرائب من القبائل المستعصية وحماية الأمن بالبلاد.

وقد وصلت أسرة بوعكاز بفضل بعض شيوخها الأقوياء أمثال الشيخ "أحمد بن علي" (1581م) إلى أوج قوتها، فوصل نفوذها حتى سهول أولاد عبد النور والسقنية التي أصبحت مصيفا لأتباعها،[4] وكان للشيخ مطلق الحرية في التصرف بهذه الأراضي وهو ما يدلنا على قيام الشيخ "أحمد بن علي" بمنح إقطاعات واسعة لعدد من المرابطين بالمنطقة منهم المرابط "سيدي دحو" ويتمثل اقطاعه في ثلث أراضي أولاد سيف ونفس الهبة منحت لأسرة سيدي عيسى وأسرة سيدي سوسة وسيدي سحنون وسيدي زكري.[5]

ومن هنا نتصور مدى استقلالية شيخ العرب وأهمية دوره في إدارة شؤون جنوب البايلك، وقد كان أفراد قبائل المنطقة لا يعترفون بأي سلطة غير سلطة شيوخهم وهو ما برهنوا عنه بالتفافهم جماعيا، حول الشيخ "أحمد بن السخري" عندما أعلن الثورة على الباي مراد سنة 1637م؛[6] إذ كادت هذه الثورة أن تطيح بالحكم العثماني بالبايلك بسبب التفاف جميع القبائل حول شيخ العرب لضرب السلطة المركزية بقسنطينة.

---

[1] A.M.G, H 228, Idem, pp14.15.

[2] قبيلة بفرفار، قرب الزعاطشة.

[3] Féraud (ch): le Sahara de Constantine, p 363.

[4] Mercier (E): Histoire de Constantine , p 249.

[5] Feraud (ch): le Sahara de Constantine, p 363.

[6] حول هذه الثورة، أنظر الفصل الأخير من البحث.

3°. شيخ أولاد مقران: ويعين كما أسلفنا، من بين أبناء أسرة المقراني لحكم منطقة مجانة وبني عباس وما جاورها، وكان الشيخ يتزعم العديد من القبائل بالمنطقة الغربية للبايلك منها قبائل ونوغة وهي تتكون من 15 قبيلة، وأولاد خلوف وأولاد ماضي وقرية دارية ومنصورة سيدي موسى ومزيتة وحمزة (البويرة) وبني منصور، وقبائل بني عباس[1] وهذا يعني سيطرة أولاد مقران على الطريق الرابط بين الجزائر، عاصمة الإيالة وقسنطينة، عاصمة البايلك، وعلى أخطر ممر بين دار السلطان وبايلك الشرق، وهو الممر الذي عرف لدى العثمانيين بإسم "*Damer cappy*" ومعناه أبواب الحديد وعرف عند العامة بـــ "بيبان الحديد".

ولأهمية هذا الممر اكتسب شيخ المنطقة أهمية كبرى لدى الحكام العثمانيين؛ إذ أصبح هؤلاء يكسبون وده ويتقربون منه للمحافظة على علاقة الوفاق التي تربط بينهم حيث أن معاداته تعني قطع الطريق بينهم وبين قسنطينة، وقد أحس أول شيخ لأولاد مقران في الفترة العثمانية وهو عبد العزيز العباسي، بأهمية الممر فاستغله لفرض شروطه على العثمانيين فكان لا يسمح بمرور قواهم إلا بعد دفع ضريبة سنوية[2] عرفت باسم "ضريبة المرور" وأحيانا الوعدة"[3] وقد بقي هذا القانون ساري المفعول طوال الفترة العثمانية، بل فإن المترجم العسكري الفرنسي "فيرو" يقول أن القبائل طالبت القوات الفرنسية سنة 1839م بحقها في هذه الضريبة للسماح لهم بالمرور، إلا أن الفرنسيين رفضوا ذلك، الأمر الذي جعل الشيخ المقراني يدفع هذه الضريبة من أمواله الخاصة.[4]

---

[1] A. M. G, H228, Op.cit, p24.

[2] فرضت الضريبة ابتداء من سنة 960هـــ/53-1554م. أنظر: Peyssonnel: Op.cit, T1

[3] كانت تشمل الأموال النقدية والسلاح واللباس الفاخر والبرانيس الحمراء لأعيان الأسرة ، أما القبائل المكلفة بحراسة الطريق فكانت تمنح لها مبالغ مالية ورؤوس من البقر والأغنام، حددها بعض المراجع بـــ 200 ثور.

[4] Feraud (ch): Bordj Bouariridj, Op.cit, p 240.

وقد أكد الرحالة الفرنسي *Peyssonnel* الذي مر بالمنطقة سنة 1725م، رفقة الحامية التركية باتجاه الجزائر، أن القوات العثمانية كانت تخشى المرور بمضيق البيان المنيع، وأن أفراد الحامية كانوا لا يجرؤون على طلب المأوى ولا المؤونة من قبائل المنطقة، عكس ما كان يحدث بالمناطق السهلية الأخرى، حيث كانت الحامية تفرض على القبائل استضافتها بينهم طوال فترة جباية الضرائب وهو ما أطلق عليه اسم ضريبة الضيفة[1] وكانت تسوم القبائل في هذه الفترة كل أنواع القهر والعذاب.[2] ومما جاء في حديث الرحالة، عن خوف رحال المحلة من بطش أولاد مقران قوله: "اضطررنا للمبيت في العراء، والبقاء تحت الشمس المحرقة دون أن يجرأ أحد من رجال المحلة على طلب الضيافة كما بقينا جائعين دون أن يقترب أحدهم من رأس غنم واحدة من ماشية أتباع السلطان بوزيد المقراني، الذي لم يكن يسمح أبدا بالاعتداء على ممتلكات أتباعه".[3]

ولم يكتف هؤلاء بعدم الاعتداء على قبائل المنطقة بل كانوا ينكسون أعلام المحلة ويتوقفون عن عزف موسيقاها الشرفية حتى خروجهم من منطقة الخطر، وذلك خوفا من إغارة القبائل عليهم[4] كما كانت المحلة تستمر في سيرها السريع دون توقف إلى أن تخرج من الممر فتستبشر خيرا، وقد أوردت بعض المصادر أن السلطات العثمانية بقسنطينة ومدينة الجزائر كانت تقوم بإطلاق

---

[1] **ضريبة الضيفة:** هي ضريبة فرضت على القبائل الخاضعة للبايلك تقدم كل لوازم الضيافة لأفراد الحامية طوال فترة إقامتها بينهم لجباية الضرائب.

[2] حول الأعمال التعسفية والنهب الذي كان رجال المحلة يقومون به تجاه الأهالي، يكفينا دليل واحد عن همجية أعمال المحلة وهو أن كلمة (المحلة) بقيت حتى اليوم في (الجزائر) تعني كل ما يترك الخراب والدمار وراءه.

[3] Pessonnel: Idem, P291.

[4] يقول *Peyssonnel* أن المكان حصين جدا لدرجة أن حفنة من رجال القبائل يمكن أن تهزم جيشا بكامله من الأتراك.

طلقات من المدافع وتقيم الأفراح مباشرة بعد وصول خبر اجتياز المحلة لممر البيان، وذلك تعبيرا عن فرحتها بمرور الحامية بسلام.[1]

كل هذا جعل السلطات العثمانية تسعى للحفاظ على علاقتها الحسنة بشيخ مجانة الذي عرف بحارس البيان[2] فكان بايات قسنطينة يتقربون منه، على غرار سياستهم تجاه بقية شيوخ الأسر الحاكمة بالمصاهرة ومنحه الامتيازات المختلفة منها اعترافهم باستقلال إدارته الداخلية وإعفائه من الضرائب المختلفة عدا ضريبة القفطان التي كان الشيخ يدفعها للباي مقابل القفطان الذي يزكي حكمه وتقدر بـــ 10000 بوجو.[3]

أما مهام شيخ أولاد مقران فلا تختلف عن مهام شيخ العرب وشيخ الحنانشة سواء كان ذلك تجاه رعاياه أو تجاه السلطة المركزية، إلا أن تعامل شيخ أولاد مقران كان في أغلب الأحيان تعامل مباشر مع باشا الجزائر وذلك لقرب منطقة نفوذه من دار السلطان (الجزائر)، أما علاقته ببايات قسنطينة فكانت تمليها الظروف السياسية داخل البايلك من جهة وبمنطقة نفوذ الشيخ من جهة أخرى، إذ لم يكن الباي يتدخل في شؤون شيوخ أسرة المقراني إلا في حالة نشوب نزاع مسلح بينهم[4] أما في حالة هدوء الجو السياسي بالمنطقة فإن الباي يحترم استقلال الشيخ.

بهذه الطريقة استطاع شيخ أولاد مقران أن يكون حاكما مستقلا، له نظامه الإداري والسياسي الخاص، الأمر الذي جعل الرحالة والباحثين الأجانب

---

[1] A.M.G, H228, Op.cit, p25.

[2] كانت القوات العثمانية في حالة عدائها لأسرة المقراني، تضطر إلى سلك طريق آخر للوصول إلى قسنطينة أو الذهاب منها إلى الجزائر، وهو طريق المسيلة وسيدي عيسى، وهذا الطريق أطول من الأول بحوالي 5 إلى 6 أيام بالإضافة إلى ندرة المياه به.

[3] A.M.G, H228, Idem, p24.

[4] كانت سياسة البايات، في أغلب الأحيان، السبب في هذه النزاعات. (أنظر الفصل الأخير من الكتاب).

يطلقون عليه اسم "السلطان" وعلى حكمه المملكة[1] فقد كان نظام حكم شيخ أولاد مقران شبيه بالنظام المركزي رغم بساطته فكان له هيأة إدارية تتمثل في مجلس يتكون من أعيان الأسرة الحاكمة ورؤساء القبائل التابعة له و لم يكن الشيخ يستطيع اتخاذ أي قرار دون استشارة أعضاء المجلس، كما كان للشيخ عاصمة تعتبر مركزا لحكمه، كانت في البداية قلعة بني عباس ثم انتقلت في بداية القرن 11هـ/17م (1604م) إلى مجانة، كما كان الحكم وراثيا في أسرته.

ولتثبيت نفوذه كون الشيخ على غرار الشيخين السابقين، شيخ العرب وشيخ الحنانشة، جيشا نظاميا قويا يتكون أساسا من قبيلة هاشم التي تمثل حرسه الخاص والذي وصل عدده إلى 1000 فارس[2] كما استفاد من تجنيد الأسرى المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام، وعناصر قبلية مختلفة انضمت إلى أسرة المقراني لنيل بعض الامتيازات المادية. وذلك لحماية أراضيه الممتدة على طول الحدود الغربية للبايلك، من قلعة بني عباس شمالا إلى أولاد ماضي جنوبا[3] وأحيانا إلى الصحراء، وقد أوزع شيخ أولاد مقران هذه القوات على عدد من القلاع التي بناها على قمم الجبال على طول المنطقة الواقعة تحت سيطرته وذلك لنقل الأخبار الهامة، وخاصة في حالة الحروب إلى عاصمة المشيخة وكانت الطريقة المستعملة لذلك العرض هي إشعال النار.

هذا من الناحية العسكرية أما من الناحية الإدارية فكان شيخ أولاد مقران يدير شؤون رعاياه بحرية مطلقة ولإحكام قبضته على أراضيه الواسعة قسمها إلى مناطق إدارية وضع على كل منها قائدا منحه لقب شيخ، مثل "الحاج حسان المرادي" الذي عينه الشيخ "عبد العزيز" ممثلا بمنطقة تقرت[4] و"الحاج"

---

1 Peyssonnel: Op.cit, T1, p878. et Féraud (ch): Bordj Bouariridj, Op.cit, pp232-233.
2 A.M.G, H228, Op.cit, p24.
3 نقصد هنا الشيخ عبد العزيز العباسي.
4 كان هذا بعد مشاركة الشيخ في الحملة التي قام بها صالح ريس على مدينتي تقرت وورقلة.

على طولقة وبسكرة والشيخ "عبد القادر بن دعة" بالصحراء، وقد لعب هذا الأخير دورا هاما في جمع سكان الصحراء حول أسرة المقراني، كما زود جيش الأسرة بعناصر جديدة من الصحراء.

وبذلك وصلت الأسرة أوج قوتها في عهد هذا الشيخ فكونت فعلا كما أطلق عليها الباحث الفرنسي "فيرو" سلالة حاكمة "*Une Dynastie*"[1] وكان أعظم شيوخ هذه الأسرة "عبد العزيز العباسي" (1559/1500م) و"أحمد أمقران" (1600/1559م) والشيخ "بوزيد" (حوالي 1734/1720م) وقد احترم بايات قسنطينة استقلال هذه الأسرة وعقدوا اتفاقيات مع شيوخها تقضي باعتراف السلطة المركزية باستقلال الشيخ داخليا مقابل التزام هذا الأخير بتأمين الطريق للفرق العسكرية العثمانية المارة بمنطقته.

لتنفيذ ما التزم به قام الشيخ ببناء مركز للمراقبة بالمناطق الخطيرة يحرسها سكان القرى القبائلية، مثل بوكتون وأولاد راشد، كما كان الشيخ يرافق المحلة بنفسه، عندما تصل إلى أراضيه، وذلك حتى سيدي مبارك، تحت حماية أولاد هاشم قبيلته المخزنية.[2] كانت هذه أهم مسؤولية كلف بها الشيخ أما جباية الضرائب فكان الشيخ حر في تقدير قيمة الضريبة وكان يجمعها بكل حرية من مختلف الأسر والقبائل التابعة له دون أدنى تدخل من السلطة المركزية[3] ولا يدفع منها لبايات قسنطينة إلا نسبة قليلة، كما كان الشيخ حرا في شن الحروب ضد القبائل التابعة له في حالة تمردها وكان يعين أو يعزل شيوخها دون أي تدخل من السلطة المركزية.[4]

[1] Feraud: Bordj Bouriridj, Op.cit, p229.
[2] A.M.G, H228, Op.cit, p25.
[3] قدرت بعض المراجع قيمة ما كان يجمعه الشيخ من أتباعه بـــ 100000 فرنك.
[4] Feraud (ch): Idem, pp259-263.

ومن هنا يمكن القول أن شيخ أولاد مقران، بموقعه المنيع، وقوة جيشه، استطاع رغم اعترافه الرسمي بالحكم المركزي، أن يفرض استقلاله بغرب البايلك، حيث كان يدير شؤون رعاياه الإدارية والاقتصادية بكل حرية، بل استطاع أن يشكل خطرا حقيقيا على العثمانيين طوال فترة حكمهم، الأمر الذي جعل هؤلاء يسعون، بكل الطرق إلى كسب ثقته وولائه لهم.

إلى جانب هؤلاء الشيوخ الذين اعتبروا حكاما مستقلين إداريا نجد عددا كبيرا من القادة والشيوخ المحليين الذين ساهموا فعلا، في إدارة أرياف بايلك قسنطينة وذلك بتفويض أو بتزكية من الإدارة العثمانية لتسيير شؤون قبائلهم مقابل ضريبة محددة يلتزمون بدفعها للسلطة المركزية، ومن هؤلاء: شيخ بلزمة، الأوراس، الخنقة، فرجيوة، ومن القادة: قائد العواسي (الحراكتة)، قائد النمامشة، قائد الزمول وغيرهم.

وكان هؤلاء الشيوخ يقترحون عادة من طرف مجلس القبيلة نفسها ويزكي ذلك الاختيار، قائد الوطن أو الباي، إلا أن هذه الطريقة تغيرت جذريا في نهاية العهد العثماني (القرن 12هـــ/18م)؛ إذ أمام جشع البايات أصبحت المشيخة أو القيادة تمنح لمن يدفع ضريبة أكبر وبذلك لم يعد يراعى أي معيار لاختيار الشيخ غير ما يمكن أن يدفعه للإدارة المركزية من أموال، وبذلك أصبح كل شخص مهما كانت مكانته بين القبيلة وحتى إن كان غريبا عنها، يستطيع الوصول إلى المشيخة إذا أثبت أنه مستعد لدفع ضريبة أكبر من سابقه وهو ما جعلهم يسرعون إلى قسنطينة كلما سمعوا بتعيين باي جديد لعرض خدماتهم عليه مقابل الحصول على مشيخة القبيلة وكثيرا ما كان يتحقق لهم مرادهم، خاصة إذا علم الباي أن الشيخ الأسبق يخفي أموالا يمكن الاستيلاء عليها وبذلك أصبحت الضرائب في تزايد مستمر ولم يكن الشيوخ يرفضون دفع أي مبلغ مهما كان ضخما للمحافظة على حكمهم لأنهم يعيدون جمعه من القبائل التابعة لإدارتهم.

وبهذه الطريقة تحول منصب الشيخ أو القايد بالريف القسنطيني[1] إلى أداة فعالة في يد الحكام العثمانيين لجمع الأموال من جهة وضرب الأسر الحاكمة بعضها ببعض من جهة أخرى؛ إذ كان كل باي يصل إلى الحكم يسعى لتعيين من يثق في إخلاصهم ويعزل من يشك فيهم وخاصة من كان على وفاق مع الباي الأسبق وبذلك فتح المجال واسعا أمام الشيوخ للتنافس على السلطة في القبيلة وقامت التراعات بين الأسر الحاكمة من جهة وبين أفراد الأسرة الواحدة من جهة أخرى، وكثيرا ما تعمد البايات القضاء على أسرة حاكمة بتعيين شيخ منافس لها وهو ما حدث لأسرة بوعكاز الذواودة التي عمل الباي أحمد القلي على إضعافها بتعيين أحد أفراد أسرة إبن قانة وشكلت منافسا لها بالصحراء وبنفس الطريقة تم القضاء على أسر طالما حكمت بالمنطقة وشكلت خطرا حقيقيا على الحكم العثماني منها أسرة أحرار الحنانشة.[2]

كما أن الحكام العثمانيين استطاعوا بهذه الطريقة تحويل هذه المناصب الإدارية إلى وسيلة جذب للقبائل والأسر الحاكمة التي أنساها الصراع على السلطة وحدتها وتماسكها السياسي والاجتماعي وأفقدها عصبيتها، كما أفقد الشيخ هيبته بين القبائل خاصة لأنه لم يعد يراعي عامل الانتماء إلى القبيلة في تعيين الشيخ وخير مثال على ذلك رفض سكان الصحراء لشيخ العرب محمد بن قانة،[3] وغيره من أفراد أسرة بن قانة، وذلك لأنه لم يكن من أبناء المنطقة، وهو ما عبر عنه الشيخ خير الدين بقوله: "وكل العرب في الصحراء يعرفون، وهو (الباي) لا يجهل، أن إبن قانة لا صلة له بالعرب وليس بعربي النجاد ولا

[1] أنظر قائمة بأسماء أهم الشيوخ والقادة ببايلك قسنطينة: Mouloud Gaid: chronique des beys..., pp135-137.

[2] الحديث عن الصراع بين الأسر الحاكمة وأسباب ضعفها في الفصل الأخير من الكتاب.

[3] حول الموضوع أنظر الفصل الأخير من الكتاب.

ينتسب لأي قبيلة عربية إطلاقا ولم تكن له سلطة في يوم من الأيام على الصحراء".[1]

بهذه السياسة تمكن الحكام العثمانيون من تحقيق ثلاث نتائج هامة بالبلاد كانت السبب الرئيسي في تثبيت حكمهم بالبايلك وإطالته لمدة تزيد عن الثلاثة قرون وهي:

1°. تحويل أعيان مدينة قسنطينة إلى موظفين إداريين ساهموا مساهمة فعالة في تسيير شؤون المدينة، وخاصة في بداية الحكم العثماني حيث احتلوا، كما سبق ذكره أعلى المناصب ومنها منصب الباي.

2°. تحويل شيوخ القبائل والأسر الحاكمة بأرياف البايلك من حكام مستقلين كانوا يحملون ألقابا تدل على حكمهم المطلق لمناطقهم مثل لقب "الأمير" و"السلطان"[2] إلى مجرد موظفين يحملون لقب "الشيخ" وهو منصب مهما كانت نسبة استقلاليته أكثر ارتباطا بالسلطة المركزية، وهو ما دل عليه تمسك كل شيخ بتزكية الباشا أو الباي لمنصبه، وتنافس شيوخ الأسر الحاكمة، في نهاية الحكم العثماني على هذا المنصب، وقد عبر الشيخ فرحات بن سعيد نفسه، وهو آخر شيوخ العرب من أسرة بوعكاز الذواودة، عن استيلاء العثمانيين على السلطة السياسية التي كانت لأسرته بالصحراء بقوله في رسالة بعث بها إلى "دوروڤيقو" سنة 1832م: "بعد قدومهم (العثمانيون) انتقل الحكم إليهم والتصرف لنا..."[3] وبهذه الطريقة ضمن العثمانيون الأمن بالبلاد بضمان قوات محلية تحت زعامة محلية موالية لهم.

---

[1] أنظر الشيخ خير الدين (محمد): المرجع السابق، ج 1، ص 58.

[2] بقي شيخ الحنانشة وشيخ أولاد مقران يحملان هذا اللقب حتى فترة متأخرة من العهد العثماني.

[3] الرسالة مؤرخة في 2 شوال 1247هـ/5 مارس 1832م، للاطلاع على نص الرسالة كاملا أنظر:
Féraud: les benidjellab, R.A, 1863, p460.

3°. ضمان مورد مالي لا ينضب من قبائل لم تكن تثق إلا في شيوخها، وبالتالي لم يكن العثمانيون يستطيعون الحصول على شيء منها دون وساطة شيوخها الذين كانوا في نظر أتباعهم الحكام الحقيقيون للمنطقة، وحتى يضمنوا إستمرار تدفق هذا المورد المالي من أرياف البايلك احترم بايات قسنطينة استقلالية هؤلاء الشيوخ واكتفوا بقبول أي مقدار مالي يدفعونه. والحقيقة أن هذه السياسة المرنة من الحكام العثمانيين كانت سببا في ازدهار اقتصاد البايلك وهو ما سنراه عن قرب في العنصر الموالي.

ثالثا. الوضع الاقتصادي للقبائل والأسر الحاكمة بالبايلك

على غرار السياسة الإدارية، انتهج الحكام العثمانيون تجاه السكان سياسة اقتصادية مرنة ضمنت لهم الاغتناء، وللبايلك الازدهار وذلك دون أي جهد يذكر من السلطة المركزية؛ إذ تطبيقا لسياسة المحافظة على الوضع القديم بالبلاد واحتراما للقوانين العرفية للقبائل لم يتدخل الحكام العثمانيون في أي شأن من الشؤون الاقتصادية للبايلك، سواء بالنسبة لتوزيع الأراضي أو النظام الضريبي أو التجارة الداخلية وهو ما سيتضح لنا من خلال تعرضنا لهذه النقاط الثلاث:

1. نظام الأراضي: بالنسبة لنظام الأراضي أبقى العثمانيون على التوزيع القديم لملكية الأرض بالبايلك وهو يتمثل في:

- **الاقطاعات المحلية**: وتضم أراضي العرش وأراضي الملك فأما أراضي العرش فهي الأراضي المشاعة بين أفراد القبيلة ولا يحق للمستفيد منها بيعها ولا هبتها، إذ تعتبر ملكا جماعيا للقبيلة ويشرف على توزيعها بين أسر القبيلة[1] للاستفادة شيخ القبيلة الذي لم يكن له الحق في انتزاع الأرض من أصحابها إلا في حالة

---

[1] قدر الرحالة *Peyssonnel* أفراد القبيلة الكبرى في بايلك قسنطينة بحوالي 1000 فرد يجتمعون على أرض تقدر مساحتها بين 10 إلى15 فرسخ (40 إلى 50 كلم) أما المتوسطة فيحدد عدد أفرادها 300 و400 فرد وتحتل مساحة تقدر بـــ 4 إلى 5 فراسخ. أنظر، Peyssonnel: op.cit, T1, p221

وفاة صاحبها دون ترك من يخدمها من الأبناء الذكور أو هجرته للقبيلة مع أسرته، في هذه الحالة يعاد توزيع قطعة أرضه على غيره من أبناء نفس القبيلة.[1]

وأهم ما يميز أراضي العرش سعة رقعتها وتخصيص معظم مساحتها للرعي وتدخل ضمن هذا النوع من الأراضي أراضي معظم قبائل الشرق الجزائري وعلى رأسها أراضي قبيلة النمامشة التي تخضع إداريا لشيخ الحنانشة[2] وتمتد أراضيها بين تبسة ونقرين التونسية شرقا وخنشلة بالأوراس غربا. وقد كانت القبيلة رغم خصوبة أراضيها لا تزرع منها إلا مساحة صغيرة تكفي لسد حاجتها من الحبوب، وتترك الباقي للرعي، وحتى الأراضي المزروعة كانت تهمل شتاء مما يجعلها تتحول إلى مراعي لأغنام القبائل الأخرى وخاصة الحراكتة.[3]

أما أراضي الملك فتتميز بضيق مساحتها نسبيا وحرية صاحبها في البيع والهبة لأنه يكون قد تحصل عليها إما بالوراثة وإما عن طريق الشراء، إلا أن الفلاح الجزائري عادة، لا يبيع أرضه مهما كانت الظروف بل كثيرا ما حرمت المرأة من الإرث حفاظا على الأرض. ومما يميز هذا النوع من الأراضي عن أراضي العرش هو وجود أسوار تفصل بينها وبين الملكيات الأخرى ويملك أصحابها أحيانا حججا مكتوبة تثبت ملكيتهم، وحتى إذا لم تكن الحجج متوفرة وهو الشائع بالبايلك أيام العثمانيين[4] فإن الشهرة كانت كافية للشهادة على صحة الملكية بالحيازة الطويلة للأرض وبالتالي لا يجرأ أحد على التشكيك في صحة هذه الملكية.[5]

---

1 Nouschi (A): Enquête sur le niveau de vie…, Op.cit , p 86 et suit

2 Babés (leila): Mythe …, p 289.

3 Nouschi A , Op.cit, pp55-56

4 لم يكن يملك عقود الملكية إلا بعض أعيان المدن الذين كانوا يملكون أراضي بفحوص المدن أو بعض العقود التي أصدرها فيما بعد بعض البايات لتنظيم الاقتصاد أمثال صالح باي والحاج أحمد. أنظر، القيشاعي فلة: المرجع السابق، ص 166.

5 Nouschi: op.cit p90.

وقد احترم العثمانيون الملكية الجماعية والفردية لهذين النوعين من الأراضي حتى وإن لم يكن لأصحابها حججا مكتوبة وهو ما لم تحترمه السلطات الفرنسية بعد ذلك، بل أن الحكام العثمانيين وسعوا الأراضي المحلية بإقطاع القبائل والأسر الموالية لهم إقطاعات هامة كامتياز لها مقابل خدمات معينة وذلك كإقطاع استغلال[1] تستفيد الأسرة من ربعه إلا أنه سرعان ما تتحول هذه الأراضي إلى ملك خاص للأسرة،[2] وهو ما حدث بالنسبة للأراضي التي منحت لأسرة الفكون شيوخ الإسلام، وأهمها أراضي أولاد جبارة التي كانت تقدر بـــ 13000 هكتار،[3] وأراضي بني أوفتين وبوتسوارة، مما حول أسرة الفكون إلى أسرة إقطاعية كبرى.[4]

ونتيجة لهذه السياسة ظهر نوعان من الإقطاعات[5] المحلية إقطاعية السيف والإقطاعية الدينية:

1. **إقطاعية السيف (الجواد)**:[6] وهي الأراضي التابعة للأسر العريقة ذات الشهرة الحربية، حصلت عليها مقابل أعمال عسكرية قدمتها للسلطة الحاكمة، سواء قبل العهد العثماني أمثال أسرة بوعكاز الذواودة وأحرار الحنانشة

---

[1] حول مفهوم إقطاع الاستغلال وإقطاع التمليك أنظر الماوردي (علي بن محمد): الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص ص 164-165.

[2] Galissot Rene et autre: Etude sur le féodalisme, paris, 1971, p161.

[3] صودرت هذه الأراضي من طرف السلطات الفرنسية، إثر قيام ثورة أولاد جبارة سنة 1845، فكان ذلك ضربة قاسية لأسرة الفكون ولاسترجاعها أرسل كل من الشيخ حمودة وقضاة قسنطينة رسالتين مطبوعتين إلى الحاكم العام الفرنسي كلوزيل يطالبون بحق الأسرة الشرعي في ملكية هذه الأراضي الرسالتان بأرشيف ما وراء البحار.

[4] Ben Djaballah souad: Etude de cas de strategies foncieres familiales dans les hautes plaines constantinoises, Th .Magistére, I.droit, U.Ctne, 1988, p159.

[5] إن كلمة اقطاع بالجزائر لا تعني الإقطاع الأوروبي المعروف، إنما تعني القطع الأرضية التي تمنح من السلطة لبعض المستفيدين وهو ما يقابله الإقطاع العسكري بالمشرق العربي. أنظر:

Galissot: Op.cit p182.

[6] Merad Boudia: La Formation Sociale Algérienne Percoloniale Essai D’analyse Theorique, O.P.U, Alger, 1981, p337.

أو خلال الحكم العثماني مثل أسرة إبن قانة، وقد ضمت هذه الأراضي آلاف الهكتارات خصص معظمها للرعي باعتبار أن جل هذه القبائل كانت من الرحل تعتمد على الحياة الرعوية أكثر من الزراعية، فبشرق البايلك، مثلا، كانت قبيلة الحنانشة بزعامة أسرة الأحرار تملك أخصب الأراضي إلا أنها لم تكن تهتم بالزراعة اهتمامها بتربية المواشي، إذ نجد، حسب إحصائيات لسنة 1867م أن أراضيها المزروعة لم تكن تتجاوز 1116 جابدة[1] أي ما لا يزيد عن 11160 هكتار، في حين قدرت ثروتها الحيوانية بـــ 38304 رأس غنم، 6141 ماعز، 2520 خيل، 1504 فرس، 409 مهر، 1541 بغل، 1588 بقر، 220 جمل و891 خلية نحل.[2]

وبما أن هذه الأراضي كانت تحت زعامة أحرار الحنانشة فإن البايات لم يكونوا يتدخلون في تحديد كيفية استغلالها ولا تقييد ذلك بقوانين حكومية، فكان للقبيلة حرية استغلال غابات المنطقة وجبالها وسهولها بكل حرية وهو ما لم يسمح لها به في الفترة الفرنسية.[3]

ويمكن تعميم هذا المثال على بقية إقطاعات الجواد أو ما أطلق عليه تعريف الأرستقراطية الريفية بالبايلك والتي كانت تستغل أراضيها عن طريق الخماسة،[4] ولا تدفع عنها سوى ضريبة العشر، وذلك كامتياز للأسر الحاكمة مقابل مساعدة شيوخها لعمال البايات على تقييم إنتاج الأراضي الزراعية التابعة

---

[1] **الجابدة:** 8 إلى 10 هكتار (وهو ما يحرثه ثور في اليوم الواحد).

[2] أنظر التقرير بالمركز التقني لمسح الأراضي لولاية قسنطينة (قبيلة الحنانشة رقم: 138)

[3] كان الحنانشة يستغلون غابات المنطقة في بناء الأكواخ وصنع أوتاد الخيام وبناء خلايا النحل واستخراج القار (القطران) وغيرها من المواد الغابية، ولم يكن البايات يتدخلون لمنعهم من ذلك أو تنظيم الاستغلال الغابي عكس ما فعلته السلطات الفرنسية؛ إذ بمجرد احتلالها للمنطقة قامت بوضع قوانين تمنع السكان من استغلال غاباتهم إلا بمواعيد محددة. أنظر: المركز التقني لمسح الأراضي لولاية قسنطينة، قبيلة الحنانشة رقم: 138.

[4] العمل في أرضي الغير مقابل خمس 5/1 الإنتاج.

لإدارتهم؛ إذ كانوا يرافقون المراقبين في جولاتهم عبر أرياف البايلك لإحصاء الأراضي المنتجة وتقييم إنتاجها ثم تحديد الضريبة المستحقة على كل قبيلة أو فرع من القبيلة،[1] بالإضافة إلى إشرافهم على عملية جباية الضرائب وحماية الأسواق.

وقد كانت سياسة عدم التدخل في شؤون القبيلة الاقتصادية سببا في ازدهار اقتصاديات بايلك قسنطينة، الذي سيطر فيه هذا النوع من الإقطاع؛[2] إذ أن عدم الضغط على القبائل والأسر الحاكمة وتقييدها بقوانيين رسمية، جعلها تعمل باطمئنان أكبر خاصة أن الفلاح كان أكثر تمسكا بسلطة الأسر المحلية من سلطة البايات، وأكثر ثقة بها منهم وبذلك كان الإنتاج غزيرا، وهو ما كان يهم البايات بالدرجة الأولى[3] وقد أكد بعض الرحالة الأجانب أن بايلك قسنطينة كان أغنى البايلكات الثلاث المكونة لولاية الجزائر في الفترة العثمانية وأن قمع البايات والضريبة التي كان يقدمها لباشا الجزائر أكبر من ضريبة كل من باي التيطري وباي الغرب معا وقد قدر الرحالة هذه الضرائب بـــ:

- باي التيطري................. 12 ألف سكة.
- باي الغرب ....40 إلى 50 ألف.
- باي قسنطينة ....80 إلى 100 ألف سكة.[4]

ولم تكن هذه الضرائب تفوق 12 % من حجم الضرائب التي يجمعها الباي من قبائل البايلك، حيث تقول بعض المصادر أن أموال خزينة بايلك قسنطينة كانت تقارب أحيانا حجم خزينة باشا الجزائر وهو ما حصل في فترة

---

[1] Galissot R , Op.cit, pp161-162.

[2] كان بايلك الشرق يشتهر بأسره الحربية (الجواد) عكس بايلك الغرب الذي سيطرت عليه الأسر المرابطية. أنظر: A.O.M , F8, N 1673.

[3] Nouschi (A): Op.cit, p 93.

[4] Dr Shaw: Op.cit , pp 108-109.

حكم صالح باي[1] (1771/1792م). وقد كان لعرب التل الذين تنتمي أراضيهم إلى هذا النوع من الإقطاع الدور الأكبر في تمويل البايلك بما يحتاجه من مواد استهلاكية لإتمام إنتاجهم بالغزراة والتنوع،[2] وذلك أن القبيلة الواحدة كانت تمارس النشاطين الزراعي والرعوي، فقبيلة أولاد عبد النور على سبيل المثال، كانت تملك نوعين من الأراضي، زراعية بالتل ورعوية بالجنوب، ولذلك كانت تنتقل صيفا إلى الشمال لحصاد أراضيها التي تتحول إلى مراعي لماشيتها، وفي نهاية موسم الحرث تعود مرة أخرى إلى الجنوب تاركة الأراضي المزروعة تحت حراسة أسر تكلف بهذه المهمة في غياب القبيلة.[3]

ونفس النموذج يمكن تطبيقه على قبائل التلاغمة، العمامرة وغيرها من قبائل الهضاب، أما قبائل الصحراء فتقول بعض المراجع أنها كانت تزود الخزينة العامة للدولة بما قيمته 80970 قطعة فضية، أي ما يساوي 1659885 فرنك،[4] وتصل هذه القبائل صيفا حتى مشارف مدينة قسنطينة، وبما أن الأراضي القريبة من عاصمة البايلك كانت في معظمها تابعة مباشرة لسلطة الباي فإن العرب الرحل كانوا يضطرون إلى إبرام اتفاقيات مسبقة مع أصحاب الأرض للسماح لهم بالإقامة بأراضيهم وكانوا عادة يترلون بأراضي الزمول المخزنية والتلاغمة وأولاد سلام إلا أنهم لا يتعدون مدينة قسنطينة إلى الشمال.[5] وبما أن هؤلاء العرب كانوا ينتقلون إلى الشمال، جماعيا، بأسرهم وخيامهم وجميع حيواناتهم، حتى الكلاب، فإنهم كانوا يتسببون في خسائر اقتصادية للقبائل المستقرة، وذلك بما تحدثه مواشيهم من تخريب في المحاصيل الزراعية إلى جانب النهب الذي يقوم به فرسان القبائل المخزنية الذين كانوا يقومون بحراسة هذه القبائل الراحلة، إلا

---

[1] الشريف الزهار (أحمد): مذكرات الشريف الزهار، تحقيق: توفيق المدني، ش.و .ن. ت، الجزائر، ص 46.

[2] حمدان بن عثمان خوجة: المصدر السابق، ص77.

[3] Nouschi (A): Op.cit, pp58-59.

[4] أنظر سعيدوني (ناصر الدين): النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية 1800-1830، الجزائر، 1979، ص94.

[5] Nouschi A: Op.cit , p56.

أن القبائل المستقرة كانت تعوض خسائرها بما تحصل عليه من الأيدي العاملة من الرحل لإنجاز عملية الحصاد مقابل استفادة هذه من الأراضي المحصودة لرعي أغنامها[1].

الإقطاعيات الدينية[2]: وتتمثل في الأراضي التي تجمعت تدريجيا في يد الأسر الشريفة والمرابطية أو الأسر التي نالت مكانة علمية ودينية عالية بالبايلك وذلك نتيجة للامتيازات المختلفة التي كان الحكام العثمانيون يتقربون بها من هذه الأسر،[3] وعلى وجه الخصوص امتياز حق الإشراف على أراضي الوقف التي كانت تتحول تدريجيا إلى أملاك خاصة تستغلها الأسرة لفائدتها، إلى جانب ما كان يمنح لها من إقطاعات من طرف الحكام مقابل خدمات سياسية أو عسكرية كانت تقدمها لهم الأسرة عند الحاجة وهو ما جعلها تتحول، حسب تعبير الباحث "أندري نوشي" إلى أسر ذات سيادة فعلية بالبلاد.

وهو ما ينطبق على أسرة الفكون، ولعل ذلك ينطبق أيضا على أسرة المقراني حكام مجانة، حيث أنه رغم أصولها الدينية واعتمادها في بداية عهدها على السلطة الروحية وخاصة في عهد مؤسسها "عبد الرحمن" ثم حفيده "ناصر بن أحمد امقران" (ت1604م) فإنها تحولت مع الزمن إلى أسرة محاربة (جواد) اعتمدت في توسيع نفوذها على القوة، وقد أصبحت من أكبر الأسر الإقطاعية بالبايلك،[4] وحتى فرع "سيدي مبارك بن ناصر" الذي استقر قرب بجاية محاولا العودة إلى حياة التصوف أقحمه باشا الجزائر (1740م) في الأمور السياسية عن طريق منح الشيخ "محمد بن الشريف أمقران" حق الإشراف على استغلال

---

1 Ibid, p57.

2 Merad Boudia A, Op.cit , pp 337-338.

3 حول تفاصيل الموضوع أنظر الفصل الثالث من الكتاب.

4 قدرت لجنة أراضي الأسرة بـــ 20000 هكتار. أنظر: القيشاعي (فلة): المرجع السابق، ص 238.

غابات منطقة بني فوغان قرب جيجل الشهيرة بأخشابها الجيدة، وهو ما جعل هذا الفرع ينتقل من بجاية إلى جيجل للإشراف على تصدير هذه الأخشاب.[1]

وقد توارث أبناء الشيخ وأحفاده هذا الامتياز وتوسعت أملاك الأسرة من ورائه في حين تحول الفرع الرئيسي للأسرة "فرع سيدي بتقة بن ناصر" بمجانة إلى أسرة أجواد حقيقية مستقلة بأراضيها عن أي سلطة خارجية، و لم تكن السلطات العثمانية في الحقيقة تمس بممتلكات أي قبيلة أو أسرة حاكمة إلا في حالة تمرد هذه على السلطة المركزية.

ومن ذلك يمكن القول أن الباحثة مغنية الأزرق قد أصابت في قولها: "أن الحكم التركي كانت له أثار مصيرية على نظام الملكية الجزائرية ولكنه لم يدمره كما فعل الحكم الفرنسي في فترة لاحقة، لقد أقام الأتراك علاقات إقطاعية من نوع خاص مع الشعب الجزائري وأجبر الأخير، مع احتفاظه بدرجة ما من الاستقلال الذاتي، على أن ينتج ما يكفي لتمكين الأتراك من تثبيت شروط سيطرتهم"[2]

الإقطاعات الحكومية:[3] وتضم الأراضي الموات والأراضي المصادرة من القبائل المتمردة والتي توفي أصحابها دون ترك وريث، إضافة إلى الغابات والمناجم التابعة للسلطة المركزية، وبما أن المذهب الحنفي، وهو مذهب الدولة العثمانية الرسمي، كان ينص على أن أراضي الدولة كلها كانت تعتبر أراضي سلطانية، للسلطان

---

[1] Auteur Anonyme: Menographie de Djidelli, Bureau Arabe de jijel, sans date, pp 41-42.

[2] الأزرق (مغنية): نشوء الطبقات في الجزائر، دراسة في الاستعمار والتغيير الاجتماعي السياسي، ترجمة: سمير كرم، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، 1980، ص33.

[3] تعرف في الجزائر بأراضي البايلك، وفي المشرق العربي بأراضي الميري، أما ببايلك قسنطينة فقد اشتهرت باسم العزل. أنظر: سعيدوني (ناصر الدين)، دراسات في المملكة العقارية، ص ص 47-50.

الحق في توزيعها على من يريد سواء للتمليك أو الاستغلال،[1] فإن السلطان العثماني طبق هذه القاعدة على أراضي بايلك قسنطينة، حيث أصدر عدة فرمانات يقسم فيها أراضي البايلك على القادة العسكريين العثمانيين، إما مكافأة لهم على بعض الأعمال العسكرية، أو إثر تعينهم حكاما على بعض الأقاليم.

وهو ما أكده عدد من الفرمانات السلطانية التي أرسلها السلطان إلى بايلربايات الجزائر خلال القرن الأول من الحكم العثماني للجزائر، منها الفرمان السلطاني الذي وصل بتاريخ 963/6/9 هـ(1556م) وينص على منح قائد لواء قسنطينة (مراد؟) إقطاعا من نوع خاص[2] قيمته 200000 أقجه[3] وذلك مكافأة له على محافظته على أمن اللواء، كما وصل فرمان مماثل بتاريخ 981/12/13هـ (1574م) ينص على منح أمير لواء بسكرة "محمد كشاشي" علاوة قدرها 30000 أقجة، زيادة على ما كان يتصرف به من إقطاعات، وتقدر بـ 250000 أقجة وذلك مكافأة له على ما بذله "بالحرب التي دارت ضد العاصي عباس"، وهذا لا يعني تمليك القادة العسكريين لهذه الأراضي، وإنما منحهم حق الإشراف عليها واستغلال نسبة من الضرائب التي تتم جبايتها منها.[4]

ونفس السياسة استمر تطبيقها على بقية الموظفين العثمانيين، عسكريين وإداريين بالبايلك فكان كل موظف يمنح حق استغلال إقطاعات واسعة تضم عددا من القبائل يتناسب طردا مع رتبته وذلك مقابل ضريبة سنوية يدفعها

---

[1] الماوردي: المصدر السابق، ص ص 164-165.

[2] **الإقطاعات من نوع "خاص"**: هي أكبر الإقطاعات العسكرية التي طبقت خاصة في بلاد الشام وهي تقدر بما يزيد عن 100000 أقجة.

[3] **الأقجة**: عملة تركية تساوي ¼ درهم. أنظر: دائرة المعارف الإسلامية مادة "أقجة" و"بارة".

[4] يضم الأرشيف العثماني بالمركز الوطني للدراسات التاريخية عددا كبيرا من القرارات السلطانية بمنح القادة العسكريين إقطاعات بالجزائر أمر أو تحويل اقطاعاتهم من تونس، طرابلس والروملي إلى الجزائر. أنظر: سلسلة دفتر بنفس المركز (الجزائر العاصمة).

الموظف للبايلك وخدمات عسكرية وإدارية يلتزم بتنفيذها وأهمها حفظ الأمن وجباية الضرائب، وقد أوردت التقارير العسكرية الفرنسية[1] نماذج عن هذا الأسلوب الاقتصادي نلخص منه ما يلي:

الموظف	الامتياز	الضريبة المستحقة
الباي	تدفع له جميع قبائل البايلك ضريبة البشماق وله نصيب من الضرائب التي تدفع إلى الباشا.	120000[2] ريال
الأغـــا	تخضع له 40 قبيلة من الدواير.	10000 بوجو
الخليفة	تخضع له 09 قبائل.	10000
قائد الدار	يشرف على 114 عزل و104 جبري ويحصل على كل جابدة 2 بوجو.	/
الباش كاتب	يشرف على 23 قبيلة.	3000
الباش مكاحلي	يشرف على 6 قبائل.	1000
الباش سراح	يشرف على 5 قبائل.	1000
الكاتب الثاني	يشرف على 2 قبيلتين.	1000
شيخ البلاد	يشرف على 2 قبيلتين	معفى من الضرائب
الكاتب الثالث	يشرف على 1 قبيلة واحدة.	200 بوجو

وقد كان الموظف، بهذه الطريقة يدفع ضريبة للبايلك ليتلقى أضعافها من الرعية[3] ومن الموظفين الأقل منه رتبة. إلى جانب هذه الامتيازات التي خص بها موظفو البايلك قسمت الأراضي الحكومية إلى نوعين من الإقطاعات:

---

[1] A.M.G.H228, Op.cit, pp1-9.

[2] هذه قيمة دنوش الباي إلا أن الرحالة Peyssonnel يقول أن الداي كان يرسل الأغا باشي إلى باي قسنطينة ليأخذ منه 4000 بسيطة شهريا بالإضافة إلى دنوش الخليفة الذي يدفع كل ستة أشهر.

[3] Nouschi (A): Op.cit, p106.

أ. **الأراضي الخاصة بالبايات وأسرهم**: وكانت تضم أخصب الأراضي المروية تخصص لجميع أنواع الزراعات وتستغل عن طريق السخرة،[1] أي إجبار القبائل المجاورة لأراضي الباي على زرع الأرض أو حصادها أو قطف ثمارها مجانا، أما إذا لم تكن أعمال السخرة كافية فإن الباي كان يستعين "بالخماسة" أي العمل مقابل خمس (5/1) الإنتاج، وفي هذه الحالة يكون الخماس المستفيد الأول خاصة أن الأراضي كانت جيدة والباي هو الذي يتكلف بجميع لوازم العمل الفلاحي من محراث وحيوانات وبذور وغيرها ولذا كانت الخماسة في أراضي الباي تثير رغبة كل فلاح، حتى أن الخماس كان يدفع للقائد الذي يتولى تعيينه للعمل مبلغا معلوما من نصيبه في الإنتاج كإكرامية (رشوة)[2] وقد عزز بايات قسنطينة هذا النوع من الملكيات باستيلائهم على أخصب أراضي أعيان المدينة عن طريق الشراء، منها قيام الباي "أحمد القلي" بشراء أراضي أسرة إبن باديس بالفحص الأبيض (الحامة)، وتتمثل في "جنة إبن عثمان" "وجنة إبن داود" و"أم الركبة" و"شركات إبن بغلي" و"العصافري" و"شراد" و"سيدي شقرون"، وذلك بتاريخ جمادى الأول 1173هـ/1760م.

ونفس العمل كان الباي بوحنك قد قام به سنة 1159هــ/1747م، حيث اشترى أراضي عين قجاو من أسرة إبن جلول القسطينية، ثم في سنة 1164هــ/1751م جعل نفس الأسرة تتخلى عن ممتلكاتها في شعبة الرصاص بقسنطينة كتعويض له عن دين كان على أحد أفرادها.[3]

---

[1] يطلق الباحث الفرنسي (نوشي)، على هذا النوع من العمل اسم التويزة والحقيقة أن العمل في أراضي البايات كان إجباريا في حين تكون التويزة عادة عملا تطوعيا. أنظر: Noushi A: Idem p 80

[2] Ibid, pp79-80.

[3] Vayssette: Op.cit , pp 167-168.

بهذه الطريقة انتقلت أخصب الأراضي إلى بايات قسنطينة، خاصة القريبة من عاصمة البايلك[1] مما جعل هؤلاء يتحولون إلى كبار الإقطاعيين مكونين أسرا أرستقراطية نافست الأسر المحلية اقتصاديا.

ب. **أراضي العزل**: وهي من أجود أراضي البايلك، كانت تمنح لكبار الموظفين وبعض شيوخ القبائل والأسر المحلية الموالية للسلطة العثمانية مقابل خدمات عسكرية أو إدارية، وتبلغ أراضي العزل ببايلك قسنطينة، حسب بعض المصادر الفرنسية 114 عزل منها 104 عزل جبري،[2] وتنتشر معظم هذه الإقطاعات حول عاصمة البايلك والمناطق القريبة من المدن الكبرى حيث توجد الحاميات العسكرية. والعزل ببايلك قسنطينة أربعة أنواع:

1°. عزل جبري:[3] وهي الأراضي التي كانت تؤجر لكبار موظفي البايلك ولبعض القبائل وأعيان البلاد الذين يلتزمون بدفع ضريبة تعرف بـــ "الجبري" أو "الحكور" وتساوي 12 صاع[4] قمح و12 شعير على الجابدة (10 هكتار) وهو ما يقارب 50% من الإنتاج، وقد كانت لوازم العمل مضمونة من طرف السلطة الحاكمة بالبايلك ولذا لا يلزم المزارع أو المستأجر بشراء أدوات عمله كما أن المستأجر، إذا حرث مساحة أكبر من المساحة المؤجرة له فإن الزيادة تكون خاصة به ولذلك تكون أرباحه في أغلب الأحيان أكبر من أرباح الباي.[5]

---

1 كان صالح باي يملك أخصب الأراضي منها سيدي الغراب وما تبعه، علجات القاضي، ساقية الروم وغيرها. أنظر: Mercier (E) , Histoire de Constantine , p298 .

2 A.M.G. H228, p5.

3 يقابله بالمشرق العربي نظام الالتزام، وتقدر بعض المصادر هذا النوع من الإقطاع بـــ 60 ألف هكتار. أنظر: سعيدوني (ناصر الدين): دراسات في الملكية العقارية، ص 29.

4 الصاع إناء لكيل الحبوب يسع 48,80 لتر.

5 حسب دراسة أندري نوشي للموضوع فإن أرباح البايلك كانت تصل إلى 420 فرنك على الجابدة الواحدة في حين يصل ربح المزارع إلى 900 فرنك، أنظر: Noushi (A): Op.cit, p43.

2°. عزل العزيب:[1] وهي الأراضي التي كانت تمنح للقبائل الرحل التي تكلف برعاية قطعان البايلك مقابل امتيازات معينة منها الإعفاء من الضرائب أو تخفيفها والاستفادة من حليب الماشية، أما السمن المستخرج منه فكان يجمع ليسلم إلى البايلك وفي حالة استهلاكه تجبر القبيلة على دفع ضريبة تعرف بضريبة "البقراج"[2] وقد يؤخذ العزل من القبيلة ليمنح لغيرها إذا أهملت عملها، ولا تدفع قبائل العزيب من الضرائب غير العشر أي صاع من القمح ومن الشعير على الجابدة الواحدة، بالإضافة إلى ضريبة الحكور (كراء الأرض) 10 ريالات.[3]

ويدخل ضمن هذا الصنف من العزل الأراضي التي تقع بجوار قبائل المخزن،[4] وقد استفاد بعض أفراد الأسر المحلية الحاكمة من هذا النوع من العزل منهم أبناء أسرة إبن قانة الذين استفادوا من عزل الفسقية جنوب قسنطينة[5] وبعض أفراد أسرة أحرار الحنانشة الذين كانوا يشرفون على عزل بني زنداي، توسة، أولاد سلام وغيرها.[6]

3°. عزل الجبل: كانت تمنح للقبائل الجبلية والأسر ذات النفوذ السياسي أو الديني مقابل التزامها بحفظ الأمن بالمناطق الجبلية المستعصية، وتدخل أراضي أولاد جبارة التي منحت لأسرة الفكون ضمن هذا الصنف من العزل[7]

---

[1] **العزيب**: كلمة محلية تعني قطيع الغنم وأصبحت تطلق على عملية الترحال من مكان إلى آخر لرعي الغنم وعزل العزيب يعني الإقطاع الذي يمنح للقبائل الرحل لفترة محدودة.

[2] يعفى من هذه الضريبة من يكلف بتربية الخيول بدل الماشية والبقر. أنظر: Devoulx: Op.cit , p 43

[3] سعيدوني (ناصر الدين): النظام المالي ...، ص 94.

[4] هي القبائل العسكرية التي اجتمع أفرادها من مختلف القبائل ليكونوا قبيلة واحدة تخدم البايلك عسكريا واقتصاديا (حول هذه القبائل أنظر سعيدوني (ناصر الدين): دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر ...، ص 97 وما بعدها).

[5] أنظر تقرير لجنة S.C حول قبيلة الزمول، المركز التقني لمسح الأراضي، ولاية قسنطينة رقم: 268.

[6] Babes (Leila): Mythe ...,p45.

[7] Nouchi (A): Op.cit, p81.

وإن استولت عليها الأسرة نهائيا.[1] ومن بين المستفيدين أيضا من هذا العزل قبيلة أولاد عبد النور والتلاغمة جنوب قسنطينة.

4°. عزل السهول: منح لعدد من القبائل المستقرة بسهول البايلك مثل دريد، السقنية، عامر الشراقة وغيرها من القبائل التي كلفت من قبل السلطة المركزية بجمع الضرائب رفقة رجال المحلة وقد عرفت هذه القبائل بقبائل "الدواير".

من هذا التلخيص لكيفية توزيع الأراضي الحكومية يتضح لنا أن العثمانيين وضعوا جميع هذه الأراضي تحت تصرف العناصر المحلية إما لاستغلالها لحسابها الخاص مقابل ضرائب معينة أو لحساب البايلك مقابل امتيازات خاصة ونصيب من الأرباح لا يستهان به ويعود اعتماد العثمانيين على العناصر المحلية، وعلى رأسها القبائل المخزنية في استغلال أراضي البايلك إلى:

- قلة عدد العناصر التركية بالجزائر وجهلها بأمور الفلاحة وغلبة الطابع العسكري عليها.
- أن الاعتماد على العنصر المحلي يغني الدولة عن دفع أجور للعناصر التي تجلب عادة من الأناضول لحفظ الأمن بالبلاد وجباية الضرائب.
- جعل الأراضي الزراعية أداة لكسب ولاء الأسر المحلية والقبائل القوية وتثبيت حكمهم عن طريق خلق قاعدة اجتماعية لهذا الحكم من العناصر المحلية.[2]

والحقيقة أن العناصر المحلية نفسها استفادت من هذه السياسة، حيث كان المخزني العامل بأراضي العزل يجني أرباحا معتبرة من عمله في هذه الأراضي،

---

[1] في تدخلهم لاسترجاع هذه الأرض من السلطات الفرنسية أكد قضاة قسنطينة في رسالتهم المشار إليها أن الأسرة تملك ما يثبت امتلاكها لهذه الأراضي. (أنظر الرسالة في A.O.M., 1H4)

[2] عن أسباب اعتماد العثمانيين على قبائل المخزن أنظر سعيدوني: دراسات وأبحاث ...، ص ص 101-103.

الأمر الذي جعل أراضي العزل عامل جذب لمختلف العناصر المحلية، وخاصة المغامرين ومحبي الكسب السريع، حتى أنه حسب تعبير الباحث فيرو: "ترك العالم علمه والصانع صنعته في سبيل الفوز بمنصب فارس المخزن، أي عامل بأرضى البايلك، وقد كان هؤلاء يستعملون في سبيل ذلك مختلف الطرق الدنيئة، من رشوة وتذلل للحكام[1] حتى ينالوا الوظيفة"،[2] وحتى يحافظ العامل على منصبه كان يدفع للقائد الذي عينه بالمنصب 15 إلى 20 سكة سنويا وذلك حتى يسمح له بالبقاء داخل القبيلة المخزنية[3].

كانت قبائل بأكملها تهجر مواطنها الأصلية لتستفيد من العمل في أراضي العزل، ففي عهد صالح باي، على سبيل المثال، هاجرت قبيلة "السقنية" من أراضيها بشمال الأوراس لتستقر قرب قسنطينة فرارا من الضرائب الباهضة التي كانت تفرض عليها،[4] ونفس الهجرة الجماعية شهدها عدد من قبائل الأوراس في القرن 11هـــ/17م إلى سهول قسنطينة وقالمة بسبب المجاعات التي ضربت المنطقة في هذه الفترة[5].

أما أولاد حسن بفرجيوة فقد التجأوا إلى زمالة الباي بباردوا على أبواب قسنطينة، إثر الصراع الذي نشب بينهم وبين أسرة بوعكاز بن عاشور، حكام فرجيوة.[6]

وهكذا تعددت الأسباب لتكون النتيجة واحدة وهي تعمير أراضي العزل على حساب الأراضي القبلية، حتى أن الباحث *warnier* حدد القبائل التي

[1] لعل هذا هو السبب في بقاء كلمة "الزامل" حتى اليوم تعني الشخص الدنيء الذي لا كرامة له.

[2] Feraud (ch): les Hararas …, Op.cit , p19.

[3] De Paradis (v): Op.cit , p56.

[4] القيشاعي (فلة): المرجع السابق، ص 90.

[5] Feraud (ch): kitab el Adouani, Op.cit p 157.

[6] انظر تقرير لجنة S.C حول قبيلة فرجيوة (المركز التقني لمسح الأراضي لولاية قسنطينة، رقم : 131)

كانت تعيش على أراضي العزل بأكثر من 15 ألف أسرة (12،15 أسرة) أي أكثر من 90000 نسمة، وتضم خاصة قبائل سراوة، الزناتية، أولاد دراج، دريد، أولاد عزام، أولاد بن خلوف، أولاد رحمون، بني قشي، بني مروان، بني ريان وأولاد سلام،[1] وقد كانت منطقة قالمة أكثر جاذبية للقبائل الجبلية من الأوراس وجرجرة، وقد استقر الأوراسيون بشرق وجنوب المنطقة في حين استقرت قبائل جرجرة بالشمال والغرب.[2]

ومن أهم نتائج نظام العزل كذلك تشتت القبائل الأصلية ذات الروابط الدموية وتكوين قبائل مختلفة الأصول تجمعها المصالح الاقتصادية، وهي ما أطلق عليها اسم القبائل المخزنية وهو ما ينطبق على الزمول[3] والدواير[4] بشكل خاص، التي فقدت أهم صفة للقبائل وهي العصبية القبلية والتمسك الشديد بالأرض، حيث أن هذه القبائل أصبحت ترحل من اقطاع إلى آخر دون أي اعتراض، وذلك أن البايات كانوا ينقلون هذه القبائل من مكان إلى آخر حسب مصلحة الباي نفسه،[5] أو حسب حاجة البايلك وهو ما تعرضت له قبيلة الزمول التي تمركزت في بداية عهدها في الجزء الأعلى من وادي الرمال قرب قسنطينة؛ إذ بعد اتساع القبيلة، بسبب انضمام عناصر جديدة إليها، نقلها الباي أحمد القلي إلى تيقمرت (عقبة الجمال) بين مسو وبومرزوق، وفي عهد صالح باي نقلت إلى

---

1 Nouchi (A): Op.cit, pp 81-82.

2 Bebes (Leila):Mythe …pp 27-28.

3 **الزمول**: هي القبائل التي تكونت من عناصر مختلفة وضعت نفسها تحت خدمة الباي عسكريا واقتصاديا. حول الموضوع أنظر، سيساوي أحمد: المرجع السابق، ص ص 33-34.

4 **الدوائر**: هي القبائل المنتمية إلى أصل واحد وجاءت لتستقر بأراضي العزل وتخدم البايلك عسكريا مقابل بعض الامتيازات الاقتصادية، وقد كان للأسر المحلية الحاكمة نفسها دوائر خاصة تخضع لأوامرها.

5 كان باستطاعة الباي أن يأخذ الأرض من المستفيدين بعد أن قاموا بإصلاحها وذلك إما لبناء مسكن ريفي له أو لتوزيعها على بعض أتباعه المخلصين من الموظفين السامين، وقد أكدت المصادر أن الفضل يعود إلى قبائل الزمول في إصلاح أراضي جنوب وغرب قسنطينة التي كانت بورا.

السهول الواسعة بعين مليلة (45 كلم جنوب قسنطينة) بين جبل قريون و"نيف النسر" حيث استقرت نهائيا،[1] وقد بقيت هذه الأراضي رغم انتقال بعضها إلى ملكيات خاصة[2] أراضي بايليكية استطاعت السلطات الفرنسية، بمجرد احتلالها للمنطقة أن تستولي عليها باعتبارها أرضي البايلك وهو ما قررته لجنة *S.C* في حق أراضي عزل الفسقية الذي قدر بـــ 214 هكتار، وكانت تستفيد منه11 أسرة من بينها أسرة بولخراص بن قانة،[3] ونفس المثال ينطبق على بقية أراضي العزل منها أراضي السمندو ووادي القطن غرب قسنطينة التي أعلنها أحمد باي القلي سنة 1170هـــ/1757م أراضي عزل جلب إليها عددا من القبائل كان معظمها من القل وميلة وجيجل ليشكل منها فرق عمل بهذه الأراضي.[4]

بعد أن استعرضنا كيفية توزيع الأراضي بالبايلك ومدى استفادة العناصر المحلية من أراضي العزل، فإنه من المهم تسليط بعض الضوء على وضعية الفلاح في هذه الأراضي وعلاقته بصاحب الإقطاع.

تتفق معظم المراجع على أن علاقة الفلاح بصاحب الأرض كانت عادة علاقة خماسة، أي العمل مقابل 1/5 الإنتاج، وأن الخماس كان محظوظا بالعمل في عزل البايلك لأنه لم يكن يعمل سوى 90 يوم في السنة بمعدل 9.43 فرنك في اليوم الواحد، ولا يستهلك سوى حوالي كيس واحد من القمح شهريا وكيس من الشعير كعلف لحيواناته في 15 يوم، في حين يبلغ نصيبه من الإنتاج حوالي 309 فرنك،[5] وهو دخل معقول، إذا ما قورن بمستوى المعيشة السائد آنذاك، حيث كان كيس القمح الواحد لا يساوي أكثر من 2.5 فرنك.

---

1 Vayssette: Idem, pp 128-130.

2 Galissot (R) Et Autres: Op.cit, pp153-154.

3 أنظر المركز التقني لمسح الأراضي لولاية قسنطينة، قبيلة الزمول رقم: 268.

4 Babes (Leila): Tribute …, p 53.

5 القيشاعي فلة: المرجع السابق، ص ص 134-135.

وقد عبر "صالح العنتري" عن رخص المواد الاستهلاكية في العهد العثماني بالمقارنة مع فترة الاستعمار الفرنسي بقوله: "أن البقرة الغاية في ذلك الزمان تباع بأربعة أريلة وخمسة والكبش الغاية يباع بخمسة أثمان 5/8 والكيلو منه بتونسية أي صوردي نية، وقدحة الزبدة التي تزن زوج كيلو (2 كلغ) أو أزيد بربع ريال ¼ والرطل[1] من التمر بريالين ونص وسائر المكولات (كذا) ... وقد كانت قيمة الزرع قبل تلك المجاعة[2] والقحط ما بين ريال وريال ونصف للصاع الواحد ..."[3]

وكان على صاحب العزل احترام رغبة الفلاح[4] في البقاء بالأرض أو الرحيل ومعاملته معاملة حسنة، حتى يضمن بقاءه بالأرض، أما إذا أخل بعمله فلصاحب الإقطاع الحق في طرده وتعويضه بغيره، كما كان على صاحب الأرض توفير ما يحتاج إليه الفلاح من مأكل وملبس ومسكن إلى حين الإنتاج، وهو ما جعل هذا الأخير يجتهد للحفاظ على عمله بالإقطاع فيلتزم بدفع ما عليه من ضرائب بانتظام ويضيف عليها كل ربيع خروفا واحدا على كل جابدة وفي الشتاء حملا من الحطب ودجاجة و10 بيضات.[5]

2. **نظام الضرائب:** تتفق معظم المصادر على أن العثمانيين لم يرفعوا من قيمة الضرائب الشرعية بالجزائر؛ إذ بقيت على ما كانت عليه في العهدين الحفصي والزياني، بل أن الحكام العثمانيين خلصوا العديد من القبائل من العوائد[6] التي

---

[1] الرطل يعني 92.5غ

[2] يعني بها المجاعة التي ضربت المنطقة بعد ثورة إبن الأحرش 1219هـ/1804م.

[3] العنتري (صالح): مجاعات قسنطينة، ص ص 34-35.

[4] الفرق بين الفلاح والخماس هو أن الأول كان يشتغل بأرضه خلال الجزء من السنة والباقي لمصالح صاحب العزل، أما الخماس فكان يعمل طوال السنة بالعزل مقابل 5/1 الإنتاج. القيشاعي: المرجع السابق، ص 128-129.

[5] Nouchi (A): Op.cit , p83.

[6] ضرائب كانت تدفعها القبائل المستقرة إلى العربان حتى تمنعهم من نهب مزارعها.

كانت تدفعها للعربان، إلا أن هذا ينفي تفنن العثمانيين في اختراع أنواع من الضرائب الإضافية وغير الشرعية أرهقوا بها الفلاحين خاصة في نهاية حكمهم (نهاية القرن 12هـ/18م). وللتعرف على هذه الأنواع من الضرائب نلخصها فيما يلي:

1. **الضرائب الشرعية**: وتتمثل في الزكاة والعشور وتفرض الأولى على الماشية والثانية على الزرع وكانت ضريبة العشر، تساوي 10/1 الإنتاج، تفرض على جميع الأراضي التابعة لمراقبة البايلك سواء كانت أرض عرش أو ملك، تساوي صاع من القمح وآخر من الشعير ومقدار من التبن و13.25 بوجو على كل جابدة، إلا أن هذا المقدار لم يكن ثابتا في كل الأراضي وكل الفترات بل حسب ما تمليه طبيعة العلاقة التي تربط أصحاب الأرض بالسلطة الحاكمة وحسب خصوبة الأرض،[1] وهذا يعني أننا لا نستطيع تحديد قيمة هذه الضرائب بالنسبة لبايلك قسنطينة وإن كان الباحث نوشي قد حددها حسب إحصاء 1840م بـــ " العشر........................400000 فرنك أو اقل.

الحكور.....................360000 فرنك إلى 720000.

الغرامة (الزكاة).............600000 فرنك على المواشي.

اللزمة ....300000 فرنك"[2]

إلا أننا لا يمكن أن نسلم بهذا الإحصاء لأن هناك إحصائيات أخرى مغايرة له، ويعود سبب هذا التضارب إلى عدم وجود سجلات منظمة تعود إلى الفترة المدروسة، ومن بين القبائل التي كانت مطالبة بدفع الضرائب الشرعية هي القبائل القوية بالبايلك وعلى رأسها الأسر الحاكمة موضوع هذه الدراسة وقد كانت الأسر المحلية تستفيد بدورها من نصيب من هذه الضرائب.

2. **الضرائب غير الشرعية (الإضافية)**: عكس الضرائب الشرعية كانت هذه الضرائب كثيرة ومختلفة التسميات تفرض على الموظفين وشيوخ القبائل منها:

---

[1] De paradis (V): Op.cit p 53.

[2] Nouchi (A): Op.cit , p109.

1. **ضيفة الدنوش (أو حق البشماق)**: وكانت تفرض على الموظفين السامين منهم الباي وقد عرفت انخفاضا ملموسا في نهاية العهد العثماني على حساب الضرائب المفروضة على الرعية.
2. **البشارة أو الفرح**: وكانت تقدم كل 6 أشهر من طرف شيوخ القبائل وعرفت إرتفاعا محسوسا في نهاية الحكم العثماني.
3. **مهر الباشـــا**: ضريبة على الخيل تفرض على القبائل من 600 إلى 7000 حصان لإيصال دنوش الباشا.
4. **حق البرنوس**: ضريبة يدفعها شيوخ القبائل والأسر الحاكمة عند تلقيهم قفطان التعيين، وتختلف قيمة هذه الضريبة من شيخ إلى آخر حسب أهمية المنطقة التي يسيطر عليها، فكان شيخ العرب على سبيل المثال يدفع 20000 بوجو ثم انخفضت القيمة إلى 10000 بوحو عند تولي أسرة إبن قانة هذا المنصب، وفي عهد الحاج أحمد أعفيت الأسرة نهائيا من دفع الضريبة، في حين كان شيخ الحنانشة وشيخ أولاد مقران يدفعان 10000 بوجو، أما شيخ فرجيوة فلا يدفع سوى 500 بوجو.[1]

هذا بالإضافة إلى عدد كبير من الضرائب مختلفة التسميات والأحجام مثل "المشيرخ" وتفرض على كبار شيوخ القبائل، "المقاد" ضريبة على الخيل "البقراج" ضريبة على السمن والعسل "الحق" وهي الهدايا الجبرية التي كانت تدفع من طرف الرعية لمختلف الموظفين كالإكراميات في مختلف المناسبات[2].

والحقيقة أن كل باي كان يحدد الضرائب الإضافية بكل حرية وحسب ما تتطلبه الدولة، بل كان الباي يسعى بكل شكل لرفع قيمة الضريبة لإرضاء الباشا الذي لم يكن يهمه غير رفع قيمة الدنوش كلما رفع الباي من قيمة

---

[1] A.M.G., H228, p10 et suit.

[2] حول تفاصيل الموضوع أنظر: Nouchi (A): Op.cit , p127.

الضريبة المفروضة على الرعية.[1] وقد استمرت هذه الضرائب في الإرتفاع خاصة بعد انخفاض موارد الخزينة لنقص النشاط البحري، حتى عمت، في نهاية القرن 12هـــ/18م، جميع القبائل، حتى التي كانت معفاة منها الأمر الذي أدى إلى اندلاع الثورات المحلية، كما أن السباق نحو جمع المزيد من الأموال قد تسبب في انهيار النظام الإداري بالبايلك إذ كما أسلفنا، كانت قيادة الأوطان ومشيخة القبائل قد أصبحت تمنح لمن يدفع أموالا أكبر، بل كان الشيخ يخلع من منصبه أو يقتل لا لسبب إلا لأنه غني ويجب الاستيلاء على أمواله.

أمام هذه الأوضاع وبعد فوات الأوان عمل الحاج أحمد باي، كسبا للرأي العام بالبايلك، على إلغاء الضرائب الإضافية والإكتفاء بالضرائب الشرعية التي عمل على تقنينها فوضع لضريبة العشر قائدان (قائد العشر) أحدهما يختص بتحديد قيمة هذه الضريبة بشرق البايلك بالتعاون مع شيوخ المنطقة والثاني بغرب البايلك[2]. إلا أن مثل هذه الإصلاحات التي كان يقوم بها بعض البايات، منهم صالح باي، لم تكن في الحقيقة سوى تغير في الشكل والتنظيم لا في حجم الضرائب المفروضة على الرعية لأن مقياس الضريبة بقي خاضعا لحاجة السلطة الحاكمة المتزايدة للأموال ومدى قوة الحاكم وقدرته على جمع المزيد من الضرائب بالقوة، وهو ما يمكن ملاحظته من الفرق بين قيمة الضريبة التي كان صالح يأخذها من سلاطين تقرت وتقدر بــــ 1 مليون فرنك سنويا[3] وبين ما كان يأخذه الباي أحمد المملوك من نفس المنطقة وهو 500 ألف فرنك أي نصف المبلغ،[4] كما كانت الضريبة تختلف من قبيلة إلى أخرى وبذلك يمكن تصنيف القبائل حسب ما كانت تدفعه من ضرائب وهي:

---

[1] De paradis (V): Op.cit, p127.

[2] A.M..G H 228.

[3] يعلق الباحث شيربونو (Cherbonneau) على الموضوع بقوله أنه رقم مبالغ فيه لأن دخل بايلك قسنطينة لم يكن يزيد عن 1 مليون فرنك. أنظر:

Inscriptions Arabes de la province de Constantine, In R .S. A.C. 1856, 57, p 117.

[4] Cherbonneau (A): Op.cit, p117.

• **قبائل مستعصية:**

وهي البعيدة عن مركز الحكم ولا تدفع الضرائب إلا بالقوة، وتكون الضريبة عندئذ نقدا وكرها،[1] وهو ما كانت تعتبره هذه القبائل غرامة حربية، وتعتبر قبائل الشمال القسنطيني من هذا الصنف، وكذلك جنوبه ابتداء من تقرت حتى سوف وأعالي جبال الأوراس، وجميع هذه القبائل لا تعترف بسلطة غير سلطة شيوخها، وتفاديا للصدام مع هذه القبائل كان البايات يتركون حرية التصرف لشيوخ الأسر الحاكمة بهذه المناطق ويقْنعون بما يدفعه هؤلاء لهم من ضرائب، وإذا علمنا أن "شيخ أولاد امقران كان يتزعم 12000 خباء أو كوخ، وشيخ الحنانشة 9000 خباء وشيخ الأوراس 5000 خباء، وقائد الساحل (البابور) 8000 خباء وقائد الحراكتة 6969 خباء فإننا نجد أن مجموع 40969 خباء لا يدخل ضمن النظام الضريبي للبايلك، وإن كان هؤلاء ملزمين بدفع الضريبة لشيوخهم..."[2] بل كثيرا ما كان البايلك هو الذي يدفع الضريبة للقبيلة حتى يتقي شرها، وهو ما طبق في منطقة البيبان.

• **القبائل المخزنية:**

وهي القبائل الموالية للسلطة وتكون عادة معفاة من الضرائب، وإن كانت هذه القبائل نفسها تختلف من حيث الامتياز الممنوح لها، فإما أن تخفف عنها الضرائب فقط وإما أن تعفى منها نهائيا.[3] وتكون هذه القبيلة عادة قريبة من مقر السلطة المركزية، وقد عبر الرحالة الورثيلاني عن هذه الامتيازات وما تسببه من شقاق بين الرعية بقوله: "فريق في القرية وهو المتمكن المعتصم بأولى الولاية من

---

1 De paradis (V): Op.cit, p 53.

2 قدرت القبائل الستعصية, حسب إحصاء جانفي 1842م بـــ 46250 خباء أو كوخ، مقابل 18995 خباء يدفع ضريبتي الحكور والعشور. أنظر: Noushi (A) , p 109.

3 Peyssonnel: Op.cit , pp 365-373.

الترك والمتمسك بجاههم، إذ من تمسك بهم تفرعن على غيره، وفريق آخر خارج عنها..."[1]

- **الرعية:**

وهي القبائل الخاضعة لمختلف أنواع الضرائب الشرعية والإضافية، ويدخل هؤلاء الفلاحون والتجار الصغار والحرفيون، وغيرهم من العمال المستغلون في الأعمال الفلاحية والصناعية العامة سواء بالريف أو المدن، ولم يكن هؤلاء يخضعون لضغوط السلطة الحاكمة فحسب بل كانوا تحت ضغط الإقطاعية المحلية والإقطاعية التركية التي تكونت من أسر البايات والموظفين السامين.

وأقسى ما كانت تخضع له هذه الفئة من القبائل هي ضريبة الضيفة التي تحتم على الفلاح تحمل قساوة رجال المحلة الذين، حسب الرحالة *Peyssonnel* كانوا يقصدون أحسن خيمة فيشاركون صاحبها فراشه وأكله ويأخذون أحسن ما عنده دون أن يسمح له بالاحتجاج، بل كان يتحمل منهم أبشع الإهانات والإذلال ولم يكن أمامه غير الصبر وانتظار ساعة رحيلهم عن القرية[2].

رغم تعدد وثقل هذه الضرائب فإننا نجد أن العديد من الباحثين والرحالة الأجانب يؤكدون على بساطتها وعدم تأثيرها على معيشة الفلاح الجزائري فالرحالة *Peyssonnel* يقول عن حالة الفلاح ببايلك قسنطينة "إن الضرائب لم تكن سببا في فقر الفلاح بهذه المنطقة، بل كانت حافزا له على زيادة إنتاجه لأنه لولا الضرائب لاكتفى بالقليل من الإنتاج، كما أنني لم ألاحظ فرقا بين معيشة الفلاح الخاضع للنظام الضريبي والفلاح الذي لا يدفع الضريبة"،[3] أما الباحث *Nouschi* فيقول في تحليله للموضوع: "أن ضريبة البايلك لم تكن ثقيلة

[1] الورثيلاني: المصدر السابق، ص 114.

[2] Peyssonnel: Op.cit , pp 212-213.
[3] Ibid pp 212-213.

كما نتصورها لأن الباي كان يهمه الحفاظ على علاقته الطيبة بالفلاح وضمان بقائه بالحقل، إذ كان يعلم أن القضاء على الفلاح يعني القضاء على الفلاحة والنشاط الاقتصادي بالبايلك، وحتى إن كان لهذا النظام الضريبي عيوب كثيرة فإن مزاياه غطت عيوبه"،[1] وقد أشار الباحث إلى نصيحة القادة الفرنسيين للسلطات الإستعمارية بإتباع نفس السياسة الاقتصادية لتثبيت سلطتهم بالبلاد.

مهما كانت هذه التحليلات صحيحة فإن الضرائب أرهقت الرعية خاصة في نهاية العهد العثماني، الأمر الذي جعل الفلاح يلجأ إلى عدة طرق للتهريب من دفعها منها:

- العمل على إخفاء محاصيله الزراعية في مطامير لا يعرف مكانها إلا هو أو أقرب الناس إليه، ويتظاهر بالبؤس حتى لا يُجبر على دفع الضريبة[2].
- إهمال الزراعة والالتجاء إلى تربية المواشي حتى يسهل تهريبها في الوقت المناسب.[3]
- التجأ الأهالي إلى الوقف الأهلي، فأوقفوا أراضيهم وأملاكهم على الزوايا والمؤسسات الخيرية حتى تُعفى من الضريبة ولا تستطيع الدولة مصادرتها.[4]
- هجرة العديد من القبائل لأراضيها والتحاقها للعمل بأراضي العزل، أما المستفيد الأول من هذه الضرائب فهم البايات الذين تحولوا نتيجة لما تجمع لديهم من أموال إلى رأسماليين كبار، وقد توارث أبناءهم هذه الأموال وهذه الصفة، ولعل الباي "أحمد القلي" كان خير مثال على هذه الصفة، حيث ترك ثروة ضخمة قام ابنه "محمد الشريف" ثم حفيده الحاج أحمد بتنميتها وتوسيعها، ولحسن الحظ فإن الأرشيف العثماني احتفظ لنا بوثيقة هامة تبرز مدى أهمية

---

[1] Nouschi: op.cit, pp 115-116.

[2] Féraud (Ch): Les Hrars …Op.cit , p19.

[3] يقول صالح العنتري أن إهمال الزراعة في العهد العثماني يعود أيضا إلى بخمس أثمان الحبوب.

[4] بلغت أراضي الوقف ببايلك قسنطينة حوالي 1/3 الأراضي الزراعية. أنظر، سعيدوني: دراسات في الملكية، ص77.

هذه الثروة، وتتمثل في سجل قروض الخليفة محمد الشريف بن أحمد باي وهو مخطوط[1] سجلت عليه مداخيل الأسرة ومصاريفها ومنتوجاها المنتشرة بمدينة قسنطينة وأريافها وأموالها السائلة وثروتها الحيوانية، وما كان يصلها من حكور على أرضيها بالأرياف وما كان يأخذه الخليفة من ضرائب على شيوخ القبائل الخاضعة لإدارته.

وكل ما يمكن قوله هنا هو أن السجل يعتبر من الوثائق النادرة التي تبرز مدى سيطرة أسر البايات على الثروات المحلية، وإن كانت ثروة العنصر التركي حسب تعبير القنصل الأمريكي شالر" شيئا محفوفا بالخطر طوال حياته عكس الجزائري الذي كانت ثروته مضمونة"[2] ذلك أن ثروة التركي كانت مرهونة بمنصبه السياسي فإذا فقده فقد ثروته، كما أن ثروة التركي، حسب نفس المصدر كانت تتحول عادة بفعل المصاهرة إلى العائلات الكبيرة من الأهالي،[3] وهو ما حدث لأموال صالح باي بعد مقتله، حيث استولى أصهاره من أسرة إبن جلول على جزء كبير منها،[4] ولعل هذا ما كان يخشاه الحاج أحمد باي من بوعزيز بن قانة،[5] إلا أن هذا لا ينفي أن أسر البايات كانت تسيطر على

---

[1] بيان الداخل في حكر بلادات سيدي "محمد بن أحمد باي"، سجل سميك، ضمن سجلات بيت المال، المركز الوطني للدراسات التاريخية بالجزائر، رقم 36 ب، علبة 370-386، رقم 508.

[2] شارل وليام: مذكرات وليام شالر، قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824، تعريب وتعليق وتقديم: إسماعيل العربي، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1982، ص 78.

[3] شالر وليام: نفس المصدر، ص 78.

[4] Gaid (Mouloud): Chronique des beys …,p42.

[5] يقول الحاج أحمد في مذكرته أن خاله بوعزيز بن قانة كان يخطط للاستيلاء على أمواله. أنظر، مذكرات أحمد باي، ص ص 77 و 84.

اقتصاديات البايلك طوال فترة الحكم العثماني، وقد بقي بعض أحفاد بايات قسنطينة يطالبون أجدادهم حتى اليوم وكأنها أملاك خاصة.[1]

3. النشاط التجاري:

نتيجة للأموال التي تجمعت بين أيدي البايات تحول هؤلاء إلى تجار حقيقيين،[2] فكانوا يمارسون التجارة الداخلية والخارجية لحسابهم الخاص وكانوا ينافسون في ذلك كبار التجار المحليين وعلى رأسهم شيوخ الأسر المحلية الحاكمة، وإن كان اهتمام البايات بالتجارة الخارجية أكبر من التجارة الداخلية لأن ذلك يدر عليهم أرباحا أكبر.

- **التجارة الداخلية :**

أطلق البايات حرية التجارة الداخلية لشيوخ القبائل والأسر المحلية الحاكمة، بل اعتمدوا عليهم أساسا للإشراف على الأسواق العامة،[3] والتظاهرات الاقتصادية السنوية فقد كان شيخ العرب يشرف شخصيا على أكبر تظاهرة اقتصادية بالبايلك وهي المعرض السنوي الذي كان يقام بوادي العثمانية، غرب مدينة قسنطينة،[4] ولم يكن البايات يتدخلون في ذلك إلا بما يضمن أمن السوق وسلامة التجار به، وذلك بتجنيد قبائل مخزنية تكلف بحفظ الأمن بالأسواق.

وقد كانت هذه السياسة سببا في جذب مختلف القبائل للاتجار بأحواز قسنطينة، التي تحولت إلى أهم مركز تجاري بالبايلك،[5] بل أن البايات كانوا

---

[1] سلمني أحمد الأخوة (أحمد بن القاضي) صورتين لطلبين من السيد "الباي الجيلالي بن عدة بن قدور الباي" يطالب فيهما بحق أسرته في تركة الحاج أحمد باي وعلى رأسها قصره، بحي القدس بقسنطينة، وكان الطلب الأول مؤرخا في1968/8/15 والثاني في 1981/3/16. (الصورتان بحوزتي).

[2] De Paradis (v): Op.cit, p285.

[3] تعتبر أسواق تبسة، سطيف، أولاد عبد النور، التلاغمة، وورقلة، والوادي من أهم أسواق البايلك.

[4] الزبيري (محمد العربي): التجارة الخارجية للشرق الجزائري، ش.و.ن.ت، الجزائر، ص 112.

[5] Temimi (A): Op.cit, p51.

يتقربون من شيوخ القبائل عن طريق الامتيازات المادية المختلفة لتشجيعهم على الوصول إلى عاصمة البايلك لتمويلها بما تحتاج من مواد استهلاكية، من جهة وتسهيل سيطرتهم على القبائل من جهة ثانية، وكانت نتيجة هذا الاحتكاك بين قسنطينة وأريافها أن تكونت علاقات مصلحية بين شيوخ القبائل بالريف وبين أعيان مدينة قسنطينة من الموظفين والحرفيين الذين مارسوا الأعمال التجارية، على غرار حكامهم البايات فكان شيوخ القبائل يقومون برعاية مصالح هؤلاء بالريف في حين كان أعيان المدينة يشرفون على مصالح شيوخ القبائل بالمدينة، وهذا ما دلت عليه رسالتان، أرسلهما الشيخ أحمد بوعكاز، شيخ فرجيوة إلى الحاج المكي بن زقوطة، أحد أعيان قسنطينة ومركانتي الحاج أحمد باي، يبلغه في الأولى بأنه أرسل له حكور أرض عرقوب الخيل بعد أن جمع محصولها، وفي الثانية يبلغه بأنه أرسل له الأموال التي كان قد اقترضها منه وتقدر بـــ 150 ريال ويشكره على ذلك.[1]

- **التجارة الخارجية:**

أما عن التجارة الخارجية فكان اهتمام البايات بها أكبر وخاصة البحرية، إذ بينما كانوا لا يفرضون أي قيد على التجارة البرية مع تونس وليبيا،[2] كانوا يضعون العديد من القوانين التي تقيد تجارة الأهالي مع الدول الأوروبية وخاصة فرنسا، بل كان البايات يشجعون التجارة مع تونس لأن خروج التجار في القوافل المحروسة يدر على البايلك أموالا هامة وخاصة عند رجوعهم من تونس بالسلع المختلفة، وكانت أسرة أحرار الحنانشة من أهم المستفيدين من هذه القوافل لطبيعة موقعها على الحدود التونسية ومشاركتها في حراسة هذه القوافل بالإضافة إلى مشاركتها في الأعمال التجارية مع تونس.

---

[1] الرسالتان ملك للشيخ عمر بن زقوطة، وقد سلمهما مع عدد من الوثائق الأسرية إلى أرشيف ولاية قسنطينة.

[2] كانت التجارة مع ليبيا وتونس أقرب إلى التجارة الداخلية منها إلى الخارجية باعتبارها تحت حكم واحد وهو الحكم العثماني، في حين كانت التجارة مع جنوب أوروبا تدخل ضمن السياسة الخارجية للدولة.

أما بالجنوب فكان سكان مدينة تقرت، مقر حكم أسرة إبن جلاب يتجهون بتجارتهم نحو بلاد الجريد التونسية، إذ كانوا لا يتصلون بالشمال على غرار أسرة بوعكاز الذواودة إلا نادرا كما كانت القوافل تتجه سنويا نحو ليبيا والحجاز للتبادل التجاري،[1] وكان البايات لا يتدخلون في ذلك إلا بقدر يضمن لهم مقدارا معينا من الربح، كما كان هؤلاء يمارسون هذه التجارة بأنفسهم ويعتمدون في ذلك على وكلاء من الجزائريين، وكانوا يستعملون نفوذهم السياسي لإتمام صفقاتهم التجارية[2] من جهة وحل مشاكل التجار الجزائريين بالبلد المجاور من جهة أخرى.

أما عن التجارة البحرية فالأمر يختلف؛ إذ كانت أكثر إغراءً للتجار الجزائريين والبايات على حد سواء، فقد كانت الشركة الفرنسية بالقالة أو ما يسمى بالباستيون الفرنسي[3] مصدر ربح كبير للتجار الجزائريين ببايلك قسنطينة، وخاصة القبائل القريبة منه وعلى رأسها أحرار الحنانشة الذين كان زعيمهم بوعزيز يتعامل شخصيا مع الشركة ويجني من ورائها أرباحا طائلة وخاصة بعد أن تعدت الشركة امتيازاتها الرسمية والمتمثلة في صيد المرجان، إلى استيراد الحبوب والجلود والشمع من القبائل لتقوم بتصديرها لحسابها إلى أوروبا، ورغم سماح الدولة للشركة الفرنسية بتصدير 15 صاع قمح من عنابة بسعر السوق فإن القبائل كانت تقدم للشركة أكثر من ذلك معتبرة ذلك

---

[1] العربي الزبيري: المرجع السابق، ص ص 152-188.

[2] أرسل الباي أحمد المملوك رسائل إلى حسين باي تونس يوصيه فيها بالاهتمام بالبضائع التي أرسلها للبيع في تونس منها رسالة مؤرخة في شعبان 1237هـ/1822م، يعلمه بأنه وجه إلى تونس علي بن عاشور يقصد بيع 450 جمل و100 ثور و1000 كبش ويوصيه برعاية أمواله بالإيالة التونسية. (الرسائل بالمحفوظات التونسية D.384-C223 وتوجد صور عنها بأرشيف ولاية قسنطينة.)

[3] **الباستيون**: ومعناه الحصن، يقع على بعد 3 أميال (12 كلم) غرب القالة، وقد وصفه الرحالة الانجليزي شو بقوله: هو بيت جميل تحيط به حدائق بها 300 صياد للمرجان، وكذلك فرقة مشاة وعدة قطع للمدافع وساحة للسلاح". أنظر: المصدر السابق، ص122.

الإجراء الحكومي تدخلا في شؤونها الداخلية،[1] وهو ما كانت ترفضه بشدة كما كانت ترفض بيع سلعها للبايات الذين عملوا على احتكار تصدير هذه السلع ويفضل بيعها مباشرة إلى التجار الأوروبيين وخاصة تجار مرسيليا لأن ذلك كان يدر عليها أرباحا أكبر.

لهذا السبب تمسكت هذه القبائل وعلى رأسها أسرة أحرار الحنانشة باستمرار الامتياز الفرنسي بالباستيون، إذ بالإضافة إلى الأرباح التي كانوا يجنونها من التجار، كانت الشركة الفرنسية تدفع حسب ما أورده الرحالة *Peyssonnel* ضرائب سنوية قدرت بـــ 6000 ريال لباي قسنطينة و1000 ريال لباي تونس و1000 ريال للقبائل القريبة من الباستيون كهدايا لمنعهم من سلب السلع التي كانت تورد إليها والتي كانت تصل إلى 100.000 حمولة قمح سنويا.[2] وقد كانت ثورة الحنانشة سنة 1637 بقيادة شيخ أحرار الحنانشة خالد بن نصر (خالد الصغير) إثر تحطيم الباستيون الفرنسي، خير دليل على تمسك هذه الأسرة الحاكمة بحريتها التجارية والدفاع عن مصالحها المتمثلة في الاتجار مع الشركة الفرنسية، وقد رفضت القبائل الشرقية دفع ما عليها من ضرائب احتجاجا على ذلك الإجراء، معلنة أن الباستيون هو مصدر استرزاقها ولا يمكنها دفع الضرائب إلا بعودة نشاطه وفعلا لم تهدأ ثورة خالد بن ناصر وحليفه أحمد بن السخري إلا بشروط أمضى عليها القائد العثماني من بينها إعادة بناء الباستيون الفرنسي.

بهذه الطريقة كانت الأسر الحاكمة تفرض قوانينها، التي كانت تمليها مصالح القبائل الاقتصادية على حكام البايلك الذين رغم سنهم لعدد من

---

[1] De Paradis: Op.cit pp125-126.

[2] أنظر، *Peyssonnel* المصدر السابق، ج 1، أما الرحالة *Shaw* فيقول أن الشركة الفرنسية كانت تدفع 34 ألف ريال توزع على داي الجزائر وقائد بونة ورؤساء العرب المجاورين للقالة.

القوانين لتقيد التجار المحليين وجعل التصدير حكرا على الدولة وموظفيه[1] كانت القبائل لا تحترم أي قانون يمس مصالحها مهما كان مصدره وتعلن العصيان عليه، وهو الأمر الذي حتم على الحكام انتهاج سياسة التقرب من الأسر الحاكمة للتعاون معهم في فرض القوانين الاقتصادية على أتباعهم.

وبهذا يمكن القول أن الأسر المحلية الحاكمة والعناصر المحلية بصفة عامة سواء كانت حضرية أو ريفية، لعبت دورا كبيرا في تسيير شؤون البايلك الإدارية والاقتصادية وفرضت قوانينها العرفية على الحكام الذين لم يجدوا بدا من مسايرتها والتقرب إليها لكسب ولائها وبالتالي كسب ولاء أتباعها، ونظرا لقوة هذه الأسر وخطرها على الحكم المركزي في حالة ثورتها على الحكام انتهج بايات قسنطينة سياسة ناجعة تجاه هذه الأسر لضمان ولائها التام والدائم، وهو ما سنتعرض له في الفصل الموالي من الكتاب.

---

[1] عقد الباي بوحنك في 15 جوان 1714م معاهدة مع دوماول، حاكم مدينة القالة وممثل أعضاء الشركة الإفريقية، ليتقاسم فيها الطرفان الفائدة التجارية على حساب السكان الذين حرموا بمقتضى المادة الخامسة من المتاجرة واكتيال القمح والشعير والفول من عنابة حتى لا ينافسوا الحاكم المذكور في هذه التجارة.

سياسة بايات قسنطينة تجاه الأسر المحلية الحاكمة.

قبل التعرض إلى سياسة البايات تجاه الأسر المحلية سنتعرض بإيجاز لأهم المراحل التي مر بها الحكم العثماني ببايلك قسنطينة وهي ثلاث مراحل كبرى، لم تختلف في سياستها العامة بقدر اختلافها في قوة أو ضعف تطبيق هذه السياسة وهي:

- **المرحلة الأولى:**

من تاريخ دخول العثمانيين قسنطينة حوالي (940هـ/1534م) حتى سنة (1057هـ/1647م)، تاريخ بداية الحكم الرسمي للعثمانيين بالمدينة، وهذا حسب ما جاء به العنتري.[1] وقد اتسمت هذه الفترة بالغموض التاريخي والكوارث الطبيعية كالمجاعات والأوبئة إلى جانب عدم الاستقرار الذي تمثل في قيام العديد من الثورات،[2] وقد خضعت المنطقة كما أوضحنا في الفصل السابق إلى قيادات عسكرية لم تحاول فرض سيطرتها العملية على المدينة ولا على أريافها.

- **المرحلة الثانية:**

من (1057هـ/1647م) إلى (1125هـ/1713م) وهي فترة حكم البايات العرب حسب كل من العنتري وأحمد بن العطار[3] إذا احتكرت أسرة فرحات والعناصر العربية الحكم في قسنطينة وكان الباي في بداية الفترة ينتخب من طرف أعيان المدينة ثم أصبح يعين من قبل الباشا ويختار من بين أبناء نفس الأسرة، وقد تميزت الفترة بالهدوء إذ عمل البايات خلالها على التوفيق بين شيوخ القبائل والأسر الحاكمة والسلطة المركزية.

---

1 صالح العنتري: الفريدة المؤنسة، ص ص 3-4.

2 شهدت قسنطينة في هذه الفترة عدة مجاعات أهمها مجاعة 1582م وقد سبقها جفاف دام 9 سنوات ووباء سنة 1602-1603م. أما الثورات فأهمها ثورة (1567-1572م) بين المناصرين للعثمانيين والمعارضين لهم ثم ثورة سيدي يحي الأوراسي 1600م وآخرها وهي أهم وأخطر ثورة عرفها البايلك قبل ثورة إبن الأحرش 1804م، وهي ثورة الصخري بوعكاز سنة 1637-1639. أنظر، عبد الكريم الفكون: المصدر السابق، ص ص 48-55 وغيرها.

3 أنظر الفصل السابق.

- **المرحلة الثالثة:**

وتمتد من (1125هـ/1713م) تاريخ بداية احتكار العنصر التركي للحكم بقسنطينة إلى نهاية العهد العثماني بالبايلك (1252هـ/1837م) وهي أطول وأهم فترة، تميزت باحتكار الأتراك لمنصب الباي والتخلي عن مبدأ استشارة جماعة المدينة في اختيار الحاكم، كما اتسمت بتشديد قبضة العثمانيين على البلاد واتساع نفوذهم عبر أرياف البايلك حتى الصحراء، وقد ساد هذه الفترة كثير من الأمن والاستقرار بفضل قوة عدد من البايات البارزين أمثال أحمد القلي وصالح باي إلا أن الفترة نفسها انقسمت من حيث القوة والضعف إلى ثلاث مراحل متمايزة:

1°. فترة قوة واستقرار: وامتدت من (1125هـ/1713م) إلى (1185هـ/1792م) وتميزت بقوة باياتها وسيطرتهم على الوضع بالبلاد سيطرة كبيرة وخير دليل على ذلك طول فترة حكم كل منهم، فقد حكم الباي حسين المدعو بوقمية مدة 18 سنة من (1125هـ/ 1713م) إلى (1149هـ/1736م) ثم ابنه حسين بوحنك لمدة 18 سنة أخرى (1149هـ/1736م) إلى (1167هـ/1754م) ليتولى بعده، الباي أزرق عينه لمدة سنتين إلا أنه، حسبما أورده العنتري، أنجز خلالها أعمالا إدارية هامة،[1] ثم الباي أحمد القلي ودام حكمه 15 سنة من (1170هـ/ 1756م) إلى (1185هـ/1771م)، أما صالح باي فكان أعظم بايات قسنطينة على الإطلاق وأطولهم حكما؛ إذ دام حكمه 21 سنة من (1185هـ/1771م) إلى (1206هـ/1792م).

وكانت فترة حكمه أزهى فترة عرفها البايلك تحت الحكم العثماني لما قام به من إصلاحات اقتصادية وإدارية وثقافية سبق فيها محمد علي باشا وإصلاحاته بمصر،[2] وخير وصف له قول الشيخ إبن العطار: "حسنت أيامه وبلغ

[1] أنظر، العنتري (صالح): الفريدة المؤنسة، ص ص 22-25.

[2] أعتقد أن صالح باي كان في مستوى عظمة وقوة محمد علي باشا حاكم مصر (1805-1850م) وقد سبقه في عملية الإصلاح الشامل للأمة، إلا أن صالح باي لم يجد المناخ المناسب لتحقيق طموحاته، ولو

ما لم يبلغه من هو أكبر منه ولاة الجزائر، وولاة تونس، وجمع ما لا يجمعه غيره، وبنى جامع سيدي الكتاني ودياره بالشارع وغرس البساتين المعتبرة وكانت له اليد العليا على صاحب تونس وغيره وبنى القنطرة... وعمر الوطن وسعدت الناس في دولته ودام نحو اثنين وعشرين سنة ..."[1].

2°. فترة ضعف وتقهقر: بدأت بانتهاء عهد صالح باي (1206هـ /1792م)، وتميزت بضعف من لحقه من البايات وتنافسهم على الحكم، وعلى الثراء على حساب الرعية، الأمر الذي طبع الفترة بكثرة الانقلابات والفوضى وهو ما يدلنا عليه تقلب عدد كبير من البايات على الحكم في فترة قصيرة، ففي مدة لم تتجاوز 34 سنة (1206-1240م/1792-1826م) تداول على الحكم 20 بايا وكثيرا ما كان حكم الباي الواحد لا يتجاوز عددا من الشهور أو الأيام،[2] وهو ما عبر عنه صالح العنتري بقوله: "تبدلت أحكام الترك وانقلبت حقائقهم وصار صغيرهم لا يوقر كبيرهم وبدأ النقص في حكمهم"[3] ويبدو، أن نفس الضعف والاستكان للراحة شهده الجيش الإنكشاري بالمنطقة في هذه الفترة؛ إذ اتجه الإنكشاريون بأعداد كبيرة إلى الحياة المدنية بإقدامهم على الزواج وبناء الحياة المستقرة بالمدينة.[4]

أتيحت له نفس الظروف التي توفرت لدى الباشا محمد علي لحقق بقسنطينة والجزائر ككل ما حققه محمد علي لمصر، وأعتقد أنه لو عاصر شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون (الحفيد) كما عاصر محمد علي الشيخ عمر مكرم لاستفادت منهما قسنطينة استفادة كبرى.

[1] إبن العطار: المصدر السابق، ص ص 69-70.

[2] أنظر قائمة بايات قسنطينة في نهاية مخطوط صالح العنتري، الفريدة المؤنسة.

[3] صالح العنتري: الفريدة المؤنسة، ص 39.

[4] لاحظنا خلال تصفحنا لسجلات العدول بمحكمة قسنطينة المالكية بأرشيف ولاية قسنطينة أن عدد عقود زواج الإنكشارية كان مرتفعا جدا بين سنة (1224هـ/1809م) وسنة (25-10/1226-1811م) في حين كان شبه منعدم في سنة (1202هـ/1787م).

3°. فترة حكم الحاج أحمد آخر بايات قسنطينة: (1241-1252هـ/1825-1837م) وهي فترة تميزت بقوتها وخصوصية أحداثها وانتهاج حاكمها لسياسة تختلف عن السياسة السابقة، باعتماد الباي سياسة تكفل له مساندة القوى المحلية وخاصة بعد استيلاء القوات الفرنسية على الجزائر واستعداد الباي للمقاومة، ولتنفيذ خطته وضع للبايلك إدارة محلية وجيشا تحت قيادة أحد رجال القبائل البربرية وهو علي بن عيسى من بني فرقان.

رغم اختلاف هذه المراحل من حيث تطور أحداثها وقوة أو ضعف حكامها فإن جميع البايات طبقوا سياسة عثمانية عامة بأوجهها المختلفة؛ أي الاكتفاء بما يقدم من ضرائب والتدرج في السيطرة على القبائل والمرونة في تطبيق القوانين وحرية كل باي شبه المطلقة في تسيير شؤون بايلكه، بل أنه حسب تعبير الرحالة بايسونال: "كان الباي لا يعرف قانونا غير إرادته"،[1] وحتى الباي نفسه كان يخضع قوانينه للظروف التي يشهدها بايلكه وبالتالي يمكن القول أن الأحداث هي التي كانت توجه سياسة البايات وليس العكس.

لهذا السبب لا يمكن إعطاء صورة واضحة وشاملة لسياسة بايات قسنطينة تجاه الأسر المحلية بل سنكتفي، كما فعلنا ذلك بالنسبة للوضع الإداري والاقتصادي، بعرض الخطوط العامة لهذه السياسة، لأننا على رأي الباحث "جب هاملتون": "حين ننتقل من التعميمات إلى التفاصيل نجد أنفسنا مواجهين بتعقيد مربك"[2] وتتلخص سياسة هؤلاء في أربع محاور أساسية:

---

[1] Peyssonnel: Op.cit, T1, p290.

[2] جب هاملتون و بوون: المرجع السابق، ج2، ص 82.

أولا. سياسة المصاهرة بين الحكام العثمانيين والأسر المحلية الحاكمة[1]

كانت المصاهرة بين البايات والأسر المحلية الحاكمة من أبرز الظواهر التي ميزت الحياة الاجتماعية ببايلك قسنطينة خاصة والجزائر عامة وكان البايات يهدفون من ذلك ربط مصير الأسر المحلية ذات النفوذ السياسي أو العسكري أو الديني بالسلطة المركزية وضمان ولائها الدائم للحكام أو على الأقل ضمان هدوئها وعدم إخلالها بالأمن خلال فترة حكم صهرها، وبما أن الأسر الحاكمة بالبايلك كانت معروفة ومناطق نفوذها واضحة فقد سهل على البايات معرفة أهمها وأخطرها فبادروا إلى مصاهرتها[2].

وكان أول من انتهج هذه السياسة من بايات قسنطينة، حسب ما توفر لدينا من مصادر حتى الآن، هو رجب باي الذي عمل على التقرب من أسرة بوعكاز بعد أن عجز عن إلزامها بالاعتراف بحكمه ودفع ما عليها من ضرائب للبايلك وكف يد العرب عن المساس بأمن البلاد وكانت مصاهرة الأسرة هي أنجع وسيلة لذلك، لذا عمد الباي إلى تزويج ابنته "أم هاني" الشهيرة بذكائها "للقيدوم" أخ شيخ العرب أحمد بن السخري صاحب أكبر ثورة محلية شهدها البايلك في القرن (11هـ/17م)،[3] ورغم وفاة القيدوم صهر الباي فإن علاقة الأسر به بقيت حسنة بل تعمقت وازداد بها الباي قوة؛ إذ بعد وفاة القيدوم

---

1 كانت سياسة المصاهرة بين الحكام العثمانيين والعناصر المحلية بالجزائر ظاهرة عامة بدءا بخيرالدين بربروس الذي تزوج من إحدى بنات أسرة إبن القاضي، حكام إمارة كوكو وكانت ثمرة ذلك الزواج ابنه حسن باشا، وقد توسعت هذه الظاهرة إلى أن أصبح معظم الحكام متزوجين من أسر جزائرية، بل أن حمدان خوجة يقول أن أعضاء الديوان كانوا "جميعا مسنين ومتزوجين من الأهالي". أنظر، المصدر السابق، ص 122, أنظر أيضا مذكرات شالر، ص 78.

2 سادت هذه السياسة أوروبا في القرون الوسطى وكانت من أبرز سمات العلاقة بين الملوك وقد أطلق على هذه المصاهرة اسم "الزواج السياسي". أنظر، سعد الله (أبو القاسم): تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16-20م)، ج1، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1981، ص158.

3 سيأتي الحديث عن هذه الثورة في الفصل الأخير من الكتاب.

تزوجت أم هاني حسب ما كانت تقتضيه عادة العرب من أخيه أحمد بن السخري شيخ العرب وأقوى شخصية بالصحراء، وهو ما جعل الباي يغتر بقوته بفضل تحالفه مع هذه الأسرة ويفكر في تكوين دولة مستقلة عن باشا الجزائر. ويبدو أن ذلك كان بوحي من ابنته أم هاني التي طلبت منه قطع الدنوش عن الباشا وطلب الباشوية من الباب العالي على غرار الأسر الحاكمة بتونس وطرابلس.[1]

إلا أن الأمر كان عكس ما خطط له الباي رجب؛ إذ عجل باشا الجزائر بعد علمه بمخطط الباي بقتله ومصادرة أمواله، وهنا التجأت زوجته وابنه إلى أم هاني بالصحراء للاحتماء بها، إلا أن ضيافة أسرة بوعكاز لأسرة أم هاني لم تدم طويلا؛ إذ قام بعضهم بقتل أخيها غدرا في رحلة صيد بمكان يدعى "فيض الغراق" قرب قرية سيدي عقبة، فاتهمت أم هاني أهل زوجها بقتل أخيها، وأعلنت الحرب عليهم وكان أول ضحية لانتقامها زوجها شيخ العرب أحمد بن السخري الذي قامت بقتله بالسم، وأعلنت نفسها على رأس مشيخة العرب، ونفذت مجزرة في حق أفراد أسرة زوجها لم ينج منها سوى أحد أبنائه وهو فرحات بن رجراجة وهو إبن أحمد بن السخري من زوجته الأولى رجراجة ابنة خليفته بالتل، سليمان بن الحداد.[2]

التجأت رجراجة بابنها إلى سيدي خالد حيث استقرت تحت حماية مرابطي المنطقة إلى أن اشتد ساعد ابنها فرحات والتف حوله عدد من القبائل التابعة لأبيه فخرج لاسترجاع حكم والده، من أم هاني، وقد تم له ذلك بعد العديد من المعارك قتل فيها أبناء أم هاني الأربعة وانتهت المعارك بانسحاب أم هاني[3] إلى العلمة حيث التقى بها الرحالة *Peyssonnel* سنة (1137هـ/1725م)

---

[1] Mouloud Gaid: Chronique des beys, p 23.
[2] Feraud (ch): le Sahara de Constantine, pp100-101.
[3] Ibid, p102.

وقد تقدم بها السن فوصفها بالأناقة والنظافة وقوة الشخصية وشبهها بإحدى الأميرات الأوروبيات ونعتها بالشجاعة والفروسية والحنكة السياسية.[1] ويبدو أن هذه الأميرة كانت قد سيطرت على حكم الصحراء قرابة النصف قرن أو أزيد (من حوالي (1083هـ-1672م إلى1136-1724م) أعلنت خلالها الحرب على السلطة في قسنطينة انتقاما لوالدها رجب باي، إلا أن الباي حسين بوقمية استطاع بفضل نفس السياسة، سياسة المصاهرة إخماد هذه الحرب الطويلة.

فقد عمل الباي المذكور، في بداية حكمه، على إخضاع مختلف الأسر الحاكمة إلى السلطة المركزية بالقوة، فحارب الشيخ بوعزيز بن نصر، شيخ أحرار الحنانشة وطارده حتى جبال الأوراس، حيث دارت معارك دامية بين قوات الباي وقوات الشيخ بوعزيز وحليفته "سي سديرة" الذي قتل في إحدى هذه المعارك.

بعد هذا التفت قوات الباي بقوات الأميرة أم هاني فدارت بينهما معارك طويلة عادت في مجملها بالهزيمة على قوات الباي[2] الأمر الذي اضطره إلى العمل على التقرب من هذه المرأة عن طريق المصاهرة، فطلب الزواج من إحدى بناتها ولتقدمها في السن فضلت أم هاني إعلان الهدنة وقبول طلب الباي.[3] وبذلك فقط استطاع حسين بوقمّية التخلص من مضايقات ذلك الخصم العنيد.

---

[1] للمزيد من الإطلاع على أعمال المرأة. أنظر كلا من:

Peyssonnel: op.cit, T1, ppp 295-370-372.
Féraud (ch): le Sahara de Constantine, pp 44-46.
Mercier: histoire de Constantine, pp 248-249.

[2] Peyssonnel: Op.cit, T1, pp294-295.

[3] يقول الرحالة الذي زار المنطقة في سنة 1725م:" تزوج الباي من ابنة أم هاني في السنة الماضية"؛ أي في سنة (1136هـ/1724م). أنظر: نفس المصدر، ج1، ص 295.

ونفس السياسة انتهجها الباي لمهادنة الشيخ بن سديرة، الذي أعلن الحرب عليه انتقاما لمقتل والده "سي سديرة" الذي قتل كما سبقت الإشارة إليه بسبب مناصرته للشيخ بوعزيز بن ناصر شيخ أحرار الحنانشة؛[1] إذ عمد الباي إلى مصاهرته بالزواج من أخته ابنة "السلطان سي سديرة" وفعلا تم له ما أراد،[2] وبذلك نجح الباي في الافلات من بن سديرة من جهة وتهدئة الوضع العام في البايلك من جهة أخرى، فعاد إلى الشمال ليتفرغ لمحاربة شيوخ القبائل الشمالية وخاصة شيوخ فرجيوة، بوعكاز بن عاشور الذين احتفظوا حتى ذلك التاريخ باستقلالهم وكانوا يشكلون خطورة على أمن أرياف البايلك فخاض الباي ضدهم معارك طويلة انتهت بإخضاعهم للسلطة المركزية[3].

خلف الباي بوقمّية ابنه حسن بوحنك الذي عمل في البداية على التخلص من أولاد صوله الذين استمروا في محاربة العثمانيين حوالي القرن،[4] فشردهم وقد اتجه جزء كبير منهم إلى الجنوب ليتقاسم حكم الزاب الشرقي مع أسرة إبن شنوف.[5] بعد هذا استقر الوضع بالبايلك وتفرغ الباي إلى تمتين حكمه، ويبدو أنه انتهج نفس سياسة والده بمصاهرة كبار أعيان المدينة إذ يقول العنتري

---

[1] كان الباي في هذه الفترة يحارب على ثلاث جبهات ضد الأميرة أم هاني بالصحراء وضد كل من باي تونس من جهة وشيخ أحرار الحنانشة من جهة أخرى بشرق البايلك، وكانت أهم المعارك التي خاضها الباي هي التي جمعته بشيخ الحنانشة وقد برزت فيها ابنته علجية التي حولت هزيمة قبيلتها إلى نصر بعد أن لاحقت قوات الباي رفقة رفيقاتها وانتزعت منهم جزءا كبيرا مما أخذوا من قبلتها من الغنائم، وقد لحق بها رجال القبيلة وهزموا قوات الباي وقتلوا خليفته، وقد خلد الحنانشة هذه الواقعة بأغنية شعبية تغنوا فيها ببطولة علجية. أنظر نص الأغنية بالمجلة الافريقية، 1874، ص214، أما الرحالة *Peyssonnel* الذي عاصر الأحداث فقد أشاد بشجاعة هذه الفتاة وشبهها بجان دارك.

[2] Peyssonnel: Idem, T1, p347.

[3] Feraud (ch): Ferdjioua et Zouara, Op.cit, p8.

[4] Mercier (E): Histoire de Constantine, p258.

[5] A.O.M..1H9 (Martin), Op.cit.

أن ابنه حسين باشا كان كرغليا[1] إلا أننا لا نعلم حتى الآن من أي أسرة كانت والدته.

وفي عهد الباي حسين رزق عينه الذي خلف بوحنك حيث "ظهرت قوة الترك في قسنطينة"[2] بدأ الاهتمام بأسرة محلية حاكمة تبرز لأول مرة في تاريخ المنطقة وهي أسرة إبن قانة، وإذا لم يكن الاهتمام بهذه الأسرة من الباي نفسه فإنه كان من خليفته الذي لم يكن آنذاك سوى أحمد القلي صهر الأسرة.

- **الباي أحمد القلي وبداية سياسة المصاهرة مع أسرة ابن قانة:**

لم تبرز سياسة المصاهرة في أي فترة من تاريخ البايلك بروزها في فترة حكم الباي أحمد القلي؛ إذ كان هذا الباي رائدا في تطبيق هذه السياسة وتشجيعها بين مختلف الحكام، حتى أنه كون شبكة حقيقية من الروابط الدموية بين مختلف العناصر ذات النفوذ السياسي والاقتصادي بالبايلك سواء كانت محلية أو من الأتراك العثمانيين، فقد تزوج أحمد القلي، كما سبقت الإشارة إليه في الفصل الأول من ابنة الشيخ سليمان بن قانة، صديقه وزعيم أسرة إبن قانة وذلك قبل توليه منصب الباي، وبعد توليه المنصب وبسبب عقم زوجته، ابنة إبن قانة، تزوج الباي من الدايخة ابنة الحاج بوزيد المقراني، شيخ أسرة المقراني حكام مجانة وحراس البيبان وكان محمد الشريف والد الحاج أحمد آخر بايات قسنطينة أحد أبناء الدايخة ابنة المقراني، وبذلك ضمن الباي ولاء أسرتين قويتين الأولى حديثة العهد والثانية عرفت بقوتها ونفوذها السياسي والعسكري والديني منذ بداية العهد العثماني، وكانت مصدر خطر على العثمانيين منذ وصولهم إلى المنطقة.

---

[1] صالح العنتري: الفريدة المؤنسة، ص 36.

[2] نفس المصدر، ص 25.

رغم تزوج الباي من غير زوجته الأولى وابنة صديقه إبن قانة، فإنه لم يتنكر لها ولأسرتها فعمل جاهدا لإخراج الأسرة من ظلام النسيان التاريخي وإلحاقها بمصاف الأسر العريقة بالبايلك وإحلالها محل أقوى أسرة بالبايلك وهي أسرة بوعكاز الذواودة،[1] وللوصول إلى هدفه عمل الباي في بداية تنفيذه لخطته على تزويج أخت زوجته مباركة بنت سليمان بن قانة من فرحات إبن أخ شيخ العرب علي بوعكاز[2] وكان يهدف من وراء ذلك إلى أمرين:

1. ربط أسرة صديقه وصهره إبن قانة بأسرة عريقة يضمن لها البروز على الساحة السياسية لأول مرة.
2. العمل على إضعاف أسرة بوعكاز القوية في عقر دارها بإدخال أسرة طموحة كأسرة إبن قانة إلى أراضيها وإعطائها فرصة لإبراز نفوذها بين أتباع الأسرة الأولى وبذلك يمكنه كسر شوكة شيخ العرب الذي كان يعتز بقوته واستقلاله عن السلطة المركزية.

وإستمرارا لسياسة المصاهرة التي تبناها الباي ووفاء لصديقه وصهره سليمان بن قانة، زوج الباي إبنه محمد الشريف من رقية إحدى بنات شيخ العرب الجديد، الحاج قانة وكان الحاج أحمد أحد أبنائها. وبهذا نجح الباي أحمد القلي في تحويل أسرة إبن قانة من أسرة مجهولة سياسيا إلى أسرة قوية يحسب لها ألف حساب فكانت فترة حكمه فترة تحول في ميزان القوى بين الأسر الحاكمة بالبايلك؛ إذ ظهرت بينها أسرة كانت مغمورة وأبعدت أسرة كانت قد سيطرت على الحكم بالصحراء لمدة 5 قرون، هذا من جهة ومن جهة أخرى ضمن الباي لحكمه وحكم من خلفه على بايلك قسنطينة حتى نهاية الحكم

---

[1] يقول الدكتور سعد الله (أبو القاسم)، أن الباي أحمد كان متزوجا من أسرة بوعكاز شيوخ العرب إلا أنني لم أعثر على ما يؤكد ذلك بالمصادر والمراجع التي بحوزتي. أنظر: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص158.

[2] Féraud (Ch): Le Sahara de Constantine, p210.

العثماني ولاء ومساندة أسرة قوية ومخلصة لهؤلاء الحكام الذين تعترف لهم بالفضل في إخراجها من عالم النسيان إلى ذلك النفوذ السياسي الكبير.

وفي نفس الفترة، وربما بتشجيع من الباي أحمد القلي نفسه، تزوج عدد من كبار موظفي البايلك الأتراك من بنات أسرة ابن قانة، حيث تزوج إبراهيم بوصبع[1]، قائد الزمالة، من ابنة الشيخ بن ڤانة، وتزوج حسين إبن بوحنك من أختها في حين تزوجت أختهما الثالثة من خزناجي الجزائر،[2] وبذلك ارتفع شأن الأسرة وأتسع نفوذها السياسي حتى خارج بايلك قسنطينة لما كان لزوجات هذه الشخصيات العثمانية من نفوذ على أزواجهن من جهة وما كان للأسرة من قوة عسكرية استطاعت تكوينها من القبائل الموالية لها. ولعل تولي إبراهيم بوصبع البايلكية واختياره لصهره حسين إبن بوحنك (حسين باشا)[3] خليفة له وهما المتزوجان من الأختين، ثم تولي هذا الأخير منصب الباي بعد مقتل صهره إبراهيم، لم يكن إلا دليلا على ما كان لعناصر هذه الأسرة رجالا ونساء من نفوذ سياسي وصل إلى حد التأثير على الباشا في اختياره لبايات قسنطينة.

- **صالح باي وسياسة المصاهرة:**

يعتبر صالح باي أول من سلك سياسة تعتمد أساسا على القوة العسكرية والإدارية والقانونية وقد عمل من خلال ذلك القضاء على أية قوة محلية تحاول فرض نفوذها على السلطة المركزية ومحاولة كسب شعبية في الأوساط الحضرية والقبلية دون وساطة شيوخ القبائل، إلا أن هذه السياسة رغم نجاحه في تطبيقها بالكثير من مناطق البايلك وإثبات قوة نفوذه وحتى على حكام تونس،[4] فإنها لم

---

[1] تولى منصب باي قسنطينة خلفا لصالح باي إلا أن توليته لم تدم سوى 3 أيام، قتل بعدها من طرف أتباع صالح باي. أنظر، إبن العطار: المصدر السابق ص 72.

[2] إبن العطار: نفس المصدر، ص 71.

[3] لم يكن لقب الباشا بالنسبة لحسين ابن بوحنك سوى لقبا شرفيا عرف به بين الناس

[4] ابن العطار: نفس المصدر، ص ص 69-70.

تغنه عن العودة إلى سياسة التقرب من الأسر المحلية ومحاولة ربط مصيره بمصيرها، فتزوج في البداية من ابنه أحمد القلي من زوجته الدايخة ابنة المقراني وبذلك قرب المسافة بينه وبين سادة مجانة، ثم تزوج من ابنة صديقه ورفيق سلاحه "أحمد الزواوي إبن جلول".[1]

وكان أبناءه محمد وحسين من ابنة إبن جلول،[2] وقد كان تعيين إبن صالح باي بايا على قسنطينة بفضل أخواله من أسرة إبن جلول،[3] كما قام صالح باي بتزويج بناته لعدد من الأسر القسنطينية،[4] إلا أن المصادر لم تذكر أن هذا الباي قد صاهر الأسر الإقطاعية المحلية مثل أسرة بوعكاز أو أسرة المقراني أو أسرة أحرار الحنانشة أو حتى إبن قانة التي كانت أقرب الأسر من السلطة المركزية، وإن ذكرت بعض المصادر أن صالح باي سعى إلى مصاهرة شيخ أحرار الحنانشة، إبراهيم إبن بوعزيز بن نصر إلا أن هذا الأخير رفض مصاهرته الأمر الذي أدى إلى غضب الباي وشنه العديد من الهجومات ضد قبيلة الحنانشة إلى أن انتهى الأمر بالقبض على الشيخ من طرف الباي وسجنه بسجن قسنطينة حتى الموت وكان ذلك سنة 1186هـــ/1773م.[5]

هكذا إذن كان صالح باي يستعمل القوة حتى في تحقيق سياسة المصاهرة وقد استمر في سياسته هذه والهادفة إلى الإنفراد بالحكم المطلق بالبايلك وإخضاع جميع القوى المحلية لسلطته، إلا أن هذا لم يمنعه من تقدير قوة أسرة بوعكاز شيوخ العرب القدامى والتحالف مع شيخها محمد الذباح، رغم معاداة

---

[1] **أسرة إبن جلول**: أسرة قسنطينية عريقة تقلدت مناصب هامة بالبايلك. أنظر الفصل السابق.

[2] Mouloud Gaid: Chronique des Beys,…p38.

[3] نفس المرجع، ص 56.

[4] هذا ما ذكره *M. Martin* في تلخيصه لتاريخ أسر بايات قسنطينة دون ذكر هذه الأسر وإن كنا نعلم أن إحدى بناته كانت قد تزوجت من إبن جلول.

[5] Feraud (ch): Les Hrar …p357.

هذا الأخير لسلطة البايلك بعد فرضها لأسرة إبن قانة على الصحراء؛ إذ بعد أن تأكد صالح باي من عجز إبن قانة في آداء مهمته بالصحراء لما لقيه من مقاومة من أسرة بوعكاز وأتباعها من كره عرب الصحراء للشيخ الجديد باعتباره غريب عنهم، عمل الباي على إعادة المشيخة إلى أصحابها الشرعيين.

وبذلك عاد الشيخ الذباح من جديد إلى ولائه لسلطة البايلك وتعاون بإخلاص مع صالح باي[1] الذي تؤكد الأغنية الشعبية التي مازال سكان قسنطينة يتغنون بها على حب العرب (عرب الصحراء) لصالح باي وحزنهم على فراقه،[2] ويقول مطلع الأغنية:

قالوا العرب قالـــــــوا   لا نعطي صالح ولا ماله
ولا نقاتـــله حتى يطيحوا   الرقاب على الرقـــاب[3]

أما أسرة إبن قانة فكانت تقف ضد صالح باي لوقوفه مع خصومها بل أن بعض أفراد الأسرة أكدوا للباحث الفرنسي ***Féraud*** أن الأسرة كانت وراء عملية خلع الباي انتقاما منه،[4] ولعل ذلك يكون صحيحا باعتبار أن من خلفه

---

[1] كان الوفاق التام يميز علاقة شيخ العرب محمد ذباح بصالح باي وكان الشيخ يقدم له من الأموال والأنعام الكثير من ذلك، تذكر المراجع، أن أمير المغرب الأقصى اليزيد ولي عهد السلطان محمد بن عبد الله العلوي تزوج سنة 1789م من أخت الشيخ ذباح وبعد وصوله بعروسه إلى فاس أرسل لصهره هدايا ثمينة من بينها فرس عربية أصيلة تدعى "بنت الأبيض" كان الشيخ يعتز بركوبها وكان على ظهرها عندما ذهب إلى الباي قرب بسكرة لتقديم التحية فأعجب الباي بالفرس وطلبها لتكون هدية للسلطان خليفة المسلمين فلم يبخل الشيخ بها على الباي وأرسلها لتكون هدية للسلطان خليفة المسلمين مرفقة بـــ 30 فرس أخرى يقودها 30 خادم أرسلت جميعا إلى اسطنبول. أنظر،
Féraud (ch): Le Sahara…, op.cit, p990

[2] يقال أن اللباس الأسود الذي مازالت تعرف به نساء قسنطينة يعود إلى تاريخ وفاة صالح باي وحزن السكان عليه، إلا أن إبن القنفذ القسنطيني يقول في كتابه الفارسية، ص167، أن ارتداء اللون الأسود في قسنطينة يعود إلى العهد الحفصي وذلك حزنا على وفاة أميرها إبن عبد الله .

[3] Féraud (ch): Le Sahara…., op.cit, p226.

[4] أنظر، نفس المرجع، ص 222.

وهو إبراهيم بوصبع كان صهر للأسرة وكذلك خليفته بن بوحنك الذي تولى المنصب بعد مقتل إبراهيم باي بالإضافة إلى أن الخزناجي الذي كان يتمنى قتله لما كان بينهما من خلاف قديم كان أحد أصهار الأسرة وصديقا لحسن باي[1].

- **الباي حسين بوحنك وعبد الله باي وأثرهما في تألق نجم أصهارهما أسرة إبن قانة:**

علمنا أن حسين بن بوحنك كان متزوجا من إحدى بنات الحاج قانة وإحدى أخوات شيخ العرب الجديد محمد بن قانة[2] لذا كان هذا الباي حريصا على زيادة نفوذ أصهاره خلال فترة حكمه واستغلال أقصى نفوذه لفرض سلطاهم على الصحراء عكس ما كان قد فعله صالح باي. وللتمكن من تحقيق هدفه بدأ بتعيين محمد الشريف إبن الباي أحمد القلي وزوج رقية ابنة إبن قانة خليفة له، وبذلك بدأ العمل الجماعي للوصول بالأسرة إلى أرقى المناصب على حساب الأسر العريقة وعلى رأسها أسرة بوعكاز التي عمل هؤلاء على إزاحتها من مشيخة العرب وفرض أسرة إبن قانة فرضا على سكان الصحراء.

وقد عمل الباي حسين على دعم قوة الأسرة عسكريا بتزويدها بقبيلة مخزنية قوية كانت تمثل الحرس الخاص لشيخ العرب وزعيم الأسرة، وهي قبيلة الصحاري التي كانت قد وضعت نفسها في خدمة الأسرة مقابل امتيازات هامة،[3] وقد زادت مكانة الأسرة قوة في عهد الباي عبد الله (1219هـ/1805م) الذي هو الآخر مصاهرا لابن قانة. وبهذه القوة استطاعت الأسرة فرض نفوذها على كامل المنطقة الواقعة بين بسكرة وقسنطينة وذلك رغم انعدام الكفاءة العسكرية لدى شيوخها وافتقارهم للشعبية بين سكان

---

[1] ابن العطار: المصدر السابق، ص ص 70 –71.

[2] تولى المشيخة بعد الحاج قانة وذلك سنة 1181هـ/1768م. أنظر: Gouvion: op.cit, p6.

[3] Féraud: Le Sahara de Constantine, p226.

الصحراء،[1] إذ رغم طرد السكان لهؤلاء مرارا استطاعوا فرض سيطرتهم على المنطقة حتى نهاية العهد العثماني.

ويبدو أن لبنات أسرة إبن قانة كفاءة خاصة في التأثير على أزواجهن في الحكم فقد أثبتت احداهن وهي "الدايخة بنت محمد بن قانة" وزوجة عبد الله باي قسنطينة[2] (1219هـ-1804م) كفاءتها في الحكم فشاركت زوجها في تسيير أمور البايلك ويقال أن أعضاء المخزن كانوا يستشيرونها في أمور البايلك ويأخذون بنصائحها،[3] وقد أكد صالح العنتري على تأثير هذه الزوجة على حكم زوجها الأمر الذي عجل حسب نفس المصدر بخلعه من منصبه، وقد عبر العنتري عن ذلك بقوله: "وكان عبد الله باي صاحب حرب وإقدام، إلا أن امرأته تشاركه في الأحكام وذلك أمر قبيح عند العرب والأعجام فبهذا السبب عزله الباشا وأمر بقتله"[4].

أما الشريف الزهار فيقول عن مقتل هذا الباي: "كاتب عبد الله أصهاره وجميع الرعية واستقام له الأمر وساير كبراء العرب وأجتمع لديه أهل المخزن، ثم أنه جهز محلة وخرج في طلب إبن الأحرش وضيق عليه البلاد إلى أن هرب إلى الناحية الغربية... وكان جزاء هذا الباي أن قتله أمراء الجزائر بعد موت مصطفى باشا، وعذبوا زوجته حتى ماتت تحت العذاب وذلك لتظهر لهم أموال

---

[1] أكد لي الشيخ عبد المجيد بن حبة وغيره من أبناء الصحراء أن الشيخ بوعزيز بن قانة شيخ العرب لم يكن من الشجاعة والفروسية في شيء، بل كانت قوته تكمن في القرابة التي كانت تربطه بالباي .

[2] كان قائدا لقبيلة الخشنة ثم عين بعد مقتل عصمان باي، في معركة ضد الثائر ابن الأحرش، بايا على قسنطينة. أنظر، مذكرات الشريف الزهار، ص86، أما عن زوجته فيقول *Féraud* أن الدايخة زوجة عبد الله باي كانت ابنة حسن باي وذلك اعتمادا على Vayssette. أنظر: المجلة الافريقية، 1863، ص86.

[3] Mouloud Gaid: Chronique..., p56.

[4] صالح العنتري: الفريدة المؤنسة، ص 51.

عبد الله باي، ويحكى عن هذه المرأة أنها كانت من أحسن نساء زمانها وكانت لها شجاعة كبيرة"[1].

ويبدو من القولين السابقين أن سبب قتل الباي لم يكن سوى خوف الباشا من تعاظم نفوذه مع أصهاره، أسرة إبن قانة،[2] والعمل على الاستيلاء على أمواله وضمها إلى خزينة الدولة التي كانت في هذه الفترة تعاني من عجز كبير[3] وهذه عادة عرف بها الحكام العثمانيون بالجزائر.

ولم تتأثر أسرة إبن قانة بمقتل صهرها عبد الله واستمر تعاونها مع بايات قسنطينة الذين وسعوا من امتيازاتها بالبايلك، فكان كل باي يصل الحكم يعمل على تثبيت شيوخها في مناصبهم الإدارية ويجدد لهم الامتيازات المادية التي كانت لأسلافهم بل كانت امتيازاتها تتسع في كل مرة،[4] ونفوذها الإداري يتزايد حتى أن أبناء الأسرة تقاسموا إدارة جنوب البايلك حيث استولى محمد بن الحاج على مشيخة العرب وسيطر على معظم مناطق الزاب، وتولى أخوه بولخراص قيادة الحضنة، وإبن أخيه بلقيدوم حكم الزاب الشرقي إلى جانب أسرة إبن شنوف، كما تولى إبراهيم بن الحاج حكم تقرت إلا أنه طرد من المدينة بعد فترة وجيزة.

---

[1] مذكرات الشريف الزهار، ص ص 86-87.

[2] يقول فيرو أن الباي عبد الله كان قد حذر الباشا من ثورة الأهالي وانضمامهم إلى حاكم تونس إذا ما استمرت الحكومة في سياستها المعادية للفرنسيين بالقالة لكونهم المتعاملين الرئيسيين مع التجار المحليين إلا أن الباشا قام بقتل الباي اعتقادا منه أنه يساند الثوار ويحرضهم على الثورة. أنظر:
Féraud: les Hrars, Op.cit p358.

[3] من بين ما عثرت عليه في سجلات العدول بأرشيف ولاية قسنطينة عقد بتاريخ شوال 1225هـ/1810م، ينص على استلام أمين السكة من أحمد باي (طوبال) بقسنطينة مبلغ 6035 ريال، من قبل الدين كان عليه للدايخة زوجة المرحوم عبد الله باي، وهو ما يدل على استيلاء السلطة على أموال الباي وزوجته ولم يستثن من ذلك حتى الدين الذي كان لهما.

[4] أنظر الفصل الأول من الكتاب.

ولم يكتف شيوخ أسرة إبن قانة بهذا بل كان طموحهم في تزايد مستمر للوصول إلى أعلى المناصب في إدارة البايلك وهو ما سعى إليه الشيخ محمد بن الحاج الذي طلب من الباي حسن باشا أن يعينه خليفة له فكان له ذلك،[1] وقد ألبس الشيخ قفطان التعيين في حفل بهيج، وبذلك وصلت الأسرة إلى أوج نفوذها السياسي والاقتصادي،[2] ولم يكن ذلك إلا ثمرة لعلاقة المصاهرة التي كانت تربطها ببايات قسنطينة.

أما في عهد الحاج أحمد باي، حفيد الأسرة فقد وصل نفوذ الأسرة أقصاه إذ عمل الباي على تثبيت أحواله بمشيخة العرب وإقصاء أسرة بوعكاز نهائيا منها، بعد أن كانت الأسرتان تتقاسمان الوظيفة، بل كانت أسرة إبن قانة تكتفي باللقب شرفيا ويقيم شيخها بقسنطينة، وهو ما أشعل نار الحرب بين فرحات بن سعيد آخر شيوخ العرب من أسرة بوعكاز والباي الحاج أحمد وأخواله، انتهت بالتجاء فرحات بن سعيد إلى الفرنسيين للتعاون معهم في القضاء على الباي وحلفائه.[3]

- **المصاهرة بين البايات وأسرة المقراني:**

كانت أسرة المقراني من الأسر الأوائل التي سعى الحكام العثمانيون لمصاهرتها إذ طلب حسن باشا إبن خيرالدين بربروس، في بداية الحكم العثماني (منتصف القرن 10هـ/16م) الزواج من إحدى بنات عبد العزيز العباسي زعيم الأسرة، إلا أن هذا الأخير رفض مصاهرته اعتزازا بنسبه الشريف،[4] الأمر الذي أدى بالحاكم العثماني إلى الاتجاه إلى مصاهرة شيخ أسرة إبن القاضي أمراء

---

[1] كان ذلك مكافأة للشيخ على ما قدمه للقوات العثمانية من دعم أثناء ثورة أولاد نايل سنة 1207هـ/1793م.

[2] Gouvion (E) (M): Op.cit, (Les Bengana), p7.

[3] أنظر الفصل الأخير من الكتاب.

[4] Haédo , Op.cit , p 359.

كوكو والمنافسين التقليديين لأسرة المقراني، وقد نالت أسرة إبن القاضي إثر هذه المصاهرة حظوة كبيرة لدى حكام الجزائر الأمر الذي أثار غضب الإنكشارية على الحاكم[1] لكن الأسرة لم تبق على إحجامها عن مصاهرة الحكام العثمانيين طويلا؛ إذ أقدم الباي علي بن صالح (1121هـ/1710م) على تزويج بناته الثلاث لأبناء شيوخ الأسرة، فكانت الأولى (تركية) من نصيب الحاج بوزيد المقراني والثانية (خديجة) من نصيب أحمد بورنان، إبن أخ الأول، أما الثالثة فتزوجها عبد الله الجليل إبن أبي الفضل أقرب المقربين لحاكم مجانة، وتقول المراجع أن الباي التجأ إلى أصهاره بعد عودته من البقاع المقدسة وقراره اعتزال الحكم، وأنه بقي بين أولاد خلوف بمجانة، حيث استقر بزاوية سيدي أحمد بن علي للتعبد إلى أن وافته المنية هناك.[2]

وقد أقدم بعد ذلك، كما سبقت الإشارة إليه، أحمد القلي على الزواج من الدايخة ابنة الحاج بوزيد المقراني التي أنجبت له أول أبنائه، وهو محمد الشريف. ويبدو أن نفس السياسة اتبعها بقية البايات تجاه أسرة المقراني ومنهم حسن باي بوحنك الذي صاهر أسرة إبن قانة وأسرة المقراني في آن واحد واستفاد من هذه المصاهرة استفادة كبرى في وصوله إلى منصب البايلكية بعد الإطاحة بصالح باي. وقد أكد المؤرخ أحمد بن العطار ذلك بقوله: "بعث الباشا إلى حسن باي وكساه الخلعة وولاه على قسنطينة، فخرج مسرعا، وكان بينه وبين المقارنية صهر، وبينه وبين شيخ العرب كذلك فلما وصل إلى المقارنية نهضوا معه بجميعهم، وعامة خدامهم، وبعث إلى شيخ العرب فلقيه بجنوده العربان وجمع الدوائر وأهل البادية حتى اجتمع عليه جيش عظيم".[3]

---

1 أنظر نفس المصدر، ص 359.

2 أنظر Vayssette المرجع السابق، ص 144، وFéraud، برج بوعريريج، ص 262 وMercier، تاريخ قسنطينة، ص 243.

3 إبن العطار: المصدر السابق، ص73.

بهذا يمكن تصور مدى فائدة هذه السياسة ونجاعتها في تثبيت الحكم العثماني بالبايلك ويبدو أن الحاج أحمد آخر بايات قسنطينة قد ورث هذه السياسة عن جده أحمد القلي؛ إذ عمل على جمع أهم الأسر القوية بالبايلك تحت سلطته عن طريق مصاهرتها، تزوج ابنة بومرزاق باي التيطري، "وعيشوش" ابنة الحاج عبد السلام المقراني، ومتماسرة من أولاد بن قانة وجميلة ابنة ذباح بوعكاز (شيخ العرب) و"خديجة" إبنة عثمان خوجة،[1] ويقول "روسو" في تقريره عن الباي أنه كان له سبع زوجات واحدة تدعى الحناشية،[2] وبالتالي يمكن القول أن أحمد باي لم يضيع أية فرصة لربط مختلف الأسر بالبايلك بشخصه، وقد نجح في ذلك إلى حد كبير حتى أن حمدان بن عثمان خوجة أرجع نجاحه في تكوين ثروته الضخمة إلى مثل هذه الروابط بالقبائل والأسر القوية بالبايلك،[3] وقد وقف أصهاره إلى جانبه حتى آخر لحظة من مقاومته للفرنسيين.

- **المصاهرة بين بايات تونس وأسرة أحرار الحنانشة:**

لم تكن سياسة المصاهرة بين البايات والأسر المحلية الحاكمة مقصورة على بايات قسنطينة، بل كانت من أبرز سمات سياسة بايات تونس تجاه أسرة أحرار الحنانشة والقبائل الحدودية، فقد عمل هؤلاء على كسب ولاء القبائل الحدودية وعلى رأسها قبيلة الحنانشة بزعامة أحرار الحنانشة باعتبارها أقوى الأسر الحدودية، خاصة أنها تملك كما سبقت الإشارة إليه أراضي داخل حدود الإيالة التونسية إلى جانب تعمقها في أراضي بايلك قسنطينة حتى منطقة قالمة شرق قسنطينة.

---

[1] لم أعثر، في سجلات المحكمة المالكية بقسنطينة، أرشيف قسنطينة، على أي عقد من هذه العقود باستثناء عقد زواج الباي من خدوجة ابنة عثمان خوجة المسجل بتاريخ أواخر ربيع الأول من سنة 1226هـ /1811م.

[2] Temimi (A): Op.cit, p61.

[3] حمدان بن عثمان خوجة: المصدر السابق، ص 173.

ولتحقيق غرضهم، عمل بايات تونس على ربط مصير أسرة أحرار الحنانشة عن طريق المصاهرة بمصيرهم وإقحامها في صراعاتهم الداخلية والخارجية، الصراع بين أفراد الأسرة الحاكمة من جهة وبينهم وبين بايات قسنطينة من جهة أخرى، خاصة وأن أسرة الأحرار كانت بفضل قوتها العسكرية ومساندتها لبايات قسنطينة تتسبب باستمرار في انتصار القوات الجزائرية على التونسية، حتى أن بايات تونس كانوا يضطرون إلى مهادنة شيوخها بتقديم الهدايا والخضوع لمطالبهم وقد وصف القيرواني سيطرة خالد بن نصر (خالد الصغير) زعيم الأسرة في النصف الأول من القرن 11هـ/17م على الحدود الشرقية للبايلك وضغطه على حكام ولايتي الجزائر وتونس بقوله: "وكان خالد[1] المذكور أشهرهم (شيوخ القبائل العربية) سمعة بين قبائل العرب وله منعة وعدة وقائع مع عسكر الجزائر، عمر عمرا طويلا ومارس الحروب وكان يتشامخ بأنفته على العمالة التونسية ويمتد في وطنها لأنه مجاور لها ويتعرض إلى محلتهم فيستكفون شره ويهادونه بالهدايا إلى أن قيض الله لهذا البطل محمد باي تونس[2] الهمام فنادى على ممارسته[3] إلى أن هزمه سنة 1054هـ/1645م بمكان يعرف بصراط".[4]

[1] حليف شيخ العرب أحمد بن السخري في ثورته علي باي قسنطينة سنة 1046هـ/1637م، وقد حكم 15 سنة، كانت فترة من أنشط فترات تاريخ الأسرة. أنظر:

Féraud: les hrar, op.cit, p198.

[2] يقول إبن أبي دينار أن جميع شيوخ القبائل العربية ببايلك قسنطينة، خضعوا لهذا الباي بعد هزيمة خالد بن نصر حتى شيخ العرب علي بوعكاز الذي:" كان يتصرف عن إذنه مدة حياته وأوصى بأولاده إليه بعد مماته فكان لا يتشيخ أحد منهم إلا بعد مشورته، وإذا أصابهم ضيم دخلوا في عمالته". أنظر، إبن أبي دينار: المصدر السابق، ص 237.

[3] محاربته.

[4] إبن أبي دينار: نفس المصدر، ص 236.

- **علي باي وأسرة أحرار الحنانشة:**

يبدو أن سياسة المصاهرة بين أحرار الحنانشة وبايات تونس بدأت ببداية حكم علي باي (1085هـ/1675م)[1] الذي عمل على التقرب من "سلطان بن محمد بن منصر" شيخ الأحرار فرع منصر, فتزوج ابنته وبذلك كسب ولاء أقوى شيخ بالمنطقة[2] وضمن مساندته في حروب ضد أخيه محمد الذي استولى على عرش والده مراد بالقوة مستندا في ذلك على قوة حليف آخر من نفس الأسرة وهو الحاج المرداسي شيخ الحنانشة، فرع نصر؛ إذ عند استيلاء محمد على الحكم فر أخوه علي باي إلى قسنطينة حيث استطاع الاتصال بسلطان بن منصر، في طريقه الى عاصمة البايلك، فصاهره وبذلك ضمن وقوفه الى جانبه في حربه لأخيه ودارت حروب طويلة بين الأخوين دامت خمسة أعوام وكانت نفس الحرب يشهدها فرعا "نصر" و"منصر" من أسرة احرار الحنانشة بحكم مساندة كل فرع لأحد طرفي التزاع. وعمت الحرب البلاد ووصلت حتى بايلك قسنطينة وقد وصف القيرواني هذه الأحداث بقوله:" اتصلت الحرب بالحرب

---

[1] لم تذكرالمراجع المتوفرة حتى الآن، روابط أسرية جمعت بين الحكام العثمانيين وأحرار الحنانشة في بداية الحكم العثماني، إذ اتسمت علاقة الحنانشة بهؤلاء الحكام، سواء بتونس أو قسنطينة، بالجفاء وتخوف كل طرف من الآخر، خاصة أيام تحالف الحنانشة مع الشابية، حيث ظل الحنانشة يقاتلون في صفوف الشابية ضد العثمانيين حتى سنة 1001هـ/1592م تاريخ الانفصال النهائي بين الطرفين. وبعد الاستيلاء على مناطق نفوذ الشابية، انشغلت أسرة أحرار الحنانشة بتكوين قوتها لغرض سيطرتها على مناطق الحدود على حساب أسرة بن شنوف حكام الكاف. ولذلك سادت الحروب بينها وبين الحكام العثمانيين تارة وبينها وبين غيرها من القبائل تارة أخرى ولم يستقر الوضع وفتح الطريق بين بايات تونس والحنانشة لتكوين علاقات طيبة إلا في منتصف القرن11هـ/17م بعد القضاء على أسرة بن شنوف وتشريد قبيلة أولاد سعيد التي اشتهرت بلصوصيتها، وإخضاع خالد بن نصر الحناشي (خالد الصغير) من طرف محمد باي تونس. حول الموضوع أنظر، كتاب العدواني، ص110-1121، ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص232.

[2] إبن أبي دينار: المصدر السابق، ص 259.

خمسة أعوام متتابعة حتى قيل هل من راق وكثرت العداوة بين البادي والحاضر"[1].

وانتهى الصراع بانتصار على باي وعودته إلى عرش والده وكان لشيخ الحنانشة نصيبه الأكبر من غنائم هذا الانتصار. وبذلك كانت نتيجة هذا التحالف الأسري بين الباي والأسرة الحاكمة مزدوج المصلحة؛ إذ كانت وسيلة لشيخ الحنانشة للاغتناء وتوسيع دائرة نفوذه بين القبائل وحتى داخل الأراضي التونسية، ومن ناحية أخرى كان مكسبا عسكريا كبيرا للباي الذي لم يكن يستطيع العودة إلى حكمه لولا قوة صهره العسكرية. كما بقي الشيخ بقواته يمثل قوة رادعة لكل من يحاول المساس بأمن البلاد في عهد صهره، لكل من تسول له نفسه منافسه الباي على حكمه. و قد استمر إخلاص الأحرار لصهرهم الباي علي إلى أن قتل في معركة ضد القوات الجزائرية سنة 1098هـــ/1606م.

- **مراد باي وأسرة أحرار الحنانشة:**

لم ينتهي دور أحرار الحنانشة اتجاه بايات تونس بمقتل علي باي، بل أن ارتباطهم بابنه مراد كان أكبر لأنه كان حفيد شيخهم سلطان وهو ما أكده المؤرخ التونسي ابن أبي الضياف بقوله: "مراد باي ابن علي باي من زوجه بنت سلطان بن منصر الحناشي".[2] فقد فر مراد بن علي باي بعد مقتل والده إلى دوق توسكانة للاحتماء به. إلا أن عمه رمضان باي قام بالقبض عليه بمجرد عودته إلى بلاده فسجنه بقصبة سوسة ثم سمل عينه حتى ينقطع أمله في طلب الحكم.

وبمساعدة طبيبه الفرنسي "*Carliere*" استطاع مراد بن علي باي أن يستعيد بصره ويفر من سجنه إلى عرب جبل وسلات ليصل بعد ذلك إلى

---

[1] إبن أبي دينار: المصدر نفسه، ص 273.

[2] إبن أبي الضياف (أحمد): المصدر السابق، ج2، ص 70.

أخواله أحرار الحنانشة الذين كانوا ينتظرون الفرصة لاستعادة سيطرتهم على الوضع بتونس كما كان عهدهم في فترة حكم صهرهم علي باي والانتقام من القوات الجزائرية التي قامت بقتله.[1]

بعد وصول مراد باي ابن الحنانشة جهز له جده الشيخ سلطان بن منصر زعيم الأسرة جيشا قويا من الحنانشة والقبائل الموالية لهم لقهر أعدائه وأعدائهم داخل وخارج تونس، وبفضل هذه القوات تمكن مراد بن علي باي من الوصول إلى حكم والده، وبذلك تبوأ أحرار الحنانشة المكانة العليا، إلى جانب حفيدهم مراد باي بتونس؛ إذ بالإضافة إلى ما غنموا من أموال إثر الاستيلاء على حكم تونس وما وصلهم من هدايا من الباي ارتفعت مكانتهم بين القبائل لهذه القرابة التي كانت تربطهم بباي تونس وأخلصوا من جهتهم للباي حتى نهاية عهده فكان عهده من أقوى فترات حكم بايات تونس.

بعد تمكنه من حكم تونس وتكوينه الجيوش الفخمة بفضل مساندة أخواله قرر الباي مراد مواجهة قسنطينة للتخلص من التزاماته المادية نحوها[2] والانتقام لوالده "علي باي" ولتنفيذ خطته الجريئة كون جيشا عظيما من القبائل "وجمع جموعا لم تجمع لغيره وساق آلة عظيمة من آلات الحرب من مدافع و غيرها ..."[3] وكان أهم عنصر في جيشه هو عنصر الحنانشة الذين كانوا ينتظرون هذه الفرصة للانتقام لصهرهم من جهة والاغتناء وتوسيع نفوذهم من جهة أخرى.

---

[1] المصدر نفسه، ج2، ص ص 70-71.

[2] كان بايات تونس ملزمين بتقديم هدايا سنوية إلى داي الجزائر إلا أن مراد باي لم يقبل هداياه لتأخره في دفعها وطمع الداي في هدايا أكبر، وهنا قرر الباي مراد إعلان الحرب على بايلك قسنطينة. أنظر:

Gaid: Chronique, op.cit, p 26.

[3] إبن المبارك بن العطار (أحمد): المصدر السابق، ص 44. وقد قدر العنتري هذه القوات بـــ 700 خباء. أنظر، الفريدة المؤنسة، ص 11.

تم الهجوم على قسنطينة سنة 1112هـ/1700م والتقى الباي في عدة معارك مع باي قسنطينة "علي خوجة" الذي أجبر على الانسحاب من المعركة التي جمعته بالباي مراد قرب قسنطينة[1] ليلتجأ إلى داخل المدينة التي حاصرها مراد باي منذ مدة طويلة،[2] قبل أن تصل النجدة من الجزائر فيخوض الباي معارك ضدها وضد باي قسنطينة وتنتهي المعارك بإنهزام جيوش مراد باي، وبالتالي أحرار الحنانشة أخواله بجوامع العلمة قرب سطيف.[3] ورغم انسحاب مراد باي مهزوما إلى تونس ثم أسره وقتله[4] سنة 1114هـ1702م.

بقيت أسرة أحرار الحنانشة تطمح إلى العودة إلى السلطة بتونس عن طريق أقربائها وحلفائها وهو ما أكده ظهور دعي وسط الحنانشة يزعم بأنه من أبناء مراد باي حفيد الأسرة، قام "بوعزيز بن عمر الحناشي" بإغرائه على غزو تونس والمطالبة بحقه في خلافة والده، وقد أرسله الشيخ سنة 112هـ/1713م إلى أولاد سعيد[5] للاستعانة بهم على تنفيذ خطته فاستقر عندهم وأخذ يكاتب

[1] تمت الهزيمة في مكان يدعى "الملعب" ولعله حي 5 جويلية حاليا. أنظر حول المعركة كلا من أحمد بن المبارك بن العطار: نفس المصدر، ص44، وصالح العنتري: الفريدة المؤنسة، ص 11.

[2] يقول إبن أبي الضياف أن الحصار دام 5 أشهر. أنظر، المصدر السابق، ص75. في حين يقول العنتري أن الحصار دام 3 أشهر. أنظر، الفريدة المؤنسة، ص11، أما الرحالة بايسونال الذي كان أقرب المصادر إلى الفترة فيقول أن الحصار دام 6 أشهر. أنظر، المصدر السابق، ج1، ص 299.

[3] يقول العنتري أن باي قسنطينة قتل في هذه المعركة:" وفي يوم الفتنة مات علي خوجة". أنظر، الفريدة المؤنسة، ص13.

[4] يقول إبن أبي الضياف أن الأمر بقتل الباي مراد جاء من إسطنبول وذلك نتيجة لما كان يقوم به الباي من أعمال تمس بالروح الإسلامية للدولة كالتقرب من المسيحين والتعاون معهم. أنظر، المصدر السابق، ج2، ص ص 74-75)، وهو ما أكده أحمد بن المبارك بن العطار في تأريخه لقسنطينة بقوله: "إنه أخذ يعيث فسادا في المعالم الإسلامية ويجور في الحكم ويستبيح المحرمات...". أنظر، المصدر السابق، ص44.

[5] اشتهروا بأعمالهم التخريبية من نهب ولصوصية في أملاك الدولة حتى أن المؤرخ إبن أبي دينار، أطلق عليهم اسم "أولاد تعيس". أنظر، المصدر السابق، ص 233.

شيوخ القبائل لكسب تأييدهم وإثارهم على حاكم تونس آنذاك، إبراهيم باي، إلا أن هذا الأخير أفشل خطته وخطة الأحرار وقام بقتل الدعي[1] وبذلك فشلت الأسرة في إعادة مجدها ومجد حفيدها مراد بتونس.

- **علي باشا وأحرار الحنانشة:**

بوفاة مراد باي انتهى عهد الأسرة المرادية وبدأ عهد الأسرة الحسنية وفي فترة حكم حسين باي بدأ الصراع من جديد بين الباي وبين ابن أخيه علي باشا، وكعادة أي طرفين متنازعين، التجأ كل طرف إلى فرع من فرعي أسرة أحرار الحنانشة لإقحامها في الصراع والاستعانة بجيوشها لكسب المعركة ضد الخصم. وقد اعتمد حسين باي على فرع "نصر" وعلى رأسه بوعزيز واعتمد علي باشا على فرع "منصر" وعلى رأسه أحمد الصغير بن عمر وأخيه سلطان بن منصر.

ولضمان إخلاص الأسرة له عمد علي باشا إلى مصاهرة شيخها سلطان بن منصر. فتزوج ابنته وكان لكل طرف مصلحته من هذه المصاهرة، تمثلت مصلحة الأول في كسب الدعم العسكري من الأسرة للوصول إلى الحكم، في حين كان غرض الثاني الاغتناء والجاه المادي والسياسي وقد تم للإثنين ما أرادا، نفس السياسة إلتجأ إليها حسين باي لربط مصيره بمصير حليفه "بوعزيز بن نصر" إلا أن هذا الأخير رفض تزويج الباي ابنته، الأمر الذي أدى إلى غضب الباي وتحريض قليان حسين، باي قسنطينة، على حرمان بوعزبز من المشيخة، وفعلا، أخذت منه المشيخة وأعطيت لأخيه بن نصر بمشاركة ابن عمه محمد بوقفة،[2] وهو ما جعل بوعزيز يتحول عن الباي حسين ليتحد مع منافسه علي

[1] إبن أبي الضياف: المصدر السابق، ج2، ص98.

[2] Feraud: Les Hrars…op.cit, p 228.

باشا[1] وقد أورد الوزير الحاج حمودة (1202هـ/1788م), أن هذا الأمر أقلق محمد باي ابن حسين باي الذي كان يعلم:" أنه لم يتم له أمر بدون آبي عزيز وأن في نزوعه عنهم فساد... فأرسل إلى مولانا (أخوه علي باي) يأمره، بالركوب إلى أبي عزيز ليترضاه. (كذا) ويرده عن مقصده".[2] إلا أن ذلك لم يجده نفعا بسبب تصميم بوعزيز "على الانصراف إلى علي باشا وخدمته"[3] حتى يطلق حسين باي سراح ابنه إبراهيم.

بهذا اتحدت أسرة أحرار الحنانشة بفرعيها مع علي باشا وتم الهجوم على حسين باي وقد عبر ابن أبي الضياف عن عنف الهجوم بقوله: "تطاولت أعناق المفسدين إلى الفساد واستشرف الطاعون على الدولة إلى علي باشا (كذا) وكاتبه أبوعزيز بن نصر رأس الحنانشة ودخل إفريقية (تونس) بقومه وعاش في أطرافها ثم رجع لبلاده"[4]. وقد دامت الحروب بين الحنانشة وحليفهم علي باشا وبين حسين باي يسانده باي قسنطينة 18 شهرا[5] تكبد فيها الطرفان خسائر فادحة وكانت المعارك تدور بين جبل وسلات وفج مراح، حيث قتل طراد بن

---

[1] ترجع المصادر العربية ذلك إلى قيام حسين باي باعتقال ابراهيم بن بوعزيز الحناشي بعد سوء تفاهم حصل بين الشيخ بوعزيز والباي حسين، ولعله رفضه تزويجه ابنته، وهو ما أكده، العلامة الوزير الحاج حمودة الدي عاصر الأحداث في قوله: "اجتمع حسين باي بأبي عزيز في محلته فوقعت بينهما مغاضبة سخط بسببها حسين باي على أبي عزيز حتى شتمه وسبه، ونهض من حينه راجعا إلى محلته، وظفر بابنه إبراهيم فاعتقله فارتحل أبو عزيز من يومه نافضا يده من حسين باي ونازعا إلى علي باشا". أنظر، الوزير الحاج حمودة بن عبد محمد بن عبد العزيز: الكتاب الباشي، ج1، (قسم السيرة)، تحقيق: الشيخ محمد ماضور، الدار التونسية للنشر، 1970، ص 280.

[2] حمودة بن عبد العزيز: المصدر نفسه، ج1، ص280.

[3] نفس المصدر، ص 281.

[4] إبن أبي الضياف: المصدر السابق، ج2، ص109.

[5] حمودة بن عبد العزيز: المصدر نفسه، ج1، ص65.

بوعزيز،[1] وقد عبر الحاج حمودة الوزير عن خسائر هده المعارك بقوله، "وقتل من قتل منهم (العرب) وأمور صعاب بعد ذلك ثم لم يتميز له (حسين باي) مراد، حتى ارتحل عنهم، و نزل علي باشا وعاث في البلاد ومضى إلى الساحل ووقع عليه به ما وقع و فر إلى الغرب".[2]

رغم النهب والتقتيل لم يكتف علي باشا وحلفاءه بالإطاحة بحكم حسين باي المدعوم من طرف باي قسنطينة ففر إلى الجزائر بمساعدة صهره سلطان بن منصر، وقد وصل عبر الصحراء إلى فرحات بن رجراجة شيخ العرب، الذي وعدهم بالمساعدة، وفعلا سهل وصول علي باشا ورفقاءه إلى سور الغزلان[3] ومنه وصل إلى الجزائر حيث قام عبدي باشا (حاكم الجزائر) بسجنه بإغراء من باي تونس مقابل دفع إتاوة سنوية تقدر بـــ 10000 سكة[4].أما يونس ابن علي الذي صاهر بوعزيز بن نصر الحناشي،[5] فقد فر إلى قسنطينة بمساعدة صهره الذي أوصله إلى قريبه محمد بن بوضياف بالأوراس الذي وعدهم بالمساعدة. وبما أن شيخ الحنانشة كان في صراع مع كل من باي تونس وباي قسنطينة فقد فر, هو بدوره، اثر هزيمته بفج مراح إلي الأوراس ثم التحق بمجانة حيث آواه حاكمها بورنان المقراني، فزوجه إحدى بناته اللاتي رفض تزويجهن للباي حسين.

بقي الشيخ بوعزيز في ضيافة صهره وبعيدا عن الأحداث السياسية حتى سنة 1147هـــ/1735م حيث توفي عبدي باشا خليف "حسين باي" و تولى

---

1 يكون ذلك قد حدث في سنة 1137هـــ/1724م، في المعركة التي برزت فيها علجية ابنة بوعزيز الحناشي.

2 حمودة بن عبد العزيز: المصدر نفسه، ج1، ص65.

3 زودهم شيخ العرب بـــ 20 فارس من أولاد ماضي رافقوه حتى سور الغزلان ومنه وصلوا إلى الجزائر.

4 Féraud (ch): Les Hrars, p229.

5 زوجه بوعزيز، يعد الوفاق الذي حصل بينه وبين والده علي باشا، من حفيدته ابنة طراد، الذي قتل في معركة فج مراح.

"إبراهيم باشا" حكم الجزائر فأفرج عن "علي باشا"، بعد أن وعده هذا بدفع مبالغ مالية هامة للجزائر إذا ما ساعده الباشا على العودة إلي حكم تونس.[1] ونفس السعي قام به يونس بن علي باشا ببايلك قسنطينة، إذ اتصل بصهره وحليفه الشيخ بوعزيز بن نصر يطلب منه التعاون معهم لاسترداد ملك أبيه بتونس، فاستجاب له الشيخ الذي وجد فرصة للانتقام من حسن باي واستعادة مجد أسرته على الحدود الشرقية للبايلك، وللوصول إلي هدفه اتفق مع صهره بورنان المقراني على مساعدة علي باشا وتم اتصالهما بباشا الجزائر يطلبان السماح لهما بجمع قوات محلية للهجوم على تونس إلي جانب علي باشا وابنه يونس. و قد أكد الشيخان للباشا على أنهما قادران على انجاز ذلك العمل دون مساعدة من القوات العثمانية وأن العملية لن تكلفه أي جهد أو مال،[2] فسمح لهما الباشا بذلك واتصل بباي قسنطينة يطلب منه تسهيل مهمتها.

بهذا, ورغم اتحاد قليان حسين باي قسنطينة مع باي تونس وعرقلته لأعمال القائدين المحليين تمكن هذان بقوتهما من الوصول إلى تونس حيث أخرج حسين باي من العاصمة وحوصر بالقيروان وذلك سنة 1149هـ/1736م،[3] وعندما أيقن من قرب نهايته أرسل ابنه علي باي في محاولة لاستمالة بوعزيز بن نصر بمختلف المغريات حتى يكسبه إلي صفه ويحول هزيمته إلى نصر. فاتجه علي باي الى بوعزيز ليلقاه بمعسكره بعين شبرو[4] إلا أن يونس بن علي باشا استطاع أن يصل الى حسين باي فيقتله في حين "تقلب (ابنه علي

[1] Féraud: Idem, pp 229-230.

[2] Ibid, p231.

[3] شارك في الزحف على تونس 3000 مقاتل من القوات الجزائرية التي أرسلها باشا الجزائر لدعم قوات الشيخين. أنظر. Féraud (ch): Idem, p233.

[4] **عين شبرو**: تقع على الطريق الرابط بين قسنطينة وتبسة وتبعد عن تبسة بـــ 20 كلم شمالا وقد كانت معسكرا للشابية ثم للحنانشة. أنظر: خريطة *Shaw* في نهاية المدخل.

باي) في تلول الحنانشة والصحاري عند ابن جلاب بتقرت وغيره سنين...ثم استقر بقسنطينة"[1].

تولى "علي باشا" الحكم في تونس في (18-4-1148هـ/ 17-9-1735م) وقام جند الجزائر ومعهم قوات الحنانشة، بقيادة الأحرار أصهار الباي بنهب حاضرة تونس وقد كانت غنيمة الحنانشة، من ذلك كبيرة وارتحل الجميع بعد ذلك عائدين الى الجزائر بعد أن حملهم علي باشا الى داي الجزائر كل ما كان قد وعده به من أموال. وبعودة علي باشا إلى حكم تونس عادت أسرة أحرار الحنانشة إلى عزها ونفوذها السياسي فكانت مكانة شيوخها لا تقل عن مكانة أصهارهم حكام تونس وزيادة في إكرام أصهاره بني علي باشا لشيوخ الأحرار قصرا بتونس ينزلون به عند زيارتهم لابنتهم،[2] وكانت كل زيارة تدر عليهم الكثير من نعيم الباي وخيرات تونس[3] إلا أن ذلك النعيم لم يدم طويلا لأن علي باشا كان قليل الثقة في أصهاره لما اشتهروا به من تقلبات بين البايات طمعا في المال والجاه وعلى وجه الخصوص بوعزيز بن نصر الذي اتفقت المصادر على وصفه بالدهاء والمكر وبالتقلب حيث تميل مصالحه،[4] لذا قرر التخلص منهم بمجرد استقرار حكمه وبما أن استعمال القوة لم يكن يجدي للقضاء على هده الأسرة القوية، التجأ علي باشا الى الحيلة فاستغل مجيء أصهاره أحمد الصغير بن

[1] إبن أبي الضياف: المصدر السابق، ج2، ص 114.

[2] Feraud (ch): Les hrars, Op.cit, p236.

[3] لم تكن أسرة أحرار الحنانشة تعتمد في جمع ثرواتها على إنتاج الأرض أو الثروة الحيوانية بقدر اعتمادها على ما كانت تحصل عليه من الضرائب ومن الهدايا التي كانت ترد عليها من بايات تونس، خاصة إثر كل زواج بينهما. أنظر، نفس المرجع، ص 205.

[4] يصف الوزير الحاج حمودة، الشيخ بوعزيز بقوله: "أبو عزيز بن نصر شيخ الحنانشة وزعيم العرب المشهور بالدهاء والمكر في الحنانشة ومن يتبعهم من الأعراب". أنظر: المصدر السابق، ص 280. أما أحمد بن المبارك بن العطار فيقول عنه: "إنه رجل داهية، صاحب مكر ودهاء لا يقدر عليه أحد، وكان يتلون في أحواله فتارة والي حاكم تونس ويعادي صاحب قسنطينة، وتارة يعادي صاحب تونس ويصالح صاحب قسنطينة، وكان ذا جرأة وقوة بناجعة الحنانشة. أنظر: المصدر السابق، ص 63.

عمر وأخيه سلطان وجمع من أعيان الأسرة لزيارة ابنتهم "فأنزلهم الباي بأماكن مختلفة على مقتضى مراتبهم فلما جن الليل أمر بقتل أعيان منهم، كأصهاره أحمد الصغير وسلطان وابنه وابن أخيه وغيرهم وقرن البقية في السلاسل أزواجا، واستعملهم في حفر باردو الجديدة، وفي رم ما انثلم من القصبة وطلق زوجته بنت سلطان وزوجها من بعض مسلمة الإفرنج فماتت أسفا"[1] حدث هذا في سنة 1152هـ/1739م، وفي نفس السنة، وبالتحديد في جمادى الأول 1152هـ/أوت/ سبتمبر 1739م قام علي باشا بالانتقام من بوعزيز بن نصر زعيم فرع نصر وشيخ الحنانشة القوي فقد انتهز، يونس ابن علي باشا بالاتفاق مع والده للقضاء على صهره، فرصة وجوده بالكاف ومجيء بوعزيز في قومه إليه فاستقدمه إليه في 50 فارس من أعيان القوم، و بحيلة قتل 5 فرسان منهم وفر الباقي، أما بوعزيز فقبض عليه يونس ونكل به قبل أن يرسله الى والده بتونس حيث شهر به قبل أن يقتله وكان ذلك في سنة 1740[2] وطلق يونس، إثر ذلك زوجته ابنة طراد بن بوعزيز وبذلك عادت القطيعة مرة أخرى بين بايات تونس وأسرة أحرار الحنانشة.

بعد هذه الأحداث أعلنت العداوة بين باي تونس وأسرة الأحرار الحنانشة بفرعيها؛ إذ تأكد لشيوخ الأسرة خطورة التعامل معهم مهما كانت الظروف كما اتفق زعماء الأسرة على وضع حد لخلافاتهم الأسرية واتفقوا على قبول رئاسة "سديرة" ابن طراد بن بوعزيز عليهم جميعا حتى لا يجد البايات فرصة للتدخل في شؤون الأسرة والتفرقة بينها بتدخلاتهم لتعيين شيخ الأسرة. إلا أن الباي علي باشا استطاع التدخل مرة أخرى في شؤون الأسرة، للإبقاء عليها ضعيفة، وإعادة الشقاق بين فرعيها بتنصيب رجب بن أحمد الصغير شيخا على

---

[1] إبن أبي الضياف: المصدر السابق، ج2، ص 123.

[2] أنظر، نفس المصدر، ص ص123-124، وأحمد بن المبارك بن العطار: المصدر السابق، ص 64. و Féraud , Les Hrars, op.cit, p328.

الأسرة على حساب سديرة ابن طراد، ونسي رجب مقتل والده أمام شغفه بالمنصب، وبذلك عاد الشقاق بين أسرة الأحرار.[1]

أما سديرة فلم ينسى مقتل جده بوعزيز فاغتنم فرصة ثورة يونس على والده وفراره إلى تبسة فأرسل له عمه إبراهيم بن بوعزيز لقتله انتقاما لوالده، إلا أن باي قسنطينة، حسن زرق عينه، عمل على منع وصوله إلي يونس والتمكن من قتله، واستطاع أن ينقذه من الانتقام إلا أنه قام بسجنه بمجرد الوصول به إلى قسنطينة حيث جرده من جميع ممتلكاته.

في نفس هذه الفترة عمد داي الجزائر على إعادة الأسيرين محمد ومحمود ابني حسين باي الى حكم والدهما، فوجدها الحنانشة فرصة الانتقام من علي باشا وشاركوا في الحملة التي شنتها القوات الجزائرية على تونس ودخلوا العاصمة بعد أن فر منها علي باشا وهناك قبضوا على ابنه محمد ففتكوا به وقد قال ابن أبي الضياف عن ذلك: "ألبسوه برنسا غطوا به وجهه وأخذ أحد الفرسان يكيل له الشتم فسأل: من الفارس فقيل له ولده أبي عزيز بن نصر فقال: له العذر في ذلك لأني قتلت أباه شر قتله"[2].

انتهت الحملة على تونس بقتل علي باشا وابنه محمد وذلك في 6 ذي الحجة من سنة (1169هـــ1756م) وبذلك انتهى عهد المصاهرة بين بايات تونس وأسرة أحرار الحنانشة، إذ لم تذكر المصادر التي توفرت لدينا حتى الآن، أن الحنانشة صاهروا من أتى بعد هذه الفترة من بايات تونس، وذلك رغم تأكيدها على موالاة شيوخ الأسرة لهم في حروبهم ضد بايات قسنطينة، منها وقوف الشيخ محمد بن سلطان[3] إلى جانب محمد باي تونس ضد الباي أحمد القلي الذي عمل على ضرب باي تونس، إثر توقفه عن دفع ما على تونس

---

[1] Féraud (ch): Les Hrars …, Op.cit, p329.

[2] إبن أبي الضياف: المصدر السابق، ج2، ص 151.

[3] عينه الباي زرق عينه شيخا على الحنانشة بدلا عن إبراهيم بن بوعزيز الذي قام بسجنه.

للجزائر من ضريبة، وذلك بإخراج يونس بن علي باشا من سجنه الطويل[1] ومساعدته على العودة إلى حكم تونس، إلا أن يونس سرعان ما توفي بعد خروجه من السجن (7 أيام)، وكان محمد باي يستعد لملاقاة خصمه بمساعدة شيخ الحنانشة الذي أرسل جواسيسه إلى قسنطينة، لمراقبة تحركات الباي وبفضله وصل خبر وفاة يونس بن علي باشا إلى باي تونس وبذلك اطمأن الباي محمد إذ فقد أحمد القلي سلاحه الوحيد لضرب حكم تونس،[2] كما أشارت المصادر إلى مشاركة الحنانشة للباي محمد في معاركه ضد إسماعيل بن يونس الذي حاول استرداد حكم جده علي باشا،[3] وقد استمر الوضع كذلك حتى هاجم إبراهيم بن بوعزيز قبيلة شارن الحدودية وكانت تابعة للحكم التونسي[4]. فأرسل باي تونس شكوى إلى صالح باي، الذي وجد في ذلك فرصة لتأديب إبراهيم بن بوعزيز الذي سبق وأن رفض مصاهرته فنزع منه المشيخة، وأجبره على الفرار من قبيلته وبعد فترة من التشرد طلب الأمان إلا أن الباي قام بسجنه بمجرد وصوله إلى عاصمة البايلك حيث بقي بسجنه حتى توفي سنة 1186هـ/1773م.[5]

بعد هذا العرض يمكن القول أن سياسة المصاهرة كانت من أهم عوامل نجاح الحكم العثماني بالجزائر عامة وبايلك الشرق على وجه الخصوص، و لم تكن

---

1 دامت فترة سجنه 10 سنوات.

2 Féraud (ch): Les Hrars, p352.

3 حمودة بن عبد العزيز: المصدر السابق، ج1، ص72.

4 حسب رواية الأهالي للباحث *Féraud* كانت "شارن" و"فراشيش" و"رقاقمة" و"أولاد رنام" وعدد من القبائل الحدودية تحت زعامة أحرار الحنانشة لكن باي تونس استولى عليها بعد مقتل بوعزيز وبذلك خرجت هذه القرى عن سلطة الجزائر وقد اشتكى إبراهيم بن بوعزيز للباي زرق عينه من هذا الوضع الذي أضعف الجباية فكاتب في ذلك علي باشا إلا أنه لم يفعل شيئا لإعادة هذه القرى إلى حظيرة بايلك قسنطينة. أنظر، إبن أبي الضياف: المصدر السابق، ج2، ص147 و Féraud (ch): Les Hrars, p353.

5 Féraud (ch): Les Hrars, p357.

هذه السياسة حكرا على البايات بل كانت، كما مر بنا، تمارس من طرف الأسر المحلية الحاكمة نفسها؛ إذ كانت كل أسرة تسعى إلى كسب ود الأسر الأخرى عن طريق المصاهرة لضمان محالفتها لها حتى أننا نكاد لا نجد أسرة حاكمة لم تصاهر غيرها من الأسر الأخرى وخاصة المجاورة لها، وخير مثال على ذلك علاقة المصاهرة التي ربطت أسرة بوعكاز الذواودة بأسرة ابن جلاب سلاطين تقرت،[1] والتي ربطت بين بوعكاز والمقراني،[2] وبين هذه وأسرة أحرار الحنانشة إثر زواج ابنة بوعزيز من بورنان المقراني[3] وبين أسرة ابن قانة وأسرة بوعكاز.

هذا بالنسبة للأسر المحلية الحاكمة وعلاقتها بالبايات وببعضها البعض فهل اتبعت نفس السياسة بالنسبة للأسر المرابطية والدينية؟ الحقيقة أن اثنين من الأسر البارزة بالبايك لم نجد من المصادر ما يثبت أنها صاهرت البايات أو حاول البايات ربط مصيرهم بهما وهما أسرة بني جلاب حكام تقرت[4] وأسرة الفكون أهم أسرة بمدينة قسنطينة والوارثة لمنصب شيخ الإسلام بالبايلك. وإذا كانت الأسرة الأولى لم تتم المصاهرة بينها وبين بايات قسنطينة لبعدها عن مركز الحكم بالبايلك وانحصار حكمها ونفوذها داخل منطقة محدودة من الصحراء، الأمر الذي قد يجعل الارتباط بها غير ضروري بالنسبة لبايات قسنطينة. فإن أسرة الفكون لم ترتبط بالبايات،[5] رغم معايشتها لهم في نفس المدينة، لابتعاد

---

1 أنظر الفصل الأول.

2 وقد اشتهرت هذه العلاقة بالحرب التي شنها أحمد بن علي بوعكاز على شيخ مجانة بسبب الإهانة التي لحقت ابنته التي زوجها للشيخ أحمد المقراني فلم يصن كرامتها. أنظر: Gouvion, p33. Féraud, …, p 362 Le Sahara

3 Féraud (ch): Les Hrars, pp 229-230.

4 كانت المصاهرة بين الطرفين عن طريق زواج إبراهيم بن جلاب من أرملة الباي مصطفى الوزناجي وهي ابنة شيخ العرب، ذباح بوعكاز. أنظر: Féraud (ch): Les ben djelleb, R.A, 1880, . p185

5 هذا ما أكده لي شفاهيا عميد الأسرة الشيخ حسونة بن الفقون رحمه الله، بتاريخ 19 جانفي 1989. مع العلم أن المصادر تؤكد مصاهرة أسرة الفكون لأسرة بن نعمون التي تنتسب لأحد بايات قسنطينة.

شيوخها، على ما يبدو من كتاباتهم، عن التعامل مع هؤلاء، وتجنب الارتباط بهم لخطورة التقلبات السياسية من جهة ومحاولة الأسرة للحفاظ على مكانتها الدينية بين الناس، وهو ما عبر عنه شيخ الإسلام مرارا بمخطوطه **"**منشور الهداية**"** منها قوله أن جده عبد الكريم (ت988هــ/1550م) رفض اقتراح دفنه قرب أخيه أبي القاسم قائلا: "إن سيدي، يعني أخاه المذكور، سامحه الله، كان قاضيا ولا أحب الدفن هناك."[1]

كما أكد الشيخ على ضرورة الابتعاد عن المناصب الحكومية لما تشهده من تقلبات وينصح أصدقاءه بتجنبها وكتب الكثير عن القضاة المتملقين للسلطة وكره أن يكون منهم،[2] ثم أشار إلى عاقبة المتعاملين مع السلطة الحاكمة من العلماء وساق أمثلة على ذلك منها قصة يحي الأوراسي الذي قال عنه أنه: "كان مخالطا لدار الإمارة يعتقدون فيه الصلاح ولا يقطعون دونه أمرا في كل ما يهم...فحسده أهل زمانه وأكثروا الوشي به إلى الأمراء....إلى أن فر من قسنطينة لجبل الأوراس... ووقعت بينهم حروب كثيرة...وبقي كذلك مدة إلى أن قتل رحمه الله، بحال غدر..."[3].

كما يذكر المحنة التي تعرض لها جده لأمه، مزوار الشرفاء "أبو عبد الله محمد بن قاسم بن محمد الشريف الحسيني"، الذي كان مفتيا، وفي آخر أيامه تعرض للقتل من طرف الإنكشارية[4]. وغيرها من الأمثلة تدلنا على سبب ابتعاد الأسرة عن الوظائف الحكومية كالقضاء والإفتاء أو ما يجعلها ترتبط مباشرة بالبايات عن طريق المصاهرة.

---

1 عبد الكريم الفكون: المصدر السابق، ص50.

2 نفس المصدر، ص ص 73-74.

3 عبد الكريم الفكون: نفس المصدر، ص ص 54-55.

4 نفس المصدر، ص 68.

إلا أن هذا لا يجعلنا نعتقد أن الأسرة كانت ترفض مصاهرة البايات لأننا لم نعثر على ما يشير إلى مبادرة البايات إلى محاولة مصاهرة الأسرة، ولعل ذلك يعود إلى أن البايات كانوا يهدفون من وراء مصاهرتهم للأسر المحلية إلى كسب القوة العسكرية بالدرجة الأولى[1] فاتجهوا إلى الأسر الحربية (نبالة السيف أو الجواد) أكثر من الأسر الدينية ذات النفوذ الضيق والمحدود داخل المدينة أو القرية، لذا كانت مصاهرتهم للأسر الدينية قليلة جدا[2] عكس مصاهرتهم للأسر الحاكمة.

وهنا يمكن التساؤل، إذا لم يرتبط البايات بالأسر الدينية عن طريق المصاهرة فكيف تم كسب هذه الأسر؟

ثانيا . سياسة التقرب من الأسر المرابطية والدينية:

لاحظنا مما سبق أن العثمانيين استغلوا عامل الدين استغلالا كبيرا في بسط سلطاتهم على الجزائر والولايات العربية ككل، لهذا ولكون دولتهم دولة ثيوقراطية، تتخذ رسميا الشريعة الإسلامية قانونا لها،[3] فان الحكام كانوا يتعمدون الظهور بمظهر الملتزمين بالشرائع الدينية بانتظام ويبالغون في احترام رجال الدين من العلماء، والمرابطين ويبجلون الأسر الشريفة.[4] وذلك قصد كسب احترام

---

[1] كان الباي يختار، بعد توليه الحكم، قادة وشيوخ القبائل من بين أقارب زوجته أو الموالين له. أنظر: Féraud (Ch): Les hrars, p 17.

[2] Bebes (Leila): Mythe …, op.cit, p105.

[3] جاء في مقدمة قانون نامة للسلطان سليمان القانون: "قانون نامة السلطان الذي يتفق تمام مع الشريعة الشريفة". أنظر جب وبوون: المرجع السابق، ج1، ص 37.

[4] كانت الأسر الشريفة تتمتع بامتيازات خاصة في الدولة العثمانية، ونتيجة لذلك عهد الكثير من الأسر الجزائرية إلي إثبات نسبها الشريف في وثائق رسمية تستخدمها لقضاء حاجتها من الحكام. وهو ما قام به السيد "ابن عبد الله محمد"، مزوار قرية فرنة (بمنطقة عنابة)، الذي طلب هذه الوثيقة من الفقيه ابن المهدي عيسى "حين أراد التوجه إلي الحضرة الحقانية والرتبة السلطانية". ويقول صاحب الوثيقة أن أفراد أسرته استفادوا من هذا النسب، إذ كانوا "محترمين به عند الحكام وأرباب الدولة وسائر الخلق أجمعين". أنظر شجرة من ذرية علي بن أبي طالب، مخطوط صغير الحجم جميل الخط مزين بخطوط مذهبة، مكتبة الجامعة الإسلامية، قسنطينة، رقم 53.

الرعية وولائها، وقد نجح هؤلاء في ذلك الى حد كبير، سواء ببايلك قسنطينة موضوع هذه الدراسة، أو بالجزائر والولايات العربية عامة. وخاصة بعد كسبه ثقة مرابطي المنطقة[1].

و قد كان كسب العثمانيين لهذه الفئة من المجتمع الجزائري عن طريقتين:

1. إثارة الحماس الديني باستغلالهم للعدوان المسيحي على السواحل الجزائرية.
2. منحهم الامتيازات المادية والمعنوية الواسعة، وربطهم بالمناصب الإدارية والشرفية التي كانت تتوارثها الأسر أبا عن جد، وبذلك كانت قيدا ربطها بالسلطة المركزية طوال العهد العثماني، لأن المحافظة على الامتياز كانت تعني محافظة الأسر على ولائها للعثمانيين والعمل على ترسيخ حكمهم بالبلاد، وذلك بالتعاون معهم على إخماد الثورات الداخلية وحث الرعية على الخضوع لهم.

بهذه الطريقة تمكن بايات قسنطينة من تحويل معظم رجال الدين والمرابطين بالبايلك إلي أداة تخدم سياستهم بالبلاد، وجعلهم من القاعدة الاجتماعية الموالية لهم، وبما أن العلماء كانوا، عادة، من الحضر، والمرابطين من الريف فإننا سنقوم بدراسة سياسة البايات تجاه كل فئة على حدة.

- **سياسة البايات تجاه العلماء والأسر الدينية بمدينة قسنطينة:**

استطاع بايات قسنطينة كسب ولاء أهم الأسر الدينية بعاصمة البايلك، وهي مثال لغيرها من المدن، وجعلها تسير في ركابهم وتخدم سياستهم. و كان على رأس هذه الأسر أسرة الفكون، التي كما أسلفنا بقيت وفية للحكم العثماني

---

[1] يقول حمدان بن عثمان خوجة أن أعيان الجزائر شرحوا لخير الدين باشا طبائع السكان ونصحوه "بأن يمنح المرابطين ثقة مطلقة لأن ذلك يمنع الجميع من أن يقفوا موقفا معارضا، ومن ذلك الحين لم يكتف الأتراك بأن فرضوا على أنفسهم احترام هؤلاء المرابطين وإنما صاروا يقدمون لهم أكبر الامتيازات وأثمنها". أنظر، حمدان خوجة: المصدر السابق، ص111.

حتى نهايته، وقد حافظ العثمانيون من جهتهم على علاقتهم بهذه الأسر بما منحوه لها من امتيازات أدبية ومادية.

ويأتي على رأس الامتيازات الأدبية التي منحت للأسرة امتياز وراثتها لمنصب شيخ الإسلام[1] الذي كان حسب القوانين العثمانية، من حق المفتي الحنفي دون غيره وإذا لقب بعض العلماء والشيوخ من الأسر الدينية بالجزائر بهذا اللقب احتراما وتبجيلا لمكانتهم الدينية فحسب،[2] فإن شيخ الإسلام من أسرة الفكون لم يكن يعني المكانة الدينية للأسرة فقط، بل كان يشمل الوزن السياسي والثقافي للشيخ بقسنطينة، والجزائر ككل.

---

1 لم يرد ذكر شيخ الإسلام في وثائق رسمية كالفرمانات السلطانية (الظهائر) والمسائل الحكومية، وإنما كان الباشاوات يستعملون عبارات التبجيل والتقدير للشيخ دون ذكر لقب شيخ الإسلام. أنظر، رسائل باشوات الجزائر لشيوخ أسرة الفكون. العنتري: الفريدة المؤنسة ص5 وغيرها. و قد فسر أفراد الأسرة ذلك بأن اللقب كان يتبع مباشرة الإمامة والخطابة بالجامع الكبير. أنظر:

Mercier (E): "Constantine au 16 siècle, Op.cit, p226.

أما أول من اقترن اسمه بهذا اللقب من شيوخ الأسرة فهو الشيخ عبد الكريم الفكون (الجد)، إذ سجل على شاهد قبره، الموجود حتى اليوم بزاوية آل الفكون بـــ حي الخرازين بقسنطينة، العبارة التالية: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون، هذا قبر الولي الصالح، شيخ مشايخ الإسلام وقدوة الأنام، العالم المفتي المدرس أبو محمد عبد الكريم بن الشيخ العالم المفتي أبي زكرياء يحي الفكون رحمه الله ليلة الجمعة فاتح رجب سنة 988 هــ"، (1580م). أنظر صورة قبر الشيخ في الصفحة الموالية. ويكون الشيخ قد أخذ هذا اللقب بعد وفاة شيخ الإسلام الأسبق "سيدي عبد المؤمن" سنة 979هــ/1572م، ويقول الباحث *Mercier* أن العثمانيين كانوا قد تريثوا في منح اللقب للشيخ محمد بن عبد الكريم الفكون حتى تأكدوا من إخلاصه لهم على غرار والده. أنظر:

Mercier (E): "Constantine au 16 siècle , Op.cit, pp224-226.

2 سعد الله (أبو القاسم): شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، دار الغرب، ط1، بيروت، 1986، ص 83–84.

- **صورة لقبر شيخ مشايخ الإسلام عبد الكريم الفكون بزاوية الأسرة "حي الخرازين"، قسنطينة، ت 988هـ/1580م.**



بهذا كان اللقب تشريفا لأسرة الفكون دون غيرها من الأسر القسنطينية؛[1] إذ كان يمنحها نفوذا روحيا كبيرا بالمدينة يقارب نفوذ البايات أنفسهم. وقد افتخر الشيخ عبد الكريم الفكون (الحفيد) بمكانة أجداده بالمدينة وحتى يبرز أن كلمة جده كانت أعلى من كلمة الباي نفسه أورد رواية الواقعة التي حدثت بين جده عبد الكريم واليهودي "المختار" الذي تعرض بالشتم للنبي-صلى الله عليه وسلم- فحكم عليه الشيخ الفكون بالإعدام، الأمر الذي أثار ثورة فرقة الإنكشارية من حرس قصر الباي[2] ورغم ثورة هؤلاء وتهديدهم بالاستقالة الجماعية، في حالة إعدام رفيقهم، ورفض قاضي المدينة لحكم الشيخ واتهامه

---

1 بقي اللقب وراثيا في أسرة الفكون حتى نهاية الحكم العثماني، و قد ألغي مباشرة بعد الاحتلال الفرنسي لمدينة قسنطينة (1253هـ/1838م). أنظر، سعد الله (أبو القاسم): نفس المرجع، ص52.

2 كان اليهودي قد اعتنق الإسلام ليلتحق بسلك الجيش الإنكشاري. أنظر، عبد الكريم الفكون: المصدر السابق، ص64.

بالتدخل في شؤونه، ورغم تدخل الباي شخصيا لالتماس العفو لليهودي فإن الشيخ تمسك بحكمه وأصر على تنفيذه و لم يتراجع حتى نفذ حكم الإعدام في المتهم.[1]

و لم يقتصر نفوذ شيوخ الإسلام على الجانب الديني بالمدينة بل تعداه للمشاركة في الحياة السياسية والإدارية؛ إذ بالإضافة إلى تولي شيخ الإسلام مهمة إدارية هي مهمة شيخ البلد[2] فإنه كان يساهم في حل المشاكل التي كانت تعترض سبيل السياسة العثمانية بالمدينة منها المجهودات التي بذلها الشيخ عبد الكريم (الجد) للتوفيق بين سكان المدينة والحكم العثماني سنة 975هـ/1567م وإقناعهم بفتح أبواب المدينة للقوات العثمانية سنة 1050هـ/1640م، وقد كانت ثورة ابن السخري (1637م) كفيلة بالقضاء على الحكم العثماني بالبايلك في هذه الفترة المبكرة لولا وقوف الشيخ عبد الكريم الفكون وغيره من رجال الدين[3] إلى جانب الحكم العثماني.

ونفس الموقف وقفه شيخ الإسلام لصد هجوم مراد باي تونس على قسنطينة 1112هـ/1700م، ثم هجوم الثائر ابن الأحرش سنة 1219هـ/1804م. وقد استطاع الشيخ بالتعاون مع قائد الدار "أحمد بن الأبيض" حماية المدينة، رغم قوة الهجوم،[4] ورغم غياب الباي عن المدينة.

---

1 عبد الكريم الفكون: نفس المصدر، ص ص 64 -67.

2 ورد هذا في عدة مصادر منها سجلات العدول لمحكمة قسنطينة. (أرشيف ولاية قسنطينة).

3 كان باشا الجزائر يراسل رجال الدين بالبايلك ويحثهم على مساندة القوات العثمانية ضد ثورة ابن السخري. أنظر نموذجا عن هذه الرسائل و هي موجهة إلى الشيخ "محمد الساسى البوني" مفتي عنابة بـ: Vayssette: op.cit, pp 104-107.

4 من بين ما عثرنا عليه بين عقود الزواج والطلاق بسجلات العدول لمحكمة قسنطينة، أن أحد السكان طلق زوجته بعدد القذائف التي سقطت على المدينة في تلك السنة. (العقد وقع سنة 1219هـ/1804). وهو ما يدلنا على ضخامة عدد القذائف الملقاة على المدينة.

بالإضافة إلى هذا كان لشيوخ الإسلام دور كبير في حل المشاكل الداخلية للمدينة ورعاية الأمن والاستقرار بها، فقد تدخلوا في العديد من الحوادث وتمكنوا من إيجاد الحلول لها ومن الأمثلة على ذلك تدخل الشيخ عبد الرحمان الفكون ضد صالح باي عندما حاول هذا الأخير الاستقلال عن السلطة المركزية بالجزائر وكادت الأحداث أن تتحول إلى حرب أهلية[1] بين المناصرين لصالح باي وأتباع الباي الجديد (حسين) فقد اعتمدت قوات الباشا على الشيخ للتمكن من القبض على صالح باي الذي اعتصم بداره ورفض الخروج منها إلا بحضور شيخ الإسلام. وذلك طمعا في شفاعته عند الباشا والنجاة من القتل, و قد اتجه الشيخ فعلا إلى دار الباي وتمكن من إخراجه منها بعد أن وعده بالحماية وسلمه بعد ذلك إلى آغا القصبة لإعدامه.

وقد عبر الشيخ ابن العطار عن هذه الحادثة بقوله "عند ذلك أتاه الشيخ سيدي عبد الرحمان بن الفكون وهو إذ ذاك شيخ البلد صاحب مبرة[2] الولاة التي جعلوها له فخاطب صالح باي وقال له: "اذهب إلى داري وأكاتب عليك الباشا فإنه لا يخفر ذمتي وأذهب أنا وأنت إلى الحج فأطاعه وخرج معه وذهب من كان معه في حال سبيله فلما وصل قرب داره وجد الديوان أعني ديوان القصبة في انتظاره فمسكوا صالح باي فالتفت إلي الشيخ وقال غدرت فأجابه: الغدر سبق منك[3] فيك ولا في أهل البلد وذهبوا إلى القصبة فخنقوه".[4]

ونفس المعنى جاء في أغنية شعبية مازال سكان قسنطينة يتغنون بها منها قولهم على لسان صالح باي: "خرجت متهني، اعطاوني الأمان وخدعوني"

---

[1] أنظر سعيدوني (ناصر الدين): دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، ص، 35.

[2] لعلها تعني صاحب شفاعة.

[3] أعتقد أن خلافا وقع بين أسرة الفكون والباي بسبب حرمان شيخها من امتياز الإشراف المباشر على أوقاف المدينة.

[4] إبن المبارك إبن العطار: المصدر السابق، ص ص 74-75.

وبقتل صالح باي انقذت المدينة من حرب أهلية وتعاظمت مكانة أسرة الفكون لدى الحكام العثمانيين وخاصة باشا الجزائر.

ونفس التدخل كان من الشيخ "محمد الفقون" في عهد تشاكر باي[1] (1233هـ/1810م)، الذي حاول بدوره الانفصال عن باشا الجزائر، وعند وصول الباي الجديد "قارة علي" بقرار من الباشا بفصل الباي تشاكر فكر هذا في الإحتماء بدار الشيخ الفقون لإفلاته من العقاب فأرسل له يطلب الشفاعة إلا أن الشيخ سلمه الى الباي الجديد بمجرد دخوله إلى بيته وبذلك تم القبض عليه ثم قتله وكان ذالك العمل أكبر خدمة لباشا الجزائر الذي أرسل للشيخ رسائل شكر وإعجاب بسياسته الحكيمة[2].

وفي نفس المجال يمكن الإشارة إلى نجاح الشيخ محمد الفكون في إفشال الانقلاب الذي قام به الإنكشارية بقيادة أحمد شاوش ضد الباي علي بن يوسف، سنة 1223هـ/1809م؛ إذ أرسل أعيان المدينة وعلى رأسهم شيخ الإسلام إلى باشا الجزائر يخبرونه بمقتل الباش آغا والباي علي واغتصاب أحمد شاوش لمنصب الباي كما أخبروه بنية الباي الجديد في مهاجمة مدينة الجزائر والاستيلاء على الحكم بها، فجاء رد الباشا يأمر السكان والشيخ الفكون بقتل جميع الإنكشارية بالمدينة ومنهم أحمد شاوش، إلا أن الشيخ الفكون رفض القيام بهذه المجزرة و"أشار عليهم بالقول الواضح والراي المصيب قائلا لهم نعملوا كل الجهد في قتل ذلك التركي الذي شق العصا وجاوز الحد وترجع باي من تلقاء نفسه وباشر تضييع الخزائن بيده فلازم (لا بد) من قتله لأنه صاحب فساد

---

[1] يقول صالح العنتري عن هذا الباي أنه: "رجل صاحب بطش غالب عليه صلابة العجم، يسفك الدمى (كذا)، في الحق والباطل، يأخد أرزاق الناس بالغزو ولا يبالي بمن هو طائع أو عاصي"، الفريدة المؤنسة، ص 63.

[2] نفس المصدر، ص 70.

وفتنة... ومن بعد أن تقتلوه نكتبوا جوابا إلى الباشا بالجزائر نستعطفوه (كذا) ونطلبوه (كذا) بأن يعفوا (كذا) عن هذا العسكر ...[1].

وفعلا طبق رأي الشيخ وبذلك نال احترام وعرفان كبار رجال الحامية التركية وتقدير الباشا لحسن تصرفه وإنقاذ أرواح كثيرة كانت قد أُهدرت دماؤها.

من هذه النماذج وغيرها يمكن تصور الدور السياسي الكبير الذي كان يلعبه شيوخ أسرة الفكون بمدينة قسنطينة وهو ما أكسبهم، إلى جانب الإمتيازات الأدبية، إمتيازات مادية كبيرة كانت تتبع وظيفة شيخ البلد وشيخ الإسلام وقد لخص الباحث الفرنسي *Mercier* هذه الإمتيازات في:

- شرف منصب أمير ركب الحج وما كان يتبعه من امتيازات مادية منها أخذ الأمير على كل حاج ضريبة معينة وارث من يتوفى أثناء الرحلة[2].
- الإشراف المطلق على أوقاف الجامع الكبير،[3] وهو إمتياز مادي منح للأسرة وأهم مصدر لثروتها لأنه كان يجمع العديد من العقارات والأراضي الواسعة.
- الإعفاء من الضرائب وجميع التكاليف على أملاكهم المحبسة سواء بالريف أو المدينة وتضم الأراضي والمنازل والمتاجر والمطاحن وورشات النسيج والمخابز والبساتين وغيرها من العقارات.
- الإعفاء من السخرة، والضيفة، وضريبة الدخول والخروج من المدينة.
- حق إحتكار ضريبة الزرابي والخشب المجلوب من منطقة الأوراس[4].

---

1 نفسه، ص ص 59-60.

2 لم يكن هذا خاصا بالشيخ الفكون بل بأي أمير لركب الحج. أنظر، دائرة المعارف الإسلامية (ركب الحج)، ص650.

3 قدرت في عهد صالح باي بـــ 491 ريال ومصاريف الجامع كانت لا تتعدى 408 ريال، والباقي تستفيد منه أسرة الفكون في أمورها الخاصة. أنظر، سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 241.

4 يبدو أن هذا الامتياز منح للأسرة منذ بداية العهد العثماني؛ إذ جاء في الظهير الذي كتبه فرحات باي للأسرة في أوائل ذي القعدة 1057هــ ديسمبر 1647م: "الحمد لله ليعلم من يقف على كتابنا هذا من

- حق إحتكار ضريبة سوق الخضر والفواكه بالمدينة.
- الحصانة الخاصة لهم ولخدمهم وفلاحيهم ولأموالهم فلم يكن يتعرض لهم أحد بأي أذى، بالإضافة إلى حصانة بيت الشيخ وزاويته؛ إذ أصبح لهما حصانة خاصة فكان كل من يحتمي بهما يكون آمنا مهما كانت جريمته[1].

وقد كان البايات والباشوات يكتبون بهذه الإمتيازات وغيرها ظهائر (فرمانات) رسمية تسلم لكل شيخ يتولى مشيخة الإسلام بالمدينة وكان آخرها الظهير الذي كتبه للأسرة الحاج أحمد آخر بايات قسنطينة سنة 1242هـــ_1826م[2].

بفضل هذه الإمتيازات المادية والأدبية تحولت أسرة الفكون إلى أسرة إقطاعية كبرى, يكفي الإطلاع على المساحات التي قامت الدولة الجزائرية بتأميمها في اطار الثورة الزراعية سنة 1971م لمعرفة ضخامة ما كانت تملكه هذه الأسرة من أراضي،[3] كما أن من يرى بيت شيخ الإسلام رغم ما أصابه من تهديم[4] يتأكد من المكانة التي كان شيوخ أسرة الفكون يتمتعون بها .بمدينة قسنطينة.

القياد والعمال والخاص والعام ببلد قسنطينة ... فإننا أدينا عشور ما يأتي من جبل الأوراس من الفراش والجزمة بالجامع الأعظم كما جرت العادة السابقة في حياة أولينا البايلار (البايات ...)". أنظر:

Vayssette: Op.cit, pp227-228.

[1] Mercier (E): Constantine Au 16 [em] siècle, op.cit, pp 227-228.

[2] أنظر نص هذه الظهائر بنفس المرجع، ص 229-245، وقد أعاد نشر بعضها الدكتور سعد الله في كتابه "شيخ الإسلام ..." ص 225-230.

[3] Benmati (M): Contribution a l étude du secteur Agricol de la Commune de Constantine, Th. Magistere, S.C. De La Terre, U.de Constantine, 1977, p 116-139 et 145-189.

[4] بني البيت بالبطحة قرب الجامع الكبير من طرف الشيخ عبد الكريم الفقون (الحفيد)، وقد نال إعجاب الشاعر محمد السوسي، صديق شيخ الإسلام، فعبر عن ذلك في قصيدة مطولة مطلعها:

ألا عج إلى البطحاء ترى البرق   على دار علم بالعلوم تنضنض
وتذهب جلابات الدجا ببهائها   كأنها قلوع تربــــــــــــض

أنظر، سعد الله، شيخ الإسلام ...، ص216-218، وقد ضم البيت مقبرة مشائخ الإسلام ابتداء من عبد الكريم الحفيد (ت 1663م).

من هنا يمكن أن يتبادر إلى الذهن سؤال هو: هل كانت تصرفات هؤلاء الشيوخ ومواقفهم من الأحداث السياسية بالمدينة نابعة من عملهم الصادق على الحفاظ على مصالح السكان وأمنهم وإستقرارهم؟ أم هي مجارات للحكام وعلى رأسهم باشا الجزائر، ومسايرة سياستهم رغم ما اتسمت به من تقلبات وعيوب، حفاظا على ما اكتسبوه من امتيازات مادية؟

إن الجواب يمكن أن يكون بالايجاب على السؤالين معا: لأن شيوخ الأسرة عرفوا منذ بداية العهد العثماني بمولاهم للحكام العثمانيين وبالحكمة والتبصر في مواقفهم من مختلف الأحداث؛ إذ كانت هذه المواقف،حسب اعتقادي، لا تخضع لضغوط الحكام ولا لإندفاع وهو ما جعل أحكامهم مقبولة من الحاكم والمحكوم على حد سواء. ولعل ذلك يعود لمكانة الأسرة العلمية وترفعها عن كل ما يمكن أن يسيئ لسمعتها من إرتجالية وهي صفة وصف بها الرحالة المغربي العياشي الشيخ عبد الكريم الفكون في قوله:"كان محافظا على سلوك وسيرة والده من التؤدة والحلم والوقار فأحبته القلوب ومالت إليه النفوس".[1]

كما أننا لا نستطيع إهام شيوخ الأسرة بالتملق للحكام ومجاراهم في أخطائهم لأننا نجد في كتاباهم بعض علامات السخط على الحكم العثماني والتذمر من الوضع في عهدهم، منها قول الشيخ عبد الكريم الفكون في مخطوطه "منشور الهداية": "أما بعد فلما رأيت الزمان بأهله تعثر وسفائن النجاة من أمواج البدع تتكسر، وسحائب الجهل قد أطلت، وأسواق العلم كسدت فصار الجاهل رئيسا والعالم في مترله يدعى من أجلها خسيسا ..."[2].

ونفس الموقف عبر عنه ابنه محمد ابن عبد الكريم الفكون في مخطوطه النوازل لقوله على لسان والده: "وهذا الزمان كما يقال:

---

[1] العياشي: المصدر السابق، ج2، ص 390.

[2] عبد الكريم الفكون: المصدر السابق، ص ص 31-32.

زمن على (كذا) قدر الوضيع به ◊ وغدا الشريف يحطه شرفـــه
كالبحر يرسو فيه لؤلـــؤ، سفلا ◊ ويعلو (كذا) فوقـــه جيفـــه
شريفه خادم ذي الظلم والعدوان ◊ ومشروفه متحلي بحلية البهتان"[1]

وحتى إذا لم يفصح الكاتبان عن رأيهما في الحكام العثمانيين صراحة، وذالك ربما تجنبا لانتقامهم، فإن هذه العبارات وغيرها مما ورد في كتابيهما تدل على تذمرهما منهم بل كان الشيخ عبد الكريم الفكون قد عبر صراحة عن كرهه لمن يساير الحكام من العلماء والقضاة ومن يسير في ركبهم، إلا أن كل هذا لا يمنع من القول بأن رغبة الأسرة في المحافظة على ما كان لها من امتيازات مادية كانت تفرض عليها السكوت على المظالم التي كان يقوم بها بعض الحكام ضد الرعية؛ إذ لم نجد حتى الآن، أي نص لشيوخ الأسرة يدين هذه الأعمال أو يطالب بإصلاح حال السكان، وقد استفسرت حول هذا الموضوع عميد أسرة الفكون، الشيخ حسونة الفكون، فأجابني بأن الأسرة كانت مضطرة لقبول هذه الوظيفة لمسايرة البايات، لأنها لو فعلت غير ذلك لوجد هؤلاء أسرة أخرى تقوم بالمهمة ولخسرت هي جميع إمتيازاتها المادية وهو ما لم تكن الأسرة مستعدة للتخلي عنه لأن هذه الامتيازات أصبحت مصدر عيش معظم أفراد الأسرة.[2]

- صورة لبيت أسرة الفكون بناه الشيخ عبد الكريم الفكون الحفيد بالبطحاء وبه دفن مشايخ الاسلام، وصورة أخرى للمسجد الكبير الذي كان يشرف عليه شيوخ الإسلام:

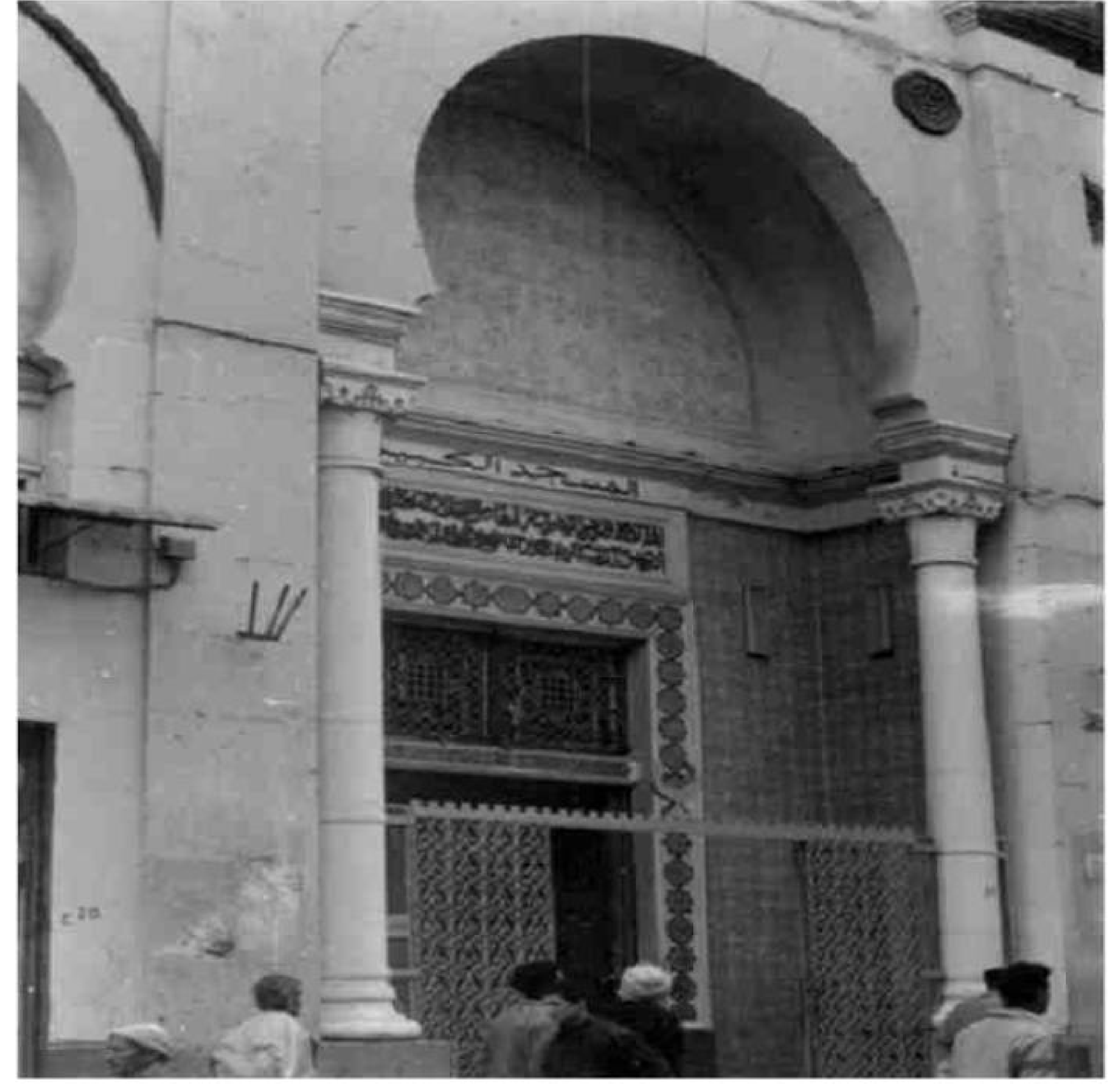
---

[1] محمد بن عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن الفكون التميمي: كتاب النوازل، مخطوط ملك للأسرة، ص 204.

[2] مقابلة شخصية بيت الشيخ في حي الصنوبر بسطح المنصورة، قسنطينة، المقابلة تمت في 19 جانفي 1989.



بيت أسرة الفكون، بناء الشيخ عبد الكري
بناء الشيخ عبد الكريم الفكون (الحفيد) بالبطحا، قسنطينة، و به دفن مشايخ الإسلام.



المسجد الكبير الذي كان يشرف عليه شيوخ الإسلام، حي العربي بن مهيدي، قسنطينة

من هنا يمكن الوصول إلى نتيجة واحدة وهي أن بايات قسنطينة ومن ورائهم باشوات الجزائر نجحوا في تسخير أهم أسرة دينية بقسنطينة لترسيخ حكمهم بالمدينة لمدة تجاوزت الثلاثة قرون والحديث المطول عن أسرة الفكون لا يعني أنها الأسرة الوحيدة التي إستطاع الحكام العثمانين إستمالتها بل تمكن هؤلاء من تقييد معظم الأسر العلمية والدينية بالمدينة بمناصب دينية أو قضائية بقيت في أغلب الأحيان وراثية في أبنائها، ومن أهم هذه الأسر أسرة إبن باديس التي تولت القضاء قبل وبعد الحكم العثماني[1]، وأسرة الكماد وأسرة المسبح وأسرة إبن

---

[1] يقول الشيخ عبد الكريم الفكون أن أسرة إبن باديس أسرة عريقة في القضاء والإمامة "ويقال أنه اجتمع فيهم أربعون كلهم صاحب منصب حازوا المناصب الشرعية ببلدهم والمخزنية..." أنظر، المصدر السابق، ص 57.

نعمون وغيرها[1] من الأسر القسنطينية، بالإضافة إلى علماء مختلف مدن البايلك منهم علماء أسرة إبن العناني التي ثوارتث الإفتاء والقضاء بمدينة عنابة.[2]

والحقيقة أن معظم المناصب العلمية والدينية كانت في يد الأهالي من تدريس[3] وخطابة وإمامة وقضاء وإفتاء، وقد تولى عدد من الأسر المحلية القضاء والإفتاء الحنفي بعد إعتناق شيوخها لهذا المذهب وذلك بتشجيع من الحكام منها أسرة المسبح التي اعتنقت المذهب الحنفي بدفع من الباي عثمان 1804م، وقد عين شيخها محمد المسبح خطيبا بجامع سوق الغزل الذي كان يصلي به الباي[4]. وكذلك أسرة إبن جلول التي تحول زعيمها عباس بن علي جلول إلى المذهب الحنفي في عهد الباي حسن بوقمّية (1125هـ/1713م) وبذلك قربه الباي ومنحه منصب الباش كاتب[5] وقد إشتعل أحفاده بالقضاء وكان آخرهم مصطفى بن جلول قاضي الحنفية بقسنطينة أيام الإحتلال الفرنسي للمدينة[6].

---

1 حول مختلف هذه الأسر أنظر عبد الكريم الفكون: نفس المصدر، ص 35 وما بعدها.

2 سعد الله (أبو القاسم): تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 409.

3 كانت مدرسة الكتانية، التي بناها صالح باي سنة 1189هـ/1775م، تضم 20 طالب كلهم من المالكيين، و3 معلمين من الأهالي. أنظر: Cherbonneau (A): Op.cit, p109.

4 سعد الله (أبو القاسم): المرجع نفسه، ص 411.

5 A.D.M.1H9, Op.cit.

6 Mercier (E): Histoire de Constantine, p244.

أسرة الفكون[1] "شيوخ الإسلام":



---

[1] لم أتمكن من العثور على شجرة رسمية فاعتمدت لى المصادر والمراجع لوضع هذه الشجرة التقريبية والقابلة للتعديل. أنظر. فشي فاطمة الزهراء: الحياة الفكرية في قسنطينة خلال العهد العثماني. المجلة التاريخية المغربية. عدد 57-58. تونس. 1990. ص337.

[2] يقول عنه الشيخ عبد الكريم أنه "كان من البلد وصلحاء أهل زمنه ودفن بمدرسة الجد". أنظر. المصدر السابق. ص52.

وللحفاظ على هذه الوظائف، وما كان يتبعها من إمتيازات كانت كل أسرة تعمل على مسايرة الوضع السياسي وخدمة البايات لكسب رضاهم، خاصة أن هؤلاء كانوا يسمون العلماء ورجال الدين كل أنواع الإهانة إذا ما أحسو منهم خطرا على حكمهم، وهو ما حدث للعديد من العلماء الذين تعرضوا لغضب البايات لفصاحتهم أو الخوف من شعبيتهم أو لميلهم لباي يذهب عهده أو لمجرد الفتنة وضرب الأسر بعضها ببعض قصد إضعافها.

وقد أورد لنا الشيخ الفكون عددا من الأمثلة على ماعاناه بعض العلماء من سجن وتغريم ونفي ومصادرة لأموالهم وحتى القتل، من ذلك إشارته إلى قتل الشيخ "يحي الأوراسي" الذي تولى الإفتاء بعاصمة الإيالة ووصل ما لم يصله غيره من مكانة عالية لدى الحكام. و"يحي بن باديس" الذي كان نائب عن قضاة العجم بقسنطينة وخطيبا بجامع القصبة، والذي تعرض للقتل مع جد الشيخ عبد الكريم لأمه وكان مزوار للشرفاء[1]، و"عبد العزيز النقاتي" الذي كان كاتبا لدار إمارة قسنطينة ثم تعرض لغضب الباي "محمد بن فرحات" إثر رفضه دفع غرامة مالية فسجنه بسجن قسنطينة إلى أن توفي به[2]. و"محمد التواتي" الذي إضطر إلى الهجرة إلى تونس فرارا من أذية حكام قسنطينة[3]. و"عبد الله بن الكماد" الذي هدم بيته من طرف عسكر الجزائر.[4] والأمثلة كثيرة على العلماء الذين مارسوا الوظائف الدينية بالبايلك وشاركوا في مجالس الشوري بالمدينة ثم تعرضوا لإنتقام البايات لسبب أو لآخر.

بالإضافة إلى هذا كانت الوظائف الحكومية سببا في الشحناء التي وقعت بين العلماء؛ إذ تحول معظمهم إلى موظفين دينيين لا يهمهم سوى التمسك

[1] عبد الكريم الفكون: المصدر السابق ص 59.
[2] نفس المصدر، ص 61.
[3] نفس المصدر، ص 59.
[4] نفس المصدر، ص ص 77-78.

بالوظيفة وما تدره عليهم من إمتيازات مادية، فكان العالم، حسب الشيخ عبد الكريم الفكون، يتملق للحكام ويقدم الرشاوي لينال الوظيفة أو ليحتفظ بها. وقد أورد لنا الشيخ عددا من الأمثلة على ذلك منها قوله عن المفتي "احميدة بن حسن العربي" أنه: "كان يخدم الولاة ويعظمهم ويمتهن نفسه في موالاتهم ويعطيهم الرشا (كذا)..."[1]

ونفس الوصف خص به الكاتب "عبد الله بن النعمون"[2] وعددا كبيرا من رجال العلم والدين بقسنطينة، وقد حمّل الشيخ الفكون السياسة العثمانية مسؤولية هذا التحول في أخلاق وسلوك العلماء كما أشار إلى نجاح هذه السايسة في التفرقة بين العلماء وبث الشقاق بينهم وساق أمثلة عديدة على ما كان يحصل من تنافس بين القضاة والعلماء منها تنافس الشيخ "عبد الله بن نعمون" و"أبي العباس أحمد بن باديس" على منصب الإفتاء[3] الأمر الذي ولّد كرها شديدا بين الطرفين.

من هنا يمكن تصور مدى إستغلال البايات لمختلف العناصر المحلية لمدينة قسنطينة ومنها العلماء الذين تحول معظمهم عن الأمور الدينية للتنافس على الإمتيازات المادية التي ربطت مصيرهم بمصير الحكم العثماني بالباليك، وقد إنتهج البايات نفس السياسة تجاه المرابطين بأرياف البايليك وتمكنوا من كسب ولائهم وولاء أتباعهم.

- **سياسة البايات تجاه المرابطين بأرياف البايليك:**

كان إهتمام بايات قسنطينة، والحكام العثمانين عامة، بالمرابطين في الريف، لا يقل عن إهتمامهم بالعلماء والأسر الدينية بالمدينة، وذلك لأن

---

1 عبد الكريم الفكون: المصدر السابق، ص 75

2 خص الكاتب هذا الشيخ بأبشع الصفات. أنظر، نفس المصدر، ص 81-89.

3 نفس المصدر، ص83.

المرابطين كانوا، حسب تعبير حمدان بن عثمان خوجة، نعمة منّ بها الله على الحكم العثماني لفرض وجوده بالبلاد؛ "إذ بمجرد ما لهم من نفوذ على هذه الشعوب يسكتون أسلحة الخدوم ويمنعون إراقة الدماء".[1] إلاّ أننا نتسائل: هل كان تقرب البايات من المرابطين مجرد سياسة لكسب ولائهم وولاء اتباعهم؟ أم أن هؤلاء كانوا يؤمنون فعلا في قدرة المرابط الخارقة؟

يقول حمدان خوجة أن "الإعتقاد الشعبي إزاء المرابطين أساسه الجهل وأن المتعلمين منا ورؤساء الحكومة التركية يدركونها حق الإدراك غير أن السياسة هي التي جعلت الآخرين (الحكام) يبقون على هذه المبادئ الغالطة أو يتركونها تستمر ويحترمون الأماكن التي تقدمها القبائل وهذه المجاملة هي التي مكنتهم من الحصول على ما حطمه الجيش الفرنسي"[2] والحقيقة أن الأحداث التاريخية تؤكد أن الإعتقاد بالمرابطين والمشعوذين كان من سماة الدولة العثمانية من نشوئها، حيث أن طريق البقطاشية كانت عماد الحكم العثماني والموجه الأساسي لقرارات حكامه حتى أن مباركة شيخ الطريقة كانت ضرورية لتحرك الجيوش أو احجامها[3].

فإعتقاد العثمانين بكرامات المرابط لم تكن إذا (مجاملة) للجزائرين "الجهلة" بل حقيقة كان مرادها الخوف من مغبة غضب المرابط وسخطه عليهم لإعتقادهم أن دعواه عليهم قد تفقدهم السلطة ودعواه لهم قد تمكن حكمهم وتحفظه من الزوال.[4] وقد أوردت لنا المصادر التاريخية أمثلة كثيرة عن ارتباط الحكام العثمانين بالمرابط وإيمانهم بكراماته.

---

1 حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، ص 57.

2 نفس المصدر، ص ص 58-59.

3 سعد الله (أبو القاسم): تاريخ الجزائر الثقافي، ص 465، 474.

4 حول الموضوع، أنظر، العيد (مسعود): المرابطون والطرق الصوفية بالجزائر خلال العهد العثماني، مجلة سيرتا، العدد 10، معهد العلوم الاجتماعية ، جامعة قسنطينة، الجزائر، 1988، ص 22.

وبما أننا بصدد درسة سياسة بايات قسنطينة تجاه هؤلاء المرابطين فسنسوق بعض الأمثلة عن علاقة بايات قسنطينة ببعض المرابطين، من ذلك ما أورده الباحث *(Féraud)* عن المرابط "محمد بن يحي"، مرابط منطقة أولاد عبد النور الذي حاول الباي حسن بوقمّية جباية الضرائب من منطقته بالقوة، إلا أن المرابط أبرز كراماته لقوة الباي مما جعل هؤلاء يتراجعون عن منطقته وأجبر الباي على إعفائه من أي نوع من الضرائب بل يقال بأن الباي تقرب من المرابط فصاهره ومنح زاويته حصانة خاصة.[1]

وعن نفس السياسة نشر الكاتب نذرا للباي حسين بن صالح باي أخده على نفسه كتابيا يقضي ببناء مسجد ودار للمرابط سيدي العريان بأولاد خباب، ووقف الأوقاف على زاويته، إذ ما تحقق له النصر على باي تونس حمودة باشا سنة 1222هـ/1807م. ومما جاء في هذا النذر: "...عبده حسين باي إبن صالح سنة 1221هـ، الحمد لله ... ليعلم من يقف على أمرنا هذا... أننا أشهدنا على أنفسنا وإلتزمنا إلتزاما كليا بحيث لا تسعنا المخالفة عليه وهو أن قدمنا إلى تونس بمحالنا وعساكرنا وسهل الله أمرها علينا واخدناها فالشيخ[2] (كذا) سيدي علي العريان والسيد محمد بن سي السعيد ما يحتاجه (كذا) منا من بناء دار تكون بقربه وإصلاح مسجده ونجعلوا (كذا) له أوقافا معلومة... فعليهم بالإعانة لنا بدعايهم (كذا) الصالح الجالب لكل المنافع والمصالح فنحن أولادهم وعيبنا في وجهم (كذا) ...ولا زايد سوى إغتنام الدعاء الصالح منهم ومن أمثالهم حشرنا الله تعالى في زمرهم وحزبهم..."[3].

وقد يتبادر إلى أذهاننا أن الباي لا يلجأ إلى المرابط إلا عند احساسه بالضعف وهو حال حسين باي بن صالح باي إلا أن المصادر التاريخية تشير إلى

[1] Féraud (ch): Le Sahara…, op.cit, p 204.

[2] المراد بها فللشيخ.

[3] Féraud (ch): Un Vœu d'Hussein Bey, In R.A, 1863, pp91-92.

أن هذه السياسة كانت عامة، وكثيرا ما فسر الناس نجاح أو فشل الباي في حكمه لدعاء المرابط له أو عليه. وهو ما ترجم به حادث خلع ثم قتل صالح باي أعظم بايات قسنطينة، حيث تقول الروايات الشعبية[1] أن الباي إعتدى على المرابط "سيدي عبيد" مرابط قبيلة النمامشة وأخذ إبله (2000 جمل)، فدعى عليه بزوال حكمه،[2] ويقال أن الباي حاول إسترضاء المرابط، تشاؤما من ذلك الدعاء، وعمل على إعادة ما أخذ منه، إلاّ أن "سيدي عبيد" رفض ذلك مؤكدا للباي أنه سيأخذ أمواله، لكن ليس منه ولا من خليفته وإنما من ثالثهم، وفعلا قتل إبراهيم باي ثم صالح باي وعند وصول حسن باي إلى الحكم عادت إلى المرابط أمواله.[3]

بهذه الطريقة أصبح الباي مضطرا للتقرب من المرابط للمحافظة على حكمه وهو ما أشار إليه الشيخ "أحمد بن المبارك بن العطار" في كتابه "حاضرة قسنطينة" عن الباي حسن بوحنك (1123هـ/1713م) الذي قال عنه: "كان رجلا داهية صعبا لا يقول بولي ولا يرى جاها لأحد لشدة نفسه، وشهامة طبعه إلى أن إجتمع بالوالي الصالح الشيخ الشليحي في حاجة عرضت له عنده، أراد أن يغلط على الشيخ ثم نظر فإذا أموال عظيمة أحاطت به ورأى نفسه جالسا على هواء عظيم والنار تشتعل... فاستغاث بالشيخ وحسنت نيته فيه وإعتقد كرامة الأولياء من حينئذ وأعطى للشيخ دارا بقرب الأربعين شريفا لازالت إلى اليوم تعرف بدار الشليحي وأعطاه أرضا وجعل له زاوية ببلد أولا

---

1 يجب أن نأخذ هذه الروايات بحذر لأن الخيال والمبالغة يلعبان دورا كبيرا في نسج خيوط مثل هذه الروايات.

2 بقي دعاء المرابط على صالح باي وقواته يتغنى به في الأوساط الشعبية وقد نشر الباحث *Féraud* أبياتا من هذه الأغنية في كتابه "صحراء قسنطينة"، ص 224.

3 Féraud (Ch): Le Sahara…,op.cit, p225.

عبد النور وأسقط المطالب المخزنية عن زاويته و لم تزل إلى اليوم تعرف بزاوية الشليحي".[1]

والأمثلة كثيرة على مثل هذه المواقف من البايات تجاه المرابطين، وسواء كانت بنية صادقة أو لغرض سياسي فإن العثمانيين كونوا علاقة متينة مع هذه الفئة من المجتمع الجزائري فكانت لهم خير عون على إجتياز العقبات التي تعرض لها حكمهم بالبلاد. و لم يقتصر بايات قسنطينة على إحترام الأحياء من المرابطين بل حتى الأموات منهم فأصبحت أضرحة هؤلاء مزارات للتبرك والدعاء[2] وملتقى للحضرة والزردة[3] وقد كان قرب الحكام من المرابطين عاملا مشجعا على إنتشار الخرفات والشعوذة إنتشارا واسعا بالبلاد في العهد العثماني الذي أصبح بحق عهد إزدهار الحياة المرابطية والطرقية[4] وخير دليل على ذلك القباب التي أصبحت تغطي أرض الجزائر في ذلك العهد.

وقد أصبح تمجيد المرابط ظاهرة عامة بالنسبة للعالم والجاهل على حد سواء وهو ما ميز كتابات علماء ذلك العصر، فيكفي الإطلاع على رحلة

---

[1] إبن المبارك بن العطار (أحمد): المصدر السابق، ص ص 60-61.

[2] يقول الباحث *Féraud* اعتمادا على الروايات الشعبية أن الحامية التركية كانت لا تجبي الضرائب من منطقة "أوقاس" احتراما لقرار مرابطها "سيدي أوقاس" المتوفي وذلك أن جماعة القبيلة كانت تقنع قوات الباي بضرورة استشارة مرابطهم قبل دفع أية ضريبة، وكانت قوات الباي تذهب مع الجماعة إلى ضريح المرابط بين كهوف المنطقة فينادي شيخ الجماعة: **يا جدنا سيد بووكس نغرموا أو ما نغرموش**، ويأتي الرد من الكهوف على الكلمة الأخيرة "مانغرموش" وهنا يعود عمال الباي بدون ضريبة، وبتكرار هذه العملية كل سنة أعفيت القبيلة نهائيا من دفع الضرائب واستمر الوضع كذلك حتى دخول الفرنسيين المنطقة سنة 1271هـ/1855م. أنظر:

Féraud (Ch): Les Hrars ..., Op.cit ,p194.

[3] **الحضرة**: تعني الحفل الغنائي الذي يقام على ضريح المرابط ويحضره مريدوه إما لطلب تحقيق أمنية أو لتقديم نذر كان قد وعد به المرابط بعد تحقيق الأمنية، **والزردة**: تعني الوليمة التي تُحضر للحاضرين.

[4] حول الفرق بين المرابطين والطرقية، أنظر، العيد (مسعود): المرابطون والطرق الصوفية، المرجع السابق، ص 21 وما بعدها.

الورثيلاني (نزهة الأنظار) أو رحلة العياشي (ماء الموائد) أو "البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان" لإبن مريم لنعرف مدى إهتمام هؤلاء العلماء بالمرابطين وكراماتهم.[1] وحتى شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، الذي كان مخطوطه "منشور الهداية" ثورة على المرابطين وأعمال الشعودة التي كانت قد إنتشرت بالبلاد، لم يُخفِ إيمانه بكرمات من إعتبرهم أولياء صالحين، وكثيرا ما اعتبر بعض أعمال وأقوال جده من الكرامات،[2] وقد كان ضريح جده هذا، فعلا، مزارا للمريدين من أبناء قسنطينة وغيرها.

وقد اعتز الرحالة الورثيلاني بزيارته لقبر هذا الشيخ عند مروره بمدينة قسنطينة[3]، كما أن تقرب الحكام من المرابطين ومنحهم الإمتيازات المختلفة كان سببا في ظهور العديد من المدعين للولاية الذين أصبحوا يتنافسون على إظهار الكرامات لنيل القرب من الحكام وأرباب الوظائف الحكومية السامية فكانت النتيجة انتشار البدع والخرفات انتشارا واسعا بالباليك، وتحول المرابط من زاهد في الدنيا طالب للآخرة إلى مبتزا لأموال الرعية بإسم الدين والكرامات، وقد خص شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون هؤلاء المدعين بدراسة وافية في مخطوطه "منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية".

ومن بين الأمثلة التي ساقها الشيخ في مخطوطه من هؤلاء المرابطين: المرابط أحمد بوعكاز، مرابط العلمة، الذي قال عنه: "اتخذ الشيخوخة وجعل لنفسه أعوانا وتلامذة وأطلقهم في البلاد شرقا وغربا يجبون له الجبايات ويأتونه بالزكوات وينسبون له غاية الكرامات ويجعلون الناس يأتون إليه ركبانا ورجالا وصغارا ونساء" ثم يقول عن نفس المرابط:"أما دعاويه في إعطاء المناصب لأرباب الدول وإنتزاعهم منها فهي أشهر فيه وفيمن كان على شاكلته من أن

---

[1] العيد (مسعود): نفس المرجع، ص20، وسعد الله (أبو القاسم): تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 482.

[2] عبد الكريم الفكون: المصدر السابق، ص ص 50-51.

[3] الورثيلاني: المصدر السابق، ص 694.

يقال عليها دليلا، بل هي عنوان طريقتهم وباكور ثمرتهم، حتى أن أهل خطط المخزن كانوا يعطونه على أن يوليهم المناصب كقائد جيشها (قسنطينة) وغيره من أمراء البلدة فكان يأخذ الفرس على ذلك واللباس والدراهم وغير ذلك ..."[1]

أما عن المرابط "قاسم بن أم هاني"، بناحية نقاوس فقال عنه أنه كان من المتملقين للحكام "فتراه تمشى زبانيته بين يديه لتفريق الرشا على الحكام والأمراء فتسمح نفسه ببذل ماله لأولئك (كذا) ولا تنقاد لدفع درهم واجب عليه".[2] وقد أشار الشيخ إلى سكوت الحكام عن تلك الأعمال، بل وتشجيعها إلى أن "أصبح كل شيخ مجذوب يعتبر بركة وصالحا وكل درويش مغفل يعتبر وليا وصاحب كرامات وكل مستغل للعامة باسم الدين ومقرب للسلطة باسم الطريقة يعتبر قطبا تأتيه الجبايات ويقصده الناس بالرشى والقرابين ويقصده الحكام بالعطايا والهدايا".[3]

أمام هذا الوضع ولإستفادة كل طرف من الآخر تكون ما يشبه الحلف بين المرابطين والحكام العثماني فكان البايات، زيادة على سكوتهم على أعمال المرابطين مهما كانت مخلة بالأخلاق أو مضرة بمصلحة الرعية،[4] يخصون هؤلاء بامتيازات مادية هامة تسجل في ضهائر رسمية تؤكد حقهم في هذه الإمتيازات ووجوب احترام الموظفين والرعية لذلك،[5] بالإضافة إلى إعفائهم من الضرائب.

---

[1] أنظر، عبد الكريم الفكون: المصدر نفسه، ص 134-136.

[2] نفس المصدر، ص123-124 و 118-133.

[3] نفس المصدر، ص 170-174.

[4] ساق الشيخ عبد الكريم الفكون العديد من الأمثلة على هذه الأعمال في مخطوطه المذكور. أنظر، المصدر نفسه، ص133 و178.

[5] نشر الباحث *Féraud* نماذج عن هذه الظهائر بالمجلة الإفريقية. أنظر:
Féraud , Epoque de L'établissement des Turcs a Constantine, R.A, 1866, pp195-196.

وكثيرا ما كان الباي يُحمّل شيوخ الأسر الحاكمة مسؤولية حماية الأسر المرابطية التي تقطن في منطقة نفوذهم وهو ما تؤكده رسالة الباي الوزناجي (1209هـــ /1795م) إلى الشيخ خالد بن ناصر شيخ أحرار الحنانشة بشرق البايلك، حيث أوصى الباي الشيخ خيرا بمرابط زاوية قلعة سنان وبأهله وأراضيه ويحمله مسؤولية أي إعتداء عليه بإعتباره تابعا لمنطقة نفوذه.

وفي مقابل هذه الامتيازات والرعاية من طرف البايات كان المرابطون يقدمون خدماتهم للحكام فكانوا خير سند لهم في تثبيت حكمهم وإخماد أي ثورة يمكن أن تهدد وجودهم بالبايلك، كما كانت زاوية المرابط الملجأ الأول للباي في أوقات المحن، فكان الباي المخلوع لا يجد مخبأ له ولأمواله غير زوايا المرابطين لما كان لها من حصانة، وقد أوردت لنا المصادر التاريخية عددا من الأمثلة على ذلك منها إلتجاء الباي علي بن صالح (1122هـــ/1710م) إلى زاوية سيدي أحمد بن علي أمقران بمجانة وبقائه بها حتى وفاته،[1] وفرار الباي حسين زرق عينه (1167هـــ/1753م) إلى المرابط سي محمد بن سيدي ناصر بن واهن، مرابط قبيلة التلاغمة (جنوب قسنطينة)، إثر هجوم باي تونس على قسنطينة،[2] والباي مصطفى أنجليز (1212هـــ/1797م) الذي تقول المصادر أنه قام بإخفاء مبالغ مالية هامة بزاوية سيدي سعيد بكدية عاتي، بقسنطينة قبل أن يفر إلى تونس إثر إقالته من منصبه، وقد عاد إلى قسنطينة مع حمودة باشا، باي تونس، في محاولة لإستعادة حكمه، وذلك سنة 1222هـــ/1807م، وتمكن من إسترجاع أمواله كاملة من الزواية قبل إحلال الهزيمة به وبباي تونس.[3]

والواقع أن ظاهرة الالتجاء إلى زوايا المرابطين كانت عامة بالجزائر في العهد العثماني، ويبدو أنها عمت أفراد الجيش الإنكشاري أنفسهم وهو ما

[1] Vayssette: op.cit, p 144.
Féraud (ch): Notes historiques sur les tribus de Constantine, (Telgma), R.A1869, pp 8-9. [2]
[3] Féraud (ch): un vœu d'hussein bey, op.cit, pp90-91.

أشار إليه الرحالة الحسن الورثيلاني في قوله أن شيخ خنقه سيدي ناجي، وهو من أسرة إبن ناصر المرابطية[1] جاء إلى قافلة الحج يطلب السماح لطائفة من الترك الفارين من الجزائر بالرحيل مع الركب[2].

هذا بالإضافة إلى دور المرابط في حل التراعات الداخلية بين البايات والأسر الحاكمة تارة وبين هذه الأسر والقبائل المختلفة تارة أخرى، وذلك لأن المرابط كان المرجع الوحيد لفتح المفاوضات بين المتنازعين ولإيقاف الحروب،[3] وهو ما حدث فعلا سنة 1047هـ/1637م لإخماد ثورة أحمد بن السخري، وسنة 1050هـ/1642م لوقف القتال بين القوات العثمانية وقبائل زواوة[4].

ولم يتوقف نشاط المرابط السياسي عند هذا الحد، بل تطور إلى درجة تحوله إلى ما يشبه الموظف الإداري؛ ذلك أن البايات كانوا يعمدون إلى إسناد مشيخة القرية أو القبيلة إلى مرابطها مقابل ضريبة سنوية رمزية يدفعها المرابط للباي، وهو ما حدث مع المرابط سيدي أحمد بن ناصر، مرابط الخنقة الذي عينه القائد يوسف باشا شيخا على الخنقة سنة 1050هـ/1641م مكافأة له على مساعدته له ضد إبن السخري وكذلك أحمد بن بلعيد الذي عينه الباي قليان "حسين بوقمّية" سنة 1129هـ/1717م شيخا على قرية كرشة جنوب قسنطينة، بعد أن جاء من الحضنة وإستقر بأراضي عزل كرشه، وذلك مقابل ضريبة سنوية يحملها بنفسه إلى الباي[5].

ونفس الإمتياز منح للمرابط سيدي سعادة، مول الشقفة بجيجل، من طرف الباشا محمد عثمان مكافاة له على مشاركته في صد هجوم الاسبان على

---

[1] حول تاريخ هذه الأسرة، أنظر الفصل الأول من البحث.

[2] الورثيلاني (الحسن): المصدر السابق، ص 107.

[3] حمدان بن عثمان خوجة: المصدر السابق، ص 57.

[4] Berbrugger (A): Notes Relatives a la revolte de Ben Sakhri, In R.A, 1866 p 348.

[5] أنظر تقرير لجنة *S.C* عن قبائل الزمول بالمركز التقني لمسح الأراضي رقم 268.

الجزائر إلى جانب صالح باي، سنة 1188هـ/1775م. وقد أرسل له ختما وقفطانا دليل تعيينه على منطقة الشقفة.[1] وتكليف المرابط بهذه المهمة يعني تكليفه بجمع الضرائب من أتباعه باسم السلطة المركزية،[2] كما أسندت للمرابط مهمة حفظ الأمن بمنطقة نفوذه، فكان مسؤولا عن أمن القوافل المارة بالأراضي التابعة لسلطته، وخاصة القوات العثمانية، حيث كان يرافق القافلة حتى لا تتعرض للنهب من طرف لصوص المنطقة، وفي حالة غيابه كان ينوبه أحد أبنائه، وقد تكتفي القافلة، في حالة غياب أفراد الأسرة المرابطية برفع علامة من علامات المرابط لتضمن سلامتها[3].

ولم يقف دور المرابط عند هذا الحد بل كثيرا ما كلف بمهام عسكرية كالمشاركة الشخصية في الحروب منها المشاركة في صد الهجومات الإسبانية على الجزائر، وإخماد الثورات المحلية، وقد كلف بنفس المهمة عددا من رجال العلم أمثال الرحالة حسن الورثيلاني، الذي كلفه الباي أحمد القلي برعاية الأمن ببني ورثيلان، وقد قال الرحالة معتزا بإنتصاره على المتمردين على السلطة الشرعية:"وقد أعانني فيهم المجاهد في سبيل الله القامع للمتمردين سيدي أحمد باي، إذ نصرني وأعطى أمر المحلة في يدي وأحرقت أولاد الخلف وقرية "وشرا" وسكانها من بني عشاني، وفي تلك السنة (1170هـ/1756م) جعلت عليهم وأمرت الخليفة أن يأخذ منهم مائة وسبعين (170 ريال) إلى أن يتوبوا لله ولرسوله ويرجعوا إلى الأحكام الشرعية".[4]

---

[1] Féraud (Ch) , Histoire des Villes de Constantine (Djijel), R.S.A.C, 1870, pp80-81.

[2] كان المرابط يساعد بقواته محلة الخليفة على جباية الضرائب وبعد انتهاء العملية يترك له، رجلان من المحلة لمساعدته على جمع بعض الضرائب لحسابه الخاص. أنظر: Bebes (Leila): Mythe ..., p217.

[3] أنظر عبد الكريم الفكون: المصدر السابق، ص 201.

[4] يقول الرحالة أنه حاربهم لخروجهم عن الشريعة الإسلامية، منها سفور المرأة وحرمانها من الميراث. أنظر، الورثيلاني: المصدر السابق، ص75.

من هنا يتضح لنا مدى نجاح السياسة العثمانية في كسب ثقة وولاء المرابطين ورجال العلم والدين وتحويلهم إلى أداة فعالة لترسيخ الحكم العثماني بالبلاد. إلا أن علاقة الوئام هذه لم تكن دائمة حيث عرفت في نهاية القرن 12هـ/18م توترا شديدا نتيجة للضغط الذي أصبح الحكام يمارسونه ضد الرعية قصد إخضاعها بالقوة لنظام ضريبي جائر، وقد مس ذلك المرابطين أنفسهم وخاصة في عهد صالح باي (1771/ 1792م)، الذي كان يطمح إلى فرض حكمه المطلق على الجميع وإقامة حد للإمتيازات التي كان المرابطون والأسر الدينية يتمتعون بها، حيث أخضع الجميع لقوانين إقتصادية صارمة منها الرقابة العامة على وكلاء المساجد والأوقاف بإنشائه منصب "الوكيل العام" الذي يشرف على حسابات الأوقاف وهو ما قيد حرية الأسر الدينية وعلى رأسها أسرة الفكون التي كانت تتمتع بأملاك الوقف كأملاك خاصة.[1]

ولتضرر المرابطين من سياسة صالح باي بدأو يلتفون حول الطرق الصوفية التي برزت في هذه الفترة وأخذت تعمل في الخفاء لتنظيم الثورة ضد الحكم العثماني، وقد عرفت هذه الطرق شعبية كبيرة لبروز دورها في الدفاع عن مصالح الرعية عكس ما كان عليه المرابطين، فشنوا ضدهم حملة وصلت إلى حد التصفية الجسدية لبعض المرابطين من ذلك قيام صالح باي بإعدام سيدي محمد الغراب في الساحة العمومية بقسنطينة، ويقال أن روحه تحولت، عند اعدامه، إلى غراب حط خارج المدينة، ولتشاؤم الباي من الحدث، وتكفيرا عن ذنبه قام ببناء ضريح للمرابط بالمكان الذي حط به الغراب وقد بقي المكان يسمى حتى اليوم بإسمه "سيدي الغراب".[2]

---

[1] Babés (leila): Mythe…, p222.

[2] ذكر شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون في مخطوط "منشور الهداية" (1638) أن سيدي الغراب دفين الحامة كان يعيش بالمنطقة قبل ميلاده، وهذا يعني أن سيدي الغراب سابق لهذه الحادثة. أنظر، ص 117.

وفي نفس الإطار قام الباي بمهاجمة زاوية المرابط "سيدي أحمد الزواوي" رغم ما كان بين المرابط والباي من علاقة حسنة[1] ورغم فرار المرابط من الزاوية وما كان للزوايا من حصانة خاصة (في العهد العثماني) فإن الباي أمر بإحراق الزاوية بعد نهب ما بها من أموال،[2] هذا بالإضافة إلى ما حدث بين نفس الباي وبين المرابط سيدي عبيد.

خلاصة القول أن بايات قسنطينة استغلوا كل الفرص التي كانت أمامهم للإستفادة من جميع الفئات المكونة للمجتمع الجزائري وذلك بوسائل سلمية كلما وجدوا الإستجابة من هذه الشرائح الإجتماعية. أما في حالة فشل هذه السياسة فإن هؤلاء كانوا يلجأون إلى طرق أخرى أكثر صرامة وهي أعمال القمع والإرهاب التي اشتهر بها العثمانيون في نهاية عهدهم بالجزائر، ولتصور مدى فعالية هذه السياسة نلخص بعض أوجهها فيما يلي:

ثالثا. سياسة القوة و الإرهاب:

عُرف العثمانيون بعدم إستعمال القوة في تثبيت حكمهم، إلاّ عند الضرورة، وقد كان ذلك سببا في بقاء الجزء الأكبر من أراضي البايلك خارج دائرة نفوذ السلطة المركزية وتابعا مباشرة لسلطة شيوخ الأسر الحاكمة بالبايلك. إلاّ أن هذه الوضعية بدأت تتغير في نهاية العهد العثماني؛ إذ نتيجة لنقص موارد البحر، بسبب تراجع نشاط رجال البحرية الجزائرية، عمل الحكام على تعويض ذلك بموارد داخلية هي موارد الأرض، فاتجهوا إلى الداخل في محاولة لسد العجز المالي الذي شهدته الخزينة العامة في هذه الفترة، بفرض نظام ضريبي جائر على السكان[3].

---

[1] كان الباي في بداية حكمه يلتجأ إلى المرابط ويستشيره في أمور الحكم.

[2] Vayssette: op.cit, pp228-230.

[3] حول الموضوع أنظر، بلحميسي (مولاي): سياسة الضرائب في أواخر العهد العثماني، جامعة وهران، محاضرة غير مطبوعة.

وأمام رفض هؤلاء أو عجزهم، عن دفع ما فرض من ضرائب، عمد الحكام إلى إستعمال القوة للوصول إلى مبتغاهم، وقد كانت المحلة[1] عماد هؤلاء في تنفيذ هذه المهمة. وقبل التعرض إلى أعمال العنف التي إشتهر بها رجال المحلة يمكن الإشارة إلى أن معظم القوات المشاركة في هذه المحلة كانت من العناصر المحلية؛ إذ تتكون القوات العثمانية من:

1. **محلة اليولداش:** وتتمثل في القوات النظامية (الإنكشارية) المخصصة من قبل باشا الجزائر لحماية الأمن بالبايلك ومساعدة الباي على جباية الضرائب.
2. **قبائل الزمول والدوائر[2] وغيرها من القبائل المخزنية:** وهي قوات محلية وضعت نفسها في خدمة السلطة المركزية بالبايلك مقابل امتيازات اقتصادية معينة.
3. **القوم:** وهي قوات اضافية محلية كانت توفرها القبائل للبايلك عند الحاجة.
4. **قوات زواوة:** وهي مرتزقة محلية تتكون من أفراد زواوة البربرية، كانت تقدم خدماتها العسكرية للحكام العثمانين مقابل أجور تساوي نصف راتب الإنكشاري، فكان الإنكشاري يأخذ 2 زياني في حين يأخذ الزواوي 1 زياني،[3] وتستدعي عادة لإخماد الثورات المحلية أو للمشاركة في صد هجوم خارجي على الجزائر.

وقد كانت معظم القوات المذكورة تشارك في أعمال المحلة، وهو ما أشار إليه الرحالة الفرنسي *Peyssonnel*[4] بقوله: "أن قوات محلة الباي تتكون من 300 تركي مشاة و800 سباهي (فارس) دائمين بالإضافة إلى فرق كانت ترسل

---

[1] **المحلة:** هي الحملة العسكرية التي كانت تخرج بقيادة الباي أو خليفته لجمع الضرائب من القبائل وهي حملة فصلية تخرج من عاصمة البايلك كل ربيع وقد اشتهر رجالها بأعمال العنف والتخريب إلى حد أن اسم "المحلة" بقي حتى اليوم يعني الزحف الهمجي الذي لا يترك وراءه غير الخراب.

[2] حول قبائل الزمول والدوائر أنظر: تقرير لجنة *S.C* رقم 268 بالقسم التقني لمسح الأراضي بقسنطينة، و.Féraud (Ch): Les z'moul ..., op.cit, p 40 et suit

[3] Devoulx: op.cit, p32.

[4] رافق الرحالة *Peyssonnel* الباي حسن بوقمية في رحلته لجباية الضرائب من قبائل أولاد عبد النور والأوراس وذلك سنة 1137 هـ/ 1725 م.

إليه من الجزائر للمشاركة في جباية الضرائب ويترواح عددها بين 60 إلى 100 صفرة (فرقة) أي ما يقارب 2500 رجل"،[1] وفي موقع آخر يقول نفس الرحالة: "كان الباي يعسكر مع حوالي 600 تركي، أي 25 فرقة بالإضافة إلى القوات التي أرسلها له الديوان وتقدر بـــ 104 فرقة من جهة سطورة وجيجل و10 فرق من بلاد القبائل والحنانشة".[2] وعند الحديث عن تنظيم المحلة يقول: "أن خيام المحلة كانت تنصب بنظام خاص فكانت خيام الباي[3] تنصب حول المعسكر لتحميه من هجومات القبائل.

أما عند سير المحلة فكان الباي يتقدم الركب ويتبعه عدد كبير من القوات تحمل رايات مختلفة أهمها راية العلماء، التي تتبع الباي مباشرة، ثم راية الديوان ثم الفرق المكونة من الأعلاج (الذين أسلموا حديثا) ثم العبيد".[4] وقد كان للمحلة جوق عسكري خاص يقرع الطبول أثناء السير، الأمر الذي كان يحدث الهلع في صفوف الفلاحين والقبائل الرحل الذين كانوا يفرون بمجرد سماع قرع الطبول، وهو ما حصل عند وصول محلة الباي حسن بوقمية سنة (1137هـــ/1725م) إلى أراضي أولاد عبد النور، جنوب شرق قسنطينة، إلاّ أن قوات المحلة، حسب الرحالة *Peyssonnel* الذي حضر الحادثة أرغمت الفارين على الرجوع إلى خيامهم وأجبرتهم على دفع ما عليهم من ضرائب وتقديم خدماتهم لرجال المحلة طوال فترة اقامتهم بالمنطقة[5].

---

1 Peyssonnel: op.cit, T1, p290.

2 Ibid, p336.

3 كان للباي 3 خيام: الأولى خاصة به والثانية لحريمه والثالثة لمطبخه.

4 Peyssonnel: Idem, p337.

5 يقول الرحالة *Peyssonnel* أن رجال المحلة كانوا يختارون أحسن الخيام ليشاركوا سكانهم في المأكل والمشرب والمسكن وكانوا يشترطون على صاحبها أن يقدم لهم أحسن ما عنده. انظر، المصدر السابق، ج1، ص 337.

وتؤكد المراجع أن مساهمة قبائل الدواير والزمالة[1] كانت فعالة في الأعمال الإرهابية التي عرفت بها المحلة مما ولد كرها شديدا بين السكان وبين هذه القبائل و لم تكن مساهمة شيوخ الأسر الحاكمة في مثل هذه الاعمال إلى جانب المحلة، أقل خطورة من أعمال الزمول والدواير؛ إذ كان شيخ الأسرة ينضم بقواته إلى المحلة كلما وصلت هذه إلى منطقة نفوذه وهو ما حدث أثناء هجوم الباي أحمد المملوك (1233هـ/ 1818م) على القبائل الحدودية بشرق البايلك، حيث شارك شيخ أحرار الحنانشة بقواته في ذلك الغزو، و لم تكن أعمال قواته أقل إرهابا من أعمال قوات الباي، ويكفي الإطلاع على التقرير[2] الذي رفعه شيوخ هذه القبائل من مدينة الكاف إلى باي تونس، حول الخسائر التي لحقت بقبائلهم لتصور مدى فضاعة هذه الأعمال.

فقد جاء في هذا التقرير أن المحلة كانت قد قسمت إلى عدة فرق لتحاصر القبيلة الواحدة من جميع الجهات حتى لا يتمكن أفرادها من الفرار، كما أن قوات الباي كانت قد إختارت الساعات الأولى من الفجر للهجوم على القبائل الأمر الذي لم يترك فرصة للسكان لتهريب مواشيهم أو تخزين حبوبهم وهو ماجعلهم يخسرون كل ما يملكون وجعل محلة الباي تضمن غنائم ضخمة، وقد أورد التقرير احصاء للخسائر التي لحقت كل قبيلة أو عرش نذكر منها كمثال الخسائر التي لحقت بعرش بوغانم[3] الذي هاجمه الباي نفسه وهي:

- 170 قتيل من ذكور وإناث.
- 1800 رأس من الإبل.
- 30000 رأس من الغنم.

---

[1] حول مساهمة هذه القبائل في الحملات العسكرية العثمانية. انظر:
Féraud (ch): les z'moul op.cit, p54 et suit.

[2] أنظر نص التقرير كاملا بدار المحفوظات التونسية، رقم: D448 C232 وقد اطلعت على صورة عنه بمديرية أرشيف ولاية قسنطينة.

[3] كانت هذه القبيلة تتبع تارة إيالة تونس وأخرى بايلك قسنطينة.

- 5000 رأس من الماعز.
- 130 فرس.
- 200 بغل و300 حمير.
- 2600 بـــقـــر.

و200 خيمة بما تحتويه من طعام وسلاح وأموال سائلة وضعت بصناديق قدرت بـــ:2000 محبوب ذهب و1500 ريال دورو و5000 سكة تونس.

أما الخسائر التي ألحقها شيخ أحرار الحنانشة بأحد أعراش منطقة الكاف فحددها التقرير بـــ:

- 30 قتيل.
- 1000 جمل.
- 800 رأس من الغنم.
- 2000 رأس من البقر.
- 200 خيل.
- 200 بغلز
- 180 حمير.

150 خيمة بها 12000 ريال و1000 قفيزة من الحبوب نصفها قمح وشعير أخرجت من مطامير العرش. ومما أكده بعض شيوخ الأعراش في تقريرهم هذا هو أن الباي كان قد هاجمهم 3 مرات متتالية وهاجمهم شيخ أحرار الحنانشة 4 مرات وشيخ الحراكتة مرتين، وكان مجموع خسائرهم:

- 300 قتيل.
- 130000 رأس من الغنم.
- 30000 راس من البقر.
- 10000 من الإبل.
- 900 خيـــل.

- 500 بغل.
- 100 حمير.
- 36000 ريال سكة تونس.
- 12000 قفيز من الحبوب.
- 1000 خيمة.

من هنا يمكن تصور مدى فضاعة[1] أعمال العنف التي كانت تقوم بها القوات العثمانية ضد القبائل الغارمة، ومدى مشاركة القوات المحلية في هذه الأعمال وخاصة قوات الأسر الحاكمة الذين كما أسلفنا، كانوا يتمتعون بنظام عسكري مستقل يضم قوات هامة أشار إليها الرحالة *Peyssonnel* بقوله: "أن شيوخ البايلك كانوا يستطعون تجهيز أربعة إلى خمسة ألاف فارس مجهزين أحسن تجهيز وعدد كبير من المشاة ومن هؤلاء بوعزيز قائد الحنانشة والحاج ابراهيم شيخ ڤرفة وعمار بن سلطان قائد أولاد يحي بن طالب، وكان جميع هؤلاء الشيوخ متحالفين فيما بينهم ويعتبرون أنفسهم مستقلين عن السلطة المركزية ومساوين للباي"[2]. ونفس المثال يمكن أن يطبق على بقية الأسر الحاكمة بالبايلك ومنها أسرة المقراني حكام مجانة التي قدر الباحث *féraud* قواها بـــ10000 فارس وعدد كبير من المشاة وذلك في عهد أقوى حكامها الشيخ عبد العزيز (1500—1559م).

وقد لعبت هذه القوات دورا هاما، ليس في مساعدة رجال الباي على جباية الضرائب فحسب، بل في حفظ الأمن ورعاية الإستقرار بالبايلك ككل، ولتحقيق ذلك كانت توزع عبر مختلف المناطق الإستراتيجية بأرياف البايلك

---

[1] مازال بعض المسننين يقصون بعض ما روى لهم عن أعمال رجال المحلة منها قولهم أنهم كانوا يأخذون أجمل النساء وأحسن الخيول وأنهم كانوا يسمعون الرجل اقسى أنواع الإهانات ويقومون بأفظع الأعمال ضد أسرته.

[2] Peyssonnel: op.cit, T1, p292.

كالأبراج والحصون والخوانق الجبلية والممرات الصعبة والجسور وبجوار الاسواق الرئيسية بالبايلك وعلى النقاط التي تمر بها المحلة الفصلية. إلا أن ما تجدر الإشارة إليه هو أن هذه القوات لم تكن دائما موالية للسلطة المركزية بل أن علاقتها بهذه الأخيرة كانت تخضع لطبيعة علاقة شيوخها بالباي ولذا كثيرا ما كانت تتقلب على القوات العثمانية وتخوض ضدها معارك ضارية تعود في أغلب الأحيان لصالح القوات المحلية.

ومن بين المواجهات التي حدثت بين بايات قسنطينة وقوات الأسر الحاكمة نذكر المعارك التي وقعت بين الباي حسن بوقمية وبوعزيز شيخ أحرار الحنانشة سنة 1136هـ/1724م إثر رفض هذا الأخير دفع ما عليه من ضرائب، حيث قام الباي المذكور بالتحالف مع باي تونس بهجوم خاطف ضد الشيخ بوعزيز، ويقول الرحالة *Peyssonnel*، الذي عاصر هذه الأحداث أن الباي ألحق خسائر هامة بالشيخ وأتباعه وغنم من القبيلة 8000 رأس من الإبل وغيرها من المواشي والأموال إلا أن إبنة الشيخ "علجية بنت بوعزيز" حسب نفس المصدر، استطاعت أن تحول هذه الهزيمة إلى نصر بعد أن شجعت فرسان القبيلة على ملاحقة قوات الباي واسترجاع أموال القبيلة منها[1].

[1] تقول الرواية أن "علجية بنت بوعزيز" خرجت بعد هزيمة والدها وقواته تشق ثيابها وتحث نساء القبيلة على الدفاع عن شرفهن بأنفسهن بعد أن عجز الرجال عن ذلك، وفعلا ركبت الفتاة جوادها وتبعتها نساء القبيلة لتلاحقن محلة الباي العائدة إلى عاصمة البايلك بالغنائم، وهنا لم يجد الرجال بدا من اللحاق بها ودخلوا في معركة ضارية ضد قوات الباي عرفت بمعركة "فج مراح" هزمت فيها قوات الباي وقتل خليفته قبل أن يعود رجال القبيلة بمعظم ما أخذ منهم من غنائم، وقد خلد أبناء القبيلة هذه الحادثة قصيدة يمجدون فيها فرسانهم وخاصة الفارسة "علجية بنت بوعزيز" التي قال عنها الرحالة *Peyssonnel* أنها جاندارك قومها. أنظر:

Peyssonnel: op.cit, T1, p 292.

ومن بين ما جاء في هذه القصيدة:

" قصة طراد شـــاو الزمـــان يا حظار   مع التـــــــرك الخداعـــين ياحســـــرة

طاحو صغار شـــاو النهـــار يا حظار   الكـــل.... إلا هو ادقـــــــاع بالغـــــدار

ونفس الأحداث كانت تقع من حين إلى آخر بين شيوخ الأسر الحاكمة وبين بايات قسنطينة وخاصة في نهاية العهد العثماني، حيث شهد النصف الثاني من القرن 12هـ/18م عددا لا يحصى من الحملات العسكرية، التي شنها البايات ضد القبائل والأسر الحاكمة قصد إخضاعها بالقوة وإرغامها على دفع المزيد من الضرائب. والواقع أن العنف أصبح الطابع المميز للحكم العثماني في هذه الفترة وقد أشار صالح العنتري في تاريخه لقسنطينة إلى ذلك الوضع وأعاد أسباب فساد الحكم إلى سوء اختيار البايات في نهاية الحكم العثماني حيث قال: "كانوا (كذا) الترك في سابق زمانهم ما يرجعون واحد لوضيفة (كذا) الباي إلا الذي يكون معروف (كذا) بالشجاعة وله خصال كثيرة في الحروب والبراعة لاكن (كذا) من زمان صالح باي وما بعده، وقع الصف فالذي يكون له صاحب متوصل (كذا) عند الباشا يسعى لصاحبه حتى يرجعه لأجل المعاملة والمودة"[1].

وفي وصفه لتذمر الرعية من سياسة البايات في هذه الفترة وظهور بوادر الثورة بالبايلك يقول نفس الكاتب: "اشتهر ظلم الترك وصاروا يقتلون الناس في داخل البلاد وانحلت الاحكام وتصعب (كذا) الوطن وضعفت الرعية ووقع الصف بين المخازنية وعظمت بينهم الفتنة فعجز (الباي) أن يفصل بينهم بشئ...".[2]

وقد نتسائل هنا عن موقف باشا الجزائر من هذه الأعمال ودوره في إصلاح الوضع، والإجابة هي أن الباشا لم يكن يعرف حلا لمشاكل البايلك إلا بقتل

وعن علجية تقول القصيدة:

طاحو اليوم سادات في الحروب ابدان   أهل العلوم يقرا من الحـمـد للبقـرة
يندهو الى شيـاخ القومـان   بنت بـوعـزيـز سيدة الرجـالـة
ركبا زرقا تنطمي فـرخ الـجـان   تسبق الغزال تشطفه تزيد في لغواط"

أنظر القصيدة كاملة في: Féraud (Ch): Les Hrars,...,Op.cit, p214.

[1] العنتري (صالح): الفريدة المؤنسة، ص 63.

[2] نفسه، ص 76.

الباي أو تعويضه بآخر الذي لم يكن –في الغالب– أحسن حالا من سابقه، وكثيرا ما كان الباشا يقوم بتغيير الباي ليس لحل مشاكل البايلك وإنما للاستيلاء على أمواله فحسب وهذا يعني أن أزمة الحكم العثماني كانت عامة بالجزائر.

وقد استمر الوضع في التدهور وعلاقة الحكام بالمحكومين في تأزم مستمر وسريع إلى أن دخل الفرنسيون مدينة قسنطينة، حيث كان الحاج أحمد باي في صراع دام مع عدد كبير من شيوخ القبائل والأسر الحاكمة، وعلى رأسهم شيخ العرب فرحات بن سعيد بن بوعكاز. وأهم ما يمكن استخلاصه مما سبق هو أن سياسة القوة كانت بمثابة المعول الذي هدم كل ما بنته سياسة اللين التي انتهجها العثمانيون الأوائل ونجحوا من خلالها في ترسيخ حكمهم بالبلاد أكثر من قرنين ونصف القرن من الزمن، حيث تحولت علاقة الوئام والتعاون التي كانت بين الأسر المحلية والسلطة المركزية إلى صراع دام تسبب في ضعف الطرفين معا. والواقع أن بايات قسنطينة لم يتمكنوا من القضاء على الأسر الحاكمة عن طريق القوة العسكرية بقدر ما نجحوا في ذلك عن طريق سياسة "فرق تسد".

رابعا. سياسة فرق تسد:

كانت هذه السياسة من بين أنجع الأساليب العثمانية في حكم البلاد وكان الحكام العثمانيون يعتبرونها وسيلة فعالة وضرورية لأي حاكم يريد السيطرة على زمام الحكم في بلاده من ذلك قول الحاج أحمد آخر بايات قسنطينة: "أن الحرب هي عادة الأعراب وأن الذي يريد حكمهم قد يتحتم عليه إيقادها بينهم والتحريض على المنافاسات بين القبائل المختلفة الأصول والأجناس. أما أوضاع السلم، فإنها تقارب بين العرب وتوحدهم حول غرض واحد وهذه حالة لا ينبغي أن يطمئن إليها من كان يريد السيطرة عليهم...".[1]

[1] مذكرات الحاج أحمد باي...، المصدر السابق، ص ص 40-41.

وقد اعتبر بعض كتاب الفترة العثمانية هذه السياسة ميزة حميدة يمتاز بها الحكام الأقوياء؛ من ذلك قول ابن أبي دينار القيراواني عن محمد باشا، حاكم تونس: "وانفرد المرحوم محمد باشا بأمور المملكة وأخذ في تمهيد البلاد وقمع أهل الفساد وأغرى بين أولاد شنوف وسلط بعضه على بعض إلى أن محا رسمهم..."،[1] وقد تمكن بايات قسنطينة بفضل هذه السياسة من إضعاف ثم تفكيك الروابط القبلية والأسرية التي طالما تمسكت بها القبيلة وذلك عن طريق الإمتيازات المادية والوظائف التي كانوا يخصون بها أسرة دون أخرى أو يأخدونها من واحدة لتمنح لأخرى، وهو ما كان يشعل فتيل الحرب بين الأسر والقبائل، وكثيرا ما كان يحدث ذلك داخل الأسرة الواحدة.

وقد طبقت هذه السياسة بين مختلف الأسر الحاكمة بالبايلك ابتداء من أسرة الشابية التي كانت على رأس أقوى حلف بشرق البايلك وكانت أسرة أحرار الحنانشة، على ما يبدو، على رأس الأسر التي جندت لضرب حلف الشابية الذي شكل خطرا كبيرا على العثمانين في بداية عهدهم بالمنطقة، حيث تقول الروايات المحلية أن شيخ الحنانشة "خالد بن ناصر" المدعو "بوزرودة" كان على صلة بباشا تونس وأن زوجته كانت تقوم بزيارات لزوجة الباشا، وعادت مرة محملة بأنواع من الأسلحة التي لم يكن يعرفها الأهالي، وبعد فترة قصيرة غدر الحنانشة بزعماء الشابية الذين جاءوا كما جرت العادة، لإستخلاص الضرائب منهم.

ومنذ ذلك الحين فقد الشابية سيطرهم على الحنانشة الذين أخذوا يسيطرون تدريجيا على شرق البايلك.[2] هذا لا يعني أن أسرة أحرار الحنانشة قد سلمت من هذه السياسة بل أن بايات تونس وبايات قسنطينة اجتهدوا للتخلص منها خاصة بعد ثورة زعيمها خالد بن ناصر (1047هـ/1637م)، والتي كادت

---

[1] ابن ابي دينار: المصدر السابق، ص 231.

[2] Féraud: les Hrars…, op.cit , pp147-149.

أن تعصف بالحكم العثماني بالبايلك، إذ اتضحت لهؤلاء خطورة هذه الأسرة على الحكم المركزي فعمدوا إلى تحطيمها من الداخل وهو ما بدأوا في تنفيده بمجرد وفاة الزعيم (حوالي سنة 1642م)، حيث عمل هؤلاء على ضرب استقرار الأسرة بمنح مشيخة القبيلة، على غير العادة، للإبن الأصغر للشيخ خالد بن نصر وهو "منصر" بدل الإبن الأكبر "نصر" وبذلك حول البايات هذه الأسرة القوية إلى فرعين متناحرين "فرع نصر" و"فرع منصر" كان كل منهما يجتهد لخدمة سياسة الباي لنيل رضاه والإبقاء على المشيخة في أبنائه.

وقد طبقت نفس السياسة على بقية الأسر الحاكمة منها أسرة بوعكاز التي أوجد لها البايات منافسا قويا على زعامة الصحراء وهو أسرة ابن قانة. وكذلك أسرة المقراني التي قسمت بدورها إلى عدة فروع متناحرة، ونفس الفخ وقعت فيه أسرة بني جلاب بتقرت وأسرة بوعكاز بن عاشور الفرجيوي، وغيرها من الأسر الحاكمة بالبايلك والتي عمت الحروب بين أبناءها واستمرت حتى نهاية العهد العثماني بالبايلك وهو ما سنراه بالتفصيل في الفصل الأخير من هذا الكتاب.

وخلاصة القول أن بايات قسنطينة، والحكام العثمانين بصفة عامة، لم يتركوا وسيلة إلا واتبعوها للوصول إلى هدفهم وهو المحافظة على استقرار حكمهم بالبلاد، وقد اتسمت سياستهم في البداية بالمرونة ومحاولة كسب ولاء القوى المحلية سواء كانت سياسية أو عسكرية أو دينية، أما في نهاية عهدهم وإبتداء من النصف الثاني من القرن (12هـــ/18م) فإن السمة الرئيسية التي طبعت سياستهم هي العنف ومحاولة السيطرة الفعلية على البلاد بالقضاء على أي قوة محلية يمكن أن تشكل قوة موازية للحكم المركزي وتقف في وجه الحكام الذين أصبح همهم الوحيد هو توسيع دائرة نفوذهم للحصول على المزيد من الموارد المالية وذلك على حساب السكان وعلى رأسهم الأسر المحلية الحاكمة، الأمر الذي ولد صراعا حادا بين الحكام والمحكومين ونشر الفوضى وعدم الإسقرار با لبلاد وهو ما فجر الثورات المحلية في بداية القرن (13هـــ/ 19م).

الصراع على السلطة
بين شيوخ الأسر الحاكمة وقيام الثورات المحلية

أولا. الصراع على السلطة بين شيوخ الأسر الحاكمة:

ذكرنا فيما سبق أن سياسة "فرق تسد" كانت من بين أنجع الوسائل المتبعة من طرف بايات قسنطينة لإضعاف الأسر المحلية الحاكمة بأرياف البايلك وإخضاعها للحكم المركزي، وقد كانت النتيجة المباشرة لهذه السياسة نزاعا حادا ساد بين مختلف هذه الأسر وانتهى بتمزيق ما كان بينها من روابط سياسية وعسكرية. ومما ساعد على انجاح هذه السياسة هو قانون القوة الذي كان يسود بين القبائل، والمصالح الشخصية التي لعبت دورا كبيرا في عرقلة مهمة شيوخ الأسر في الحفاظ على تماسك أحلاف الصف التي طالما ربطت بين القبائل تحت ادارتهم. و لم يقتصر هذا التمزيق على الأسر والقبائل المختلفة بل عم بين أفراد الأسرة الواحدة فكان سببا في القضاء على نفوذها بالبايلك وهو ما سنتطرق إليه بالتفصيل بالنسبة لمختلف الأسر موضوع هذه الدراسة[1].

°1. الصراع بين شيوخ أسرة أحرار الحنانشـــة.

كانت أسرة أحرار الحنانشة من الأسر الأولى التي تعرضت لسياسة التمزيق الداخلي من طرف الحكام العثمانين. وأعتقد أن السبب في ذلك يعود إلى وجودها على الحدود الشرقية للبايلك بين سلطتين متصارعتين، بايات تونس من الشرق وبايات قسنطينة من الغرب؛ إذ كان كل فريق يعمل على كسب الأسرة إلى صفه واقحامها في صراعة ضد الآخر، وإذا اتفق الطرفان فإن اتفاقهما يكون عادة ضد الأسرة لأنها كانت تشكل قوة خطيرة على الحكمين بتونس وبقسنطينة، وبذلك كان الضغط على الأحرار من الجهتين، وإذا كان الضغط العسكري لم ينجح في كسر شوكة هذه الأسرة فإن الضغط السياسي كان ذا مفعول قوي عليها؛ إذ نجح الحكام العثمانيون في تشتيت صفوف

---

[1] سأعتمد في هذا الفصل أساسا على كتابات المترجم العسكري الفرنسي ***Féraud*** وذلك لأنه، حسب اطلاعي، المرجع الوحيد الذي تتبع صراع هذه الاسر معتمدا في ذلك على الروايات الشفهية وبعض المصادر المحلية المفقودة اليوم.

الأسرة عن طريق بث الشقاق بين شيوخها، فمتى بدأت هذه السياسة بالنسبة لأسرة أحرار الحنانشة؟ وكيف بدا الصراع بين شيوخها؟ بعد حكم زعيم الأسرة القوي "خالد بن نصر"، الذي شكل خطرا حقيقيا على العثمانين ببايلك قسنطينة وخاصة إثر ثورته عليهم سنة (1047هـ/1637م) بالإشتراك مع زعيم أسرة بوعكاز شيخ العرب "أحمد بن السخري"، لم يجد العثمانيون طريقة للقضاء على قوة هذه الأسرة غير بث الشقاق بين شيوخها وهو ما بدأوا في تطبيقه مباشرة بعد وفاة الشيخ "خالد بن نصر"؛ إذ تعمد هؤلاء منح المشيخة للإبن الأصغر للشيخ خالد وهو "منصر" بدل الإبن الأكبر "نصر" على عادة الحكم داخل الأسرة، وبذلك اشعل فتيل الحرب بين الإخوة وانقسمت الأسرة إلى فرعين متحاربين فرع "نصر" وفرع "منصر".

استغل كل من بايات تونس وبايات قسنطينة هذه الوضعية لخدمة مصالحهم بالمنطقة، فكان كل طرف يستعين بفرع من الفرعين المتنافسين لضرب منافسيه على الحكم. وقد برز هذا على وجه الخصوص في الصراع الذي دار بين بايات تونس، ففي سنة 1085هـ/1675م، وبعد وفاة مراد باي تونس بدأ الصراع بين ابنيه "محمد" و"علي" وكان ذلك يعني بداية الصراع المسلح بين فرعي أسرة أحرار الحنانشة؛ إذ إلتجأ "محمد" إلى الشيخ "المرادسي بن الصغير بن نصر" الذي كان على رأس فرع "نصر" وطلب منه مساعدته للقضاء على أخيه "علي" والإستيلاء على حكم تونس مقابل امتيازات مادية تتمثل في مبالغ مالية يقدمها الباي إلى الشيخ المرداسي، ومساع منه لدى باي قسنطينة لتثبيته على رأس أسرة أحرار الحنانشة، وقد استجاب الشيخ لطلب الباي وسانده بالسلاح والرجال، في حين إلتجا أخوه "علي" إلى "سلطان بن منصر" زعيم الفرع المنافس للشيخ المرداسي وقدم له نفس الطلب والوعود، وكان له نفس الدعم الذي ناله منافسه من فرع "نصر".

وبذلك تحول صراع الأخوين على حكم تونس إلى صراع بين فرعي أسرة أحرار الحنانشة دام طويلا وداميا لم ينته إلا بانتصار أحد الطرفين وهو طرف علي باي وأنصاره من فرع "منصر"، ولتثمين علاقته بحليفه "سلطان بن منصر" عمل الباي على مصاهرته، في حين فقد الشيخ "المرداسي بن نصر" مكانته على رأس أسرة الأحرار وعادت المشيخة إلى الشيخ "سلطان بن منصر"، و لم يعد "المرداسي" إلى المشيخة رغم محاولاته إلى أن قتل في إحدى المعارك ضد خصومه[1].

بعد حوالي عشر سنوات من الحكم (1097هـ/1686م) قتل علي باي في معركة ضد القوات الجزائرية وعاد أخوه محمد باي إلى الحكم بإعانة من باي قسنطينة. وللقضاء على أية محاولة للثورة سجن الباي ابن أخيه "مراد بن علي" وحفيد سلطان بن منصر إلا أنه تمكن من الفرار إلى دوقية توسكانة قبل أن يعود مرة أخرى إلى تونس ليرفع راية الحرب ضد عمه والمطالبة بحقه في الحكم والعمل على الإنتقام لوالده من القوات الجزائرية. ولتحقيق هدفه إلتجا مراد باي إلى أخواله أحرار الحنانشة الذين كانوا له خير سند؛ إذ بفضل مساعدهم العسكرية استطاع الإستيلاء على حكم تونس، وبفضل قواهم تمكن من فرض سلطته على كامل البلاد التونسية وتكوين دولة قوية وجيش قوي زحف به على بايلك قسنطينة واستطاع الوصول إلى عاصمة البايلك وحاصرها لمدة تجاوزت الثلاثة أشهر و لم تكن إستفادة أسرة الأحرار الحنانشة من حفيدها أقل من إستفادة هذا الأخير من أخواله؛ إذ عرفت الأسرة في عهد مراد باي ازدهارا كبيرا فاتسع نفوذها وتعاظمت ثروتها وعرفت هدوءا نسبيا بين فرعيها.

إلا أن ارتباط الأسرة الوثيق بباي تونس حتم عليها تحمل ما لحقه من خسائر وأهمها هزيمته في قسنطينة وما انجز عنها من تشتيت لقوات الحنانشة المشاركين في الحملة وقتل الباي الذي كان سببا في عزها وجاهها.

---

[1] Féraud (ch): les Hrars…,pp 203- 205.

بعد مقتل مراد باي 1113هـ/1702م وعودة الصراع بين حكام تونس على من يخلفه على حكم تونس عاد اعتماد هؤلاء على شيوخ أسرة الأحرار وبالتالي عاد الصراع من جديد بين فرعي "نصر" و"منصر"؛ إذ بمجرد تولي حسين باي حكم تونس 1132هـ/1720م بدأ الصراع بينه وبين ابن أخيه علي باشا وكعادة مختلف البايات المتنافسين على حكم تونس إلتجا علي باشا إلى قوات أحرار الحنانشة للإستعانة بها ضد منافسه، وبينما وجد علي باشا المساندة من فرع "منصر" وعلى رأسه الشيخ سلطان والشيخ أحمد الصغير بن عمر[1]، فإن الباي حسين التجأ إلى بوعزيز بن نصر من فرع "نصر" لحماية حكمه من الطامع علي باشا، وبذلك عاد الصراع من جديد بين فرعي أسرة أحرار الحنانشة.

وقد استطاع الشيخ القوي بوعزيز بن نصر بالتعاون مع قوات الباي حسين أن يشتت فرع "منصر" وحليفه علي باشا وطاردهم حتى الصحراء. إلا أن خلافا وقع بين بوعزيز وحليفه حسين باي بسبب رفض الأول لمصاهرة الباي[2] الأمر الذي جعل الباي حسين يحرض باي قسنطينة على أخذ المشيخة من الشيخ بوعزيز ومنحها لفرع "منصر"[3] وبذلك يقضي على نفوده بالمنطقة ويكسب في نفس الوقت ولاء ومساندة حلفاء خصمه علي باشا.

كان انتزاع المشيخة من بوعزيز بن نصر ضربة قاسية له، جعلته يقرر الإنتقام بدوره من الباي حسين بالتحول عنه إلى مناصرة علي باشا متحدا في

---

1 للتفريق بين مختلف الشيوخ يجب الرجوع إلى شجرة نسب الأسرة، ص 51.

2 هذا ما جاء في تاريخ *Féraud* لأسرة أحرار الحنانشة. أنظر، الفصل السابق، عنصر المصاهرة. أما الوزير حمودة بن محمد بن عبد العزيز فيقول: "اجتمع حسن باي بابن عزيز في رحلته فوقعت بينهما مغاضبة سخط بسببها حسن باي علي ابن عزيز حتى شتمه وسبه ونهض من حينه راجعا إلى محلته وظفر بابنه ابراهيم فاعتقله فارتحل أبو عزيز من يومه نافضا يده من حسن باي ونازعا إلى علي باشا ..."، ولم يذكر سبب ذلك السخط. أنظر، حمودة بن عبد العزيز: المصدر السابق، ص 280.

3 Féraud (ch): les Hrar…, p230.

ذلك مع فرع منصر الذين استمروا في مناصرتهم للثائر علي باشا،[1] وقد انضم إليهم أولاد يحي بن طالب جنوب تبسة، وبنو يعقوب وبذلك تكون حلف قوي ضد باي تونس وحليفه باي قسنطينة الأمر الذي جعلهما يتفقان للقضاء على بوعزيز فكانت حملتهما المشهورة ضد شيخ الحنانشة سنة 1136هـ/1724م والتي انتهت بتشريد الشيخ وأسرته بعد أن قتل ابنه طراد في موقعه "فج مراح" الشهيرة.

بعد فترة تزيد عن العشر سنوات من التشرد عاد الشيخ بوعزيز من جديد للبروز على الساحة السياسية والعسكرية، ففي سنة 1147هـ/1735م عاد علي باشا للمطالبة بحكم تونس وعاد معه بوعزيز وأنصاره، ومنهم صهره بورنان شيخ أسرة المقراني واستطاعت أسرة أحرار الحنانشة أن تكون قوة ضخمة من فرعيها "نصر" و"منصر" لمساندة علي باشا للقضاء على حكم حسين باي الذي عرف كيف يضعف نفوذ أسرة الأحرار أثناء حكمه بالإستعانة بباي قسنطينة وباشا الجزائر. وكان لعلي باشا أكبر انتصار على منافسه بفضل قوات هذه الأسرة وأخذ منه السلطة.

ولمكافأة بوعزيز أعاده علي باشا على رأس مشيخة أحرار الحنانشة، إلا أن ذلك لم يرق لأصهاره من فرع منصر فثاروا ضد قرار الباي وعاد الصراع من جديد بين فرعي الأسرة و لم ينته إلا بنهاية زعمائهم؛ إذ قام علي باشا، كما سبق ذكره، بقتل كل من زعيمي فرع منصر "سلطان" و"أحمد الصغير بن منصر"، وزعيم فرع نصر "بوعزيز" وذلك خوفا من تقلباتهم الكثيرة بين المتنافسين من بايات تونس.

---

[1] حاول الباي حسين استرضاء بوعزيز بمختلف الطرق لأنه "علم أنه لا يتم له الأمر بدون بوعزيز" إلا أن هذا رفض العودة إلى صفه. انظر، حمودة بن عبد العزيز: المصدر السابق، ص ص 280-281.

وقد عرفت قبيلة النمامشة فرع الأعشاش التابعين لأسرة أحرار الحنانشة نفس الإنتقام من علي باشا لوقوفهم مع محمود بن حسين باي[1] وإخوته ومساعدهم على الفرار إلى قسنطينة وهو ماجعل علي باشا يهاجمهم 1153هـ/1741م بتهمة نهبهم لقافلة الحج الآتية من المغرب الأقصى وبها هدية السلطان إلى شريف مكة وقد هزمهم الباي شر هزيمة ولاحقهم حتى الصحراء. وفي طريقه هاجم خنقة سيدي ناجي إنتقاما من شيوخها الذين ساعدوا أبناء حسين باي على الوصول إلى قسنطينة[2].

بعد عملية الإنتقام هذه، دخلت أسرة أحرار الحنانشة طورا من الإنحطاط؛ إذ لم تعرف، بعد حكم بوعزيز، أي حكم قوي يعيدها إلى قوتها السابقة، فرغم قرار أبناء الشيوخ، ضحايا غدر "علي باشا" من الفرعين، الإبتعاد عن الحكام العثمانين ورفض أي تعامل معهم والتحالف فيها بينهم لمواجهة غدر البايات، لم يستطع هؤلاء الإفلات من سياسة العثمانين؛ إذا استطاع هؤلاء بنفس السياسة أن يفرقوا من جديد بين فرعي أسرة الأحرار.

فبعد أن اتفق الجميع على اختيار "سديرة بن طراد بن بوعزيز بن نصر" شيخا عاما لجميع الحنانشة، عمل علي باشا، خوفا من عودة العائلة إلى قوتها، على أخذ المشيخة من سديرة ومنحها لإبن عمه "رجب ابن أحمد الصغير"، الذي أعمته مغريات المنصب وما يتبعه من إمتيازات[3] وأنسته مقتل والده على

---

[1] انقسم النمامشة إلى فرعين متناحرين، الأول: فرع أولاد الخيار وهو المناصر لعلي باشا، والثاني: فرع الأعشاش وهو الذي وقف إلى جانب محمود بن حسين باي، وساعده للوصول إلى قسنطينة. أنظر: Féraud: Op.cit, p325.

[2] نتيجة لمواقف شيوخ هذه الأسرة تجاه بايات تونس وخاصة أبناء حسين باي نال هؤلاء مكانة سامية لدى حكام تونس وخاصة في عهد الباي علي بن حسين. حول مكانة شيوخ خنقه سيدي ناجي لدى علي باي أنظر، حمودة بن عبد العزيز: المصدر السابق، ص 206-212 .

[3] كان لكل شيخ يتولى المشيخة العديد من الامتيازات المادية أهمها نسبة هامة من الأموال التي تجمع من القبائل كضريبة.

يد نفس الباي، فقبل المشيخة وبذلك ضرب الحلف الأسري عرض الحائط فعادت الحروب لتنخر في جسم الأسرة من جديد.

قامت حروب طويلة بين سديرة و ابن عمه رجب إلى أن نشب نزاع بين علي باشا وباي قسنطينة حسين بوحنك،[1] و لم يجد هذا الأخير سلاحا أمضى من الشيخ سديرة الذي كان يتمنى الإنتقام لجده بوعزيز من قاتله علي باشا والإنتقام لنفسه بالقضاء على منافسه رجب. اتصل الباي بالشيخ سديرة وأعاد له المشيخة مقابل التحالف معه للقضاء على علي باشا وإعادة حكم تونس إلى أبناء حسين باي، ورحب الشيخ سديرة بذلك, ليس حبا في باي قسنطينة، لأنه كان لا يثق في أي حاكم عثماني وإنما حبا في الإنتقام من الجميع، وتقول الروايات أن الباي كان يحس بكره الشيخ سديرة للعثمانين فقرر قتله إلا أنه أجل ذلك إلى ما بعد القضاء على علي باشا[2].

دخل الشيخ سديرة بقواته إلى جانب باي قسنطينة وكبد القوات التونسية خسائر هامة وإستطاع القبض على يونس بن علي باشا بمنطقة تبسة[3] سنة 1165هـ/1752م وسلمه إلى باي قسنطينة الذي سجنه بقسنطينة بعد أن سلبه، حسب قول ابن العطار "جميع أمواله من الذهب والسلاح والجواهر التي لا قيمة لها (كذا) (لا تقدر بثمن) والأحجار التي لا يقوم لها وصف..."[4] أما الشيخ سديرة فقد قتل غدرا عن طريق السم، من طرف باي قسنطينة بمجرد فشل الحملة الأولى على علي باي وعين مكانه عمه ابراهيم بن بوعزيز ونفس المصير

---

1 كثيرا ما كانت التراعات تنشب بين بايات قسنطينة وبايات تونس بسسبب توقف هؤلاء عن دفع ما عليهم من ضرائب لباشوات الجزائر وبايات قسنطينة يولون على تونس كل من يبدي لهم استعداده لدفع ضريبة أكبر من سابقه.

2 Féraud: Les Hrars, ...,pp334-335.

3 كان يونس بن علي باشا قد ثار ضد والده وفر إلى شرق بايلك قسنطينة.

4 ابن العطار (أحمد): المصدر السابق، ص ص 65-66.

لقيه الشيخ رجب من الفرع المنافس؛ إذ قتله الباي عند قدومه إليه بالضريبة وولي مكانه محمد بن سلطان من نفس الفرع.[1]

وبذالك ازداد الصراع وعدم الثقة بين البايات وأسرة أحرار الحنانشة بفرعيها، إلا أن هذا لم يمنع الشيخ ابراهيم بن بوعزيز من المشاركة في الحملة التي شنها حسن زرق عينيه، باي قسنطينة، مرة ثانية على علي باشا وقد تمكن من الإنتقام لوالده بوعزيز من علي باشا الذي قتل في هذه الحملة (1169هـ/1756م)[2] وقتل معه ابنه محمد.

- **القضاء على نفوذ أسرة أحرار الحنانشة:**

بداية حكم ابراهيم بن بوعزيز بدأ ضعف أسرة أحرار الحنانشة؛ اذ لم يقم هذا الشيخ عكس والده بوعزيز بأي عمل من شأنه أن يؤدي إلى تقوية الأسرة والوقوف بها في وجه سياسة بايات قسنطينة وتونس الرامية الى القضاء عليها نهائيا. بل عمل الشيخ ابراهيم على تنفيد أوامر الحكام العثمانيين سواء بتونس أو بقسنطينة. وبما أنه عاصر أقوى بايات قسنطينة وهو صالح باي، فإن نفوذ هذا الأخير كان قويا عليه وعلى بايات تونس أنفسهم[3].

فقد تمكن صالح باي من التدخل مباشرة في منطقة نفوذ أسرة الحنانشة بعد أن حرض ابراهيم بن بوعزيز على غزو قرية "شارن" التابعة لايالة تونس وإعادتها إلى حضيرة بايلك قسنطينة وذلك سنة 1186هـ /1773م، وإثر

---

[1] أنظر، حمودة بن محمد بن عبد العزيز: المصر السابق، ص 289 .

[2] نفسه ص 290.

[3] عبر باي تونس (علي باي) عن قوة وظلم بايات قسنطينة لأسرة أحرار الحنانشة المتمسكين بعلاقتهم ببايات تونس وغيرها من القبائل الحدودية بقوله في خطاب لباي قسنطينة:"انكم تطلبون رعاياكم وتسومونهم العذاب وتستبيحون أموالهم ولو أمكنتهم النقلة إلى عمل آخر ما أقاموا بعملكم يوما واحدا، ولا يمنعهم من النقلة إلى عمل تونس مع قربه منهم ومجاورته إياهم إلا علمهم بأنهم لو إنتقلوا لرددتموهم قهرا وزدتموهم من النكال أكثر..."أنظر، حمودة بن محمد: نفس المصدر ص ص 278-279.

احتجاج باي تونس على ذلك وجد صالح باي الفرصة سانحة للتدخل عسكريا في المنطقة.

ولإبعاد أتباع أسرة الحنانشة عن الشيخ ابراهيم حرض على بث الشقاق بينه وبين إبنه "بوحفص" وبالتالي بينه وبين أتباعه وأصهار إبنه من قبيلة النمامشة[1] وكذلك أولاد يحي بوطالب وقبائل الأوراس الشرقي الذين كانوا يعترفون بزعامة أحرار الحنانشة عليهم، وكان المستفيد الأول من الوضع هو صالح باي الذي استطاع بمساعدة قبيلة الحراكتة، شبه المخزنية، والخاضعة لقائد العواسي أن يقضي على ذلك الصراع وفي نفس الوقت على نفوذ أسرة الأحرار بالمنطقة؛ إذ اضطر الشيخ ابراهيم إلى الفرار بحاشيته إلى قلعة سنان حيث ضرب عليه ابنه حصارا طويلا استسلم الشيخ بعده إلى صالح باي الذي قام بسجنه ثم قتله بقسنطينة وولى مكانه ابنه "بوحفص".[2]

بقي الشيخ بوحفص خاضعا لبايات قسنطينة حتى وفاته سنة (1209هـ/1795م) فخلفه أخوه عثمان[3] الذي رافق الباي مصطفى الوزناجي إلى الجزائر لحمل الدنوش، إلا أن باشا الجزائر قام بسجنه وسجن أتباعه بتهمة محاولة الانفصال عن الحكم المركزي ولم يطلق سراحهم إلا بعد دفع مبالغ مالية هامة وعند عودة الشيخ عثمان إلى قبيلته وجد أن الباي ولى مكانه ابن عمه "الميهوب بن سلطان بن منصر" فقام بقتله بتحريض من كاتبه منصور الرزقي ليعود إلى منصبه من جديد،[4] وهو ما أدى إلى إندلاع ثورة أولاد علي

---

1 يقول *Féraud* أن سبب الشقاق بين الشيخ ابراهيم وأتباعه بقيادة ابنه "بوحفص" يعود حسب رواية الأهالي إلى إشاعة أثارها النمامشة تفيد أن الشيخ كان على علاقة بزوج ابنه بوحفص الذي كان في رحلة لجمع الضرائب وعند عودته اعلن الثورة على أبيه بمساندة أصهاره النمامشة. أنظر:
Féraud (ch): les harar…, pp 355-356.

2 Ibid, p 357.

3 حول تسلسل مشايخ الأسرة أنظر نسب أحرار الحنانشة ص 51.

4 Féraud (Ch): Les Harar ..., p358.

بن يحي أتباع الشيخ الميهوب حوالي سنة (1210هـ/1796م) ضد الأحرار وخاصة وزيرهم الرزقي الذي تم قتله من طرف باي قسنطينة كوسيلة لإسكات الثورة.[1]

بقي وضع أسرة أحرار الحنانشة متقلبا بعد هذه الأحداث، ويتجه بسرعة كبيرة نحو الضعف والتفكك. فكان الشيوخ يتغيرون بسرعة تغير البايات في نهاية العهد العثماني بالبايلك حيث كان الشيخ لا يبقى بمنصبه أكثر من سنة أو من سنتين وينتهي حكمه في أغلب الأحيان بالقتل أو السجن، وهو ما جعل 7 شيوخ على الأقل يتداولون على مشيخة الأسرة ما بين سنة (1221-1241 هـ/1806-1826م) في حين كانت نفس الفترة تقريبا يحكمها شيخ واحد في عهد ازدهار الأسرة، منها فترة حكم الشيخ خالد بن نصر (1047-1063هـ/ 1638-1653م) وبوعزيز بن نصر (1132-1151هـ/1719-1739م).

والحقيقة أن مشيخة أحرار الحنانشة، حسب رواية بعض المسنين لرجال لجنة السناتيس كنسلت (*S.C*) الفرنسية، انتقلت عمليا، منذ (1199هـ/1785م)، تاريخ وفاة الشيخ عثمان بن ابراهيم، إلى الرزقي بن منصور كاتب الأسرة الخاص[2] الذي كان يملي أوامره على شيخ الأسرة. ويضيف نفس المصدر أن الزعامة الحقيقة انتقلت بعد مقتل الرزقي إلى ابنه منصور بن الرزقي الذي وجد دعما قويا من الحاج أحمد باي بعد وصوله إلى حكم البايلك ليستولي رسميا على مشيخة أحرار الحنانشة ويبعد أصحابها

---

[1] Mercier (E): Histoire de Constantine, p307.

[2] كانت أسرة الزرقي تمثل وزراء أسرة الحنانشة وكتابها وقد سبقتهم إلى هذه الوظيفة أسرة أحمد بن علي وهي أسرة حنانشية كان آخرها الشيخ الحسناوي بن المبارك الذي فر إلى الأوراس بعد خلافه مع الحاج أحمد آخر بايات قسنطينة وقد كان انشقاق الأسرة إلى فرعين سبب في انضمام هذه الأسرة إلى فرع منصر واتخاذ فرع نصر أسرة أخرى هي أسرة الزرقي من قبيلة ويلان وكان أولهم منصور الرزقي.
أنظر: Féraud (ch): les harar…, pp 365 364.

الأصلين عن الميدان السياسي[1] وذلك بتلفيق تهمة لآخر شيوخ الأسرة "على بن محمد" من فرع نصر بالخيانة ومحاولة الإنفصال عن سلطة الباشا، الأمر الذي أدى بهذا الأخير إلى فرض الإقامة الجبرية على الشيخ وأسرته بالجزائر.

وكل ذلك كان بسعي من الحاج أحمد الصديق الوفي للرزقي[2]. وفي محاولة لإسترجاع حكم الأسرة قام كل من "طراد بن نصر" و"الحسناوي بن أحمد" بثورة ضد منصور بن الرزقي الأمر الذي إضطره إلى الفرار إلى قسنطينة بأسرته وطلب النجدة من صديقه الحاج أحمد، إلا أن هذا الأخير لم يستطع التدخل لعلمه بالحملة الفرنسية على الجزائر (1245هـ/1830م) فبقي "الرزقي" بقسنطينة في حين بقي الحكم في يد "طراد بن نصر" حتى سنة (1247هـ/1833م) تاريخ انفراد الحسناوي بالحكم بعد وفاة طراد بن نصر.[3]

وقد استمر حكم الحسناوي حتى عودة الحاج أحمد باي من الجزائر[4] وتعويضه بالرزقي الذي شارك الباي بقواته في الدفاع عن الجزائر عكس الحسناوي الذي رفض تلبية دعوة الباي لذلك[5]. الأمر الذي جعل هذا الأخير يتهمه بالخيانة[6] ويقيله من منصبه كشيخ للحنانشة. وبذلك انتهى حكم أسرة الحنانشة بشرق البايلك بانتهاء الحكم العثماني بالجزائر.

---

[1] أنظر تقرير لجنة السناتيس كنسلت بتاريخ 22 أفريل 1863م، القسم التقني لمسح الأراضي لولاية قسنطينة، قبيلة الحنانشة، رقم 138.

[2] كان الحاج أحمد باي في شبابه ينتقل باستمرار على مناطق الحنانشة للتمتع برحلات الصيد رفقة كل من الرزقي بن منصور وزين بن يونس شيخ أولاد يحي بن طالب ومنذ ذلك الحين تكونت بين الرفاق الثلاثة صداقة متينة استغلها الرزقي بعد تولي صديقه حكم قسنطينة، للاستيلاء على مشيخة أحرار الحنانشة. أنظر .Féreaud (ch): les harar, ppp 350-361-362

[3] قبيلة الحنانشة، القسم التقني لمسح الأراضي لولاية قسنطينة.

[4] مذكرات الحاج أحمد باي، المصدر السابق، ص 69.

[5] Féraud (ch): les harar, p 355.

[6] مذكرات الحاج أحمد باي، نفس المصدر، ص 85.

2°. الصراع بين أسرة بوعكاز وأسرة ابن ڤانة.

لم نعثر، حتى الآن على ما يدل أن صراعات على الحكم نشبت بين أبناء أسرة بوعكاز الذواودة الذين توارثوا منصب شيخ العرب طوال العهد العثماني بالجزائر، باستثناء الصراع الذي تسببت فيه ثورة الأميرة أم هاني ابنة رجب باي وزوج شيخ العرب أحمد بن السخري بوعكاز؛ إذ كانت هذه الثورة سببا في إنقسام القبائل الصحراوية التابعة لأسرة بوعكاز إلى صفين متحاربين الأول يناصر أم هاني الثائرة ضد أسرة زوجها، وقتلة أخيها، والثاني يناصر ابن زوجها فرحات بن رجراجة، وكان الأول يضم قبائل: أهل بن علي،[1] أولاد سالم، شرفة وغمرة. والثاني يضم قبائل: السلمية، البوازيد، رحمان، أولاد بن زكري وجميع القبائل البدوية غرب الزاب.[2]

وقد دامت الحرب بين الطرفين قرابة النصف قرن من حوالي (1084هـ–إلى1137هـ/1674–1725)،[3] إلا أن الوضع عاد إلى الهدوء، بعد انهزام أم هاني، وانفراد فرحات بن رجراجة بحكم الصحراء، من الزاب إلى الحضنة وما جاورها حتى سهول أولاد عبد النور والسقنية جنوب قسنطسنة،[4] وقد قوي نفوذ فرحات بن رجراجة على غرار سلفه، بتحالفه مع سلاطين بن جلاب حكام تقرت وخاصة بعد زواج سليمان بن جلاب من أخت فرحات

---

1 كانت هذه القبيلة أقوى القبائل المؤيدة للأميرة أم هاني وتمثل حرسها الخاص (المزارقية).

2 Féraud (ch): Notes historique sur la province de Constantine, R.A, 1882, p375.

3 وضعت هذا التاريخ التقريبي اعتمادا على تاريخ وفاة الباي رجب 1083هـ/1673م وانتقال ابنه وزوجته إلى أم هاني بالصحراء حيث قتل أخوها وكان ذلك سببا في ثورة "أم هاني" التي استمرت سيطرتها على الصحراء إلى أن بلغ ابن زوجها فرحات بن رجراجة الذي فرت به والدته من المجزرة التي أقامتها "ام هاني" لأقارب زوجها سن الرشد وحاربها إلى أن انتزع منها المشيخة حوالي سنة 1137هـ/1725م تاريخ مرور الرحالة الفرنسي *Peyssonnel* بالمنطقة والتقائه بالأميرة أم هاني بعد انسحابها من الصحراء للإقامة "بالعلمة" قرب سطيف إثر انهزامها أمام قوات فرحات بن رجراجة.

4 Mercier (E): Histoire de Constantine, p 249.

(فاطمة البليلية)، ونفس التحالف كان يربط أسرة بوعكاز بأسرة ابن شنوف[1] شيوخ أولاد صولة بشرق الزاب.

- **بداية تدخل البايات في شؤون أسرة بوعكاز:**

تمتعت منطقة نفوذ أسرة بوعكاز، والصحراء عامة باستقلال شبه تام عن الحكم المركزي بقسنطينة، وذلك رغم وجود حامية عثمانية قرب مدينة بسكرة، وبقيت القبائل الرحل تابعة مباشرة لشيوخ العرب من أسرة بوعكاز الذين كانوا يعاملون على قدم المساواة مع البايات،[2] و لم يجرأ بايات قسنطينة على التدخل في شؤون الأسرة إلا بعد وفاة شيخها فرحات بن رجراجة سنة (1148هـ/1736م) وبداية حكم ابنه علي بوعكاز وكان ذلك التدخل بداية للصراعات الدامية بالصحراء وأول باي أقدم على هذه السياسة هو الباي أحمد القلي (1169-1184هـ/1756-1771م) الذي عمل، عكس أسلافه[3] على التقرب من شيوخ أسرة بوعكاز فأرسل إلى الشيخ بوعكاز أغلى الهدايا بمناسبة توليته المشيخة وأعلن له عن إعترافه بسلطته على الصحراء، وحتى يكون ذلك رسميا أرسل له قفطان التعين من السلطان نفسه ومن داي الجزائر، كما سمح له برفع الأعلام ومرافقة الجوق الموسيقي على غرار بايات قسنطينة.[4]

وبذلك استطاع الباي من جديد كسب ود هؤلاء أقوى وأخطر أسرة صحراوية كانت تهدد الحكم المركزي، وحتى يضمن إستمرار ولاء عرب الصحراء للسلطة المركزية وخوفا من تقلبات هذه الأسرة القوية عمل الباي

---

[1] حول هذه الأسرة، أنظر الفصل الأول من الكتاب.

[2] Ben gana (Bouaziz): op.cit, p18.

[3] كان البايات يخشون التعامل مع هذه الأسرة ويعتبرونها العدو الأكبر للحكم المركزي. أنظر:

Ben gana (Bouaziz): idem, p18.

[4] Ibid, p18.

على ربطها بأصهاره ومقربيه من أسرة ابن ڤانة عن طريق المصاهرة، راميا بذلك إلى إقحام أسرة جديدة في الصحراء لمزاحمة الحكام القدامى.

بعد زواج مباركة[1] بنت بن ڤانة من فرحات ابن أخ شيخ العرب علي بوعكاز وجد الباي فرصة لتنفيذ خطته لإفتكاك حكم القبائل الصحراوية من يد أسرة بوعكاز ومنحها لأصهاره فأرسل "محمد بن ڤانة" أخ مباركة إلى أخته بدعوى الزيارة، وتكررت هذه الزيارات إلى أن تكون بين الضيف وسكان المنطقة ألفة استطاع ابن ڤانة بمساعدة من الباي أن يحولها إلى هيمنة سياسية شملت عددا من القبائل لما كان الشيخ يقدمه للسكان من مساعدات مالية تأخذ شكل الصدقة على الفقراء. وكانت أول قبيلة تحولت عن أسرة بوعكاز إلى الشيخ "محمد بن ڤانة" هي قبيلة أهل بن علي القوية التي كانت موالية للأميرة "أم هاني" ولم تعد إلى ولائها لأسرة بوعكاز الإ نفاقا وساد الحذر وعدم الثقة علاقة القبيلة بالشيخ "علي بوعكاز" إلى أن وجدوا الفرصة للخروج عن طاعته بتشجيع من الشيخ ڤانة. وبدل استعمال الطرق السياسية لاستمالتهم وتفويت الفرصة على الباي وحليفه ابن ڤانة عمل الشيخ "علي بوعكاز" على معاقبة أهل بن علي بقتل عدد من أعيانهم بدعوى خروجهم عن الطاعة.

وهنا وجه هؤلاء شكوى إلى الباي أحمد القلي الذي أسرع بالتدخل سياسيا لحل المشكل إلا أن شيخ العرب اعتبر ذلك تدخلا في شؤونه الداخلية ورد عليه بالثورة[2] الأمر الذي أفسح المجال للباي للتدخل علنا ضد أسرة بوعكاز فنشبت حروب بين الطرفين وزاد من تأزم الوضع اختيار الباي للشيخ ابن ڤانة لرئاسة ركب الحج لموسم 1176هـ/1762م. إذا أثار هذا العمل شيخ العرب فأعلن الثورة ضد الباي، ولم يكترث هذا لذلك بل استمر في تطبيق خطته

---

[1] أنظر عنصر سياسة المصاهرة بين البايات والأسر المحلية بالفصل الثالث من الكتاب.

[2] Féraud (ch): Notes historique sur la province de Constantine, R.A, 1882, p375.

للقضاء على نفوذ أسرة بوعكاز بالصحراء بتعين الحاج بن قانة شيخا للعرب، بمجرد عودته من الحج، وبذلك كان الحاج محمد بن قانة أول شيوخ للعرب في أسرة بن قانة وأول منافس لشيخ العرب من أسرة بوعكاز. ويبدو أن ذلك كان بطلب من زعماء قبيلة أهل بن علي الذين رافقوا ابن قانة إلى البقاع المقدسة[1].

لم يتقبل عرب الصحراء تعيين الشيخ "الحاج بن قانة" شيخا عليهم وتمسكوا بشيوخهم القدامى من أسرة بوعكاز ونشبت بسبب ذلك معارك بين قوات الباي وحليفه، وقوات شيخ العرب"علي بوعكاز" وأتباعه وحلفائه من حكام الصحراء أمثال بني جلاب وأولاد صولة، ولم يتمكن الباي من فرض شيخه على الصحراء رغم وقوف الحامية العثمانية ببسكرة إلى جانبه، وانتهى الأمر إلى طرد الشيخ ليعود لقسنطينة حيث اكتفى باللقب الصوري أو الجزئي *(in partibus)*[2] لشيخ العرب في حين احتفظت أسرة بوعكاز بسيادتها العملية على الصحراء.[3]

وقد أوردت بعض المراجع أن قبيلة "أهل بن علي" نفسها تخلت عن بن قانة بعد تخاذله وانضمت إلى أسرة بوعكاز، ولم يقف إلى جانب الشيخ الجديد سوى قبيلة "الصحاري" التي كانت تعمل كمرتزقة، وحتى هذه كانت لا تخضع لإبن قانة إلا باغراءات مادية من الباي.[4]

بقي الوضع كذلك حتى عهد صالح باي (1185-1206هـ /1771-1792م) الذي عمد إلى تحويل منصب الشيخ "امحمد بن محمد بن قانة"[5] الصوري

---

[1] Ben gana (Bouaziz): Op.cit, pp20-21, et Féraud (ch): Idem, p385.
[2] Féraud (ch): Notes historique sur la province de Constantine, R.A, 1883, p257.
3 Mercier: Histoire de Constantine , pp219-218, Féraud: Le Sahara de Constantine, p273.
4 Babés (Leila): Tribus, Structures Sociales ..., pp50-51.
[5] هو ابن أول شيوخ العرب من أسرة إبن قانة "الحاج محمد بن قانة" الذي قتل في معركة ضد قبيلة فلسية الثائرة وذلك سنة 1182هـ/1758م.

إلى منصب حقيقي بإعادته إلى الصحراء ومحاولة تثبيته ببسكرة إلا أن هذا الشيخ لم يكن أكثر حظا ولاقوة من والده فلم يتمكن، رغم مساندة القوات العثمانية له، من الدخول إلى بسكرة حيث وقف له بالمرصاد الشيخ محمد ذباح بوعكاز[1] وأتباعه فاضطر "ابن ڨانة" إلى الفرار إلى جبل "أحمر خدو" تاركا السلطة لأصحابها الشرعين، الأمر الذي أكد لصالح باي ضعف شيوخ أسرة "ابن ڨانة" وقلة شعبيتهم بالصحراء عكس "أسرة بوعكاز" التي أثبتت مرة أخرى جدارتها بحكم الصحراء، ولذلك قرر التقرب من جديد من أسرة بوعكاز والإعتراف بمشيختها على العرب، وتم الوفاق بين صالح باي والشيخ "محمد ذباح".

وقد استفاد صالح باي من هذا التحالف؛ إذ تخلى شيخ العرب عن الثورة التي أعلنها على الباي أحمد القلي وبذلك تفرغ صالح باي لإصلاحاته وحروبه بشمال البايلك والدفاع عن الجزائر ضد الغزو الاسباني، وبعد العودة من صد الحملة الإسبانية توجه من جديد إلى الصحراء في محاولة لإخضاع سلاطين بني جلاب، حكام تقرت وحلفاء أسرة بوعكاز، ولتحقيق ذلك عمل على العودة للتحالف مع أسرة "ابن ڨانة" فقسم المشيخة بين الشيخين "محمد بن ڨانة" و"محمد ذباح بوعكاز" وذلك قصد تأمين طريقه إلى تقرت وكسب قوات محلية بالمنطقة بالإضافة إلى عزل سلاطين تقرت عن حلفائهم "بوعكاز".

اجتمع كل من "ذباح" والشيخ "محمد بن ڨانة " بالباي قرب بسكرة، وتم الإتفاق بين الأطراف الثلاثة على تقسيم المشيخة بين الأسرتين على أن تكون إقامة "ابن ڨانة" ببسكرة وإقامة الشيخ "بوعكاز" بمنطقة "سيدي خالد" ويتسع نفوذه" حتى وادي سوف، وفي نفس اللقاء تمت مناقشة فكرة القضاء على حكم بني جلاب بتقرت وتعويضها بأسرة "ابن ڨانة" إلا أن هذه الفكرة لقيت معارضة شديدة من الشيخ ذباح الذي كان يأمل في وضع أخيه "سعيد" على

[1] تولى فرحات عمر بن بوعكاز زوج مباركة ابنة بن ڨانة المشيخة بعد وفاة "علي بوعكاز" إلا أنه سرعان ما قُتل في احدى المعارك فخلفه محمد ذباح. أنظر:.Ben gana (Bouaziz): Op.cit, p 25

تقرت، أو الإبقاء على حكم بني جلاب وهي النقطة التي بقي الخلاف حولها بين الباي وأسرة بوعكاز، وكانت مساندة صالح باي لأسرة ابن قانة أصهار صهره وولي نعمته، الباي أحمد القلي، فعين أحد شيوخها "محمد بن الحاج بن قانة" شيخا للعرب ببسكرة وأخاه ابراهيم حاكما على تقرت بعد أن تم اخضاع المدينة بالقوة سنة 1788م وإبعاد حاكمها ابراهيم بن جلاب وإخوته الثلاثة عن السلطة بحيلة من الباي وحليفه ابن قانة.[1]

بقي "ابراهيم بن قانة" حاكما على تقرت رغم رفض السكان له واحتجاج أسرة بوعكاز على ذلك، إلى أن توفي أخوه "امحمد بن الحاج" شيخ العرب، فأسرع إلى بسكرة لخلافته على مشيخة العرب متخليا عن حكم تقرت لابن أخيه "علي بن القيدوم" الذي لم يستطع فرض سلطانه على المدينة، رغم تزوجه من إحدى بنات أسرة بني جلاب وهي أخت ابراهيم بن جلاب، سجين الباي، وذلك قصد كسب شعبية بالمنطقة. وسرعان ما قامت ثورة ضده باعتباره مغتصبا للحكم وغريبا عن المنطقة. ونتيجة للخسائر التي لحقت قواته وقوات الحامية التركية، التي كانت تقف إلى جانبه، اضطر "علي بن القيدوم" إلى الإنسحاب من تقرت و لم يجد صالح باي مفرا من إعادة ابراهيم بن جلاب إلى حكمه.

---

[1] بعد هزيمة فرحات بن جلاب على أبواب تقرت على يد قوات صالح باي وحليفه ابن قانة خرج فرحات إلى نواحي سوف حيث تم اغتياله ووضع ابنه ابراهيم على رأس الحكم مقابل التزامه بدفع ما عليه من ضرائب إلا أنه سرعان ما ثار عليه اخوته بتحريض من الباي وابن قانة، وللقضاء على الجميع والاستيلاء على الحكم بتقرت تم استدعاء "ابراهيم بن جلاب" وإخوته الثلاثة من طرف امحمد بن الحاج بن قانة بدعوى اقامة الصلح بينهم وعند حضورهم إلى معسكره بزريبة الوادي بشرق بسكرة تم القبض عليهم جميعا وأودعوا السجن بقسنطينة وعين ابراهيم بن قانة على حكم تقرت.

بعد عودة ابراهيم بن جلاب إلى الحكم, حوالي سنة 1204هـ /1790م عاد الصراع بين عائلة ابن ڤانة وأسرة بوعكاز المناصرة لبني جلاب، وانقسمت منطقة سوف التي كانت ملجأ لأسرة بوعكاز إلى شطرين:

1°. الطرود، الوادي (عاصمة سوف)، ڤمار، بهيمة، دبيلة، قبائل سعيد، ولد عمر، أولاد سايح، الشعانبة، المخادمة وورقلة مع أسرة بوعكاز وحلفائها بتامسين.

2°. سكان زقوم، تاغزوت، كوينين و يعرفون بأولاد سعود مع أسرة بن ڤانة.[1] وبذلك تحولت المنطقة الصحراوية إلى ميدان قتال ين القبائل، كانت معظم معاركه لصالح أسرة بوعكاز وحلفائه و لم تعد أسرة ابن ڤانة إلى قوتها إلا بعد إنقضاء عهد صالح باي الذي ادعت الأسرة أنها كانت وراء الإطاحة به[2] لدعمه الضمني لأسرة بوعكاز، ووصول صهرها[3] حسن بن بوحنك إلى الحكم (1207هـ/1792م)؛ إذ عمل هذا الأخير, بمجرد وصوله إلى الحكم على إعادة منصب شيخ العرب رسميا إلى "محمد بن ڤانة" واجتهد لإعادة نفوذ أصهاره بالصحراء بكافة الطرق وبسرعة. فعمد بالتعاون مع خليفته "محمد الشريف" ابن الباي أحمد القلي وزوج رقية ابنة ابن ڤانة إلى إشعال نار الحرب الأسرية بين بني جلاب لإضعاف الأسرة والإطاحة بحكم ابراهيم بن جلاب صهر وحليف "الشيخ محمد ذباح بن بوعكاز".

ولتقوية نفوذ الشيخ محمد بن ڤانة لم يكتفي الباي حسن باشا بتدعيمه بالحامية التركية بل جلب له عدد من الحلفاء من قبائل المنطقة وعلى رأسها قبيلة

---

[1] Féraud (Ch): Le Sahara de Constantine, pp 162-163.

[2] تقول الروايات الشعبية أن الشيخ "محمد بن ڤانة" هو الذي كان يتصل بالباشا للوشاية بصالح باي واتهامه بمحاولة الإنفصال عن الباشا، كما أنه هو الذي أخبر الباشا بقيام صالح باي بقتل ابراهيم باي، ويقول الشيخ بوعزيز بن ڤانة أن الباشا اتصل بشيوخ الأسرة يخبرهم بتعين صهرهم حسن باشا على قسنطينة وأمره بالقضاء على صالح باي. أنظر: Féraud: Notes historique, pp 260- 261.

[3] عن مصاهرة الأسرة للحكام العثمانيين، أنظر الفصل الثالث من الكتاب.

"السحاري"[1] التي أصبحت قبيلة مخزنية تابعة لأسرة ابن قانة كما استطاع استمالة أحد كبار شيوخ العرب بالصحراء والحليف الأسبق لأسرة بوعكاز وهو الشيخ "بوضياف" شيخ أولاد صولة بالزاب الشرقي، وبذلك تمكن الباي من ضرب أسرتين في آن واحد: أسرة بوعكاز بسلخ أحد أقوى حلفائها عنها وأسرة ابن شنوف زعيمة أولاد صولة نفسها بتقسيمها إلى فرعين متحاربين، فرع يحارب بن قانة ويتحالف مع بوعكاز وهو فرع عبد الله بن فرحات بسيدي عقبة. وفرع بوضياف بليانة ويناصر ابن قانة ضد حليفه الأسبق بوعكاز, وبالتالي تم تشتيت أسرة ابن شنوف بعد أن حافظت على تماسكها ما يقارب القرنين من الزمن.[2]

أما شيخ العرب الجديد فقد استفاد من الوضع بتعزيز قواته بقوات إضافية هامة مكنته من فرض سلطته على بسكرة وما جاورها، بل وصلت قواته حتى وادي سوف بأقصى جنوب البايلك، وقد استغل "الشيخ ابن قانة" فترة حكم صهره الى درجة قصوى فطالب بتعيينه خليفة للباي أو وزيرا له فتم له ذلك ووسع نفوذ أسرته بتعيين أخيه بولخراص حاكما على الحضنة وابن أخيه علي بن القيدوم شريكا للشيخ بوضياف في أولاد صوله بالزاب الشرقي.[3]

---

[1] كانت هذه القبيلة تشتغل بالسطو وقطع الطرق بين باتنة وبسكرة، ونتيجة لإغراءات مادية استطاع البايات أن يحولوها إلى قبيلة مخزنية لخدمة حليفهم ابن قانة. أنظر:
Féraud (ch): le Sahara de Constantine, p 227.

[2] حافظت أسرة بن شنوف على تماسكها وبعدها عن الحكم العثماني والتعامل مع حكامهم منذ وصولها إلى الزاب حوالي سنة 1034هـ/1624م وتحالفها مع أسرة بوعكاز سيدة الصحراء إلى أن وقع الشقاق بين الأخوين فرحات وبوضياف على زعامة الأسرة وانسحاب عبد الله بن فرحات على سيدي عقبة معلنا القطيعة مع عمه، وقد استغل الباي حسن باشا هذه الظروف لجلب بوضياف إلى جانب صهره ابن قانة مقابل دعمه ضد منافسه عبد الله وحلفائه من أسرة بوعكاز. أنظر:
Gouvion (E) (M): op.cit, p5.

[3] Féraud (ch): le Sahara de Constantine, p 226.

- **تحول الصراع الى داخل أسرة بن ڤانة:**

بعد ترقية الشيخ محمد بن الحاج بن ڤانة إلى رتبة الوزير[1] بقي منصب شيخ العرب شاغرا فبحث الباي عن أكفئ شيوخ الأسرة ليسند له المنصب فلم يجد غير محمد الصغير بن محمد بن الحاج، لكن بمجرد وصول خبر هذا التعيين إلى الشيخ بولخراص بالصحراء ثارت ثائرته وأسرع إلى قسنطينة للإحتجاج على ذلك لأنه كان يرى أن ابراهيم بن ڤانة أحق بالمنصب وأقنع الباي برأيه فسحب اللقب من محمد الصغير ومنحه لابراهيم الأمر الذي أشعل نار الحرب داخل أسرة بن ڤانة نفسها.

أخذ الخلاف يتعمق بين أفراد أسرة ابن ڤانة إلى أن تحول إلى صراع دامي بين الإخوة؛ إذ قرر "محمد الصغير" الانتقام من أعمامه لافتكاك مشيخة العرب منه. ووجد الفرصة سانحة بعد وفاة الباي حسن باشا، الذي عمل طوال حكمه على المحافظة على تماسك الأسرة، فأعلن الثورة على عمه إبراهيم ومن سانده من أفراد الأسرة، وأمام هذا الوضع لم يجد الباي الجديد "أنجليز باي" (1217هـ/1803م) غير العودة إلى منافسي أسرة ابن ڤانة وهم أسرة بوعكاز وذلك بإشارة من خليفته وصهره وحليف أسرة بوعكاز، "ابن زكري" فأعاد لقب شيخ العرب رسميا إلى ذباح بن بوعكاز، وقرر التخلص من شيوخ أسرة ابن ڤانة.[2]

- **القضاء على شيوخ أسرة ابن ڤانة:**

يقول الباحث الفرنسي *Féraud* عن شيوخ أسرة ابن ڤانة أنهم "كانوا عالة على بايات قسنطينة حيث كانوا يتمتعون بمداخيل هامة دون بذل أي

---

[1] يقول الشيخ بوعزيز بن ڤانة أن هذه الترقية كانت مكافئة للشيخ بن ڤانة على اخضاعه لقبيلة أولاد نايل الثائرة على الحكم العثماني. أنظر: Ben gana (Bouaziz): op.cit, p 27.

[2] يقول الشيخ بوعزيز بن ڤانة أن محمد الصغير هو الذي كتب رسالة باسم أعماله إلى داي الجزائر يتهم فيها أنجليز باي بمحاولة الانفصال عن باشا الجزائر فأحال الداي هذه الرسالة الى الباي للتصرف على ضوئها فقرر الباي الانتقام من هؤلاء. أنظر: Ben Gana (Bouaziz): Op.cit, pp 28-29.

جهد يُذكر لفائدة البايلك ويتمتعون بسلطة وسيادة واسعة على الأراضي الواقعة بين قسنطينة وأراضيهم "برجاص"، وزيادة على ذلك فهم يتسببون في مشاكل للبايلك بتنافسهم على منصب صوري في قسنطينة بينما كان "محمد ذباح بن بوعكاز" يمارس مهام شيخ العرب عمليا وبحرية تامة بالصحراء"[1]. ولعل هذا ما جعل "إنجليز باي" يقرر التخلص من شيوخ هذه الأسرة وإن كان الاتهام موجها إلى "محمد الصغير بن قانة" الذي حرض الباي على قتل أعمامه بمساعدة "ابن زكري".

ولتنفيذ ذلك دعا الباي شيخي أسرة ابن ڨانة "بولخراص" و"على بن القيدوم" إلى رحلة صيد بالوادي الكبير وهناك تم القبض عليهما وقيدا إلى سجن قسنطينة حيث وجدا أن شيخ العرب "إبراهيم بن ڨانة" قد تم القبض عليه وأودع نفس السحن، وفي اليوم التالي تم قتل "إبراهيم بن الحاج" و"بولخراص"، في حين تمكن "علي بن القيدوم" من الفرار إلى جبل متليلي حيث أعلن الثورة على الباي[2]. وقرر الانتقام من "محمد الصغير" الذي ثبتت خيانته لأعمامه بمنح الباي له قفطان التعيين في منصب شيخ العرب وفي نفس الوقت قائدا على الحضنة. ولم يدم حكم الشيخ "محمد الصغير" طويلا حتى تمكن "علي بن القيدوم" استدراجه إلى غرب مدوكال حيث تمكن من قتله غدرا وذلك سنة 1217هـــ /1803م.[3]

بعد مقتل "محمد الصغير" بقي "علي بلقيدوم" وبالتالي أسرة ابن قانة، بعيدا عن السياسة وعاد منصب شيخ العرب رسميا إلى الشيخ "ذباح بن بوعكاز" الذي وصل حتى قسنطينة لتلقي القفطان من يد الباي. وعند وصول عبد الله باي، صهر أسرة ابن قانة إلى الحكم 1219هـــ/1805م عاد "علي بلقيدوم" إلى

[1] Féraud (ch): Notes historique…, in R.A, 1883, p326.
[2] Mercier (E): Histoire de Constantine, p 305.
[3] Ben Gana (Bouaziz): Op.cit, p29.

الساحة السياسية وعين من جديد في منصب شيخ العرب ومنح العديد من الامتيازات المادية،1 واستمر الوضع كذلك حتى وصول أحمد المملوك إلى الحكم (1233هـ /1818م) فقام بقتل "علي بلقيدوم" بتهمة قتل ابن عمه "محمد الصغير".

ويقول *(E)(M) Gouvion* أن أسرة بوعكاز وصهرها ابن زكري كانوا وراء اتهام علي بن القيدوم بقتل ابن عمه وتحريض الباي على قتله للتخلص من منافسته على المشيخة.[2]

قد يبدو للقارئ أن هذه التفاصيل غير ضرورية لبنية البحث وتربك أفكارنا إلا أننا نعتقد أنها ضرورية لمعرفة النتائج التي وصل إليها الصراع الأسري في بايلك الشرق، ولا مفر لنا من اتباع هذه الحقائق بتسلسلها التاريخي وبتشابكها وتضارب الروايات حولها.

ففي فترة الصراع الذي شهدته أسرة ابن قانة عادت المشيخة الحقيقية إلى الشيخ "محمد ذباح" ولم تستطع أسرة ابن قانة العودة إلى مركزها إلا في عهد الباي "محمد الميلي" (1233هـ/1819م) الذي اختار الحاج أحمد بن الشريف، حفيد أسرة ابن قانة وآخر بايات قسنطينة، مستشارا وخليفة له، فقرب هذا أخواله وباستشارة منه خلع الباي الشيخ ذباح من مشيخة العرب وعين مكانه الشيخ "بلمسعي ابن إبراهيم"، شيخ تقرت وشيخ العرب السابق،[3] وهنا أعلن الشيخ "ذباح" الثورة على الباي فهاجم هذا الأخير ورقلة وبعد حملتين قويتين، تكبد فيهما خسائر هامة، تمكن الباي من هزيمة الشيخ ذباح وأتباعه وعاد إلى قسنطينة بغنائم كبيرة. أما الحاج أحمد خليفته، فقد عمل على إرسال ابن خالته

---

[1] منها منحة حق ملكية اقطاعي الأرض الخضراء والأرض الحمراء بمنطقة وادي العثمانية غرب قسنطينة, وبها مساكن الأسرة الصيفية. أنظر:. Ben gana (Bouaziz): Op.cit, pp 30-31

[2] Gouvion (E) (M): Op.cit (les Bengana), p8.

[3] Ben gana (Bouaziz), Idem, pp32-33.

"بلمسعي" إلى الصحراء لمباشرة مهامه كشيخ للعرب إلا أنه قتل بالسم في طريقه إلى بسكرة ودفن قرب القنطرة، بين باتنة وبسكرة.

وعاد المنصب إلى "محمد بن بولخراص" إلا أن وصول إبراهيم باي إلى الحكم في نفس الفترة (1234هـ/1819م) ووقوع خلاف بينه وبين الحاج أحمد لتجاوز هذا الأخير لمهامه، جعل الباي يطرده من قسنطينة ولحق به شيخ العرب في منفاه بالبليدة.[1] وبذلك عادت المشيخة من جديد إلى الشيخ "ذباح بن بوعكاز"،[2] وفي سنة (1235هـ/1821م) عاد أحمد المملوك مرة ثانية إلى حكم قسنطينة واختار خليفته من أسرة ابن زكري حلفاء وأصهار أسرة بوعكاز فعاد للأسرة مجدها السياسي إلا أن شقاقا وقع بين "فرحات بن سعيد" و عمه "ذباح" من أسرة بوعكاز في عهد الباي أحمد المملوك وذلك أن "ذباح" حسب الروايات المحلية للباحث فيرو كان يأمل أن يتوارث أبناءه مشيخة العرب من بعده وكان نفس الأمل يراود زوجه التي كانت تخشى استيلاء فرحات بن سعيد ابن أخ زوجها على المنصب وذلك لما كان يمتاز به من شخصية قوية وطموح للوصول إلى المنصب، وذلك عكس أبنائها الذين تميزوا بالتخاذل والضعف حتى قيل عنهم:

"الشيخ ذباح جمل جاب نياق والشيخ سعيد ناقة جاب جمال"[3]

ويبدو أن زوج ذباح كانت أكثر حماسا للقضاء على طموحات فرحات بن سعيد في الوصول إلى الزعامة بالصحراء، فعملت على الاتحاد مع منافسه

---

[1] Ibid, p 33.

[2] يقول *(E) (M) gouvion* اعتمادا على رواية أسرة ابن قانة أن المشيخة منحت بخطة من الشيخ ابن قانة إلى الشيخ فرحات بن سعيد ابن أخ ذباح وذلك قصد بث الشقاق بين أفراد أسرة بوعكاز إلا أن ***Féraud*** ينفي ذلك ويؤكد اعتمادا على مصادر حية, عاصرت الفترة, أن فرحات بن سعيد لم يعين شيخا للعرب إلا في الفترة الثانية من حكم أحمد المملوك (1235هـ/1821م) وبعد وفاة عمه الذباح. أنظر كلا من:
Gouvion(M)(E): les Ben gana, et Féraud: Notes historique, in R.A, 1883, p329.

[3] Feraud: Notes historique...,in R.A.1880, p232.

"محمد بن جلاب" سلطان تقرت الذي كان "فرحات بن سعيد" يسعى للإطاحة به والاستيلاء على حكمه بتقرت انتقاما منه لقتل صديقه "الخازن بن فرحات بن جلاب"[1] وقد استطاعت هذه المرأة بتدخلاتها السرية أن تفسد مشاريع "فرحات بن سعيد"، وذلك أنها أرسلت إلى سلطان تقرت من يخبره بأن "فرحات بن سعيد" عقد اتفاقا مع الباي أحمد المملوك يقضي بمساعدته على الاستيلاء على حكم تقرت مقابل 500 ريال ونصحته بمنحه مبلغا أكبر ليتراجع عن اتفاقه مع "فرحات بن سعيد"، وفعلا هاجم الباي تقرت وحطم نخيلها وقبل الاستيلاء عليها خرج إليه علماء ومرابطو المدينة وعلى رأسهم "ابن جاري" أمين مال "محمد بن جلاب" وطلبوا منه أن يكف يده عن قصف المدينة مقابل 100 ألف ريال.

وأمام ذلك المبلغ المغري لم يجد الباي بدا من القبول والعودة من حيث أتى تاركا حليفه "فرحات بن سعيد" دون سند[2] وهنا أعلن "ابن سعيد" الثورة على الباي وعلى عمه "ذباح" وشن حملة على قوات عمه إلا أن الباي استطاع أن يهزمه ويطارده حتى مدينة وادي سوف التي كان يلتجئ إليها "ابن سعيد"، الأمر الذي جعل هذا الأخير ينتقل بأتباعه إلى السهوب منتظرا الفرصة للعودة إلى الصراع ضد أعدائه من جديد.[3]

- **وفاة "ذباح" وتولية "فرحات بن سعيد" مشيخة العرب:**

بعد حكم دام حوالي 40 سنة (1195-1237هـ/1781-1821م)، قضى معظمها في الصراع ضد محاولة بايات قسنطينة أخذ مشيخة العرب منه ومنحها لأسرة ابن قانة، توفي "محمد ذباح" في سن الشيخوخة، وتقول الراويات المحلية، حسب ما جاء به الباحث الفرنسي *Féraud* أن أسرة ابن قانة حاولت في نهاية

---

[1] سيأتي الحديث عن ذلك عند ذكر الصراع بين شيوخ بني جلاب.

[2] Feraud: le Sahara de Constantine, p83.

[3] Féraud (ch): Note historique ..., in R.A,1883, pp327-328.

أيامه أن تحمل باشا الجزائر على قتله وأخذ المشيخة منه بتهمة محاولة الاستقلال عن السلطة المركزية وذلك بإرسال رسالة في الموضوع إلى الباشا من طرف شيخ العرب محمد بن بولخرص بالاتفاق مع الشيخ "أحمد بلحاج" حارس ضريح "سيدي عقبة"، ومن بين ما جاء في الرسالة: "وللحفاظ على الهدوء والأمن يجب الأمر بقتل الشيخ ذباح ونعدك بسلخ جلده وإرساله إليك مليئا بالدنانير الذهبية (السلطاني)".[1]

إلا أن الباشا حول الرسالة إلى الباي المملوك للتصرف على ضوء معرفته بابايلكه، فاتجه الباي بالرسالة إلى صديقه "ذباح" الذي ثار لهذا العمل وأمر أخاه سعيد بقتل "أحمد بلحاج"، ويقال أن الشيخ "ذباح" توفي بعد ذلك بقليل وأوصى بتوليه ابن أخيه "فرحات بن سعيد" المشيخة لما كان له من شعبية بالمنطقة لفروسيته وقوة شخصيته،[2] وقد تم له ذلك سنة 1236هـ/1821م.

- **القطيعة بين الحاج أحمد باي و فرحات بن سعيد:**

تولى فرحات بن سعيد مشيخة العرب رسميا وعمليا من سنة (1236هـ/1821م) إلى (1241هـ/1826م) واستطاع السيطرة على الصحراء كحاكم مطلق عن مناطق نفوذه، ولم يستطع شيوخ أسرة ابن قانة إثبات

---

[1] Ibid, p329.

[2] اتفق جميع من عرف الشيخ "فرحات بن سعيد" على أنه كان أبرز شخصية عربية بالمنطقة فقال عنه الحاج أحمد باي، رغم عداوته له "أنه رجل بارود (رجل حروب) وصاحب ذراع (قوي) ولقد حاربني مدة سبع سنوات فكان في المعركة يقابل مائة وحده ويعتبر بوعزيز (ابن قانة) إلى جانبه امرأة". أنظر، مذكرات الحاج أحمد باي، ص 78. أما القائد الفرنسي *Commandant Saraka* يقال أنه شخصية فذة، فارس لا يسعد إلا بالقتال، ذو شجاعة خارقة، كريم، بسيط وطاهر السريرة، يذكرنا بالفاتحين المسلمين الأوائل، متواضع جدا ولا يهتم بأناقته، عكس ابن قانة، وإذا سئل عن ذلك قال أن اللباس الجميل من نصيب النساء أما حلية الرجل فتكمن في ساعده وكلمته". أنظر:
Féraud (ch): Idem, pp330-331.

وجودهم بالصحراء، رغم مناصرة القوات العثمانية وقبائل المخزن لهم. لكن بمجرد وصول الحاج أحمد إلى الحكم سنة (1241هـ/ 1826م) خرج أخواله من عزلتهم السياسية التي فرضتها عليهم قوة شيوخ أسرة بوعكاز.

وكان أول اتفاق أبرم بين الشيخ "محمد بن بولخراص بن قانة" وبين الباي, هو التعاون للقضاء على أسرة بوعكاز وحلفائها وخاصة أسرة "ابن زكري" التي كانت تحظى بمكانة إدارية وعسكرية هامة بقسنطينة. وكان ذلك شرطا أساسيا لابن قانة للتعاون مع الباي ومناصرته على أعدائه[1] وفعلا تم تقرب الشيخ ابن قانة، بنصيحة من الباي, من يحي آغا الذي أرسل من طرف باشا الجزائر للقضاء على عصيان قبيلة أولاد سلطان، ونال منه لقب شيخ العرب بعد مشاركته في الهجوم على هذه القبيلة وإلحاق الهزيمة بها.

وقبل وصول الباي إلى قسنطينة لتسلم منصبه وإلتحاق الشيخ "ابن قانة" به، علم أولاد بن زكري بنية الباي في القضاء عليهم ففروا إلى جبل شطابة للاحتماء بزاوية سيدي أحمد الزواوي لما كان لهذا المرابط من مكانة لدى الباي وأسرته[2] إلا أن الباي وحلفائه من أسرة ابن قانة لم يراعوا حرمة الزاوية وقضوا على جميع من التجأ إليها وبذلك تخلصت أسرة ابن قانة من أكبر حليف لمنافستها أسرة بوعكاز. كما قضى الباي على أسرة ابن نعمون وأسرة الأبيض وغيرهما من الأسر التي وقفت ضده وضد أخواله في عهد الباي إبراهيم القريتلي

[1] يقول الشيخ بوعزيز بن قانة أن اتفاقا تم سنة 1242هـ/1827م بين الحاج أحمد باي والشيخ "محمد بلحاج بن قانة" والشيخ بوعكاز بن عاشور "شيخ فرجيوة" و"عزالدين" شيخ زواغة لمحاربة أسرة ابن زكري وأتباعها، منهم أسرة ابن الأبيض وابن نعمون وجميعها أسر هامة ذات مناصب إدارية هامة بقسنطينة. أنظر:. Ben Gana (Bouaziz): op.cit, pp 34-35.

[2] تقول الروايات المحلية أن المرابط بشر محمد الشريف، والد الحاج أحمد، بميلاد ابن له وأنه سيصبح بايا على قسنطينة، وتبركا بهذا المرابط سمي الباي باسمه. أنظر:
Feraud (ch): Notes historique, in R.A, 1833, p334.

وقد علق الباحث فيرو على هذا العمل بقوله أن هذا الإجراء لم يكن إلا سياسة من الباي للقضاء على الأسر العريقة بقسنطينة لفسح المجال لبروز أسرة ابن قانة بالمدينة.[1]

بعد التخلص من هذه الأسر وجه الشيخ "محمد بن قانة" أنظار الباي، الذي كان في أمس الحاجة إلى دعم أخواله للقضاء على معارضيه وتثبيت حكمه بقسنطينة، إلى محاربة فرحات بن سعيد للتخلص منه نهائيا والانفراد بمشيخة العرب وفعلا شنّ الباي عدة حملات ضد "ابن سعيد" وكبده خسائر هامة، الأمر الذي جعله حسب *Féraud* دائما، لا ينضم إلى قواته عند إعلانه الجهاد ضد الحملة الفرنسية على الجزائر.[2]

أما بعد الاحتلال الفرنسي لمدينة الجزائر وإعلان معظم القبائل خروجها عن طاعة الباي واختيارها قادة محليين أطلقت عليهم اسم "باي العامة"، فإن العداء احتكم بين "فرحات بن سعيد" والحاج أحمد، فكان أول عمل للباي بعد رجوعه من الجزائر وإعلان نفسه باشا على الشرق الجزائري، هو الاتجاه إلى الصحراء للقضاء على "فرحات بن سعيد" ويقول الباي أن ذلك كان بنصيحة من شيخ العرب "بوعزيز بن قانة"[3] وأنه لم يكن يستطيع رفض أي طلب لأخواله لأنهم أصبحوا سنده الوحيد ضد المنشقين عنه في مختلف أنحاء البايلك وخاصة بعد الدور الذي لعبته أسرة ابن قانة في سبيل استرجاع الباي لحكمه بقسنطينة؛ إذ زيادة على المساعدات العسكرية التي وفرها الأسرة للباي للقضاء

---

1 Ibid, pp336-337.

2 Ibid, p338.

3 خلف أخاه "محمد بن قانة" الذي ثار على الباي لخلاف وقع بينهما وتم اغتياله على يد الباي سنة 1247هـ-1831م. عن الموضوع أنظر، العنتري (صالح): الفريدة المؤنسة، ص100-106.

على الثورة التي حيكت ضده من طرف الانكشارية[1] لعبت أمه، الحاجة رقية ابنة ابن قانة دورا فعالا بين زوجات أعيان مدينة قسنطينة لإقناع أزواجهن بالتمسك بإبنها حاكما على المدينة[2].

وفعلا تكون مجلس للعلماء والأعيان بالمدينة برئاسة شيخ الإسلام محمد الفكون وتقرر إبقاء الحاج أحمد حاكما على المدينة[3] وكان ذلك كافيا لالتفاف السكان حوله[4] والتعاون معه لمقاومة الغزو الفرنسي لقسنطينة. إلا أن الحاج أحمد باي لم يجد بأرياف البايلك ما وجده بمدينة قسنطينة من دعم؛ إذ استمر فرحات بن سعيد في عصيانه وكذلك عدد كبير من القبائل مثل أولاد عبد النور، السقنية، فرع بن القندوز من أسرة المقراني وأحرار الحنانشة. وأمام قوة فرحات بن سعيد وتخوف الشيخ "بوعزيز بن قانة" من مزاحمته على مشيخة العرب فإن أول عمل وجه إليه الباي هو العودة إلى محاربة فرحات بن سعيد بالجنوب. وقد استطاع "ابن قانة" لما له من نفوذ على الباي أن يحول أنظاره عن مقاومة الفرنسيين والاتجاه إلى الجنوب للقضاء على المنافس الخطير بدعوى أنه كان يهدد عاصمة البايلك أكثر من تهديد الفرنسيين لها.

وهو ما لم يكن يوافق عليه الباي إلا أنه كان مضطرا لتنفيذه لما لشيخ العرب عليه من نفوذ وهو ما أكده الباي في مذكراته بقوله أن اتفاقا تم بينه وبين قادته العسكريين على التمركز في طريق عنابة لقطع الطريق على الفرنسيين عند أي محاولة للوصول إلى قسنطينة، إلا أن "بوعزيز بن قانة" احتج على ذلك بشدة قائلا:"ماذا تريدون أن تفعلوا، تبتعدون عن بلدكم وتتوجهون نحو

---

[1] تجب الإشارة إلى أن ثورة قامت ضد الباي في قسنطينة من طرف عناصر الإنكشارية التي بقيت بالمدينة بعد ذهابه إلى مدينة الجزائر للمشاركة في صد الهجوم الفرنسي عليها وقد تزعم هذه الثورة محمود بن تشاكر.

[2] Feraud (Ch): Idem, p339. et Bengana (Bouaziz): Op.cit, p38.

[3] أنظر نص رسالة مجلس الجماعة بـــ: Bengana (Bouaziz): Op.cit , p39.

[4] العنتري (صالح): الفريدة المؤنسة، ص ص 89-90.

الشمال، إذن فأنتم لا تعلمون أن فرحات بن سعيد يقترب بسرعة من الزيبان. وفي الوقت الذي تحاولون فيه الدفاع عن قسنطينة، فإنكم تعرضون أنفسكم للطرد من منطقكم، ولذلك يجب أن نسرع إلى الصحراء ندخل عائلاتنا ومن اتبعنا إلى المدن ثم نخرج متحدين ضد العدو الذي نخشى هجومه أكثر. فالفرنسيون لن يتقدموا، بينما "فرحات" يزحف علينا ومن ثمة يجب أن نبدأ في محاربته، وبعد ذلك نوحد قوانا ونهاجم الفرنسيين"[1] ويضيف الباي قوله:"وأكرر لقد اتبعت رأي بوعزيز وكان ذلك هو مصابي الأعظم"[2].

اتبع الباي مشورة "بوعزيز" وهاجم "فرحات بن سعيد" ومن اتبعه بالصحراء وكان قد تحالف، لمحاربة الباي، معه كل من الباي إبراهيم القريتلي ومصطفى باي التيطري، الذي أعلن نفسه دايا على الجزائر، بعد سقوط حكم الداي حسين، وعين إبراهيم القريتلي بايا على قسنطينة إثر رفض الحاج أحمد الحكم باسمه. وحتى لا ندخل في تفاصيل هذه الأحداث والمعارك الطويلة التي خاضها الباي ضد فرحات بن سعيد وحلفائه يمكن الاكتفاء بما جاء في مذكرات الحاج أحمد نفسه عن الموضوع؛ إذ قال: "ولمحاربتي تحالف إبراهيم هذا مع فرحات بن سعيد شيخ العرب السابق الذي استبدلته مؤخرا بقريبي بوعزيز بن قانة وهكذا أراد مصطفى أن يثير ضدي طموح الأول الزائف وغيض الآخر المكين. وقام إبراهيم وفرحات بإعلان الحرب علي، فوجهت لهما بوعزيز وبعض الجند ثم انتقلت للقائهما شخصيا فهزمتهما هزيمة شنعاء وأرغمتهما على الفرار. أما فرحات فقد انسحب إلى أولاد جلال حيث راح يواصل معاداته لي، وظل يمارس نوعا من السلطة على قبائل وادي جدي وأما إبراهيم فإنه تمكن من

---

1 مذكرات الحاج أحمد باي، المصدر السابق، ص 77.

2 نفس المصدر، نفس الصفحة.

اللجوء إلى تونس".[1] ومن تونس عاد إبراهيم باي إلى عنابة حيث أعلن نفسه حاكما عليها[2].

بهذا يمكن تصور وضعية البايلك أثناء إعلان الحاج أحمد باي المقاومة ضد الفرنسيين وهي وضعية أصبحت تنبئ بالانهيار القريب للحكمين المركزي العثماني والأسري المحلي وقد عجل بهذا الانهيار لجوء الحكام المحليين ومنهم "فرحات بن سعيد" إلى التعاون مع القوات الفرنسية للقضاء على قوة الحاج أحمد, وهو ما فعله "فرحات بن سعيد" منذ سنة 1246هـ/1831م وكان ذلك سريا مع الدوق "دوروفيقوا"[3] ثم أصبحت مراسلاته علنية وكثيفة منذ سنة 1247هـ/1832م.[4]

وهنا يمكن أن نتساءل: هل كان تصرف "فرحات بن سعيد" خيانة للدين والوطن أم هو انتقام من الباي وحلفاءه ومحاولة لاسترجاع نفوذه بالصحراء؟ وما موقف أتباعه من هذه العلاقة الجديدة؟ ونعتقد أن لجوء "فرحات بن سعيد" إلى الفرنسيين لم يكن إلا طريقة للانتقام من الحاج أحمد وحليفه "ابن قانة" الذين ألحقا به العديد من الهزائم في العديد من المعارك أهمها معركة المشرية، معركة الهزيمة, معركة مراح الجازية ثم محاصرة قبيلة الزعاطشة ومعركة بسكرة وبادس،[5] وكانت سجالا بين الباي والشيخ "فرحات بن سعيد" وكان دور قوات الشيخ "بوعزيز بن قانة" في هذه المعارك هاما، ولم يكن الشيخ يهدف من

---

1 مذكرات الحاج أحمد باي: نفس المصدر, ص ص 25- 26.

2 العنترى (صالح): الفريدة المؤنسة, ص 96.

3 A.O.M, F80 N°167.

4 يضم أرشيف ما وراء البحار (A.O.M) بمدينة اكس أنبروفانس الفرنسية العديد من الرسائل التي تبادلها فرحات بن سعيد مع القادة الفرنسيين حول موضوع التعاون للقضاء على الباي الحاج أحمد باي.

5 حول هذه المعارك أنظر: Bengana (Bouaziz): Op.cit, P 40-52

تحالفه مع الفرنسيين سوى استرجاع مشيخة العرب من أسرة ابن قانة وجعلها وراثية في أبناء أسرته كما كانت منذ قرون طويلة.

ونعتقد أنه لو وجد قوة أخرى محلية لتوصله لهدفه لما التجأ إلى الفرنسيين والدليل على ذلك أنه تحالف مع الأمير عبد القادر بعد تردد الفرنسيين في التدخل بالمنطقة، وقد عينه الأمير خليفة له على الصحراء[1] إلا أن ذلك لم يدم طويلا؛ إذ بعد عودة "فرحات بن سعيد" للتعاون مع الفرنسيين واستعادة المشيخة منهم أعلن عليه الأمير عبد القادر الحرب وتم القبض عليه[2] وعين مكانه "الحسن بن عزوز".[3]

أما موقف أتباع الشيخ "فرحات بن سعيد" من تحالفه مع الفرنسيين فقد عبر عنه كل من "فرحات" نفسه وأخيه "باي بن سعيد" في رسائلهما إلى القادة الفرنسيين بقول الأول:" ونحن قد تعايرنا بك (الجنرال فالي *générale valée*) كثيرا لأنا (كذا) محسوبون عليك وعارنا عليك وقد تعايرنا ببعضنا بعضا وصارت الناس تعاير فينا وتقول لنا إلا أصحاب الرومي[4]"، ويقول الثاني "الناس كلها تعاير فينا وتحشم فينا"[5] وهذا ما يدل على فقدان أسرة بوعكاز لأتباعها والرأي العام بالصحراء بسبب موقفها الموالي للفرنسيين، وذلك عكس أسرة ابن قانة، وعلى رأسها شيخ العرب بوعزيز بن قانة، التي شاركت في مقاومة الفرنسيين إلى جانب الحاج أحمد باي والدفاع عن مدينة قسنطينة حتى تاريخ سقوطها 1253هـ/1837م.

---

1 مذكرات الحاج أحمد باي، المصدر نفسه، ص 80.

2 أرسل "باي بن سعيد" أخ " فرحات بن سعيد" الرسالة إلى الحاكم العام الفرنسي يعلمه بسجن أخيه فرحات ويطلب منه التدخل لدى الأمير عبد القادر لإطلاق سراحه.

3 تقرير من إسماعيل أورباني مؤرخ في 13 جوان 1844. (A.O.M, 1H4N° 399)

4 كلمة متداولة حتى اليوم في الأوساط الشعبية ويقصد بها غير المسلم (الكا فر) وعلى الأخص الفرنسي.

5 أنظر نص الرسالتين ضمن ملاحق الكتاب.

3°. الصراع بين شيوخ أسرة المقرا ني.

ذكرنا فيما سبق أن أسرة المقراني شكلت خطرا كبيرا على الحكم العثماني ببايلك قسنطينة، وأن الحكام والعثمانيين لم يتمكنوا من التدخل في أراضي الأسرة بالقوة، وخاصة في عهد حكامها الأقوياء، أمثال "عبد العزيز" (905-967هـ/1500-1559م)، و"أحمد أمقران" (967-1004هـ/1559-1596م)، إلاّ أن تولي الشيخ "ناصر بن أحمد أمقران" الحكم بعد وفاة والده، وقيام قبيلة بني عباس بقتله سنة 1008هـ/1600م، لإهماله الحياة الساسية والعسكرية للدولة واتجاهه إلى الحياة الدينية[1] مُنح بايات قسنطينة الفرصة المنتظرة للتدخل في شؤون الأسرة الداخلية والعمل على إضعافها عن طريق بث الشقاق بين أبنائها.

فبعد مقتل "ناصر بن أحمد أمقران" تفرق أبناءه الثلاثة "بتقة"، "محمد" و"بوتمزين". فر محمد أمقران بمساعدة أمه إلى بجاية حيث كون أسرة مرابطية، انتقلت بعد فترة قصيرة إلى "بني سيار" قرب جيجل، حيث استقرت نهائيا وكونت حلفا قويا مع حكام قسنطينة استمر حتى نهاية الحكم العثماني. ورحل "بوتمزين" إلى غرب الجزائر حيث كون أسرة صغيرة لم يكن لها نفوذ هام ببرج "كاشرو"، قرب مدينة وهران،[2] أما أكبرهم فهو "بتقة"[3] فحمل إلى مجانة، جنوب قلعة بني عبا س، من طرف قبيلة هاشم حرس الأسرة الخاص، حيث قامت برعايته ومساعدته على استرجاع حكم أسرته بالتعاون مع شيخ أولاد ماضي الذي صاهره وتحالف معه ضد العثمانيين.[4]

---

1 Féraud (ch): Bordj Bouariridj, In R.S.A.C, 1871-72, p231-236.

2 Rinn (Louis): Histoire de L'insurrection de 1871, p 13.

3 يقول الباحث فيرو أنه كان يدعى "إبن عتيقة" ثم أختصر الاسم إلى "بتقة" وذلك لأن أمه كانت زنجية.

أنظر: Féraud (ch): Bordj Bouariridj, Idem, p238.

4 استولى العثمانيون على حكم المنطقة بعد مقتل الشيخ "ناصر بن أحمد أمقران " .

وقد اغتنم الشيخ "بتقة بن ناصر" ثورة الشيخ أحمد بن السخري على العثمانيين 1046هـ/1637م[1] لينضم إليه ويلحق بالقوات العثمانية خسائر فادحة في موقعة قجال، قرب سطيف سنة 1047هـ/1638م،[2] وبذلك تمكن من السيطرة على منطقة مجانة حيث أعاد حكم أسرته. وانتقاما من قبيلة بني عباس التي قتلت والده "ناصر بن أحمد" أعلن الحرب ضد هذه القبيلة وحول مقر حكم الأسرة إلى مجانة، ورغم هزيمته لقبيلة بني عباس في عدة معارك وإعلانها عن الخضوع للشيخ "بتقة" فان هذا الأخير رفض العودة إلى قلعة بني عباس كما تخلص من لقب "سلطان بني عباس" مستبدلا إياه بلقب "شيخ مجانة" الذي احتفظ به جميع شيوخ الأسرة من بعده.

بقي الشيخ "بتقة بن ناصر" حاكما مطلقا على مجانة، مع اعترافه الاسمي بالحكم العثماني الذي لم يكن يتدخل في شؤون الأسرة الداخلية بمجانة والتي أصبحت إقطاعية خاصة بأسرة المقراني،[3] بل عمل الشيخ على توسيع نفوذ الأسرة نحو الجنوب، فشمل نفوذها الحضنة وأولاد نايل وأولاد ماضي أصهار الشيخ.

بعد وفاة الشيخ "بتقة" سنة 1090هـ/1680م، ورغم قوة خليفته وابنه الأكبر بوزيد،[4] بدأت متاعب أسرة المقراني والصراع بين أبنائها، فرغم حكمة الشيخ بوزيد الذي استطاع أن يحافظ لفترة على الوئام بين اخوته الثلاثة، "عبد الله"، "عبد العزيز" و"محمد" المدعو "القندوز"[5] بجعل الأول رجلا غنيا فمنحه كل الامتيازات المادية الممكنة حتى لا يزاحم اخوته في الحكم وفعلا تفرغ "عبد الله" لمواشيه وخليله وإقطاعاته الواسعة وابتعد عن السياسة، وأما "عزيز"

---

[1] حول هذه الثورة أنظر نهاية الفصل.

[2] Rinn (Louis) , Idem, p13.

[3] Féraud (Ch): Bordj Bouariridj .., p 239-242.

[4] هو الذي التقى به الرحالة الفرنسي (*Peyssonnel*) في سنة 1725م عند مروره بمجانة رفقة محلة الباي وأطلق عليه إسم السلطان "بوزيد *Sultan Bouzid*"

[5] **القندوز**: كلمة بربرية تعني العجل وتطلق على الابن الأصغر.

و"القندوز" فبقيا بالحكم مع أخيهما وكان الأول قائدا عسكريا ومستشارا خاصا، شغل منصب خليفة لأخيه بوزيد، والثاني عين قائدا على الحضنة حيث كان يقضي معظم أوقاته.

وقد كانت هذه الوضعية "للقندوز" السبب في ظهور نزاع حاد بين الاخوة، ولعل ذلك كان بتدخل من باي قسنطينة لما حصل بينه وبين الشيخ بوزيد من شقاق؛[1] إذ سرعان ما أعلن "القنذوز" استقلاله عن أخيه بوزيد معتمدا في ذلك على القوات التي كونها من أصهاره أولاد فاضل. وشن عدة حملات ضد أخيه إلا أن النصر كان حليف الشيخ "بوزيد" الذي سجن أخاه ووقف بحزم ضد بايات قسنطينة وضد كل محاولة للتدخل في شؤون أسرته.[2]

ومحافظة على تماسك الأسرة ووحدتها عفا الشيخ بوزيد عن أخيه إلا أنه أبقاه تحت مراقبته، بمجانة تفاديا لأية محاولة للثورة. بهذه السياسة تمكن الشيخ "بوزيد" من الحفاظ على قوة ووحدة الأسرة واستقلالها عن السلطة المركزية التي خضعت لشروطه ودفعت ما عليها من ضرائب للأسرة مقابل السماح لها بالمرور بمنطقة "البيبان" وهو ما عرف بضريبة "العسة" أو"الوعدة". وقد أعجب الرحالة الفرنسي بقوة هذا الشيخ الذي كان حسب قوله، مصدر رعب للقوات العثمانية التي كانت لا تجرأ على المساس بأي شيء من ممتلكات رعاياه، عكس ما كانت تفعله مع بقية القبائل، فكانت تبيت في العراء وتتحمل الجوع حتى تخرج من المنطقة وذلك خوفا من بطش زعيمها بوزيد.[3] كل هذا كان مصدر قلق وتذمر لبايات قسنطينة الذين كانوا ينتظرون الفرصة الملائمة للقضاء على قوة بوزيد وأسرته بالمنطقة، وجاءت هذه الفرصة بعد وفاة الشيخ بوزيد.

---

1 تشابك الشيخ بوزيد في العديد من المرات مع القوات العثمانية بمنطقة البيبان ورفض السماح لها بالمرور دون دفع الضريبة السنوية التي فرضها عليهم. أنظر: Féraud: Idem, pp 247-248.

2 Ibid, pp 250-251.

3 Peyssonnel et des fontaines: Op.cit , p292.

توفي الشيخ بوزيد حوالي سنة 1147هـ/1734م تاركا أربعة أبناء، "عبد ربه"، "الحاج"، "بورنان" و"عبد السلام"، وكانوا جميعا من أم واحدة، هي الحاجة زونية التي حرضت أبناءها على قتل خليفة الباي، الحاج بكير، لمحاولته إرغامها على الزواج منه أثناء رحلة الحج. وقد تحمس الأبناء الأربعة لتنفيذ طلب والدهم وتسنى لهم ذلك سنة 1149هـ/1737م، عند مرور الخليفة بمنطقة البيبان لحمل الدنوش إلى باشا الجزائر، إذ انقض عليه "بورنان" فقتله، وفي نفس اللحظة كان كل فارس من فرسان الأسرة يحمل سيفه في فرسان المحلة، وبذلك قُضي على معظم القوات العثمانية وفرت البقية عائدة إلى قسنطينة.[1]

وللانتقام من أولاد "بوزيد" وخاصة "بورنان" عمل باي قسنطينة "حسن بوحنك" على إثارة الفرع الثاني من أسرة المقراني وهو فرع "عزيز بن القندوز"، أبناء عمومة أولاد بوزيد فحرص "عزيز"، الذي كان يتحين الفرص للاستيلاء على حكم مجانة، على إعلان الحرب ضد أبناء عمه بوزيد. ولتسهيل مهمته عينه قائدا على أولاد ماضي، أتباع والده، فكون منهم قوة هامة هاجم بها مجانة، حيث وجد دعما قويا من الحامية التركية المستقرة بعين مجانة.

و من ناحية أخرى وحتى يتم إضعاف أبناء بوزيد, قام أعوان الباي ببث الشقاق بين الاخوة الثلاثة[2] الحاج، بورنان وعبد السلام, لفسح المجال أمام منافسهم "ابن القندوز" وتسهيل دخوله مجانة. وقد استغلوا، لتنفيذ ذلك، تنافس كل من بورنان وعبد السلام على زعامة قوات الأسرة وذلك بإبراز كل منهما قوته القتالية وفروسيته التي تؤهله إلى الزعامة، ورغم حكمة كبير الإخوة "الحاج" فان الشقاق بدأ يدب بين الأخوين وكاد أن يفجر الحرب بينهما لولا

---

[1] Feraud (Ch): Bordj Bouriridj... , p 253.

[2] ابتعد الابن الرابع وهو "عبد ربه" عن السياسة ليشتغل بالعلم، وقد خصص له إخوته 1/7 من قيمة الضرائب التي تجمع من المنطقة لتغطية نفقاته ونفقات أسرته. أنظر نفس المرجع, ص ص 251-252.

ظهور قوات ابن عمهم "ابن القندوز" وحلفائه العثمانيين على مشارف مجانة، الأمر الذي جعل الأخوين يتحدان تحت زعامة الحاج لضرب منافسهم.[1]

وجد "بورنان" فرصة لإثبات قوته وشجاعته أمام اخوته فهاجم ابن عمه وهزمه وعاد بالغنائم ليتقاسمها مع اخوته دون أن ينسى طموحه لحكم مجانة فعاد التنافس من جديد بين الطرفين، رغم تدخلات أخيهما "الحاج"، فراح كل واحد يجمع حوله الأتباع ويحاول فرض سيطرته على المنطقة على حساب الآخر. انتهز باي قسنطينة هذه الظروف المضطربة بمجانة لمهاجمة أسرة المقراني وطرد الإخوة الثلاثة منها، وجرد الباي حملة قوية على مجانة جعلت أفراد الأسرة الحاكمة يفرون منها، حيث التجأ بعضهم إلى الجبال القريبة من مجانة وآخرون إلى قلعة بني عباس والتحق البعض الآخر بالقبة، مقر فرع سيدي "مبارك بن ناصر" الذي استقر ببجاية ثم جيجل، ووصل بعضهم حتى ونوغة.[2]

- **استيلاء الأتراك العثمانيين على مجانة وتجريد أسرة المقراني من قوتها ونفوذها:**

بعد هزيمة أولاد بوزيد المقراني حوالي سنة 1153هـ/1740م تشتت الأسرة مدة تزيد عن 8 سنوات، تزعم البايات خلالها، وللمرة الثانية[3] منطقة "مجانة" فأعادوا بناء برج بوعريريج ووضعوا به حامية قوية تكونت من 300 انكشاري، وحتى لا يتركوا فرصة لأولاد بوزيد المقراني لإعادة بناء أسرتهم وتهديد الحكم المركزي من جديد، عمد الحكام العثمانيون على إبعاد "عزيز بن القندوز" عن مجانة وعينوه قائدا على أولاد ماضي، في حين عينوا على حكم مجانة شخصين غريبين عن المنطقة وهما "عيسى" و"ابن نور بولبانة" من أولاد فاضل.

---

[1] نفس المرجع, ص ص 254- 256.

[2] Feraud (ch): Idem, pp256-257.

[3] كانت المرة الأولى اثر مقتل ناصر بن أحمد أمقران سنة 1008هـ/1600م. أنظر:
Rinn Louis: Histoire de l'insurrection… , p14.

لم تتمكن أسرة المقراني، رغم محاولات شيوخها المتكررة، العودة إلى حكم "مجانة"، إلى أن تدخل مرابطو المنطقة، وهو المرابط "سيدي أحمد بن خليفة"، وعمل على توحيد كلمة الإخوة الثلاثة لاسترجاع سلطتهم على مجانة، كما عمل، بفضل نفوذه الروحي، على تدعيم قواهم بقوات جديدة من مختلف القبائل التابعة له. وتم الهجوم على المدينة، حيث كان القائد "بن نور" قد قتل شريكه "عيسى" وانفرد بالحكم, و لم تكن مقاومته شديدة لشيوخ أسرة المقراني الذين تمكنوا من الاستيلاء على المدينة وقتل حاكمها بعين البرج. كما تمت هزيمة الحامية التركية ببرج بوعريريج وهدم البرج مرة أخرى. وقد حمل الشيخ "الحاج بن بوزيد" من بقي من القوات التركية رسالة الى باشا الجزائر، يطلب منه فيها أمر بايات قسنطينة باحترام استقلال الأسرة وعدم التدخل في أرضيها مرة أخرى، وكان له ذلك.[1]

- **عودة الصراع بين شيوخ أسرة المقراني:**

بعد عودهم إلى حكم مجانة حوالي سنة 1161هـ/1748م، تقاسم أولاد بوزيد حكم المنطقة، فتولى "بورنان" حكم مجانة وتولى عبد السلام حكم الحضنة وكان الاثنان تحت زعامة، أخيهما "سي الحاج"، الذي استطاع بحكمته أن يحافظ على تماسك الأسرة، رغم ما كان بين الأخوين من مناوشات. وقد فشل بايات قسنطينة في اخضاعهم ولم يجدوا غير طريق التقرب من شيوخ الأسرة عن طريق المصاهرة وارسال قفطان التعيين لهم قصد ربطهم اسميا بالسلطة المركزية[2] عاد "بورنان"، في هذه الفترة إلى محاربة أولاد ماضي وعلى رأسهم ابن عمه "عزيز بن القندوز" فأخضعهم وتم له القبض على ابن عمه. وكان الرحالة الفرنسي *Desfontaine* قد مر بمجانة في هذه الفترة،

[1] بعد هذه الواقعة تم اعفاء كل من قبيلة هاشم وبني عباس المخزنيتين التابعتين لأسرة المقراني من الضريبة. أنظر: Rinn (Louis) , l' insurection.., p14.

[2] Feraud (ch): Bordj Bouariridj..., pp250-256.

1196هـ/1782م، فكتب يقول: "إن شيخ مجانة شريف من أسرة عريقة وعرب المنطقة أغنياء وشجعان،استفادوا من مناعة جبالهم للاستقلال عن سلطة الباي، وقد حطموا الحصن الذي بناه، الأتراك وكان زعيمهم "بورنان" في حروب ضد باشا الجزائر من جهة وفي نزاع مع شيخ آخر من الأسرة يدعى "ابن القندوز" من جهة أخرى".[1]

بعد فترة طويلة في الحروب ضد العثمانيين تارة والمنشقين عنه تارة أخرى, قُتل بورنان من طرف أحد أفراد قبيلة أولاد ماضي سنة 1197هـ/1783م تاركا 5 أبناء: أحمد، علي، عبد الله، بوزيد والونوغي. قام برعايتهم عمهم "الحاج"، إلا أنه سرعان ما اضطر لطردهم من مجانة لما كانوا يقومون به من مفاسد وسط السكان، فلتجأوا إلى قبائل جرجرة حيث تفرغوا لأعمال الشغب وقطع الطريق على المارة.

وكان عمهم "الحاج"، خوفا من تعدي أبناء أخيه على المحلة التركية، يترأس قبيلة هاشم المخزنية لحراسة الحامية عند مرورها بمنطقة البيبان، خاصة وأن حمية أمن المحلة كان من أهم مسؤوليات شيخ أسرة المقراني تجاه السلطة المركزية، وفي إحدى خرجاته لإنجاز هذه المهمة 1204هـ/1790م اعترضه أحد أبناء أخيه وأكثر الاخوة عداوة للشيخ "الحاج" وهو "بوزيد" فقتل عمه قرب قرية "بوجليل" عند بني عباس في طريق عودته إلى مجانة[2] .

- **انقسام أسرة المقراني إلى عدة فروع متناحرة:**

بعد وفاة "الحاج" ازداد الصراع بين أفراد أسرة المقراني، إذ اضطر"عبد السلام" إلى محاربة أبناء أخيه "بورنان" الذين اتحدوا مع فرع "ابن القندوز" إلا أنه قتل بدوره من طرف هؤلاء. و لم يبق من أبناء بوزيد سوى "عبد ربه" الذي

---

[1] Peyssonnel et desfontaine: Op.cit, T2, p 212.
[2] Féraud (ch): Bordj Bouariridj ..., p 265.

خرج من عزلته، بعد وفاة اخوته الثلاثة، ووقف ضد أبناء أخيه "بورنان" مستعينا بابن أخيه "بوزيد بن الحاج" الذي كان يستعين بقبيلة هاشم القوية.

وبينما كان "بوزيد بن الحاج" في غزوة ضد قبيلة "ونوغة"، هاجم أبناء "بورنان" سهل مجانة وحاولوا الاستيلاء على أملاك عمهم الذي عاد إليهم ليشتبك معهم في معركة قتل فيها آخر أولاد بوزيد و لم يبق في ميدان الصراع غير "بوزيد بن الحاج" وأولاد "بورنان". وقد استطاع الأول أن يهزم أولاد بورنان العديد من المرات ويجبرهم سنة 1206هـ/ 1792م على الانسحاب نحو الجنوب وطاردهم حتى أولاد نايل بالجنوب الغربي للبايلك. من هنا التجأ هؤلاء إلى وادي ميزاب وبذلك تخلص بوزيد من منافستهم وتفرغ لمحاربة أولاد "بن القندوز" المنافسين التقليديين لفرع أولاد بوزيد.[1]

إنتهز الباي مصطفى الوزناجي (1209هـ/ 1794م) هذه الظروف لإضعاف سلطة الأسرة بمجانة فقسم الحكم بين الفروع المتناحرة:

1. أولاد الحاج.
2. أولاد عبد السلام .
3. أولاد القندوز.

في حين بقي أولاد بورنان في ثورة بالجنوب. وتأكيدا على تأييد الباي لهذا الصراع كان يرسل كل سنة ثلاثة قفاطن (برانيس التعيين) إلى الشيوخ الثلاثة، ومقابل ذلك كان يتلقى ثلاثة أضعاف ما كان يتلقاه من ضرائب من الأسرة، وبهذا كانت مصيبة أسرة المقراني فائدة لباي قسنطينة بزيادة موارده المالية من جراء هذا التقسيم. زاد هذا التقسيم الرسمي لأسرة المقراني من الصراع بين أبنائها، فكانت الحروب تندلع لأتفه الأسباب؛ إذ كان كل شيخ يرى في نفسه الحاكم الشرعي للأسرة ويضحي من أجل الاحتفاظ بمنصبه بما يملك من قدرة، وإن كان الوفاق النسبي يطبع علاقة "بوزيد بن الحاج" بابن عمه "ابن القندوز"

[1] Ibid, p267.

وحلفائهم أولاد "بورنان"، وكانت سياسة البايات تعمل دائما على تشجيع هذه الأحقاد بين الثلاثة حتى يسهل عليهم إخضاع الأسرة للسلطة المركزية.

بعد حروب متتالية[1] بين فروع الأسرة الثلاثة اضطر محمد بن عبد السلام وعبد الله بن بوزيد إلى مغادرة مجانة إلى منطقة "بوني" تاركين الحكم "لابن عزيز بن القندوز" يسانده أخواله من أولاد فاضل بالحضنة، وخوفا من اشتداد قبضته على مجانة وإعادة سيطرة الأسرة على غرب البايلك عمل بايات قسنطينة على إعلان الحرب ضد حليفهم السابق "ابن قندوز" وخاضوا معارك دامية إلى جانب المنشقين عنه ومنافسيه، ففي سنة 1213هـ/1799م عمل إنجليز باي على إدخال أولاد الحاج وأولاد عبد السلام من جديد إلى مجانة لمشاركة ابن القندوز في الحكم، وكان يهدف من سياسته هذه إلى ضرب حكم "ابن القندوز"، حليف الباي السابق،[2] وقد تسبب بذلك في نشوب عدة معارك بين "ابن القندوز"ومنافسيه، قتل في إحداهما الشيخ "بن عزيز بن القندوز" نفسه.[3]

بعد مقتل "بن القندوز" وصلت أسرة المقراني أقصى درجات الضعف؛ إذ انقسمت مرة أخرى إلى 3 فروع جديدة هي:

1°. فرع أولاد ابن القندوز ويتزعمه أحمد بن محمد بن القندوز.[4]

2°. فرع أولاد بورنان ويتزعمه محمد بن مسعود.[5]

3°. فرع أولاد الحاج وأولاد عبد السلام ويتزعمه عبد الله.[6]

---

[1] لم تتوقف الحروب بين أبناء أسرة المقراني منذ 1199هـ/1785م إلى 1246هـ/1830م ولم يتحد أبناءها إلا في فترة ثورة ابن الأحرش سنة 1219هـ/1804م؛ إذ اتحد الجميع ضد هذه الثورة. أنظر: Rinn (Louis): Histoire de l'insurrection, op.cit, p15.

[2] كان كل باي يناصر المنافسين للشيخ الشرعي الذي يكون عادة على وفاق مع الباي السابق.

[3] Féraud (ch): Bordj Bouariridj, p270.

[4] كانت خيامهم تتكون من 192 خيمة وتقع على بعد 100 كلم جنوب مجانة.

[5] كانوا في ترحال مستمر بين مجانة والجنوب.

[6] كان دوارهم يتكون من 80 خيمة في حجر جعفر بمجانة.

ولضعف حكام الفروع الثلاثة تمكنت السلطة المركزية من الهيمنة على الشيوخ الثلاثة وجعلت الأسرة في خدمة البايات المتعاقبين على حكم قسنطينة، ولذلك كانت الأسرة بفروعها الثلاثة متحدة مع الباي عثمان في مقاومته لثورة إبن الأحرش (1219هـ/1804م)، وقد قتل الشيخ عبد الله زعيم فرع أولاد الحاج في المعركة التي خاضها الباي ضد هذا الثائر وكذلك عدد من فرسانه[1].

رغم إخلاص الأسرة للبايات في نهاية العهد العثماني لم تتغير سياسة هؤلاء تجاه شيوخها فعين "ابن قندوز" بعد مقتل "عبد الله" حاكما عاما للمنطقة، الأمر الذي أثار من جديد كل من أولاد الحاج وأولاد عبد السلام، وأمام تدهور الوضع بمجانة طلب "ابن قندوز" من الباي التدخل بقواته لفرض الأمن بالمنطقة وهو ما كان ينتظره الباي لإعادة الحامية التركية ببرج بوعريريج، بعد أن هُدم حوالي سنة 1196هـ/1782م، ويقول الباحث الفرنسي ***Féraud***، استنادا إلى الروايات المحلية أن الباي أرسل فعلا خليفته ليعسكر بالبرج قرب مجانة لمراقبة الوضع ومساندة كل فرع ضعيف ضد القوي حتى لا يعاد بناء قوة الأسرة من جديد وحسب نفس المصدر فإن الخليفة كان يتدخل عن طريق جواسيسه لبث الشقاق بين "أحمد بن القندوز" وأولاد الحاج وحلفائهم أولاد عبد السلام، فكان يحرض كل طرف على محاربة الآخر،[2] وفعلا تم هجوم أولاد الحاج وأولاد عبد السلام على زمالة "ابن القندوز" فجأة وقتل الشيخ وإخوته، وبذلك انفرد أولاد الحاج وعبد السلام بالحكم في مجانة.

---

[1] Feraud (Ch): Bordj Bouariridj …, p274.

[2] تقول الروايات أن الخليفة حرض "أحمد بن القندوز" على الوشاية بأولاد الحاج لدى باي قسنطينة واتهامهم بمحاولة العصيان حتى يقوم الباي بإبادتهم وكان ثمن هذه النصيحة 5000 فرنك أخذها الخليفة من الشيخ، وفي نفس الوقت قام بإخبار أولاد عبد السلام والحاج بالخطة التي رسمها لهم الشيخ "ابن القندوز" ونصحهم بالهجوم على منافسهم. أنظر: Feraud (Ch) Idem , pp275-277.

بعد هذا ونتيجة للتقلبات التي كانت تشهدها السلطة المركزية عرفت منطقة مجانة فوضى واضطرابات عكست الفوضى التي سادت الحكم المركزي بقسنطينة، في نهاية الحكم العثماني؛ إذ كان كل باي يعين على مجانة شيخا يرى فيه التابع الوفي، وما أن يخلع من منصبه حتى يأتي غيره فيعين على مجانة شيخا آخر منافسا للأول وبذلك كان تقلب الشيوخ بمجانة يساير تقلب البايات بقسنطينة.

نتيجة لهذه السياسة استمرت الحروب بين فروع الأسرة المتصارعة وبينها وبين القوات العثمانية القريبة من المنطقة لتدخلها في كل مرة ضد فرع من الفروع. كما أن هذه السياسة جعلت من ناحية أخرى، شيوخ الأسرة يتملقون لكل باي جديد فيرسلون له الهدايا الثمينة، ويعترفون بحكمه مقابل وعوده لهم بالمساندة ضد منافسيهم من الشيوخ، وهو ما فعله "الحاج بن عبد السلام" للتقرب من الباي نعمان الذي خلف طوبال باي؛ إذ أسرع الشيخ إلى الباي الجديد لتهنئته في طريقه من الجزائر إلى قسنطينة وشرح له وضعية أسرته التي تشتتت بسبب سياسة من سبقه من البايات، وبذلك كسب صداقة الباي وتأييده ضد فرعي "أولاد بورنان" و"أولاد إبن القندوز" ووضعه حاكما مطلقا على مجانة في حين إنسحب الفرعان الآخران إلى المسيلة وضواحيها معلنين الثورة على الباي وحلفائه[1]

- **القضاء على أولاد بورنان:**

قام "أولاد بورنان"، بتحريض من تشاكر باي، بمهاجمة الحامية التركية والتسبب في قتل نعمان باي، وذلك مقابل وعود من تشاكر باي لمساندتهم لاسترجاع حكم مجانة، إلا أنه بعد استيلائه على حكم قسنطينة تنكر لحلفائه وخاصة بعد أن أمره الداي بالانتقام من "أولاد بورنان" لتعديهم على الحامية، ولم يكن لتشاكر باي غير الخضوع لأوامر الباشا والعمل على تنفيذها ولتنفيذ الأمر أرسل الباي إلى شيوخ "أولاد بورنان" يبشرهم بتوليته على رأس البايلك

[1] أنظر تفاصيل الصراع بين فروع الأسرة بـــ: Feraud (Ch) , Idem P 279-282.

واستعداده لتنفيذ وعده لهم بتوليتهم على مشيخة مجانة فأقام هؤلاء الاحتفالات وأعلن شيخهم، محمد بن مسعود نفسه حاكما عاما للأسرة، إلا أنه لم يمض وقت طويل على ذلك حتى وصلهم تشاكر باي في بداية سنة 1230هـ/1815م، في طريقه إلى أولاد ماضي الثائرين ضد الحكم العثماني، فدعا إليه جميع كبار الأسرة الذين وصلوا إليه ببرج بوعريريج وفي اعتقادهم أنه سيخبرهم بقرار تعيينهم حكاما على مجانة، وكان أول من دخل خيمة الباي هو شيخ الفرع محمد بن مسعود وكان بذلك أول من قطعت رأسه ورغم فرار بعض رجال الأسرة إلا أنه قتل منهم الكثير أمام خيمة الباي وأرسلت رؤوسهم إلى قسنطينة كدليل على تنفيذ الباي لأوامر الباشا[1].

أثارت هذه المجزرة استنكار وكراهية جميع فروع أسرة المقراني للباي تشاكر وقرروا الإتحاد للانتقام من الحكام العثمانيين فأخذوا يحرضون القبائل على الثورة ضد الحكم العثماني وفعلا قامت العديد من الثورات بالمنطقة وألحق بالباي العديد من الهزائم أهمها هزيمة "شرشار" التي لقي فيها الباي خسائر بشرية هامة حتى سميت المنطقة بـ "أم الريصان"،[2] إشارة إلى ارتفاع عدد الرؤوس التي سقطت بها وتكررت هزائم الباي حتى سنة 1232هـ/1817م، حيث تمت هزيمته على يد "أولاد بن القندوز" بمنطقة أولاد ماضي وكانت سببا في خلعه من منصبه.[3]

- **القضاء على أولاد بن القندوز:**

تعاقب على حكم قسنطينة بعد تشاكر باي 3 بايات في نفس السنة (1233هـ/1818م) وهو ما يدل على تدهور الحكم المركزي بقسنطينة وقد

---

[1] يقول *Féraud*، نفس المصدر، ص287، أن عدد القتلى كان 8 من خيرة رجال أولاد بورنان، في حين يقول *Vayssette*، المصدر السابق ص 321-323، أن عدد القتلى 12 ذوادي مع خدمهم قتلوا جميعا و لم ينج منهم أحد.

[2] Mouloud Gaid: Chronique des beys, pp70-71.

[3] Feraud (Ch): Bordj Bouariridj, p 289.

قابل ذلك تدهور في الحكم الأسري إذ أعيد تقسيم حكم الأسرة إلى فرعين بعد القضاء على فرع "بورنان" وهما:

1. فرع أولاد الحاج بزعامتين:
   أ- ابن عبد الله بن الحاج.
   ب- الحاج محمد بن عبد السلام .

2. فرع أولاد بن القندوز بزعامتين:
   أ- محمد بن القندوز .
   ب- دحمان بن القندوز[1].

وكان الفرعان يعانيان من نفس الضعف نتيجة للإرهاق الحربي الذي تعرضا له طوال الفترة الأولى من القرن الثالث الهجري (19م)، وخاصة بعد محاولة كل فرع الاعتماد على بايات قسنطينة لتثبيت سلطته؛[2] إذ لم يكن البايات الذين تعاقبوا على حكم قسنطينة بعد تشاكر باي أقل منه حقدا على أسرة المقراني وخوفا من عودة القوة لها، ومن هؤلاء الباي محمد الميلي (1233هـ/1818م) الذي خطط للتخلص من أولاد الحاج بالتآمر عليهم مع "دحمان بن القندوز" إلا أنه لم ينجح وخاصة بعد اتصال هؤلاء بالباش آغا وتوسيطه لتثبيت حكمهم، وقد عمل الباي بعد انقلابه على حليفه الأول "دحمان بن القندوز" على التخلص من متابعته له ومطالبته بتنفيذ وعده له بتمكينه من حكم مجانة، فدعا كل من فرع "أولاد الحاج" و"أولاد ابن القندوز" للتخلص منهم معا إلا أن "أولاد الحاج" رفضوا الدعوة في حين قدم "أولاد القندوز" إلى معسكر الباي وهناك انتهت الوليمة بمجزرة رهيبة لم ينج منها أحد

---

1 أنظر نفس المرجع، ص 291.

2 يقول الباحث الفرنسي ***Féraud***، اعتمادا على الروايات المحلية أن دار الباي بقسنطينة أصبحت تشهد كل يوم زيارة شيخ من شيوخ الأسرة المتنازعين على السلطة التي أصبحت في هذه الفترة واهية. أنظر، نفس المرجع، ص 292.

من رجال إبن القندوز، وبذلك قضي على أهم عناصر الفرع وكان ذلك حوالي سنة 1234هـ/1819م[1].

بعد هذه المجزرة انعدمت الثقة بين أسرة المقراني والحكام العثمانيين وساد النفاق علاقة الشيوخ بالبايات، وسرعان ما عمت الثورات المنطقة شملت جميع قبائل وادي الساحل ووصلت حتى بجاية حيث ضربت جميع العناصر العثمانية وحتى الدينية، منها قيام الثوار بخطف المفتي الحنفي، وهذا حسب ما جاء في مذكرات القنصل الأمريكي "وليام شالر" إذ قال: "22 أكتوبر 1823م وردت إلينا الأخبار يوم أمس تقول بأن القبائل الذين يسكنون الجبال، جبال بجاية أعلنوا ثورة على حكومة الولاية، وقد قتل في المعارك التي وقعت بين الثوار وقوات الحكومة عدد من الأشخاص، وأسر المفتي التركي وأخذ رهينة وأقتيد إلى الجبال..."[2] ويبدو أن الضربة كانت قاسية على الحكام العثمانيين الأمر الذي جعل باشا الجزائر (الداي حسين) ينتقم من جميع العناصر البربرية (القبائلية) النازحة من هذه المناطق للعمل في الجزائر ووصل ذلك حتى العناصر العاملة بالقناصل الأجنبية[3]

- **مصير أسرة المقراني في ظل حكم حفيدها وصهرها الحاج أحمد باي:**

بقي حكم مجانة بعد القضاء على أولاد بن القندوز في يد أولاد الحاج وإن عاد كل من "أولاد بورنان" و"أولاد بن القندوز" إلى مزاحمتهم على الحكم واشتبكوا معهم في عدة معارك أهمها سنة 1239هـ/1824م، إلا أنهم كانوا ينهزمون في كل مرة بسبب قوة فرع أولاد الحاج المدعمين بقبيلة هاشم العسكرية من جهة والحامية التركية من جهة أخرى، وبذلك حافظ أولاد الحاج على حكمهم حتى مجيء حفيدهم الحاج أحمد إلى قسنطينة سنة

[1] حول تفاصيل الموضوع أنظر فيرو، نفس المرجع، ص 296-298.

[2] وليام شالر: مذكرات، المصدر السابق، ص193.

[3] نفس المصدر، ص ص 193-194.

1241هـ/1826م، وقد استبشرت الأسرة خيرا بذلك الحدث لما بينها وبين الباي الجديد من قرابه[1] إلا أن فرحتهم لم تدم طويلا؛ إذ كان أول عمل قام به الباي هو القبض على ثلاثة من أهم عناصر الأسرة من الفروع الثلاثة المتشاجرة باعتبارهم أخطر العناصر المهددة للأمن بالمنطقة وهم: الحاج محمد بن عبد السلام، سي الباي الونوغي من فرع بورنان وصالح بن القندوز، ورغم إحتجاج الأسرة على ذلك العمل من قبل قريبها، أصر الباي على سجن الشيوخ الثلاثة لإثبات قوته وحزمه أمام باشا الجزائر.

ولم يطلق سراح محمد بن عبد السلام إلا بعد تدخل والدته الحاجة رقية وزوجته عيشوش، ابنة السجين، في حين حكم على الونوغي وصالح بن القندوز بالموت، وهو ما أشعل نار الثورة من جديد في أوساط أتباع "أولاد بن القندوز" وقد اضطر الباي إلى مهاجمتهم عدة مرات هُزم في العديد منها إلا أن الضعف دب في أوساط الفرعيين فانسحبا إلى الأوراس وبذلك خلا الجو لأولاد عبد السلام وأولاد الحاج بمجانة، إلا أن هذا لم يمنع نشوب صراع بين هذين الفرعين بسبب بعض الامتيازات المادية،[2] واستمر الوضع كذلك، رغم تدخل الباي للمصالحة بين الطرفين حتى الحملة الفرنسية على الجزائر 1245هـ/1830م حيث نسي الجميع خلافاتهم واتحدوا مع الباي للمشاركة في صد الهجوم الفرنسي على الجزائر وقد أكدت المصادر الفرنسية نفسها أن مشاركة أسرة المقراني كانت هامة وأن دور فرسانها كان بارزا في معارك "سيدي فرج" بالجزائر[3].

---

[1] كانت زوجة الباي أحمد القلي، من أسرة المقراني وكذلك زوجة الحاج أحمد نفسه، وهي عيشوش ابنة بن عبد السلام المقراني. أنظر عنصر المصاهرة بالفصل الثالث من الكتاب.

[2] أنظر حول الموضوع: Féraud (ch): Borrdj Bouriridj, op.cit, pp301-302.

[3] Ibid, p 303.

بعد انهزام الجيش العثماني أمام القوات الفرنسية وانسحاب الباي إلى قسنطينة عادت الصراعات من جديد بين شيوخ أسرة المقراني وحاول كل فرع الاستقلال عن السلطة المركزية وخاصة فرعي "إبن القندوز" و"بورنان" الذين تحالفا مع قبائل أولاد عبد النور والسقنية وريغة والتلاغمة وغيرها من القبائل المعارضة للحاج أحمد باي، وأعلنوا الثورة عليه، إلا أن هذا الأخير تمكن من ضرب القبائل بعضها ببعض وخرج من المعركة منتصرا وإنتهى الأمر بإبعاد أولاد "بن القندوز" عن المنطقة وإنفراد أولاد الحاج بالحكم وكان أبرزهم آنذاك أحمد المقراني[1] الذي عينه الباي حاكما مطلقا على مجانة بعد أن توفي شيخها ابن عبد الله المقراني، فكان خير عون للحاج أحمد في مقاومته للفرنسيين في حين أعلن محمد بن عبد السلام العايب استعداده للتعاون مع الفرنسيين انتقاما من الحاج أحمد، وبذلك كانت المصلحة الشخصية للشيوخ هي التي توجه مواقفهم من الأحداث.

4°. الصراع بين سلاطين بني جلاب.

- **بداية الصراع:**

كما ذكرنا سابقا، فإن أسرة بني جلاب، حكام تقرت كانت تشكل حلفا قويا مع أسرة بوعكاز الذواودة، وقد تمتن ذلك الحلف بعلاقة المصاهرة التي ربطت الأسرتين منذ بداية حكم بني جلاب،[2] وهو ما أقحم كل أسرة في مشاكل الأخرى وأول مشكل أقحم فيه سلاطين بني جلاب هو صراع أسرة بوعكاز وأتباعها مع الأميرة "أم هاني"،[3] إذ كان سلطان تقرت في هذه الفترة[4]

---

1 هو والد الباشا محمد المقراني زعيم ثورة 1871م.

2 أنظر الفصل الأول من الكتاب.

3 عن ثورة هذه الأميرة، أنظر الفصل الثالث من الكتاب.

4 هو الحاكم الثالث عشر من بني جلاب ويحمل اسم جده "سليمان". أنظر شجرة نسب الأسرة الفصل الأول، ص 79.

(حوالي1077هـ/1666م)، متزوجا من ابنة القيدوم بن السخرى، زوج أم هاني الأول، وكان ذلك سببا قويا لدخوله في حرب خاسرة إلى جانب أصهاره ضد الثائرة "أم هاني" التي هزمته عدة مرات، وللخروج من مأزقه طلب مصاهرتها، بالزواج من إحدى بناتها، ابنة عم زوجته، وللإيقاع به تظاهرت أم هاني بالموافقة وعند قدومه إليها بمهر الخطيبة قام رجالها بقتله وإرسال جثته إلى أهله بتقرت وبذلك قام الصراع بين بني جلاب وأتباع "أم هاني".

قام "محمد بن سليمان" إبن الضحية وخليفته في الحكم، على رأس قبيلة أولاد مولات، قبيلة الأسرة المخزنية، للثأر لأبيه من أم هاني وأتباعها إلا أنه هزم عدة مرات أهمها هزيمته بالقرب من "مقارين" شمال تقرت، و لم تكتف أم هاني بهزيمة "سلطان بني جلاب" في هذه الموقعة بل هاجمت تقرت نفسها واستولت على الحكم بها بعد قتل سلطانها[1]. ولم تستقل "الأميرة أم هاني" بتقرت بل عينت عليها أحد أبناء عمومة بني جلاب وهو "محمد الأكحل" الذي كان يستقر "بتامسين"، إلا أن هذا السلطان الجديد لم يكن أهلا للحكم فحول قصر تقرت إلى مقر لهو ومجون، فركدت الحياة السياسية والثقافية بالمنطقة، ورغم ذلك بقي على رأس السلطة طوال فترة سيطرة أم هاني على الصحراء وحمايتها لحكمه.[2]

بعد بلوغ "فرحات بن رجراجة"، إبن أحمد بن السخري زوج أم هاني والذي فر من مجزرة أم هاني إلى "سيدي عقبة" إثر ثورة هذه الأخيرة[3]، سن الرشد أعلن الحرب على زوجة أبيه وتم له النصر عليها بعد عدة معارك، وقد استعان في حروبه بالحرس الخاص لأسرة بني جلاب، وهي قبيلة أولاد مولات وكمكافأة لهم أعانهم على الإطاحة بالسلطان الماجن "محمد الأكحل" فهاجموا

[1] حول تفاصيل الموضوع أنظر: Féraud (ch): Les Benidjellebes sultans de Tougourt, R.A, 1879, p351-360.
[2] Ibid, p 352.
[3] حول الموضوع أنظر الفصل الثالث من الكتاب.

تقرت وتم قتل السلطان داخل قصره وعين مكانه "أحمد بن محمد بن سليمان" الذي كان في حالة فرار بمنطقة سوف[1].

بمجرد تعيين "أحمد بن محمد بن سليمان" حوالي سنة (1136هـ/ 1723م) على رأس الحكم بتقرت ظهر نزاع حاد بينه وبين أخويه، فرحات وإبراهيم وبذلك كانت بداية الصراع بين "سلاطين بني جلاب" و لم يهدأ هذا الصراع حتى نهاية الحكم العثماني. وانتهى صراع الإخوة باستيلاء "إبراهيم بن محمد" على الحكم إلا أن ذهابه لأداء فريضة الحج[2] ووفاته بالأراضي المقدسة، حوالي سنة 1137هـ/1724م نقل الحكم إلى إبنه "عبد القادر" الذي استطاع أن يفرض سلطته على المنطقة وينشر الأمن طوال فترة حكمه (1137-1144هـ/1724-1731) بفضل مساندة قبائل الطرود من منطقة وادي سوف.
بعد وفاة "عبد القادر" تولى كفالة أبنائه الخمسة أخوه أحمد بن إبراهيم وكان أهمهم عمر ومحمد ابني "سعدية" ابنة شيخ العرب علي بوعكاز ونتيجة لتمسك الشيخ أحمد بن إبراهيم بالحكم حتى بعد بلوغ أبناء أخيه سن الرشد، تدخل خال هؤلاء وهو فرحات بن بوعكاز وفرض أحد أبناء أخته "عمر بن عبد القادر" بالقوة على حكم تقرت في حين فر أحمد بن إبراهيم إلى وادي سوف حيث جمع العديد من الأنصار حوله، وبذلك انقسمت الأسرة إلى صفين صف بتقرت وآخر بأرياف السلطنة (وادي سوف)[3].

- **تدخل "بوعزيز" شيخ أحرار الحنانشة في الصراع:**

من وادي سوف اتصل الشيخ أحمد بن إبراهيم بالشيخ بوعزيز شيخ أحرار الحنانشة واقترح عليه مساعدته على استرداد حكم تقرت من أبناء أخيه مقابل 5000 ريال و200 جمل و400 حايك (غطاء صوفي) و600 حمولة تمر، فقبل

---

[1] Feraud (ch): Le Sahara de Constantine, p 44-47.
[2] كان من عادة حكام تقرت أن يقوموا بأداء فريضة الحج في أول سنة يعينون فيها على رأس الحكم.
[3] Féraud: Idem, pp 52-53.

"بوعزيز" العرض وتحرك بقواته إلى الصحراء لمناصرة الشيخ "أحمد بن إبراهيم" إلا أن "عمر بن عبد القادر" حاكم تقرت، اتصل بشيخ الحنانشة وأغراه بمبالغ مالية أكبر مما عرض عليه منافسه وبذلك تحول "بوعزيز" عن حليفه الأول ليقف مع الشيخ "عمر بن عبد القادر" وخاله "فرحات بن بوعكاز" وبذلك تحول النصر إلى حاكم تقرت[1] إلا أن التجاء هذا الأخير إلى قوات الحنانشة أثار غضب القبيلة المخزنية "أولاد مولات" التي تحولت للتحالف مع الشيخ "أحمد بن إبراهيم" بسوف وبذلك خسر حاكم تقرت أهم قوة لديه، و لم ينته الصراع بين الشيخ "أحمد بن إبراهيم" والشيخ "عمر بن بلقاسم" إلا بعد وفاة الأول سنة (1151هـ/1739م) حيث خلا الجو بعد ذلك للشيخ عمر الذي حكم مدة تزيد عن 17 سنة (1739-1756م) لم تشهد فيها المنطقة مشاكل تذكر باستثناء الصراع الذي قام في نهاية عهده بين أخويه "أحمد" و"علي بلعباس" وللقضاء على ذلك الصراع قام الشيخ بقتل أخويه معا سنة (1169هـ/1756م) وفي نفس السنة توفي الشيخ عمر بن بلقاسم وبذلك فتح الصراع من جديد بين أبنائه.

خلف الشيخ "عمر بن عبد القادر" على حكم تقرت ابنه "محمد" الذي توجه على عادة سلاطين بني جلاب، إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج تاركا مكانه لابنه "عمران" الذي قتل بعد 9 أشهر من الحكم أثناء قيامه بمحاربة المنشقين بسوف، وكادت الحرب أن تقضي على حكم تقرت لولا عودة السلطان محمد من البقاع المقدسة فأعاد الهدوء من جديد إلى المنطقة، إلا أن ذلك لم يدم إلا 5 سنوات فترة حكم "السلطان محمد" الذي توفي سنة 1179هـ/1765م فخلفه ابنه عمر الذي قتل بدوره بعد 5 أشهر في إحدى

---

[1] أنظر نفس المرجع، ص ص 55-56، وإبراهيم بن محمد الساسي العوامر: الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، تعليق: الجيلاني بن إبراهيم العوام، الجزائر، الدار التونسية للنشر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، تونس، 1977، ص 84 وما بعدها.

المعارك التي خاضها إلى جانب حليفه الشيخ "علي بوعكاز" ضد ثورة أسرتي الرحمانية والسلمية بمنطقة "سيدي خالد" وذلك سنة 1180هـ/1766م.[1]

ترك "عمر بن جلاب" ثلاثة أبناء : أحمد، عبد القادر، فرحات وكان الحكم من نصيب أكبرهم وهو "أحمد" إلا أنه توفي أثناء أدائه فريضة الحج فخلفه أخوه "عبد القادر" الذي حكم حتى سنة 1197هـ/ 1783م في سلام ثم خلفه أخوه الثالث "فرحات" ولم يحدث في فترة حكمه ما يعكر صفو الحياة بوادي ريغ حتى وصول صالح باي إلى المنطقة لفرض حكمه المباشر على تقرت وذلك سنة 1203هـ/1788م وقد دافع "فرحات بن عمر" عن مدينته بكل قوة مدعما من طرف معظم القبائل الصحراوية التابعة لأسرة بني جلاب وأسرة بوعكاز حلفاءهم الأوفياء، وقد ألحق بقوات الباي خسائر هامة قبل أن يتمكن من اخضاع المدينة للحكم المركزي بقسنطينة[2]

- **استيلاء أسرة ابن ڤانة على حكم تقرت:**

بعد استسلام "فرحات بن جلاب" لصالح باي بدأ هذا الأخير بالترتيب لافتكاك الحكم من أسرة بني جلاب ومنحه لحليفه "محمد بن ڤانة" الذي عين شيخا للعرب ببسكرة، وقد تمكن شيخ العرب من تقسيم أتباع بني جلاب بسوف إلى قسمين قسم أصبح يناصره، ويدفع له الضريبة وآخر بقي تابعا لفرحات بن جلاب، الأمر الذي جعل حاكم تقرت يهاجم سوف ويخوض ضد سكانه معارك طويلة لفرض سلطانه عليهم بالقوة، وقد تمكن من إخضاع عدد كبير منهم، إلا أن الباي وحليفه "ابن ڤانة" لم يتركا له الفرصة لإعادة توحيد

---

[1] Feraud: Les Beni Djellebs ..., R.A,1880, p 107.

[2] تقول المراجع أن الباي فشل في حملته الأولى على تقرت، وخسر العديد من أسلحته منها 3 مدافع من النحاس حولها أحد اليهود، إبن بريكة، بأمر من "السلطان فرحات" إلى أساور وزعت على نساء المقاتلين الذين شاركوا في الدفاع عن المدينة، كما صنع منها عملة تداولها السكان في ذلك الوقت عرفت بـ "سكة بن بريكة". نفس المرجع، ص111-112.

المنطقة تحت نفوذه فقاما بقتله غدرا عن طريق السم بعيدا عن عاصمته، في طريقه إلى سوف، وتم تعيين ابن عمه إبراهيم على حكم تقرت ثم أودع هو الآخر السجن مع بقية إخوته وعين مكانه "إبراهيم بن قانة" أخ "محمد بن قانة" شيخ العرب ثم "علي بن القيدوم بن قانة" إلا أن رفض السكان، كما سبق ذكره[1] لحكم أسرة إبن قانة[2] جعل الباي يعيد "إبراهيم بن جلاب" إلى حكمه إلا أنه أطلق في نفس الوقت سراح إخوته من السجن ليعودوا إلى الصحراء وينافسوا أخاهم على الحكم وبذلك يستمر الصراع بين أفراد الأسرة فلا تعود إلى قوتها الأولى.

- **تدخل فرحات بن سعيد آخر شيوخ العرب من أسرة بوعكاز في صراع أسرة بني جلاب:**

ترك سلطان تقرت القوى "فرحات بن جلاب" ابنا وبنتا هما: "الخازن" و"طاطا" ولصغر سن الخازن عند وفاة والده، اختار السكان إبن عمه "إبراهيم بن أحمد" حاكما على المدينة إلى حين بلوغ الخازن سن الرشد، إلا أن "إبراهيم" تمسك بحكم تقرت رغم مطالبة الخازن به ورغم منافسة إخوته له، وللتمكن من إسقاط حكمه تحالف "محمد بن أحمد" المنافس الأكبر للشيخ إبراهيم مع الخازن الذي كان يسانده صديقه وصهره "فرحات بن سعيد بن بوعكاز"[3] وقد زوده بقوات كبيرة من أتباعه الذواودة لاستعادة حكم أبيه بتقرت.

تم للحلفاء الثلاثة الانتصار على "إبراهيم بن جلاب" الذي فر إلى "سيدي خالد" وعين الخازن على رأس الحكم في تقرت، إلا أن ذلك الوضع لم يدم

---

[1] أنظر بداية هذا الفصل.

[2] يبدو أن حكم أسرة إبن قانة لتقرت لم يدم إلا سنة واحدة (1206-1207م /1791-1792م). أنظر رسالة ابراهيم بن قانة حاكم تقرت، ملحق رقم 5، نقلا عن:
Feraud (Ch): Les Ben djelleb , R.A, 1880, pp 12-13.

[3] كان "فرحات بن سعيد" صديق الطفولة للخازن وقد تزوج من أخته "طاطا".

طويلا حيث غدر "محمد بن عمر بن جلاب" بحليفه وقتله ثم استولى على الحكم بعده، وحتى يفرض حكمه المطلق أرسل إلى أخويه إبراهيم وعبد الرحمن بدعوى التفاوض معهما على الحكم وقام بقتلهما وبذلك انفرد بحكم المنطقة وكان ذلك سنة 1219هـ /1805م.[1]

بعد مقتل "الخازن بن فرحات" ثارت ثائرة صديقه "فرحات بن سعيد" الذي كان وراء وصوله إلى الحكم، فقام للثأر له، أو ربما لإشباع طموحه العسكري؛ إذ سبق وأن أشرنا إلى أن "فرحات بن سعيد" كان من أبرز فرسان المنطقة وكان جديرا بمنصب شيخ عرب الصحراء إلا أن عمه "محمد الذباح" بقي فترة طويلة يحتل ذلك المنصب لذا عمل "فرحات بن سعيد" على فرض وجوده بوادي ريغ عن طريق أعماله العسكرية مع أو ضد سلاطين بني جلاب وقد أشرنا في بداية هذا الفصل إلى اتفاق "فرحات بن سعيد" مع الباي أحمد المملوك للاستيلاء على حكم تقرت إلا أن الخطة فشلت بسبب تدخل زوجة عمه "الذباح".[2]

بعد وفاة "محمد بن جلاب" حوالي سنة 1238هـ/1822م، عاد الصراع من جديد بين أبنائه؛ إذ رغم قيام خليفته وابنه "عمر بن محمد" بسجن إخوته الثلاثة تجنبا للصراع بينهم، استطاع أحدهم، وهو "أحمد بن محمد" أن يفر من سجنه إلى تامسين ومنها اتصل بفرحات بن سعيد، الذي أصبح آنذاك شيخا للعرب، بعد وفاة عمه "ذباح" واتفق الاثنان على محاربة "عمر بن محمد" ودارت بين الطرفين معارك دامية لم يتمكن "فرحات بن سعيد" وحليفه الانتصار فيها على منافسهما وعاد كل طرف إلى منطقته في انتظار الفرصة المناسبة لإعادة الهجوم على تقرت، إلا أن الظروف لم تكن مواتية للمزيد من الهجومات وخاصة بعد وصول الحاج أحمد باي إلى الحكم 1241هـ/1826م

---

1 Feraud (CH) , Le Sahara de Constantine, p 76-80.

2 أنظر بداية الفصل.

وأخذه مشيخة العرب رسميا من "فرحات بن سعيد"، الأمر الذي جعل حروب هذا الأخير تتحول ضد الباي وحليفه إبن قانة، وبذلك استمر حكم "عمر بن محمد بن جلاب" على تقرت حتى سنة 1247هـ/1832م بل تحول "فرحات بن سعيد" للتحالف مع أسرة إبن جلاب ضد باي قسنطينة، واتفق مع "علي بن جلاب" الذي خلف "عمر بن محمد" سنة 1248هـ/1833م على الإتصال بالفرنسيين للتعاون معهم ضد الحاج أحمد.

وقد تم اتصال "علي بن جلاب" بالقائد الفرنسي (*De Rouigo*) في نفس السنة[1] ورغم مماطلة الفرنسيين في الرد على رسائل كل من "فرحات بن سعيد" و"علي بن جلاب" فإن القائدين تمسكا بعداوتهما لباي قسنطينة وخاضا ضده العديد من المعارك، إلا أن هذا لا يعني أن الصراع بين أفراد أسرة بني جلاب قد توقف، بل استمر على أشده وهو ما عبرت عنه رسالة "علي بن جلاب" نفسه إلى (*De Rouigo*)، والتي يطلب فيها من السلطات الفرنسية أن تقبض على أخيه "إبراهيم" العائد من البقاع المقدسة وسجنه بعنابة حتى لا يصل إلى تقرت ويزاحمه في حكمه.[2]

ورغم سماح الفرنسيين لإبراهيم بن جلاب بالمرور والوصول إلى تقرت فإن أخاه لم يمهله وقام بقتله بمجرد وصوله إلى المدينة وبذلك قامت حرب أهلية بالمدينة وانقسم السكان إلى شطرين، أتباع "إبراهيم بن جلاب" وأتباع "علي بن جلاب"، وانسحب أتباع إبراهيم إلى تامسين معلنين الثورة على "علي بن جلاب" المدعو "علي الكبير" وبذلك عادت الحروب بين تامسين وتقرت كما كانت عليه في بداية حكم أسرة بني جلاب.[3]

---

[1] كان الاتصال بالسلطات الفرنسية عن طريق تونس وقد عرض حاكم تقرت مساعداته على الفرنسيين للقضاء على باي قسنطينة مقابل تعينه بايا على قسنطينة. أنظر:
Féraud: Les Beni djelleb, R.A, 1880, pp 296-297.

[2] أنظر نص الرسالة في نفس المرجع، ص ص 299-300.

[3] أنظر الفصل الأول.

ولم تهدأ الأمور حتى وفاة "علي الكبير" ويقال أنه قتل بالسم، فخلفه إبن أخيه "عبد الرحمن بن عمر" المدعو "بوليفة" وكان شابا كفلته أمه "عيشوش" التي سيطرت على حكم تقرت باسم ابنها، وقد قامت هذه المرأة، حسب رسالة "سليمان بن جلاب" آخر حكام بني جلاب إلى القائد الفرنسي (*DeRouigo*)، بتصفية أفراد الأسرة جسديا حتى لا تترك من ينافس ابنها،[1] وحتى توفر له الدعم العسكري تحالفت مع "فرحات بن سعيد" وعن طريقه واصلت اتصالات الأسرة بالفرنسيين،[2] ولدفع القوات الفرنسية للإسراع بالهجوم على قسنطينة للإطاحة بحكم الحاج أحمد وتولية ابنها على قسنطينة أبدت هذه المرأة استعدادها لدفع 100 ألف بسيطة مقابل مسيرة يوم واحد للقوات الفرنسية باتجاه قسنطينة،[3] إلا أن القوات الفرنسية لم تغامر بالإسراع في تنفيذ طلب حكام تقرت وهو ما أثار الكاتب *Féraud* الذي علق على ذلك بقوله: "لم يكن هناك داع لذلك التردد الذي أنقص من هيبتنا وأهمية قواتنا أمام هؤلاء الحكام".[4] وفعلا كان سلاطين بني جلاب قد أحسوا بعدم تحمس الفرنسيين للتعاون معهم فلم يعودوا للاتصال بهم حتى سقوط قسنطينة تحت يد الفرنسيين.[5]

هكذا يمكن تصور الصراع الذي كانت قد وقعت فيه مختلف الأسر الحاكمة بالبايلك، ونفس الصراع الذي عاشته الأسر الحاكمة، السالفة الذكر، عاشته بقية الأسر المحلية ببايلك الشرق وخاصة التي تمتعت بنفوذ قوي بالمنطقة وشكلت نوعا من الخطر على الحكم العثماني مثل أسرة "بوعكاز" حكام

---

[1] يقول سليمان بن جلاب في هذه الرسالة أن عادة القتل بين أفراد الأسرة كانت عادة قديمة وأساسية للاستيلاء على الحكم بالمدينة. أنظر نص الرسالة بنفس المرجع، ص ص 300-301

[2] كانت بداية اتصالها بالفرنسيين سنة 1249هـ/1834م.

[3] Feraud (Ch): Idem , p302.

[4] نفس المرجع، ص 303، أنظر أيضا: Feraud (CH): Le Sahara de Constantine, p94.

[5] Ibid, p95.

فرجيوة، فقد عاشت هذه الأسرة، منذ بداية عهد صالح باي (1185هـ/1771م) صراعا حادا كان الباي السبب الأول في إثارته؛ إذ بعد الصراع الذي وقع بين صالح باي وشيخ الأسرة "شلغوم بن الحاج" بسبب مساعدة هذا الأخير لحسن بن بوحنك، غريم صالح باي، على الفرار من قسنطينة إلى الجزائر، عمل الباي على ضرب الشيخ بأبناء عمومته فتقرب من عمه "مقورة بوطغان" وسانده بقوات مخزنية للاستيلاء على مشيخة الأسرة وبذلك انتقل الحكم، ولأول مرة من فرع الابن الأكبر للأسرة إلى الابن الأصغر وانقسمت الأسرة إلى فرعين متحاربين، كل فرع يعمل على الاحتفاظ بالمشيخة في أبناءه.

بعد وفاة الشيخين المتنافسين "مقورة" و"شلغوم" ازداد الصراع حدة بين أبنائهما، وحتى بين الأخوة أنفسهم، فقد عمل "الدراجي بن شلغوم" على القضاء على أخيه المبروك وأخذ المشيخة منه بعد أن منحها إياه الباي حسن بوحنك ردا لجميل والده، وبعد فترة جاء إبن الشيخ مبروك لينتقم من عمه ليقع هو بدوره سنة 1219هـ/1804م في معركة "الوادي الكبير" ضد عثمان باي أثناء مطاردته للثائر "إبن الأحرش" فتولى مكانه "مصطفى إبن دراجي" وبذلك كانت المشيخة تنتقل من فرع إلى آخر من الأسرة و لم يكن ذلك دون حروب دامية بين أفرادها[1].

كان "مصطفى بن دراجي" من أقوى شيوخ الأسرة، لذا تعرض للعديد من المضايقات من طرف الحكام العثمانيين في محاولة للتخلص منه أولها اتهامه بالخيانة أثناء مشاركته في الهجوم على تونس ضمن القوات الجزائرية[2]. الأمر

---

1 Feraud: Ferdjioua et Zouara, In R.A, 1878, p279, Mercier: Histoire de constantine, p8-10.

2 انهزم الجيش الجزائري أمام القوات التونسية سنة 1221هـ/1807م فاتهم عدد من شيوخ الأسر والقبائل بتلقي الأموال من حكام تونس للتخلي عن المعركة ومنهم "مصطفى بن دراجي بن عاشور" وهو ما أدى إلى انكسار القوات الجزائرية.

الذي جعله يفر إلى جبال فرجيوة خوفا من انتقام باشا الجزائر، وعين مكانه إسماعيل إبن أخيه شلغوم، وقد خاض هذا الأخير بمساندة القوات البايلكية العديد من المعارك ضد عمه مصطفى وهزمه في مرج صالح، عند بني مجالد، مما أرغمه على اللجوء إلى جبال البابور ومن هناك اتصل "الشيخ مصطفى" بالباش آغا القادم من الجزائر باتجاه قسنطينة وطلب منه الأمان فأمنه وحمله معه إلى قسنطينة، إلا أن"علي" باي قسنطينة قبض عليه وسجنه.

ولم تنته مشاكل "الشيخ مصطفى" برميه في السجن بل استطاع بمساعدة أحد أصدقائه المساجين، وهو أحمد شاوش[1] أن يدبر انقلابا للباي علي، وفعلا وقع الانقلاب بالاتفاق مع حراس القصبة وقتل الباي علي والباش آغا قبل أن يفرض أحمد شاوش نفسه بايا على قسنطينة في انتظار زحفه على الجزائر لأخذ الباشوية،[2] أما الشيخ "مصطفى بن عاشور" الذي ساهم في الانقلاب بأمواله فعاد إلى فرجيوة لافتكاك المشيخة من "بوزيان بن مقورة" الذي كان قد تولى المشيخة بعد "إسماعيل" وقد اعترف به كشيخ مستقل من طرف الجبليين مثل بني عمران، بني فوعال وغيرهم وساندوه في حربه ضد "بوزيان بن مقورة" الذي إنهزم في العديد من المرات أمام قوة "مصطفى بن عاشور" وذلك رغم مساندة القوات العثمانية له، خاصة بعد القبض على أحمد شاوش وتولية طوبال على قسنطينة.

وللمزيد من الدعم اتصل "بوزيان بن مقورة" بباي قسنطينة لطلب المساعدة العسكرية حاملا له العديد من الهدايا، إلا أنه وجد أن إبن عمه "رحمن بن مصطفى" قد سبقه إلى الباي بالهدايا الثمينة لطلب الأمان لأبيه وطلب عودته

---

[1] هو أحد الإنكشارية، اتهم بمحاولة قتل باشا الجزائر سنة 1216هـ/1802م، وللإفلات من العقاب فر إلى فرجيوة حيث آواه الشيخ مصطفى قبل أن يقبض عليه ويزج به بسجن القصبة بقسنطينة. أنظر:
Feraud (Ch): Ferdjioua et Zouara, p 13-15.

[2] أنظر العنتري (صالح): الفريدة المؤنسة ص ص 56-57.

إلى مشيخة فرجيوة، وبذلك تم له ما أراد وعين "مصطفى بن عاشور" شيخا على فرجيوة سنة 1223هـ/1809م، إلا أن ذلك لم يدم طويلا؛ إذ كما حصل بالنسبة لمختلف شيوخ الأسر المحلية الحاكمة، بمجرد انتهاء حكم طوبال باي ووصول نعمان باي للحكم، أعيدت المشيخة إلى الفرع المنافس للشيخ "مصطفى بن عاشور" وكان ذلك سنة 1225هـ/1811م وفر الشيخ إلى الجبال ليعود من جديد سنة 1229هـ/1814م بعد أن تقدم به السن ليطلب الأمان من الباي تشاكر إلا أن هذا الأخير قام بقتله[1].

إستمر "مقورة بن بوزيان"[2] في حكم الأسرة حتى مجيئ الحاج أحمد باي إلى الحكم (1241هـ/1826م)؛ إذ عمل هذا الباي على الإنتقام من "مقورة" بمساعدته عدد من الأسر التي تعرضت لإنتقام الباي أمثال أسرة إبن زكري، إبن نعمون وبوزيان التي فرت إلى الجبال بعد عودة الحاج أحمد إلى قسنطينة خوفا من إنتقامه.

عمل الباي على أخد المشيخة من "مقورة" الذي أعلن العصيان على الباي وإعطائها إلى "بورنان بن دراجي" أخ "مصطفى" الذي أعدم من طرف تشاكر باي، وحتى يقضي على مقورة عمل الباي على إتهامه أمام الباشا بالتواطؤ مع أسرة إبن زكري من خلال تحريض الجبليين على الثورة، إلا أن وصول الفرنسيين إلى السواحل الجزائرية جعل الجميع ينسون خلافاتهم ويتحدون لصد الهجوم الفرنسي، وانضم الشيخ "مقورة" بقواته إلى قوات الباي التي إتجهت إلى الجزائر وقد شهد المترجم العسكري الفرنسي فيرو "*Feraud*" ببطولات قوات الشيخ في معركة "سطاويلي" ضد الفرنسيين[3].

---

[1] Vayssette: Op.cit, p 329.

[2] حول شيوخ هذه الأسرة وتعاقبهم على الحكم أنظر: Feraud (CH) Ferdjioua et Zouara, In R.A.1878

[3] Feraud: Ferdjioua et Zouara, p21.

بعد عودة "الشيخ مقورة" إلى فرجيوة وجد إبن أخيه "أحمد بوعكاز" قد إستولى على المشيخة وحاول قتل عمه عند عودته إلا أن هذا الأخير نجا من المحاولة واستطاع الوصول إلى قسنطينة في محاولة للتعاون مع الباي لإسترداد منصبه إلا أنه فشل؛ إذ رفض الباي الدخول في حرب قد تزيد من مشاكله لأنه كان محاطا بالأخطار من كل جانب، كما أن "أحمد بوعكاز" كان قد وقف إلى جانبه أيام الثورة التي قامت ضده بقسنطينة ولذلك لم يجد الباي بدا من التحالف معه في حين إنضم "مقورة" إلى أعداء الحاج أحمد باي أمثال "فرحات بن سعيد" و"إبراهيم باي"، إلا أن هزيمة "المشيرة" أمام الباي وأنصاره "أحمد بوعكاز بن عاشور" و"ابن قانة" جعلت مقورة يلتجأ إلى أولاد عامر حيث توفي، ويقال أن "أحمد بوعكاز" هو الذي أرسل إليه من دس له السم في الطعام.[1]

بعد وفاة "مقورة" أعلن إبنه "دراجي بن مقورة" العصيان والثورة على إبن عمه "أحمد بوعكاز" وحليفه الباي وقد شكلت ثورته، التي ساندها عدد كبير من القبائل، خطرا حقيقيا على السلطة المركزية وهو ما جعل الباي يعمل على التسوية السليمة بين الشيخين وقسم بينهما المشيخة، إلا أن "أحمد بوعكاز" لم يقبل بذلك إلا مؤقتا، لأنه كان يضمر الشر لخصمه، إذ بمجرد تولي الشيخ "دراجي" منصبه إستدرجه في رحلة صيد وقام بذبحه وبذلك إنفرد بالحكم وقد عرف "أحمد بوعكاز" منذ ذلك الحادث باسم "بوجنوي" أي صاحب السكين.

لم يفعل الحاج أحمد باي شيئا ضد القاتل بل ثبته في منصبه وملكه أملاك خصمه المصادرة، وهو ما يوحي بتورط الباي نفسه في مؤامرة قتل الشيخ مقورة للإستيلاء على أمواله،[2] و لم تصل سنة 1249هـ/ 1834م حتى كان أحمد بوعكاز قد تخلص، بالتواطؤ مع الباي، من جميع معارضيه وأصبح الحاكم المطلق

---

[1] Ibid, pp22-23.

[2] أنظر نفس المرجع، ص 82-84.

بفرجيوة كما إستطاع إخضاع القبائل الجبلية، وبسياسة حديدية تمكن من فرض الأمن والإستقرار بالبلاد ووقف إلى جانب الباي في مقاومته للفرنسيين.

و لم ينسحب من المقاومة إلا بعد إنسحاب الباي إلى الجنوب بعد إحتلال قسنطينة (14 رجب 1253هــ/13 أكتوبر1837م)؛ إذ عاد إلى مقر حكمه بفرجيوة حيث كانت تصله أخبار قسنطينة عن طريق وكيله وصديقه "ابن زقوطة" ومنها تعيين السلطات الفرنسية لمنافسه "بورنان" على فرجيوة مقابل 1200 قرش، ولضرب هذا التعيين وإبراز قوته أرسل إلى السلطات الفرنسية 12000 قرش للحفاظ على منصبه و10000 فرنك فرنسي لإعانة سكان قسنطينة الذين فرضت عليهم ضريبة قدرت بـــ 200.000 فرنك فرنسي، كما أرسل قافلة تحمل قطيعا من الغنم والدجاج والحبوب والبيض والخضر وحتى الحلويات إلى المرضى وحصانيين أصليين، وأمام هذه الهدايا لم يجد القادة الفرنسيون بدا من تثبيت الشيخ على فرجيوة وأرسل له قرار التعيين في 30 سبتمبر 1838م من طرف الماريشال فالي.[1]

ويؤكد الباحث والمترجم العسكري الفرنسي "فيرو" أن علاقة الشيخ "أحمد بوعكاز بن عاشور" بالفرنسيين لم تكن في يوم من الأيام علاقة خضوع بل تحالف كما أنه إستطاع فرض نفوذه على القادة الفرنسيين أنفسهم وأن هؤلاء إحترموا إستقلاله بحكم منطقته[2].

بهذا يمكن القول أن سياسة "فرق تسد" التي طبقها بايات قسنطينة ضد الأسر المحلية الحاكمة قد أثمرت وانتهت بإضعافها وتشتيت شيوخها، الأمر الذي مهد الطريق للمستعمر الفرنسي لإستغلالها في تحقيق أغراضه.

---

1 أنظر نفس المرجع، ص 88-91.

2 نفس المرجع، ص 90.

ثانيا. قيام الثورات المحلية ضد الحكم العثماني ببايلك قسنطينة[1]:

بعدما تتبعنا تاريخ الأسر المحلية الحاكمة في بايلك قسنطينة ودورها في تسيير شؤون البايلك وحماية أمنه إلى جانب الحكام العثمانيين، ثم محاولة هؤلاء، في نهاية القرن 12هـ/18م إضعاف هذه الأسر واحتوائها بربطها مباشرة بالحكم المركزي، لا بد من الوقوف على أهم الثورات الشعبية التي تزعمتها هذه الأسر ضد الحكم العثماني والتي وقفت ضدها إلى جانب العثمانيين.

فرغم الوفاق الذي ربط العثمانيين بالجزائريين باسم الجهاد الاسلامي فان بايلك قسنطينة شهد منذ دخول العثمانيين مدينة قسنطينة العديد من الانتفاضات والثورات عبرت في معظمها، وخاصة قبل القرن 13هـ/19م، عن رفض القبائل في التدخل العثماني في أراضيها وسخط الرعية على سياسة الضرائب الجائرة من طرف الحكام العثمانيين، وكثيرا ما كانت هذه الثورات لأسباب شخصية بين شيوخ القبائل والأسر الحاكمة وبين الحكام العثمانيين. كل هذه الأسباب جعلت هذه الثورات في أغلبها ضيقة وعديمة الفعالية في زعزعة الحكم العثماني.

ولكثرة هذه الثورات وتداخلها سنكتفي بذكر أهمها، فالإضافة إلى مقاومة أسرة ابن عبد المؤمن بقسنطينة للحكم العثماني لتمسكها بالحكم الحفصي[2]، بالتحالف مع جزء من سكان قسنطينة وأولاد صولة، تعرض العثمانيون إلى مقاومة شديدة في غرب البايلك تزعمتها قبيلة بني عباس بزعامة "السلطان عبد العزيز" عميد أسرة المقراني الحاكمة وقد كانت هذه الثورة من أطول الثورات التي أرهقت القوات العثمانية وكبدتها خسائر فادحة في عدد من المعارك أهمها

---

[1] قام الأستاذ الغالي الغربي بدراسة هذه الثورات ضمن رسالة علمية لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر تحت عنوان: الثورات الشعبية في الجزائر أثناء العهد العثماني 1792-1830، جامعة دمشق، 84-1985، رسالة غير منشورة.

[2] حول الموضوع أنظر بداية الفصل الثاني من الأطروحة.

معركة القلعة 1554م، وقد دامت هذه الثورة في فترات منقطعة من (956-999هـ/1550-إلى 1590م)[1].

كما تشير بعض المصادر إلى ثورة الشيخ "يحي بن سليمان الأوراسي" في نهاية القرن 10هـ/16م[2] والتي استمرت، حسب ما جاء في مخطوط منشور الهداية لشيخ الإسلام "عبد الكريم الفكون"، حتى حوالي 1045هـ/1637م، تاريخ كتابة المخطوط، وذلك لقول الشيخ: "وأيام كتبي لهذا التقييد ذكر لي أنه قام أيضا والله أعلم"،[3] ويقول نفس المصدر عن أسباب هذه الثورة أنها كانت شخصية وذلك أن الشيخ كان مفتيا وحضى باحترام وتقدير الحكام العثمانيين منذ وصولهم قسنطينة إلا أن خلافا وقع بين الطرفين باتهام باشا الجزائر الشيخ بمحاولة الثورة على الحكم المركزي وتكوين حكم مستقل الأمر الذي جعل الشيخ يفر إلى الأوراس خوفا من انتقام الباشا ويعلن الثورة هناك، معتمدا على أتباعه الأقوياء وعلى حصانة منطقة الأوراس موطنه الأصلي. ويقول المصدر أن الشيخ كبد القوات العثمانية خسائر فادحة قبل أن يقتل بحالة غدر لتستمر الثورة بزعامة الشيخ "أحمد بن سليمان" ثم ابنه "أحمد بن يحي الأوراسي"[4] وبذلك تكون هذه الثورة من أهم الثورات في القرن 10هـ/16م، وإن لم تتعدى منطقة الأوراس وهو شأن معظم الثورات التي شهدتها فترة الحكم العثماني بالجزائر[5]، إذ لم تكن تتعدى، عادة، منطقة القبيلة الثائرة

---

[1] حول هذه الثورة أنظر الغالي الغربي، المرجع نفسه، ص 140-142. أنظر أيضا:
Boulifa (S.A): op.cit, p162-164.
وقد تطرقنا إلى هذه الثورة عند تعرضنا لموقف أسرة المقراني من الحكم العثماني في الفصل الثاني من الكتاب.

[2] Vayssette: op.cit, p 72.

[3] الفكون (عبد الكريم): المصدر السابق، ص 55.

[4] نفس المصدر، ص ص 54-55.

[5] من بين هذه الثورات نذكر: ثورات الحنانشة، النمامشة، أولاد سلطان وثورة قبائل فليسة التي جاءت متأخرة إلا أنها دامت طويلا 1049هـ/1640م حتى نهاية الحكم العثماني، وقد شهد بايلك الغرب نفس الوضع، وكانت أهم ثورة ظهرت بالغرب الجزائري هي ثورة "سويد" التي خلدها الشعراء بالعديد من القصائد. أنظر، الراشدي (أحمد): المصدر السابق، ص ص 36-37.

أو الإتحاد القبلي الذي أعلن العصيان، ولا تدوم الثورة، في أغلب الأحيان، أكثر من فترة تحدي القوات العثمانية للقبيلة، وتنتهي بخروج هذه الثورات من أراضيها.

أما عن الثورات العامة والتي شكلت خطرا حقيقيا على الحكم العثماني ببايلك قسنطينة فهي لا تزيد عن اثنين:

1°. ثورة ابن السخري بوعكاز (1047-1057هـ/1637-1642م).

2°.ثورة ابن الأحرش مقدم الطريقة الدرقاوية[1] (1219-1221هـ/1804-1807م).

وكانت الثورة الأولى منظمة تزعمتها الأسر المحلية الحاكمة وعلى رأسها أسرة بوعكاز الذواودة، حكام الصحراء، والثانية شعبية تزعمها مقدم الطريقة الدرقاوية الصوفية تمكن من جمع القبائل من مختلف قبائل البايلك باسم الدين لتحرير البايلك من ظلم الأتراك العثمانيين، وقد عارضت الأسر المحلية هذه الثورة ووقفت مع الحكام العثمانيين للقضاء عليها، وذلك لما شكلته من خطر عليها باستمالتها لمعظم أتباعها الذين سارعوا للالتفاف حول الثائر وطريقته معلنين الانقسام على زعمائهم القدامى.

ولأهمية هاتين الثورتين سنعمل على تتبع أحداثها بشيء من التفصيل لمعرفة أسبابها ونتائجها على الحكم العثماني.

1°. ثورة أحمد ابن السخري:

كانت ثورة ابن السخري أهم وأشمل ثورة واجهها الحكام العثمانيين منذ بداية حكمهم، ورغم ذلك لم تنل اهتماما يُذكر من طرف المؤرخين الجزائريين؛ إذ لم نجد حتى الآن من كتب عن هذه الثورة باستثناء الكاتبين الفرنسيين شارل

---

[1] طريقة صوفية تزعمها "أبو الحسن مولاي علي بن عبد الرحمان الجمال الفاسي" (ت1723) ونسبت إلى تلميذه الشيخ "مولاي الدرقاوي" وهما من فاس المغرب الأقصى. عن هذه الثورة ومبادئها أنظر، الغالي الغربي: المرجع السابق، ص ص 158-159.

فيرو "*Féraud*" و باربراقر "*Berbrugger*" اللذين خصا هذه الثورة بمقالين هامين بالمجلة الافريقية لسنة 1866م، وقد اعتمد *Féraud* على وثيقة عربية هامة[1] صورت لنا أحداث وأسباب هذه الثورة، ولإتمام النقص الذي كان بالوثيقة اعتمد الباحث على ما كتبه الأمبيري عن الثورة في كتابه "علاج السفينة في بحر قسنطينة" وكذلك على ما كتبه الأب دان (*Le père Dan*) في كتابه *Histoire de barbarie*، في حين لم نجد ذكر لهذه الثورة في المصدر العربي الذي عاصر فترة الثورة وهو مخطوط منشور الهداية للشيخ عبد الكريم الفكون الذي رغم معاصرته للأحداث لم يذكر شيئا عن هذه الثورة[2] باستثناء الاشارة إلى أن الشيخ "خالد بن نصر" كان في حالة ثورة[3].

ورغم تحول ثورة ابن السحري إلى ثورة عارمة جمعت معظم قبائل البايلك فإن أسبابها كانت شخصية تقف ورائها إحدى الأسر الحاكمة وهي أسرة بوعكاز الذواودة وقد كانت هذه الأسرة، كما سبق ذكره، تحتكر مشيخة العرب وتسيطر على صحراء البايلك سيطرة شبه مطلقة، الأمر الذي فرض على بايات قسنطينة عدم التدخل في هذه الأراضي، فكان البايات في بداية الحكم العثماني لبايلك قسنطينة يفتعلون الصبر ويكتفون بقبول ما تجود به هذه الأسرة من ضرائب سنوية تدل على ولائها الاسمي للبايات مع احتفاظها باستقلالها الداخلي.

---

1 هي عبارة عن ورقة من مخطوط عربي مفقود كتب على حاشيتها عبارة "وقعة مراد باي مع بوعكاز" ويعتقد الباحث فيرو أن المخطوط يكون لكاتب من القرن 18م وهو "سي بركات الشريف"، ويقول أن الأمبيري يكون قد أخذ عن هذا المصدر لتأليف كتابه "علاج السفينة في بحر قسنطينة", أنظر نص الوثيقة في: Féraud: l'epoque de l'etablissement des turcs a Constantine, R.A, 1866, pp 180-181.

2 يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله أن الشيخ لم يذكر هذه الثورة لأنه كان في سنة اندلاعها قد انتهى من كتابة المخطوط. أنظر، سعد الله أبو القاسم: شيخ الإسلام...، المرجع السابق، ص 18,

3 الفكون (عبد الكريم): المصدر السابق، ص 55.

وفي عهد الباي مراد 1031-1046هـ/1622-1637م كانت المحاولة الأولى للقضاء على نفوذ هذه الأسرة والتخلص من سيطرتها على جنوب البايلك، حيث قام الباي بالقبض على شيخ العرب محمد بن السخري وجماعة من أعيان الأسرة وسجنهم، عندما قدموا إلى معسكره[1] لتقديم ما على الأسرة من ضرائب، ثم أرسل إلى باشا الجزائر "علي باشا" يستأذنه في قتل الشيخ ومرافقيه بتهمة العصيان ومحاولة الانفصال على السلطة المركزية، وبعد وصول الإذن من الباشا والديوان نفذ الباي الحكم في الشيخ وستة من أعيان الأسرة كما قتل إبن الشيخ الذي كان يرافقه، وحتى تكون هذه الأسرة عبرة لغيرها من الأسر التي تتمسك باستقلالها أرسلت رؤوس أعيان الذواودة الستة[2] إلى قسنطينة لتعلق على أسوارها، وكان ذلك يوم الأربعاء 1 صفر 1047هـ/جوان 1638م[3].

بعد وصول خبر اغتيال شيخ العرب ومن رافقه إلى الذواودة، ثارت ثائرة أسرة بوعكاز وعلى رأسها أخ الضحية "أحمد بن السخري" الذي أعلن الثورة على باي قسنطينة مراد للثأر لأخيه، وفي السنة الموالية 1048هـ/1638م زحف بجيوشه على مدينة قسنطينة وقد صادف هذا الحدث حدث آخر بشرق البايلك أثار أسرة أحرار الحنانشة ومن تبعها وهو إقدام السلطة العثمانية على هدم الباستيون الفرنسي "*Bastion de France*" بالقالة[4]، والذي كان مصدر رزق

---

1 كان الباي يعسكر على بعد 4 كلم جنوب مدينة قسنطينة، في منطقة جنان الزيتون غرب الجامعة المركزية حاليا.

2 لم تذكر المصادر أن رأسي الشيخ وابنه قد علقا على أسوار المدينة ولعل ذلك كان خوفا من ثورة أبناء أسرة بوعكاز.

3 Féraud: l'epoque de l'etablissement …, op.cit, p 180.

4 يعود سبب هدم الباستيون، وهو امتياز فرنسي قديم، إلى تأزم العلاقات الفرنسية الجزائرية بسبب تجاوز الفرنسيين للامتيازات المخولة لهم بساحل القالة والمتمثلة في احتكار صيد المرجان، إلى أعمال تجارية واسعة تم الاتفاق عليها بين القبائل وعلى رأسها أسرة أحرار الحنانشة وبين التجار الفرنسيين بالوكالة الفرنسية، وقد شملت تصدير الحبوب والجلود والشمع والخيول إلى مرسيليا دون علم من السلطات العثمانية. وقد زاد من التأزم في الوضع إقدام الفرنسيين على خطف سفينتين جزائريتين محملتين بالسلع

لسكان شرق البايلك ومصدر ثراء لأسرة أحرار الحنانشة الحاكمة بهذه المنطقة، الأمر الذي جعل زعيم الأسرة "خالد بن نصر"، الذي تضررت مصالحه الشخصية من جراء هذا العمل، يعلن الثورة على الباي مراد ويقوم بطرد الحاميات التركية المتواجدة بمناطق نفوذه كما سيطر على ساحل البايلك بعد أن طرد إلى تونس كل من قبيلة أولاد ذياب ودريد وأولاد نهد الموالين للقائد العثماني "علي بتشين" الذي قام بتحطيم الباستيون بأمر من باشا الجزائر.

وأثناء هذه العملية التشيطية لساحل بايلك قسنطينة انضم إلى الشيخ "خالد بن نصر" (خالد الصغير) العديد من القبائل الجبلية (البربرية) التي كانت في ثورة ضد السلطة العثمانية لنفس السبب وهو ما عرف بثورة فليسة[1] التي اختلطت أحداثها مع أحداث ثورة ابن السخري وتزعمت الأحداث في هذه المنطقة أسرة حاكمة ثالثة هي أسرة المقراني[2]. وبذلك توفر شرطان مختلفان لقيام ثورة موحدة تزعمتها أهم الأسر الحاكمة ببايلك قسنطينة وكادت أن تقضي على الحكم العثماني في بدايته.

فقد هاجم شيخ العرب "أحمد بن السخري" قسنطينة من الجنوب الغربي حيث انظمت إليه أسرة المقراني بقواها بزعامة "بتقة بن ناصر"[3] في حين كانت أسرة أحرار الحنانشة تكبد القوات العثمانية بشرق البايلك الهزيمة تلو الأخرى، وقد وصفت لنا الوثيقة العربية، التي عثر عليها الباحث الفرنسي ***"Féraud"*** عن

والبارود تقدر قيمتها بـــ 12000 ريال، وذلك انتقاما من أعمال القرصنة الجزائرية ضد الفرنسيين. وقد صادف في مثل هذه السنة (1047هـــ/1637م) الاعتداء على السفينة المقلة للباشا القادم من اسطنبول لتعويض يوسف باشا، الأمر الذي أثار ديوان الجزائر فأرسل حملة بقيادة "بتشين" لهدم الباستيون وأسر 317 فرنسي به. أنظر:

Berbrugger (A): Notes Relatives à la révolte de bensakhri, R.A, 1866, p340.

1 حول هذه الثورة أنظر، الغالي الغربي: المرجع السابق، ص ص 142-143.

2 Derdour (H): op.cit, pp 84-85.

3 Rinn (Louis): Histoire de l'insurection…, p13.

قوة الهجوم الذي شنه ابن السخري على قسنطينة أحسن وصف فجاء فيه:"... بعد قتل المذكورين جهز أخو (كذا) الهالك المذكور وهو أحمد بن السخري جميع الأعراب والحنانشة وغيرهم من ساير الرعية كاينا من كان من باب الجزائر (كذا) إلى باب تونس ونافق (غار) على دار السلطان وقصد بزمالته (قواته) المذكور بلد قسنطينة وخرج أهل البلد لقتاله فغشيهم بخيله ورجاله وقتل منهم نحو خمسة وعشرين رجلا فخرجوا إلى البلد مكسورين، وفي غد ذلك اليوم فزع بخيله ورجاله للفحص الأبيض والحامة وتلك النواحي وأطلق النار في نوادر القمح والشعير فأحرقها عن آخرها وأحرق ما فيها من الدشر (القرى) حتى انتهى الحرق إلى جنة المنيا[1] وأطلق النار من نواحي أخرى ومن الغد وهو اليوم الثالث أطلق النيران من قسنطينة إلى أن انتهى بحفرة صنهاجة[2] ولم يزل يحرق وينهب ومهما سمع بدشرة بها شي (كذا) من الزرع نهبه ..."[3]

وتقول الوثيقة أن قوات الباي تكبدت خسائر فادحة قبل أن ينسحب الثوار إلى الغرب. ويكمل *Féraud* سرد أحداث هذه الثورة استنادا إلى الأمبيري فيقول أن الباي مراد لم يجد بدا أمام هذه الخسائر، من الالتجاء إلى باشا الجزائر فأرسل إليه وفدا يعلمه بإعلان عرب البايلك لثورة عارمة ويطلب منه النجدة للقضاء عليها قبل أن تصبح خطرا حقيقيا على الحكم العثماني بالبايلك فأرسل إليه "علي باشا" قوتين الأولى بقيادة القائد يوسف والثانية بقيادة شعبان وتتكون القوتان من 200 خباء أي حوالي 4000 رجل وبذلك وصل عدد القوات العثمانية المجهزة لقمع هذه الثورة بالإضافة إلى قوة الباي مراد المكونة من 100 خباء (2000 رجل)، حوالي 6000 رجل[4].

---

[1] **المنيا**: حي بأحواز قسنطينة على الطريق المؤدي إلى مدينة سكيكدة.

[2] **حفرة صنهاجة**: بين جبل سيدي مسيد والمرتفعات المؤدية إلى الحامة.

[3] Féraud: l'epoque de l'etablissement ..., op.cit, p 180-181.

[4] Ibid, p183.

تحركت هذه القوات مجتمعة لتهاجم قوات "أحمد بن السخري" وأتباعه وحلفائه من الأسر الحاكمة بغرب البايلك والتي قدرت بـــ 10000رجل[1]، وكان اللقاء بين الطرفين في معركة دامية بمنطقة كجال، بين سطيف وقسنطينة تكبد فيها العثمانيون خسائر فادحة في الأرواح والسلاح؛ إذ قتل العديد من قوات الباي من بينهم كاتبه الأول ومستشاره "شريط بن صولة" الذي تقول المصادر أنه قتل قتلة شنيعة من طرف الثوار انتقاما من صديقه الباي الذي تمكن من الفرار من المعركة و لم يتمكنوا من القبض عليه.[2]

كما غنم شيخ العرب وأتباعه جميع أسلحة ومتاع القوات العثمانية التي انسحبت منهزمة إلى الجزائر ويقال أن "الباي مراد" لم يلتحق بالجزائر ولا بقسنطينة خوفا من انتقام الباشا منه، بل أن "الأب دان" الذي عاصر هذه الأحداث[3] يقول أن القائد يوسف اقترح على الثوار تسليمهم الباي مراد للانتقام منه شخصيا مقابل تخليهم عن الثورة، وكان هذا المطلب قد اتفق عليه من طرف أعضاء الديوان بالجزائر لإخماد الثورة من جهة والقضاء على مراد باي والاستيلاء على أمواله الضخمة من جهة ثانية، إلا أن هذا الأخير تمكن من الإفلات من هذا المخطط بفضل بعض أصدقائه بالديوان وما دفع لهم من أموال[4].

بعد فرار مراد باي من موقعه كجال تسكت المصادر عن ذكر أخبار ومصير مراد باي باستثناء ما جاء في الوثيقة العربية التي نشرها فيرو[5] من أنه توفي[6] إثر هذه المعركة في صفر من عام 1049هـــ/ جوان 1639م.

---

[1] Berbrugger (A): Notes Relatives à la révolte de bensakhri, op.cit, p343.

[2] Féraud: l'epoque de l'etablissement …, op.cit, p 184.

[3] كان بالجزائر في سنة 1634م. أنظر: Berbrugger (A): Notes Relatives à la révolte de bensakhri, op.cit, p342.

[4] Ibid, pp 343-344.

[5] Féraud: Idem, pp 181- 182.

[6] يعتقد أن الشيخ "أحمد بن السخري" أعلن مكافأة كبرى لمن يأتيه برأس مراد باي، ولذلك بقي حسب ما أورده فيرو مثل سائد في منطقة كجال، قرب سطيف يطلق على كل من ادعى الشجاعة والقوة فيقال

أمام تحدي الأسر المحلية الحاكمة للقوات العثمانية وانتقاما للهزيمة التي لحقت بهذه القوات بمعركة كجال قرر باشا الجزائر العودة إلى بايلك قسنطينة بقوات أضخم للقضاء على هذه الثورة نهائيا، وبما أن الثورة عمت جميع مناطق بايلك الشرق واختلطت ثورة قبائل فليسة بجبال جرجرة بثورة ابن السخري وخالد بن ناصر، فإن باشا الجزائر بدأ بمحاولة لإخماد الثورة بالجبال القريبة من الجزائر والتي تسببت في قطع الطريق الرابط بين الجزائر وقسنطينة، إلا أن القوات العثمانية هزمت مرة أخرى وكادت أن تهلك لولا تدخل مرابطي المنطقة لوضع هدنة بين الطرفين بشروط فرضها الثوار على الباشا لقبول وقف المعارك وهي:

1. عدم مطالبة العثمانيين للثوار بضريبة اللزمة.
2. عودة القوات العثمانية إلى الجزائر دون الرجوع مرة أخرى إلى المنطقة.
3. إعادة بناء الحصن الفرنسي الباستيون وملحقاته.
4. عودة جميع الكراغلة إلى الجزائر واسترجاعهم لجميع امتيازاتهم التي أخذت منهم بعد ثورتهم سنة 1636م.[1]

بعد قبول الأتراك العثمانيين هذه الشروط[2] أعلن المرابط[3] أنه سيتكلف بنفسه بحراسة القوات العثمانية حتى تصل إلى الجزائر وحذر القبائل من الاعتداء عليها، وبذلك عاد الهدوء النسبي إلى هذه المنطقة، وبقيت أرياف البايلك تحت نفوذ الأسر المحلية الحاكمة[4] في حين بقيت مدينة قسنطينة، بعد فرار الباي مراد

له:" وهل أتيت برأس مراد باي". وإن كان يقول نفس المصدر أن العديد من البايات بنفس الاسم خاضوا معارك في هذه المنطقة ومنهم مراد باي تونس 1692م. أنظر:.Féraud: Idem, pp 185

[1] Berbrugger (A): Notes Relatives à la révolte de bensakhri, op.cit, p345.

[2] بدأ العثمانيون فعلا في تطبيق هذه الشروط وعلى رأسها إعادة بناء الباستيون، وكانت المفاوضات حوله بين الجزائر وفرنسا في 7 جويلية 1640، وتم الاتفاق النهائي النهائي على إعادة بنائه في بداية سنة 1641م. أنظر:.Berbrugger (A):Idem, p345-346

[3] لم يذكر اسم المرابط.

[4] من خلال الظهائر (جمع ظهير: المراسيم) التي منحت للعديد من الأسر الدينية والمرابطين بمنطقة أولاد عبد النور من طرف شيخ العرب "أحمد بن السخري" وهي مؤرخة في (1055هـ/1645م)

في حالة الفوضى والاضطرابات وظهر النزاع من جديد بين مؤيد للعثمانيين ومعارض لهم وقد انتهى الأمر، كما مر بنا في بداية الفصل الثاني من الكتاب، بإرسال الشيخ عبد الكريم الفكون إلى الجزائر لطلب تعيين باي على المدينة ليخلف مراد باي.

في ظل هذه الظروف عاد يوسف باشا[1] إلى الحكم بالجزائر ولإثبات قوته وحفاظا على حياته من انتقام الباب العالي منه في حالة انسلاخ بايلك قسنطينة عن ايالة الجزائر[2] قرر العودة إلى محاربة المتمردين في البايلك، وقبل إقحام نفسه في معارك سبق وأن ذاق هزائهما عمل الباشا على مراسلة رجال الدين والمرابطين بالمنطقة والتأكد من مساندهم له وكان أول اتصال له بمفتي عنابة الشيخ "محمد الساسي البوني" وذلك في ذي الحجة 1050هـ/مارس 1641م يخبره بأنه ألغى حملته للجهاد ضد الإسبان لتحرير وهران بسبب الثورة التي أعلنتها الأسر الحاكمة بالبايلك ويدعوهم إلى مساعدته على إعادة ثقة الرعية بالحكم العثماني وحثهم على طاعة أولي الأمر كما أخبره بنيته في العودة إلى البايلك لإعادة الهدوء إليه،[3] وقد تبادل الباشا العديد من الرسائل في نفس الموضوع مع العديد من العلماء ورجال الدين منهم "سعيد قدورة" مفتي الجزائر و"عيسى الثعالبي" و"علي بن عبد الواحد الأنصاري" و"عبد الكريم الفكون" وغيرهم.[4]

و(1062هـ/ 1651) يتبين لنا أن هذه المنطقة بقيت ولفترة طويلة تحت السيطرة التامة لأسرة بوعكاز الذواودة. أنظر:.Féraud: l'epoque de l'etablissement …, op.cit, pp 186-187

1 تولى يوسف باشا الحكم عدة مرات، منها الفترة الأولى من 1634 إلى 1637م ثم سنة 1640م بعد خلع علي باشا الذي يبدو أنه حكم من 1637 إلى 1639م. ولعل يوسف باشا دخل السجن عدة مرات بسبب هزائمه المتكررة أمام الثوار. أنظر: .Berbrugger (A):Idem, p349-350

2 Vayssette: op.cit, p 103.

3 Vayssette: op.cit, p 104-107.

4 أنظر، سعد الله (أبو القاسم): رحلة ابن حمدوش، المصدر السابق، ص 230.

بعد تهيئة الجو المناسب تحرك يوسف باشا بقواته نحو البايلك، وذلك عن طريقين: قوة سارت عبر البحر إلى عنابة وأخرى عبر البيبان، وكان الباشا على رأس القوة البحرية ومن عنابة اتجه الباشا إلى قسنطينة حيث أقر الأمن وترك الأمور بين أيدي أعيان المدينة وعلى رأسهم شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون ثم تابع سيره نحو الصحراء لملاحقة الثائر ابن السخري، وقد احتفظت لنا بعض المصادر بصور عن المعارك التي دارت بين قوات الباشا المساندة من طرف بعض القوات المحلية وعلى رأسها رجال الدين، وبين الثائر ابن السخري وأتباعه، ومن هذه المصادر رسالة عثر عليها الباحث الفرنسي "*Vayssette*" ونشر ترجمتها في كتاب تاريخ قسنطينة وهي مرسلة من الشيخ "عيسى بن محمد شلبي" إلى أستاذه "سيدي علي بن سيدي محمد الساسي البوني" المفتي الحنفي بعنابة، يصف له فيها سير المعارك التي كان يشارك فيها إلى جانب القوات العثمانية ضد ابن السخري، وحليفه "خالد بن نصر" زعيم الحنانشة.

ومن بين ما جاء في هذه الوثيقة: "... إننا اليوم في نقاوس (جنوب غرب أولاد عبد النور) وسأروي لكم باختصار ما حدث: بعد أن عسكرنا جنوب قسنطينة تشابكنا مع العدو ودام القتال 3 أيام كانت الهزيمة على العدو (يعني ابن السخري وأتباعه) الذي قتل له 40 رجلا، عسكرنا هنا حوالي نصف شهر ثم تابعنا السير لملاحقة العدو وهزمناه في معركتين أخريين وتابعنا السير وتشابكنا مع العدو مرة أخرى فكانت قوتنا ممتازة وحسنة التنظيم وقد دامت المعركة من الفجر إلى غروب الشمس وكانت الهزيمة لأعدائنا الذين فروا باتجاه الصحراء وتابعنا سيرنا يومين كاملين دون قتال وفي اليوم الثالث الذي صادف يوم الخميس عاد العدو بأقصى ما لديه ودام القتال يوما كاملا انهزم في نهايته المتمردون. و لم يستسلم الثائرون بل عاودوا الهجوم مرات عديدة إلا أنهم كانوا في كل مرة يهزمون ومن بين من سقط في هذه المعارك ابن زعيم الثورة نفسه. لم نتوقف عن السير وهنا لحقت بالقوات العثمانية هزيمة قتل على إثرها أكثر من 120 رجلا وقتل صهر الشيخ بوعكاز، شيخ أولاد عزام، ومن هنا وصلنا

قرب وادي الذهب حيث عسكرنا حوالي 40 يوما وعند علم العرب بمحاولة العثمانيين الانتقام منهم للهزيمة التي لحقت بهم هاجموهم ودارت معارك أخرى كان جميعها لصالح العثمانيين إلا أن هذا لم يثبط من عزيمة الشيخ بوعكاز بل كان يجمع القبائل من كل منطقة وخاصة من الزاب الذي انضم إليه سكانه بجميع ما يملكون من قوة، بعد هذا عسكرنا في كجال حيث أحرقت المزارع وألحقنا بالعدو هزيمة كبرى وغنمنا منه حوالي 2000 رأس من الغنم والجمال وهنا عاد أولاد ناصر بن خالد إلى منطقة نفوذهم بشرق البايلك، وفر الشيخ بوعكاز إلى الصحراء. وخلاصة القول أن العدو خسر في هذه الحملة 250 فارس و700 فرس وقتل أخوه (الشيخ بوعكاز) و15 من أهم رجاله ومن بين العرب التابعين لقواتنا خسرنا 60 فارس... والسلام"[1].

رغم خلو هذه الرسالة من التاريخ وانحياز صاحبها الواضح إلى الجانب العثماني ونسبة معظم الانتصارات للعثمانيين، فإنها لا تخلو من الأهمية التاريخية بالنسبة للفصل الثاني من ثورة ابن السخري؛ إذ صورت لنا المعارك النهائية للثورة وأكدت لنا مشاركة بعض القبائل العربية إلى جانب العثمانيين للقضاء على الثورة.

لم تنته الثورات في بايلك قسنطينة بانتهاء ثورة أحمد بن السخري؛ إذ ستمرت ثورة فليسة التي عادت إلى الظهور في سنة 1642م، أي مباشرة بعد عودة يوسف باشا من قسنطينة، وقد اختلط الأمر على الباحثين بين هذه الثورة وثورة ابن السخري خاصة أن المصادر تطلق اسم "ابن علي" على زعيم ثورة القبائل بجرجرة (كوكو) وزعيم ثورة ابن السخري[2].

[1] Vayssette: op.cit, p 99 -101.

[2] أحمد بن السخري بن علي بن بوعكاز.

ومهما كان خطأ أو صواب هذه المصادر والروايات في نسبة هذه الثورات[1] فإن الثورة ضد الحكم العثماني لم تهدأ في بايلك قسنطينة سواء بمنطقة القبائل أو منطقة الحنانشة أو بالصحراء وقد أكد ذلك المؤرخ التونسي "ابن أبي دينار" بقوله أن "محمد باشا" حاكم تونس لم يتمكن من القضاء على ثورة "خالد بن نصر الحناشي" بشرق بايلك قسنطينة، إلا سنة 1054هـ/1646م، وقد أدى خضوعه إلى خضوع بقية شيوخ المنطقة للحكم العثماني ومنهم شيخ العرب أحمد بن السخري[2]، بل أن من المؤرخين من اعتبر ثورة "علجية بنت بوعزيز الحناشي" سنة 1136هـ/1724م استمرارا لثورة ابن السخري.

وقد أكد الرحالة الفرنسي "*Peyssonnel*" أن قبائل الحدود الشرقية لبايلك قسنطينة كانت في ثورة دائمة ضد العثمانيين في تونس والجزائر وهو ما جاء في رسالته المؤرخة في 15 فبراير 1725م إلى الراهب بيان "*L'abbé Beyant*" في قوله: "مررنا من الرأس الأسود إلى القالة عن طريق البحر لأن المرور برا كان غير ممكن لأن سكان المنطقة كانوا في ثورة و لم يكونوا يعترفون لا بداي الجزائر ولا بباي تونس".[3]

فالثورات إذن لم تنته بانتهاء أسباب ثورة "ابن السخري" و"خالد بن نصر" بل استمرت حتى نهاية العهد العثماني و لم يمنعها من الاطاحة بالحكم العثماني إلا العصبية القبلية التي مزقت صفوف الثائرين وبالتالي أضعفت ثوراتهم. ومهما كانت نتائج ثورة ابن السخري وما تبعها من ثورات فإن آثارها كانت عميقة على الوضع بالجزائر وهو ما أكده أحد الكتاب المعاصرين للأحداث وهو العالم الأديب "محمد بن راس العين الأندلسي" في رسالة إلى الأستانة يصف فيها حالة العاصمة حوالي سنة 1057هـ/1647م، يقول فيها:

---

[1] حول الموضوع أنظر: Berbrugger (A): Notes Relatives à la révolte de bensakhri, op.cit, p348-350.

[2] ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص 236.

[3] Peyssonnel et desfontaine: op.cit, T1, p 269.

"ذات (الجزائر) بساتين وأزهار... وعسكرها غزات (كذا) وفرسانها عقبان ... لا يقف لبأسهم واقف ولا يذعن لرجعتهم راجف، ما بغى عليهم باغية إلا خاصموه، ولا طاغية إلا حاربوه فهزموه وفصموه والآن ضعفت الرعية فعظمت البلية وحلت الرزية وذاق المعاش، لما كثرت الأوباش وضاعت الفقراء، إذ حارت الأمراء وعظم الخطب وتضاعف الكرب ونغص العيش طاغية من طواغي البادية فعظم الخطب وحلت الداهية..."[1]

بهذا يمكن القول أن ثورة ابن السخري كانت أول تعبير صريح عن رفض الجزائريين للظلم العثماني بل أن الشروط التي كانت تنص عليها بنود الاتفاق بين الثوار والعثمانيين تدل على أكثر من ذلك؛ إذ يبدو من هذه الشروط أن الرعية وعلى رأسها الأسر المحلية الحاكمة كانت على درجة من الوعي السياسي والوطني. وإلا فكيف نفسر رفض الثوار دفع الضريبة للسلطة المركزية وهي الدليل الوحيد على خضوعهم لهذه السلطة وأكثر من ذلك وقوفها إلى جانب أبناء الوطن من الكراغلة الذين طردوا من الجزائر إثر ثورتهم سنة 1046هـ/1636م وحرمانهم من جميع امتيازاتهم وعلى الأخص حقهم في المناصب الحكومية خوفا من اتحادهم مع أخوالهم ضد الحكم العثماني، فتبني قضية كهذه من طرف الثائرين لا يمكن تفسيره إلا ببروز الشعور الوطني بين الرعية وذلك نتيجة لما أحس به هؤلاء من ظلم في الحكام العثمانيين وسنلاحظ من خلال تعرضنا إلى ثورة ابن الأحرش آخر ثورة عامة في العهد العثماني أن هذا الشعور سيتعمق ويقوى على حساب العصبية القبلية التي كانت سببا في ضعف الثورات السابقة.

---

[1] وقد عقب الشيخ البوعبدلي على نص هذه الرسالة بقوله: "والطاغية هذا هو السخري رئيس قبيلة الذواودة". أنظر، مقدمة الشيخ البوعبدلي لكتاب الراشدي لأحمد بن محمد بن سحنون: الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، ص59.

2°. ثورة ابن الأحرش[1] (1219-1221هـ/1804-1807م):

إذا كانت ثورة ابن السحري ثورة منظمة تزعمها شيوخ الأسر الحاكمة بالبايلك والتف حولها الرعايا لأغراض اقتصادية وشخصية، فإن ثورة ابن الأحرش[2] كانت أعمق وأكثر شعبية وأهدافها أبعد؛ إذ كانت تهدف إلى قلب النظام العثماني ليس بالبايلك فحسب بل بالجزائر ككل.

وأهم ما دفع على هذا الاعتقاد ظهور الطريقة الدرقاوية على رأس الثورة شرق الجزائر وغربها، وقد تزعمها بالشرق إبن الأحرش وبالغرب ابن الشريف، وكلاهما مقدم للطريقة الدرقاوية وإن لم يفصح الزعيمان على اتفاقهما المسبق على الثورة ضد الحكم العثماني[3]. فبعد التطورات الخطيرة التي وصل إليها الحكم العثماني في نهاية القرن 12هـ/18م وما انجر عنها من ظلم الحكام للرعية وإرهاقهم لها بالضرائب والتقرب، في المقابل، من العناصر اليهودية التي سيطرت تدريجيا على اقتصاديات البلاد، بدأ بعض المرابطين والمتصوفة يتخلون على تأييدهم التقليدي للحكام العثماني ويقفون ضدهم لأنهم أخلو بالقواعد الإسلامية المبنية على الأخوة والمساواة بين المسلمين، وتقربهم من اليهود إلى حد اشتراكهم في الحكم، لذا اتخذ هؤلاء مسؤولية الدفاع على الإسلام والمسلمين بالبلاد فشرعوا في التحضير للثورة ضد الظلم والفساد العثماني.

---

[1] **عبد الله محمد الشريف الدرقاوي الملقب بـ ابن الأحرش**: هو مقدم الطريقة الدرقاوية مغربي الأصل حضر الحملة الفرنسية على مصر في سنة 1212هـ/1798م وهو في طريق عودته من البقاع المقدسة، شارك في صد الحملة الفرنسية بشجاعة قبل أن يعود إلى المغرب العربي، استقر بساحل الشرق الجزائري حيث بنى زاويته في منطقة القبائل "بني فرقان" قرب جيجل ومن هناك بدأ يبث روح الثورة في نفوس القبائل ويجمع القوات والأموال لإعلان الثورة. أنظر:
Berbrugger: Un chef kabil, 1804, R.A, 1858-59, pp 210-211.

[2] حظيت هذه الثورة، عكس الثورة السابقة، بالعديد من الدراسات. أنظر، الغالي الغربي: المرجع السابق، ص157 وما بعدها.

[3] الغالي الغربي: نفس المرجع، ص160.

وقد كانت ثورة ابن الأحرش الثمرة الأولى لهذا الاتجاه إلا أن هذه الثورة رغم تأييد المرابطين لها والتفاف الرعية حولها باسم الدين فإن أسبابا خارجية أقحمت بها، فقد ربط الفرنسيون ثورة ابن الأحرش بالصراع الفرنسي الانجليزي بالمنطقة واتهموا الانجليز بتحريض ابن الأحرش منذ التقائهم به في مصر،[1] على عرقلة المصالح الفرنسية بالجزائر، وقد استدلوا على ذلك بالمساعدات التي قدمها الأنجليز للثائر في مصر؛ إذ خصصوا له ولرفاقه عددا من البواخر لنقلهم إلى شمال إفريقيا[2]، وتقول المصادر الفرنسية أن الثائر كان يصرح بميله للإنجليز وكرهه للفرنسيين منها قوله في احدى خطبه أمام القبائل:" أن هؤلاء الإنجليز قد حرروا الأرض من مغتصبها (الفرنسيين) لذلك أمرنا الله أن نعاملهم معاملة حسنة"[3].

والحقيقة أن ثورة ابن الأحرش تزامنت مع اشتداد الصراع الفرنسي الإنجليزي على أملاك الدولة العثمانية، وقد انتهز الإنجليز فرصة التنافر الذي حصل بين الجزائر وفرنسا بسبب حملة نابليون على مصر 1212هـ/1798م، للتقرب من الجزائر والحصول منها على ما كان للفرنسيين من امتيازات بها. إلا أن عودة التقارب بين الطرفين، الفرنسي والجزائري، وخاصة بعد اتفاقية 1217هـ/1802م، التي أعادت لفرنسا جميع امتيازاتها بالجزائر،[4] أزعج الإنجليز فعملوا على إثارة الوضع بالبلاد عن طريق ثورة محلية عارمة للإطاحة بالحكم العثماني وضرب المصالح الفرنسية بالبلاد وقد كان أول عمل قام به الثائر،

[1] سبق وأن أشرنا إلى أن ابن الأحرش شارك في صد الحملة الفرنسية على مصر، وقد أعجب الانجليز بشجاعته في الدفاع عن مصر وأحسوا بكرهه للفرنسيين الأمر الذي جعلهم يعتمدون عليه في ضرب المصالح الفرنسية بالجزائر.

[2] Vayssette: op.cit, p 268.

[3] Berbrugger: Un chef kabil, op.cit, p211.

[4] وقعت الاتفاقية بين مصطفى باشا من الجانب الجزائري و *Dubois Thanville* من الجانب الفرنسي، وقد نصت المادة الثالثة منها على إعادة بناء وتسيير المؤسسات الفرنسية بالساحل الشرقي للجزائر. أنظر: الزبيري محمد العربي: التجارة الخارجية...، لمرجع السابق، ص 103.

حسب مصادر فرنسية دائما، هو الهجوم على الحصن الفرنسي (الباستيون) بالقالة، فقد ذكر الباحث "*Berbrugger*" أن أول ما قام به الثائر هو تسليح مركب بجيجل ومهاجمة الصيادين الفرنسيين على رأس 60 من الصعاليك "*Bandits*" فقتل عدد منهم وأسرى 54 رجلا بجبال المنطقة[1].

كل هذا كان الفرنسيين يؤكدون به على وقوف الإنجليز وراء هذه الثورة إلا أن مصادر أخرى تشير إلى أن قوة خارجية أخرى كانت وراء هذه الثورة وهي قوة باي تونس "حمودة باشا" الذي كان ينتظر أية فرصة للإطاحة بحكام الجزائر لما كان بين الطرفين وهو ما أشار إليه كل من "أحمد الشريف الزهار" في مذكراته[2] و"محمد بن الأمير عبد القادر" في مؤلفه "التحفة المرضية"[3] بقولهما أن ابن الأحرش نزل بتونس عند عودته من الحج وهناك التقى بالباي "حمودة باشا" الذي أكرمه وقبل مغادرته البلاد اقترح عليه التعاون معه على قلب الحكم بالجزائر ووعده بالدعم المالي والسلاح.

بهذا اتفقت المصادر العربية والفرنسية على أن ثورة ابن الأحرش كانت مدعمة من الخارج فضلا عن أن قائدها نفسه لم يكن من أبناء المنطقة، إلا أن هذا لم يمنع بالتفاف قبائل الساحل الشرقي بالجزائر حول ابن الأحرش وذلك لعدة اعتبارات:

- التذمر العام الذي ساد أوساط السكان من الظلم المتزايد للحكام االعثمانيين.
- الاتجاه الجديد للسياسة العثمانية في التعامل مع اليهود والنصارى.
- تضييق الخناق على أهل البلاد.

---

1 Berbrugger: Idem, op.cit, p211.

2 الشريف الزهار (أحمد): المصدر السابق، ص 85.

3 أنظر الغالي الغربي: المرجع السابق، ص 169، عن محمد بن الأمير عبد القادر:التحفة المرضية، ص 117.

- بالإضافة إلى قوة شخصية قائد الثورة نفسه؛ إذ كان يتمتع بشجاعة كبيرة وفصاحة خاصة في إلقاء الخطب والقدرة على الإقناع. كما أن نسبه الشريف وادعائه الولاية (في أنه ولي صالح) جعل الرعية تلتف حوله باسم الجهاد والاسلام.

ومن بين ما كان يقنع به أتباعه قوله: "أنه صاحب الوقت وأن دعوته مستجابة والنصر يتبعه حيث ما يتوجه وبارود عدوه لا يضره ولا يصيب أتباعه، بل يرجع إليهم ماء..."،[1] وقد زاد من شعبية ابن الأحرش اعلانه الثورة على الامتيازات الفرنسية التي كان السكان يرون فيها التحالف العثماني الأوربي ضد مصالحهم[2]، ومن أهم القبائل التي ناصرت ابن الأحرش: مسلم، أولاد عيدون، وبني خطاب بالإضافة إلى ما انضم إليه بعد إعلانه الثورة مثل أولاد دراج، قبيلة أولاد ماضي، عياض، أولاد خلاف، أولاد براهم، وأولاد ثابت الذين كانوا من أتباع أسرة المقراني وانفصلوا عنها للالتحاق بثورة ابن الأحرش.[3]

- **بداية الثورة والهجوم على قسنطينة:**

بعد أن جمع ابن الأحرش عددا كاملا من الأتباع من قبائل ساحل البايلك عن طريق دروسه الدينية والحث على الثورة من خلال هذه الدروس التي كان يلقيها على مريديه بمسجد "سيدي الزيتوني" بجيجل ثم بالزاوية التي بناها بمبنى "فرقان" حيث أطلع شيوخ القبائل على نية تخليص البايلك من الحكم العثماني فاستجاب له الجميع. لذلك بدأ في احتلال المناطق الساحلية وطرد الحاميات التركية من جيجل والقل وعنابة، وأصبحت جميع المناطق الساحلية تحت امرته.[4]

---

[1] العنتري (صالح): مجاعات قسنطينة، ص ص 29-30.

[2] هذا عكس ما كانت تراه الأسر الحاكمة التي وقفت ضد هذه الثورة.

[3] Merad Boudia (A): op.cit, p348.

[4] الغالي الغربي: المرجع السابق، ص 164.

بعد هذا بدأ ابن الأحرش يستعد لمهاجمة قسنطينة عاصمة البايلك واستطاع في فترة وجيزة أن يجمع حوله أكثر من 10 آلاف مقاتل،[1] وتم الهجوم على المدينة في ربيع الثاني 1219هـ/جوان 1804م، وقد استغل الثائر غياب الباي عصمان عن المدينة؛ إذ كان على رأس المحلة لجباية الضرائب من منطقة "ريغة" قرب سطيف، إلا أن المدينة، رغم هذا الغياب لم تستسلم لهجوم ابن الأحرش، ونظمت مقاومة شديدة تحت زعامة شيخ الإسلام "محمد بن عبد الكريم الفكون" وقائد الدار "أحمد ابن الأبيض" الذي كون جيشا من السكان قدر بـ 1000 رجل وبعد معركة خارج المدينة كان فيها النصر، حسب العنتري، لسكان قسنطينة وسقط من أتباع ابن الأحرش حوالي 200 قتيل،[2] عاد السكان ليحتموا بأسوار المدينة ولم يتمكن الثوار[3] من اقتحامها، وهنا أصيب ابن الأحرش بجروح خطيرة أسقطت ادعاءاته القائلة بأنه محمي بالقدرة الإلهية ولا يمكن أن تصيبه نيران العدو، وفي نفس الظروف هاجم بعض القبائل القوات العثمانية بالأرياف منها هجوم السقنية، جنوب قسنطينة، على برج الفسقية الذي بناه صالح باي وجعله مقرا للقبائل المخزنية المكلف برعاية خيل البايلك فهدموا البرج وشردوا قبائله.[4]

- **هزيمة وادي الزهور:**

بعد الانسحاب من قسنطينة استقر ابن الأحرش في شبه جزيرة السبع رؤوس بجبل بني فرقان للاحتماء به ضد أي محاولة من باي قسنطينة لمطاردته

---

[1] هذا ما يذكره العنتري (صالح): مجاعات قسنطينة، ص30، في حين يقدر *Vayssette* عدد القوات بـ 60 ألف مقاتل. أنظر.Vayssette: op.cit, p 268وهناك من يقول 70 ألف. أنظر، الغالي الغربي: المرجع السابق، ص164.

[2] العنتري (صالح): مجاعات قسنطينة، ص30-31.

[3] حول سير هذه المعارك أنظر الخريطة التي وضعها الغالي الغربي: المرجع السابق، ص226.

[4] كان مقر قبائل الزمول وقد بقي مهدما ولم يعد بناؤه إلا في عهد تشاكر باي سنة 1231هـ/1816م. أنظر المركز التقني لمسح الأراضي لولاية قسنطينة (قبيلة الزمول).

والقبض عليه إلا أن هذا الأخير لم يفكر في الصعوبات التي تواجهه أثناء مطاردته للثائر ونظم حملة كبرى للهجوم على منطقة بني فرقان. ولدعم قوات الباي أرسل له باشا الجزائر أربع مراكب رست بمرسى الزيتون شرق وادي الزهور في محاولة للقبض على الثائر وتحويل أنظار الرعية عنه[1] إلا أنه لم يتمكنوا من ذلك الأمر الذي زاد من ثقة أتباعه في نجاحه.

بعد فشل قوات باشا الجزائر تحرك عصمان باي من قسنطينة باتجاه بني فرقان التي وصلها في بداية رجب 1219هـ/1804م ووجه جميع قواته[2] من فرسان ومدفعية لضرب مواقع القبائل الثائرة إلا أنه وقع في كمين أوقعته فيه قبائل المنطقة وذلك أنهم حولوا مجرى وادي الزهور نحو السهول التي كان يعسكر بها الباي فأغرقت معظم قواته قبل أن يُقتل الباي ومن بقى من جنده في معركة دامية أثناء محاولة الباي الإفلات من محاصرة القبائل.

وقد قدرت المصادر خسائر الباي في هذه المعركة بـ 500 قتيل تركي بالإضافة إلى الباي و3 من نوابه والعديد من فرسان المخزن، وبما أن الباي كان قد حمل معه أموال البايلك على عادة حكام ذلك الزمان فإن القبائل تمكنوا من جمع هذه الأموال والأسلحة.[3]

عند وصول خبر هذه الهزيمة أرسل أعيان قسنطينة وعلى رأسهم شيخ الإسلام "محمد ابن الفكون" رسائل إلى الباشا للإسراع بتعيين باي جديد على المدينة فأرسل "عبد الله باي" الذي أمره بالقضاء الفوري على ابن الأحرش

---

1 يقول حمدان بن عثمان خوجة أن الباي حاول إغراء شيوخ القبائل بالأموال لخيانة زعيمهم والتخلي عنه إلا أنه فشل. أنظر، المرآة، ص170.

2 تشكلت قوات الباي من 4000 مقاتل تركي و3500من قبائل المخزن ترافقهم 4 قطع من المدفعية. أنظر، الغالي الغربي: المرجع السابق، ص165.

3 أنظر كلامن العنتري: الفريدة المؤنسة، المصدر السابق، ص 45، و Berbrugger: Un chef kabil, op.cit, pp212-213.

الذي يقول عنه العنتري أنه اختفى في هذه الفترة و لم يعد إلى الثورة،[1] في حين يقول "فايسات" وغيره من المراجع أن الثائر لم يظهر حتى سنة 1221هـ/1806م على رأس الثوار بمنطقة بجاية قبل أن يُقتل في السنة الموالية 1222هـ/1807م بمنطقة الرابطة قرب سطيف،[2] أما الشيخ "المهدي البوعبدلي" فيقول في مقدمته لكتاب الثغر الجماني أن ابن الأحرش لم يُقتل في موقعة الرابطة قرب ميلة وإنما أشيع ذلك، لأنه ظهر بعد ذلك بأسابيع في حصاره لبجاية مع جمع غفير من الأتباع وبعد أن هزم عدة مرات بشرق الجزائر انسحب إلى الغرب حيث التحق بزميله "ابن الشريف عبد القادر" بمنطقة وهران وحظر معه عدة معارك من أهمها معركة "جديرية" ثم شاع خبر وفاته للمرة الثالثة وقيل أن ملك المغرب طلب نقل جثمانه إلى المغرب حيث دفن بمدينة فاس.[3]

- **موقف الأسر المحلية الحاكمة من ثورة ابن الأحرش:**

عكس ثورة ابن السخري التي شاركت فيها معظم الأسر المحلية الحاكمة بالبايلك ووقفت ضدها الأسر الدينية فإن ثورة إبن الأحرش وجدت دعما من المرابطين ورجال الدين أمثال الزبوشي[4] مقدم الطريقة الرحمانية بمنطقة القبائل والذي لعب دورا كبيرا في تحريك هذه الثورة للدعاية لها بين القبائل في حين وجدت معارضة شديدة من طرف الأسر الحاكمة التي وقفت إلى جانب القوات العثمانية في القضاء على هذه الثورة، وقد كانت أسرة المقراني من أهم القوى التي دعمت صفوف عصمان باي في حربه ضد ابن الأحرش حتى أن

---

1 العنتري: الفريدة المؤنسة، المصدر السابق، ص 50.

2 Vayssette: op.cit, pp275-276. Berbrugger: Idem, p213.

3 مقدمة الشيخ البوعبدلي لكتاب الراشدي أحمد: الثغر الجماني، ص ص 42-43.

4 كان المرابط الزبوشي في ثورة على باي قسنطينة لأسباب شخصية تمثلت في حرمانه من بعض الامتيازات منها الإعفاء من الضريبة، وكان قد فر إلى مرتفعات عراس قرب الوادي الكبير لإعلان الثورة ضد الباي، ولذلك كانت ثورة ابن الأحرش فرصة للتحالف ضد العدو المشترك وهو الباي العثماني، أنظر الغالي الغربي: المرجع السابق، ص162.

أحد شيوخها "عبد الله" كان قد سقط بين قتلى معركة وادي الزهور ولذا اعتبرت أسرة المقراني المنفذ الأول للبايلك من السقوط في هذه الفترة؛ إذ بالإضافة إلى مشاركتها في المعارك التي خاضها الباي ضد القبائل الثائرة كانت قواها قد أخمدت العديد من الثورات في غرب البايلك التي قادها بعض القبائل أمثال أولاد دراج وأولاد ماضي وعياد وغيرها ضد الحكم العثماني المساندة لثورة ابن الأحرش[1].

و لم تكن مساندة الأسر المحلية الحاكمة للحكم العثماني ضد هذه الثورة إلا تمسكا بزعامتها على مناطق نفوذها التقليدية وليس تمسكا بالحكم العثماني في حد ذاته لأننا كما لاحظنا من تاريخ هذه الأسر أنها لم تكن في يوم من الأيام على وفاق تام مع الحكم المركزي، بل كانت مصالحها هي التي توجه مواقفها من أي حركة، وثورة ابن الأحرش كانت تهدد هذه الأسر بانسلاخ القبائل عنها وبالتالي تقليص نفوذها ثم فقدانها النهائي للزعامة بالمنطقة.

فشلت ثورة ابن الأحرش في تحقيق هدفها وهو القضاء على الحكم العثماني إلا أنها كانت صورة صادقة على اجتماع كلمة الرعية، ليس تحت الزعامة القبلية وهذا لأول مرة، وإنما تحت زعامة روحية دينية أحسوا أنها تعبر عن أمانيهم للتخلص من الحكم العثماني وقد استمر هذا الاتجاه لتكوين حكم محلي حتى بعد فشل هذه الثورة والدليل على ذلك استمرار الثورات في مختلف أنحاء الجزائر، والتفاف القبائل خاصة بعد دخول الفرنسيين للجزائر، حول زعماء محليين أطلقوا عليهم اسم باي الرعية وهو، في اعتقادي بداية وجود وعي وطني وبداية تبلور عناصر وطنية جزائرية كامنة.

---

[1] Boudia (A): op.cit, p348. Et Rinn Louis: Histoire de l'insurection de 1871…, p15.

الخاتمة

بعد هذا العرض المطول لتاريخ أهم الأسر المحلية الحاكمة ببايلك الشرق الجزائري، ودراستنا لدورها الهام في تسيير شؤون البايلك، الإدارية والإقتصادية والسياسية، وعلاقة هذه الأسر بالحكام العثمانيين يمكن أن نستخلص عدة نتائج أهمها:

1. أن السياسة العثمانية، التي اتسمت بالمرونة والمحافظة على الوضع القديم بالولايات العثمانية عامة، والعربية على وجه الخصوص، كانت من بين أهم أسباب إستقرار الحكم العثماني بهذه الولايات وكذا حفاظ الحكم المحلي على نفوذه بالبلاد، وهو ما برز بوضوح في بايلك قسنطينة، حيث اعترفت السلطة العثمانية بسيادة الأسر الإقطاعية الكبرى بالبايلك، وهي خمس أسر رئيسية: أسرة بوعكاز الذواودة، أسرة أحرار الحنانشة، أسرة بني جلاب، أسرة المقراني وأسرة بن قانة.

فرغم إحتكار الأقلية العثمانية للحكم المركزي بمدينة الجزائر، فإن هؤلاء الحكام لم يعملوا على افتكاك السلطة الإقليمية من أصحابها القدامى وهذا بأمر سلطاني، فلم يحاول العثمانيون فرض سيطرتهم على المجتمع الجزائري و لم يعملوا على التدخل في شؤونه الداخلية، بل تركوا الأمر بين أيدي حكامه المحليين، لذا لم تكن لهم مشاريع إقتصادية وإجتماعية أو ثقافية توحي باهتمامهم بالوضع الداخلي للبلاد، بل أنهم لم يحاولوا فرض حكمهم المباشر على السكان واكتفوا بالاعتماد على من كانوا يثقون فيهم من العناصر المحلية وعلى رأسها الأسر ذات النفوذ السياسي و الديني والعسكري بالبلاد.

في هذا الإطار أبقى هؤلاء على الحكم الأسري الذي برز في نهاية العهد الحفصي بأرياف شرق الجزائر، كما أشركوا عددا من الأسر الحضرية في إدارة مدن البايلك وشجعوا القبائل على الإستقرار التدريجي بضواحي المدن والقرى بإسناد مهام عسكرية واقتصادية لها، جعلت منها قبائل مخزنية هامة لعبت دورا

كبيرا في حفظ الأمن وتثبيت الحكم العثماني بالبايلك لفترة تزيد عن الثلاثة قرون.

وقد نجح العثمانيون، بهذه السياسة، في تكوين شريحة إجتماعية قوية موالية لهم تكونت من الأسر الإقطاعية ذات الشهرة العسكرية (الجواد) والأسر الدينية وعلى رأسها الأسر المرابطية، وقد استعمل هؤلاء الحكام عدة وسائل للمحافظة على علاقة الوفاق التي ربطتهم بهذه القوى المحلية، منها إستغلالهم للعاطفة الدينية التي عرف بها سكان المنطقة وزعماؤهم وخاصة في بداية العهد العثماني، حيث كانت الجزائر تواجه الغزو الصليبي الإسباني، ثم عمد هؤلاء إلى ربط شيوخ هذه الأسر بهم عن طريق المصاهرة وتكبيلهم بمختلف الإمتيازات المادية والأدبية حتى أن الكثير من الأسر المرابطية تحولت، بفضل هذه الإمتيازات، إلى أسر إقطاعية هامة شاركت من قريب أو بعيد في الحياة السياسية والإدارية بالبايلك، وكانت خير سند للحكام العثمانيين طوال فترة تواجدهم بالجزائر.

والواقع أن سكان بايلك قسنطينة قد استفادوا من هذه السياسة وخاصة من الناحية الإقتصادية، حيث لم تكن الإدارة العثمانية تقيد نشاطاتهم بقوانين قد تعرقل أعمالهم بل لم تكن تدخلات هذه الإدارة تتعدى عملية جباية الضرائب.

2. أن مساهمة الأسر المحلية في تسيير شؤون البايلك كانت مساهمة واضحة ومباشرة سواء بالمدينة أو بالريف، وقد أثبت ذلك احتكار أسرة فرحات القسنطينية لمنصب الباي بعاصمة البايلك لفترة قاربت، حسب صالح العنتري، القرن من الزمن، (1647-1710م)، بالإضافة إلى توراث عدد من الأسر بنفس المدينة لمجموعة من الوظائف السامية بالبايلك، ولم يحتكر العثمانيون منصب الباي بقسنطينة إلا إبتداء من القرن 12هـ/18م.

أما بأرياف البايلك فسلطة شيوخ القبائل والأسر الحاكمة كانت شبه مطلقة، حيث كانت القبائل لا تعترف بغير سلطة شيوخها، الذين كانوا يمثلون

في نظرها، السلطة الحقيقية والمباشرة، ولم يكن اعترافها الاسمي بالعثمانيين إلا انسياقا لإرادة زعمائها المحليين. وقد ثبت ذلك مرارا في حالة عداء هؤلاء الزعماء للسلطة المركزية، حيث كانت القبائل تستجيب لأي أمر يصدر إليها من شيوخها لضرب القوات العثمانية.

3. أن تذبذب علاقة شيوخ القبائل بالسلطة المركزية العثمانية، بين الوفاق والعداء، يدل دلالة واضحة على أن هذه العلاقة لم تكن علاقة تابع بمتبوع أو محكوم بحاكم، وإنما علاقة تعاون وتحالف قد تتعرض إلى شرخ يتسبب فيه عادة بعض الحكام العثمانيون الذين يغامرون باستعمال العنف ضد القوى المحلية، وما المعارك والخصومات التي وقعت بين الطرفين، مثل ثورة أحمد بن السخري سنة 1638م، إلا دليل على رفض هؤلاء الحكام المحليين الخضوع التام للسلطة المركزية وتمسكهم باستقلالهم الذاتي.

ومهما يكن نوع هذه العلاقة فإن الأسر الحاكمة استطاعت أن تحافظ على نفوذها ووزنها السياسي الهام ببايلك قسنطينة طوال الفترة العثمانية، ورغم سلبيتها هي الأخرى، تجاه المشاريع التنموية للمجتمع واقتصار دورها على الإشراف العام على الحياة القبلية بمناطق نفوذها، فإنها كانت تمثل فعلا همزة وصل بين الحكام والرعية فكانت من جهة، ونتيجة لولائها الطوعي والمشروط للحكم المركزي، تحافظ على أمن البلاد وتعمل على ترسيخ الحكم العثماني بها، عن طريق جباية الضرائب، ومن جهة أخرى ترعى مصالح أتباعها وأمنهم الداخلي.

إلا أن هذا الدور المزدوج للأسر المحلية الحاكمة لم يدم طويلا؛ إذ استطاع بايات قسنطينة، عن طريق الإمتيازات المختلفة أن يحولوا بعض هذه الأسر إلى أداة طيعة لقمع الرعية خدمة لمصالحها الخاصة ومصالح الحكم المركزي، الأمر الذي ولد كرها لدى السكان تجاه هذه الأسر والحكام العثمانيين على حد سواء، وهو ما زاد من تأزم الوضع بالبلاد وظهور الثورات الشعبية، خاصة في

مطالع القرن 13هـ/19م قصد التخلص من ظلم الحكام العثمانيين وحلفائهم من الأسر الحاكمة، وإن كانت مصالح الطرفين قد تصادمت هي الأخرى في النهاية وأدت إلى نشوب صراع بين بعض هذه الأسر وسلطة البايات في قسنطينة، وقد لعبت سياسة "فرق تسد"، التي طبقها الساسة العثمانيون بين الأسر المحلية الحاكمة في بايلك قسنطينة قصد إضعافها، الدور الأكبر في بث الشقاق بين مختلف الأسر وكانت النتيجة تفككها وضعفها وزوال نفوذها تدريجيا.

4. أن السياسة العثمانية كانت قد ساهمت في تفكيك المجتمع الجزائري أو الإبقاء على هذا التفكك، الذي عرفه منذ نهاية العهد الحفصي، وهو ما أفقد الجزائر قوة وطنية متماسكة وموحدة قادرة على الوقوف في وجه الإستعمار الفرنسي والدليل على ذلك تفرق وتعدد المقاومات الشعبية في بداية الإحتلال الفرنسي للجزائر.

والحقيقة أن الإستعمار الفرنسي رأى في الأسلوب العثماني في التعامل مع الأسر المحلية سياسة ناجحة سمحت للحكم العثماني بالاستقرار بالجزائر أكثر من ثلاثة قرون، فانتهج نفس السياسة وتقرب من مختلف الأسر ذات النفوذ بالبايلك للإستفادة من نفوذها في إخضاع المجتمع إلا أنه سرعان ما افتك منها سلطتها وأخضعها مباشرة للسلطة المركزية مما أشعل نار الثورة في جميع أرياف البايلك.

الملاحق

الملحق الأول:

قائمة بأسماء بايات قسنطينة العرب:

اسم الباي	وصف صالح العنتري للباي	تاريخ تولي الباي للحكم
1 فرحات باي	ورجعوا حاكم من البلدية... لم يجدوا أهل البلاد رجلا أحسن من سي فرحات كان ذا عقل ودار كبيرة فاتفقوا عليه وخيروا حضرة الباشا به فكتب له الأمر وأرسل له القفطان، ص8	1056هـ/1647م
2 محمد باي بن فرحات[1]	طلب(فرحات باي) من الباشا أن يسرحه ويرجع باي آخر...فلم يرض بعزله ولا الأكابر الذين قدموا معه من قسنطينة بل قالوا له إذا لم يقدر هو فابنه فقال لهم الباشا وما اسم ابنه قالوا اسمه محمد فقال لوزيره أكتب الأمر إليه ص 9	1063هـ/1653م
3 رجب باي	تولى رجم باي...وهو عم محمد باي بن فرحات فكان رجم باي سيرته مليحة واقف في حقوق الناس وهو الذي بنى في قسنطينة جامع يتسمى بجامع رحبة الصوف ص9	1077هـ/1666م
4 خير الدين باي	تولى عام أربعة وثمانين ...وجميع ما ذكرنا كلهم عرب ومن بعدهم تولوا الترك ص10	1084هـ/1672م
5 علي خوجة باي بن فرحات	وكان رجل مليح أحكامه بالعدل وسيرته مرضية ص10	1104هـ/1692م
6 أحمد خوجة باي	وهو ولد أحمد بن فرحات باي...وهو أخو محمد باي بن فرحات ص13	1112هـ/1700م
7 حمودة باي	وهو عربي من أهل البلاد ص14	1119هـ/1707م
8 علي باي بن حمودة	وهو عربي أيضا ص14	1120هـ/1708م
9 عبد الرحمن باي بن فرحات	تولى عبد الرحمن باي بن فرحات..ومن بعده تولى دنقزلي باي...وهو تركي ص14	1122هـ/1710م

[1] تشير بعض المراجع مثل: *Mercier : Histoire de Ctne,p220* إلى أن أحد بايات قسنطينة كان يحمل نفس الاسم "محمد باي بن فرحات" تولى حكم قسنطينة سنة 1586م وكان عربيا و قتل سنة 1607م في معركة ضد الإنجليز بميناء سطورة .

الملحق الثاني: فرمان سلطاني يأمر بالعفو عن أحد شيوخ القبائل العربية "المدعو عباس" ولعله شيخ أسرة المقراني، المسيطرة على غرب بايلك قسنطينة، ويأمر بالإبقاء على حكمه الإقليمي ما دام خاضعا للسلطة المركزية العثمانية (الرسالة مترجمة من اللغة العصمنلية) الأرشيف الوطني.

رئاسة الجمهورية

الجمهورية الجزائرية
الديمقراطية الشعبية

الامانة العامة

الجزائر في :

مهمة دفترى رقم 24   صحيفة 72   حكم رقم 221

بتاريخ 12/14 ...1

اعطى الى اسكندر جاوش

ليكتب حكم الى امير امراء جزائر الغرب

ارسل احمد باشا امير الامراء السابق للجزائر بخطاب اعرب فيه عن اطاعة وانقياد المدعو عباس، احد مشايخ العربان في الولاية المذكورة. لذا فقد رجا اصدار حكمنا الشريف لاجل السماح للمذكور بحرية التصرف بالاراضي (الاوطان) التي كانت بايديه كما كان يتصرف بها سابقا، وعليه، فقد امرنا :

بعدم التعرض والتدخل في شؤن المذكور، والسماح له بالتصرف بما في ايديه من اراض حسب الاسلوب السابق طالما ظل ثابت القدم راسخ الدم في عبوديته ورقيته تجاه سدة سعادتنا، وطالما اظهر كمال اطاعة وانقياده لاوامرنا، وما دام مواظبا على اداء الضرائب المترتبة عليه لخزينة الجزائر، ومازال يقدم الخدمات كلما دعت الضرورة الى ذلك .

تعريب: محمد داود التميمي

الملحق الثالث: رسالة من الباب العالي إلى زعيم أسرة ابن القاضي حاكم إمارة كوكو يحثه فيها على الوقوف إلى جانب الحكام العثمانيين بالجزائر ضد الغزو الاسباني والمتمردين بالداخل (الرسالة مترجمة من العصملية)، الأرشيف الوطني.

الجمهورية الجزائرية
الديمقراطية الشعبية

رئاسة الجمهورية

الأمانة العامة

الجزائر في :

مهمة دفتري رقم 23 صحيفة 294 حكم رقم 633

بتاريخ / 23/10/31

اعطى الى كتخداء امير امراء جزائر الغرب في 22 شوال

كركر

حكم الى امير قوق (كذا) في ولاية الجزائر الغرب

ان حفظ حراسة و ضبط و صيانة ـ دار الجهاد ـ ولاية جزائر الغرب غاية مرادنا الهمايوني ، لذا ، فاننا نأمرك بمعاونة و مظاهرة امير امراء الولاية المزبورة احمد ـ دام اقباله ـ على الوجه الذي يراه المذكور مناسبا لحفظ و حراسة تلك الولاية على ما يرام و امرانا :

بالا تتوانى عن اظهار شهامتك و بسالتك المتأصلة في نفسك الشجاعة ... وان تبدي جل اشتمامك سواء كان لدفع الاعداء و المعاندين ، او لحفظ القلاع و البلاد على الوجه الذي يراه المشار اليه ـ دام اقباله ـ مناسبا ، و عليك المقدور و السعي ... في الخبرة على دين سيد المرسلين المبين ، و في سبيل الامور المتعلقة بحروس ... السلطنة المقرون بسعادتنا .

صورة هذه ايضا (اعطيت الى كتخداء امير امراء جزائر الغرب في 22 شوال)

كتبت الى الامير و(ـ) امير عساكر .

تعريب محمد داود التميمي

* لم يذكر اسم الامير ، بل ترك فراغا

الملحق الرابع: رسالة من مصطفى باي إلى شيخ أحرار الحنانشة "خالد منصر" يأمره بحماية زاوية قلعة سنان بالحدود التونسية باعتبارها تقع ضمن مناطق نفوذه.

الملحق الخامس: رسالة من الشيخ إبراهيم بلحاج بن قانة تحمل ختم سلطان تقرت.

Fac-similé d'une lettre de IBRAHIM BEL HADJ,
portant le Sceau du Sultanat de Touggourt.

الملحق السادس: عقد شراء الباي احمد القلي لأراضي أسرة ابن باديس بالفحص الأبيض (الحامة).

<u>الملحق السابع</u>: ظهير من مصطفى باي، بتاريخ ربيع الأول1213هـ/أوت 1798م، يبين امتيازات زاوية سنان بالحدود التونسية.

الملحق الثامن: رسالة من الشيخ فرحات بن سعيد إلى القائد الأعلى للقوات الفرنسية يعرض عليه التعاون ضد الحاج أحمد باي (1247هـ/1832م).

الملحق التاسع: رد من الجنرال "دوروفيڤو" على رسالة فرحات بن سعيد.

voir de G.al en chef à Alger et l'engager à continuer la guerre contre le bey de Constantine

9

1832



الحمد لله وحده وكفى والصلاة والسلام على عبيده الذين اصطفى

من سعادة الجنيرال الكبير الى حضرة الشيخ فرحات بن المسعود نعلمكم انه وصلني
البراة التي كتبتوها الي تحقق عندي انك عندك المقدرة والقوة المطاردة
احمد باي الذي اخذ حكومة قسنطينة من غير شريعة يستحق ان تداوم
على مطاردته وان تعمل معاه كل مقدرتك لخرابه ويلزم تخبر كل اهل
شكلان بلاد ودواير قسنطينة ان احمد باي لم ينجح على مداومة معصيته ويعطلها وان اهل بلاد قسنطينة
وان الساعة التي يجب ان يحارب بها راها قريبة ولا تقبل الغرامات
لازم يعرفوا الذي هو لمصلحتهم لان فرانسة ما يمكن تبعهم
التي انزعت لاحمد باي ويلزمهم ان يرجعوها من اخر في المستقبل
ويلزم ان تقول لهم ايضا ان فرانسة لا تنسى اجمالهم الجميل اذا طاردوا
احمد باي وخرجوه من اوطانهم وانا اريد واحب واشتهي ان
اشوفك واتكلم معك لما تريد ان تجي ويكون تحقق عندك ان من بعد
اجتمعنا معك ترجع لمحلك بالسلام ولا تخاف ولا تخشى من باس
واعطيك امان الله وامان انبياه ورسل الله حتى على اي نوع كان
وان كنت تحب تحضر معك خمسين عود وخمسين زايلة يحمل
حتى من هو كبير وادفع لك تمنهم حالا واطلب من الله ان يحفظك
ويغنيك بالصحة والسلام وان ايلهمك لما فيه الخير لمصلحتكم وفائدتكم
ولما تجوا لعندنا جيبوا معاكم كافة كبار المشايخ الذين بطرفكم وتحت
حكمكم تحريرا بالجزائر بدار السلطنة في الثالث والعشرين من شهر شعبان عام ١٢٤٧

بامر سعادة الجنيرال
دوروفيكو الجنيرال
الكبير

الملحق العاشر: رسالة من الشيخ "باي بن سعيد" أخ فرحات بن سعيد إلى الحاكم العام الفرنسي يعلمه بسجن الأمير عبد القادر لأخيه فرحات واتهام السكان لأسرته بالخيانة لتعاونهما مع القوات الفرنسية.

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد

من الكاتب عن اذن السيد الحاج باي بن السعيد اخ
فرحات الى الجنرال بالبليدة الذي اعلمكم به وانتم تنصحون والبلد
ومحسنين عليكم والناس كلهم تحبوا فينا وتخشى
فينا وان اخانا فرحات ربطه الحاج عبد القادر
دروا انتم في البليدة لا بد تكلم المسلمين ان كان
الحاج عبد القادر يطلقه واعلمكم الناس كلهم
تكرههم واما عرب الذي جعلوه فرحات بن الحاج
وبن بلاد شيخ ... ان توقع رفاقه الى الحسين
بن عزوز خليفة الحاج عبد القادر وقال له
هذا انخرج اهله وتخذ عقاله معاه و...
رفاقه ... في الربع بخزوز وافضته
مسكوه انسا اينا في الجبل جرد وهم ...
بعثت لكم جواب وانتم ماتعرف من بحلكم
والامر يكرههم وان كان ... الحاج
عبد القادر اعلمني ... تقضي البرتقالية
وخفت من جماعة بن الحملاوي من بعد ...
اعلمني بالكتاب الذي ... لا كنه اخوه
لنا على امر فرحات و ...

قائمة المصادر والمراجع

1°. المصادر والمراجع باللغة العربية:

أولا. الوثائق:

الوثائق غير المنشورة:

1. مديرية الوثائق بولاية قسنطينة:

- سجلات العدول لمحكمة قسنطينة (من سنة 1202هـ/1788م إلى 1273هـ/1856م).
- رسائل متبادلة بين بايات قسنطينة وبايات تونس(صور عن أرشيف المحفوظات التونسية).
- صورة من تقرير "جماعة" مدينة الكاف التونسية إلى باي تونس حول حملة باي قسنطينة وشيوخ قبائل بايلك قسنطينة، منها قبيلة الحنانشة ضد القبائل التونسية. (عن المحفوظات التونسية رقم 233 448) رقم 3.

2. أرشيف القسم التقني لمسح الأراضي لولاية قسنطينة (*Cadastre*):

- تقارير لجنة سيناتوس كانسيلت (*Sénatus-consulte*).
- قبيلة الحنانشة، رقم:138.
- قبيلة الزمول، رقم 268.
- قبيلة فرجيوة، رقم 131.

3. الأرشيف الوطني (المركز الوطني للدراسات التاريخية بمدينة الجزائر) (*C.N.E.H*)

- الأرشيف العثماني، سلسلة دفتر مهم: مراسلات سلاطين آل عثمان مع حكام الجزائر في فترة البيلربايات.
- سجل القروض للخليفة محمد الشريف ابن الباي أحمد القلي.

ثانيا. المصادر:

- ابن أبي الضياف (أحمد): إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تـــونس وعهـــد الأمان، ج2، المكتبة التاريخية، تونس، 1963.
- ابن أبي دينار (أبو عبد الله): المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، تحقيق: محمد شمام، المكتبة العتيقة، تونس 1961.
- ابن العطار (أحمد بن المبارك): تاريخ حاضرة قسنطينة، تحقيق: رابح بونار، الجزائر، 1971.
- ابن القنفذ (أبو العباس أحمد) : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق: الشاذلي النيفر وعبد المجيد التريكي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968.
- ابن حمدوش (عبد الرزاق الجزائري): رحلة ابن حمدوش الجزائري المسماة لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، تقديم وتحقيق وتعليق: أبو القاسم سعد الله، إصدارات المكتبة الوطنية، الجزائر، 1983.
- ابن خلدون (عبد الرحمن): المقدمة، دار الحكمة، بيروت، 1984.
- ابن خلدون (عبد الرحمن): كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، المجلد6، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت، 1983.
- ابن محمد بن عبد العزيز (حمودة): الكتاب الباشي، الجـــزء الأول، الـــدار التونسية للنشر، 1970.
- ابن ميمون الجزائري (محمد): التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بـــلاد الجزائر المحمية، تحقيق: محمد بن عبد الكريم، الجزائر، ش.و.ن.ت، 1972.
- أبو العباس (أحمد عبد الله الغبريني): عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، ط1، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1328هـــ/1910م.
- محمد بن عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن الفكون التميمي (محمد): كتاب النوازل، مخطوط ملك للأسرة.
- الجبرتي (عبد الرحمن حسن): عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الفارس للطباعة والنشر، بيروت، بلات.

- حمودة بن عبد محمد بن عبد العزيز: الكتاب الباشي، ج1، (قسم السيرة)، تحقيق: الشيخ محمد ماضور، الدار التونسية للنشر، 1970.
- خوجة (حمدان بن عثمان): المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق: محمد العربي الزبيري، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1982.
- الراشدي (أحمد بن محمد بن سحنون): الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم: الشيخ المهدي البوعبدلي، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1973.
- الزركشي (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللولوى): تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ط1، مطبعة الدار التونسية المحروسة، تونس، 1289هـ/1872م.
- شارل (وليام): مذكرات وليام شالر، قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824، تعريب وتعليق وتقديم: إسماعيل العربي، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1982.
- الشريف الزهار (أحمد) : مذكرات الشريف الزهار، تحقيق: توفيق المدني، ش.و .ن. ت، الجزائر، 1979.
- العنتري (صالح): سنين القحط والمسغبة ببلدة قسنطينة، منشورات تحت عنوان: مجاعات قسنطينة، تحقيق: رابح بونار، قسنطينة، 1974.
- العنتري (صالح): فريدة مؤنسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة، مراجعة وتقديم وتعليق: يحي بوعزيز، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2005.
- العياشي (أبو سالم عبد الله): ماء الموائد المشهورة بالرحلة العياشية، ج1، ط1، فاس، 1316هـ، 1898م.
- الفكون (عبد الكريم): منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تحقيق: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987.
- لاري (مصلح الدين): بشائر أهل الإيمان لفتوحات آل عثمان، مخطوط ترجمه عن اللغة التركية: حسين خوجة، 1163 هـ/1749، المخطوط بمكتبة الجامعة الإسلامية بقسنطينة.

- الماوردي (علي بن محمد): الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ديـــوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.
- مخطوط صغير الحجم جميل الخط مزين بخطوط مذهبة, مكتبـــة الجامعـــة الإسلامية, قسنطينة, رقم 53.
- مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة، ط2، ترجمة محمد العـــربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.
- نور الدين (عبد القادر)، (معلقا ومصححا): غزوات عروج وخير الدين، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1934.
- الورثيلاني (حسن بن محمد): نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت، 1394 هـــ/1974م.
- الوزان (الحسن): وصف إفريقيا، ترجمة: عبد الرحمن حميـــدة، الريـــاض، 1399هـــ/1981م.

ثالثا. المراجع:

- أبو الضيف أحمد عمر (مصطفى): القبائل العربية في المغرب في عصـــري الموحدين وبني مرين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982.
- الأزرق (مغنية): نشوء الطبقات في الجزائر، دراسة في الاستعمار والتغـــيير الاجتماعي السياسي، ترجمة: سمير كرم، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، 1980.
- بوعزيز (يحي): ثورة 1871 ودور عائلتي المقراني والحـــداد، ش.و.ن.ت، الجزائر،1985.
- جوليان (شارل أندري): تاريخ شمال افريقيا، ج2، تعريب: محمد مـــزالي وبشير بوسلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1978.
- خير الدين (محمد): مذكرات الشيخ محمد خير الدين ومشاركته في جمعية العلماء وجبهة التحرير الوطني ومجلس الثـــورة الجزائريـــة، ج1، مطبعـــة دحلب، الجزائر، 1985.

- سعد الله (أبو القاسم): تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابـــع عشر الهجري (16-20م)، ج1، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1981.
- سعد الله (أبو القاسم): شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية الســـلفية، دار الغرب، ط1، بيروت، 1986.
- سعيدوني (ناصر الدين): دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية، الفترة الحديثة، ط1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 2001.
- سعيدوني (ناصر الدين): دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر -العهد العثماني-، سلسلة الدراسات الكبرى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
- سعيدوني (ناصر الدين): النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية 1800-1830، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979.
- شغيب (محمد المهدي بن علي): أم الحواضر في الماضي والحاضر (تـــاريخ قسنطينة)، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1980.
- المدني(توفيق): حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائـــر واســـبانيا، ش.و.ن.ت، الجزائر.
- نور الدين (عبد القادر): صفحات في تاريخ مدينة الجزائـــر مـــن أقـــدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، كلية الآداب، مطبعة البعث، قســـنطينة، الجزائر، 1965.
- الزبيري (محمد العربي): التجارة الخارجية للشرق الجزائـــري، ش.و.ن.ت، الجزائر.
- كبرلي (فؤاد): قيام الدولة العثمانية، ترجمة أحمد الســـعيد ســـليمان، دار الكتاب العربي، 1967.
- هاملتون (جب) و (بوون) هارولد: المجتمع الإسلامي والغـــرب، ترجمـــة: أحمد عبد الرحيم مصطفى، ط2، دار المعارف، مصر، 1971.

رابعا. الدوريات:

- ابن عمر (مصطفى): "شرفاء جبل العمور سيدي بوزيد الادريسي" مقال نشره في جريدة المساء الصادرة بالجزائر بتاريخ 2 فبراير 1989.
- بوعزيز (يحي): "المراحل والأدوار التاريخية لدولة بني عبد الواد الزيانية 1054-1236هـ"، مجلة الأصالة، العدد 26، الجزائر، 1393هـ/1975م.
- سعد الله (أبو القاسم): "رسالة العنتري القسنطيني إلى المترجم فيرو"، مجلة الدراسات التاريخية، جامعة الجزائر، عدد:01، 1986.
- الشابي (علي): "العلاقات بين الشابية والأتراك العثمانيين بتونس بين أواخر القرن السادس عشر ونهاية القرن السابع عشر"، المجلة التاريخية المغربية، العدد:17/18، تونس، جانفي 1980.
- العيد (مسعود): "المرابطون والطرق الصوفية بالجزائر خلال العهد العثماني"، مجلة سيرتا، العدد 10، معهد العلوم الاجتماعية ، جامعة قسنطينة، الجزائر، 1988.
- قشي (فاطمة الزهراء): "الحياة الفكرية في قسنطينة خلال العهد العثماني"، المجلة التاريخية المغاربية، العدد 57-58، تونس، 1990.

خامسا. الرسائل الجامعية:

- غربي (الغالي): الثورات الشعبية في الجزائر أثناء العهد التركي (1792-1830)، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، كلية الآداب، جامعة دمشق، 1975.
- سيساوي (أحمد): النظام الإداري لبايلك الشرق 1791/1830، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث غير منشورة، قسم التاريخ، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، 1988.
- القشاعي (فلة موساوي): الريف القسنطيني اقتصاديا وإجتماعيا أواخر العهد العثماني (1792-1837)، مذكرة لنيل دبلوم الدراسات المعمقة في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 1983.

02°. المصادر والمراجع باللغة الأجنبية:

أولا. الوثائق غير المنشورة:

1. الأرشيف الوطني الفرنسي مركز *Vincenne*: أرشيف وزارة الحربية (A.M.G) بمدينة باريس.
2. سلسلة (H):

H227, Notice sur la Province de Constantine.
H228: Renseignements sur l'organisation et l'administation de la province de constantine avant la prise de la ville par l'armée française, sans nom d'auteur (1839). H235: la Province de Constantine de 1839 à 1842 par le colonel de neveu.

الأرشيف الوطني الفرنسي مركز ما وراء البحار بمدينة اكس أنبروفانس، فرنسا: Ex-en-provence (A.O.M)

سلسلة **H**:

1H4: Lettres arabes de farhat ben said, de cheikh el arab bengana et de cheikh el bled ben el faggoun, (1830-1839).
1H4: cheikh el arab (Rapport sur les tribus)
1H7: Rapport sur les ben djellebs. (1851).
1H9: Martin (M), Notes sur L'historique de quelques familles de la province de constantine.
F80.1672: Rapport sur les tribus de la province de constantine.

ثانيا. الكتب:

- Auteur Anonyme: Monographie de Djidelli, Bureau Arabe de jijel, sans date.
- Histoire des Barbrousses, traduit par sander Remey et Ferdinand denis, E, Bouslama, Tunis, 1984.
- Babés (Leila): Tribus, structures sociales et pouvoir politique dans la province de Constantine sous les turcs, D.E.A, Int. S. politiques. AIX- Marseille. 1981 .
- Babés (Leila): Mythe d'origines et structures tribales dans le Constantinois sous la domination turque, Essai sur le fondement du pouvoir politique, thése pour le doctorat troisieme cycle. Etudes politiques , Univérsité Aix-Marseille, 1984.
- Ben Djaballah (souad): Etude de cas de strategies foncieres familiales dans les hautes plaines constantinoises, Th .Magistére, I.droit, U.Ctne, 1988.

- Ben Gana (Bouaziz): Une Famille de grands chefs sahariens, Les Bengana, E. soubiron, Alger,1930.
- Benmati (Menouba): Contribution a l étude du secteur Agricol de la Commune de Constantine, Th. Magistere, S.C. De La Terre, U.de Constantine, 1977.
- Berque (Jacque): Le Maghreb histoire et société, S.N.E.D, Alger, 1974.
- Berque (Jacque): Structures sociales du haut-Atlas, presses universitaires de France, Paris, 1955.
- Boulifa (S.A): Le Djurdjura atravers l'histoire (depuis l'antiquité jusqu'ά 1830) organisation et independence des Zouaouas, Bringau, France, Alger, 1925.
- Brunschvig (Robert): la Berberie orientale sous les Hafsides des origines à la fin du XVsiécle, Paris, 1982.
- Derdour (H'sen): Annaba 25 Siecles de vie Quotidienne et de lutte, 2T, SNED, Alger, 1982.
- Devoulx(Albert) : Tachrifat, Recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne Régence d'Alger, Imp. Du gouvernement général, Alger, 1852.
- Feraud (ch): le Sahara de Constantine, Notes et Souvenirs, Adolphe Jourdan, Alger, 1881.
- Gaid (M), L'Algerie sous les turcs , SNED Alger et MTE Tunis, 1974.
- Gaid (M), Chronique des beys de Constantine, OPU, Alger.
- Galissot (René) et autres: Problematique du féodalisme hors d'europe, le Maghreb précolonial, paris, 1971.
- Gouvion (E) (M): Kitab Ayanes el maghariba, Imprimerie orientale, Alger, 1920.
- Masqueray (Emile): Formation des cités chez les populations secondaires de l'Algerie, Kabiles deu djurdjura, chaouia de l' Aoures, Beni Mezab, Aix-en-provence, 1983.
- Megnaoua cherif : Le Registre du Gaid el bled de Constantine, Analyse des arrétés pris par le Gaid el bled, Cne,1929.
- Merad Boudia: La Formation Sociale Algérienne Precoloniale Essai D'analyse Theorique, O.P.U, Alger, 1981.
- Mercier (E): Histoire de Constantine, Cne, 1903.
- Nouschi (André): Enquête sur le niveau de vie des populations rurales constantinoises de la conquête jusqu' en 1916 ,Paris, 1961.
- Peyssonnel et Desfontaines: Voyages dans les régences de Tunis et d'Alger, Paris,1838.
- Rinn (louis): Histoire de l'insurection de 1871 en Algérie, Imp .jourdan Alger, 1891.

- Sander rang et Ferdinand denis, Histoire des barbrousses, T1, E.Bouslama,Tunis.
- Shaw (Thomas): Voyages dans plusieurs province de la barbarie et de levant, Paris, MDCCC,X, 1810.
- Temimi (Abdeldjelil): Le beylik de Constantine et hadj Ahmed bey (1830-1837), RHM, Tunis,1978.
- Vayssette: Histoire de Constantine sous les beys depuis l'invasion turque jusququ'à l'occupation francaise 1535-1837,Constantine, 1869.
- Venture de Paradis: Tunis et Alger au XVIII Siècle, sind bad, paris,1983.

المقـــــــالات:

- Aucapitaine(H): " Kanoun du village de Thaourart", in R.A, 1863.
- Berbrugger (A): " Notes Relatives a la revolte de Ben Sakhri" , In R.A, 1866.
- Berbrugger(A): "Un chef kabil en 1804", in R.A, 1858-59.
- Berbrugger(A): "Epoque de l'etablissement des turcs à Constantine", in R.A, 1855-57.
- BOYER (Pierre): " Historique des Beni Amer d'oranie des origines au Senatus Consult", In Revue de L'occident Musulman et de la méditerranée N ° 24, Aix-En Provence, C .N.R.S,1977.
- Cherboneau (A): "Inscriptions arabes de la province de Constantine", in R.S.A.C, 1856-57.
- Cherboneau (A): " Une Inscription arabe trouvée à Constantine ", in R.S.A.C, 1854-55.
- Feraud (ch): "Un Vœu d'Hussein Bey", In R.A, 1863.
- Feraud (ch), " Notes historiques sur la province de constantine, les Beni Djelleb",in R.A.1878-83
- Feraud (ch): "Ferdjioua et Zouara, note historique sur la province de Constantine", R.A, 1878.
- Feraud (ch): "Histoire des villes de Constantine Djidjelli", in R.S.A.C,1870.
- Feraud (ch): "Histoire des villes de constantine Bordj Bouariridj " in R.S.A.C,1871-72.
- Feraud (ch): "Kitab el Adouani", in R.S.A.C, 1868.
- Feraud (ch): "l'epoque de l'etablissement des turcs a Constantine", R.A, 1866.
- Feraud (ch): "Les Benidjellebes sultans de Tougourt", R.A, 1879.
- Feraud (ch): "Note historiques sur la province de Constantine (les Bendjelleb)", R.A, 1869.
- Feraud (ch): "Notes historique sur la province de Constantine", R.A, 1882.
- Feraud (ch): "Notes historiques sur les tribus de Constantine,les zmoul (Telgme)"in R.S.A.C 1869.

- Feraud (ch): "Notes historiques sur les tribus de Constantine, les Amamra"in, R.S.A.C ,1868.
- Feraud (ch): "Les descendants d'un personnage des mille et une nuit en Algérie", in R.A. 1875.
- Feraud (ch): "Nouveau document sur l'insurection contre les turcsen 1804" in R.S.A.C ,1873-74.
- Feraud (ch): " Monographie des Ouled Abdennour", in R.S.A.C, 1864.
- Feraud (ch): "Les Hrars seignieurs des Hanancha", in RA, 1874.
- Mercier (E): "Abd erahmen bey de Constantine en 1694", R.S.A.C, 1876.
- Mercier (E): "Constantine au 16eme siècle", R.S.A.C,1878.
- Mercier (E): "Constantine avant la conquête française 1837", R.S.A.C, 1878.
- Mercier (g):"Kanguet sidi nadji (quelque inscriptions arabes inedites)," R.S.A.C, 1915.

فهرس الموضوعات

الصراع على السلطة بين شيوخ الأسر الحاكمة وقيام الثورات المحلية

للأمانة الكتاب من مصورات الأخ هشام عمور أحسن الله إليه، والشكر موصول أيضا لكافة أعضاء موقع طلبة التاريخ تلمسان، فقط قام العبد الضعيف بتنسيقه وتخفيض حجمه وأضفنا له فهرسة لتيسير مطالعته.

أنجز طبعه على مطابع

ديوان المطبوعات الجامعية
1، الساحة المركزية - بن عكنون - الجزائر